

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

العلامة الشيخ مبارك بن محمد إبراهيم الميلي الجزائري

صورة المرأة في الغرب الإسلامي

(عصر ملوك الطوائف والمرابطين أنموذجا)

422-541هـ / 1030-1146م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الوسيط

إشراف الأستاذ الدكتور:

إعداد الطالب:

بوطارن مبارك

بلعيدى رامي

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
بوعمامة فاطمة	أ. التعليم العالي	رئيسا	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة-
بوطارن مبارك	أ. التعليم العالي	مشرفا ومقررا	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة-
شريف عبد القادر	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة الجزائر2- أبو القاسم سعد الله -
لكحل مراد	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة محمد بوضياف - المسيلة-
ديب صفية	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة-
بوخاوش مريم	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة-

السنة الجامعية: 1440-1441هـ / 2019-2020م

إهداء

إلى روح أبي الطاهرة الذي فارقتنا في الأيام الاخيرة من

إهداء هذا البحث

إلى أمي الغالية

إلى زوجتي وأولادي الذين كتبت إهداء هذا البحث على

حسابهم

إلى كل عائلتي وأصدقائي

أهدي هذا العمل

شكر وتقدير

للاستاذ الفاضل الأستاذ الدكتور بولفر الشكر والعرفان والتناء إلى الأستاذ
الفاضل الأستاذ الدكتور مبارك بوخاري الذي تفضل بالإشراف على هذه
الطروحة، وحرصه الدؤوب على متابعتي وتوجيهي، إذ كانت لدرائه وإرشاده
القيمة الأثر البارزة في إخراج هذه الطروحة بشكلها الحالي .

كما أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى رئيس وأعضاء لجنة المناقشة لما بذلوه من
جهد وعناء في قراءة هذه الطروحة ، وإبداء الملاحظات والاقتراحات التي من شأنها
أن تغني وتفيد البحث العلمي .

وسعدني أنوجه بالشكر والتقدير إلى جميع الأساتذة الذين ساهموا في مساعدتي في
مسار البحث وإلى كل من مد لي يد العون والمساعدة، وكل النحبة والشكر إلى العاملين
في مكتبنا العامة والخاصة لما قدموه من مساعدة وتسهيل

ومن الله التوفيق.

المقدمة

مقدمة:

مافتتت دراسة الحياة الاجتماعية تثير اهتماما متزايدا لدى الباحثين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي، إلا أنها لا تزال حديث عهد على الدراسات التاريخية، وتصبح هذه الحقيقة جلية عندما يتعلق الأمر بالمرأة في الغرب الإسلامي الوسيط، سيما أن المرأة شاركت الرجل في معظم أمور الحياة العامة وحيثياتها.

ومما لاشك فيه أن المرأة كان لها دور هام في بناء صرح الحضارة، لا على مستوى الأسرة فحسب، بل في كل مناحي الحياة؛ فهي في كل أحوالها وظروفها مظهر من مظاهر الرقي في المجتمعات أو تراجعها وانكفائها، وتاريخ المرأة في الغرب الإسلامي الوسيط؛ أما كانت، أو أختا، أو بنتا، أو حتى حبيبة، مرتبط في الحقيقة بتاريخ الرجل ارتباطا عضويا، والإثنان ساهما كل بطريقته في صنع أحداثه، لكن المرأة لا تظهر في الاسطوغرافية التاريخية للغرب الإسلامي بشكل جلي واضح، وحتى عندما تسعفنا المصادر ببعض الإشارات عن حضورها المتميز، فإن ذلك يتم دون مستوى التركيز الذي يتم على أدوار الرجال، وهكذا تظل المعلومات المتوفرة في المصادر عنهن عمومية تفتقر إلى الدقة، غير مقصودة بالتدوين لذاتها، واردة بشكل عفوي، ضمن حديث أعم؛ يتعلق بتاريخ الرجال من الحكام والامراء والمتنفذين وحملاتهم العسكرية، إلى كرامات الأولياء ومناقب الفقهاء والعلماء، حتى وإن رشحت بعض المسائل المتعلقة بالنسوة في المظان المختلفة، إلا أنها لم تبرح في الغالب الأعم التأطير النظري دون مراقبة لوضع المرأة في بعدها التاريخي، والغوص في تفاصيلها وجزئياتها وحوافرها وعواقبها.

وكان الرجل في الغالب هو الذي كتب تاريخ الغرب الإسلامي، خاصة تاريخ دول الطوائف والمرابطين، بما شمله امتداد هذين الدولتين من أقاليم الأندلس والمغرب الأقصى وأجزاء من المغرب الأوسط، فانعكس ذلك على نظرتة اتجاه المرأة التي خضعت في المجمل إلى نفسية الرجل وتكوينه العقلي، وما اكتسبه من ثقافات وعادات وتقاليد دينية واجتماعية، وجاءت تلك النظرات مختلفة ومتعددة، ومتقاطعة، ومنقسمة على نفسها إلى حد التناقض أحيانا، لأن بعض صفات المرأة مرغوبة عند البعض وغير محببة لدى آخرين، وحديث الرجل عن المرأة بعيد نسبيا عن البراءة، فهو ينظر إليها سواء في أفعالها أو أقوالها أو حركاتها وإيماءاتها بنظرتة الخاصة، إنه يعطف عليها ويقدر دورها في الأسرة، ولكنه ومع ذلك وفي الغالب الأعم لا يتمالك أن يحكم عليها كمخلوق ضعيف هش، لا يوثق بصلابته وصرامته أمام الأحداث والمغريات، ولقد كان لطغيان هذه التمثل

على الواقع الحقيقي نتائج خطيرة، إذ كرس لتمايز جندري، وأخفت بموجبها معالم الصورة الحقيقية، فصورة⁽¹⁾ المرأة هنا تعني مجموع ما تخمر من رؤى على اختلاف مستوياتها من المجتمع بجميع عناصره وطبقاته اتجاه المرأة التي تعيش في الغرب الاسلامي بغض النظر عن طبيعتها أو طبقتها أو ديانتها، بما فيها نظرة المرأة للمرأة ذاتها، ويمكن بذلك القول أن الأحكام تراوحت بين التثمين والتبخيس، الدونية والسمو، ويمكن حصرها بين الصورة الايجابية أو السلبية.

ولا يخفى أن صورة المرأة والنظرة إليها وليدة عوامل اجتماعية كثيرة ومؤثرات بيئية معينة، تعمل متضافرة على تلوين العرف والعادات والتقاليد، فتؤثر بدورها في النظرة نحوها، ولعل ذلك يعتبر استمرارا لواقع موروث عن القرون السابقة، كجزء لا يتجزأ من ذهنية المجتمعات المشرقية، التي كانت ولا زالت تتعامل مع المرأة بكثير من الحساسية والحيلة والحذر، لذا فقد تراوحت هموم واهتمامات الرجل في نظره وصورته للمرأة بين ما هو مباشر يخص حياتها داخل الأسرة الصغيرة، وما يرتبط بصورتها خارج منزلها كعنصر فاعل ومتفاعل مع باقي مكونات المجتمع.

ولأن طرح المواضيع التاريخية ذات الصبغة الاجتماعية؛ بما تشكله من انفتاح على المصادر الدفينة كالنوازل والعقود، إضافة إلى التراث اللامادي، والمزيد من الفلترة للمصادر التقليدية مطلب هام في الكتابة التاريخية، وموضوع يسترعي الانتباه في نفس الوقت، فرغم تباين الرؤى حول أغلب النساء في وجدان مجتمع الغرب الاسلامي، فإنها لم تبد للعيان بذلك الوضوح والانقشاع، ولاكتشاف تلك الصور المنعكسة من حضورها في الأدوار والفعاليات التي قامت بها المرأة في الغرب الاسلامي، وقع الاختيار على هذه الدراسة المتواضعة الموسومة بـ "صورة المرأة في الغرب الاسلامي" عصر دول الطوائف والمرابطين أنموذجا (422-541هـ/1030-1146م).¹

ويعزى اختيار الإطارين الزماني والمكاني للموضوع إلى وقوعها في منطقة مركزية من العالم الاسلامي تتداخل فيهما مؤشرات الحياة تارة، وتختلف طورا آخر، بل كانت في قلب التحولات الكبرى التي عرفتتها منطقة الحوض

¹ دخل مفهوم الصورة في حقول معرفية متعددة، من علم الاجتماع إلى علم الانتروبولوجيا، وحتى علم النفس والتاريخ، وتعني الصورة ذلك البناء الذهني الذي يحمل التصورات والانطباعات التي يعاد إنتاجها من قبل الذهن لموضوع معين مغاير في الغالب، ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الصور عبارة عن مستنسخات أو أحكام قومية حول الآخر فقط، بل إنها تنسج كذلك حول الأنا، ذلك لأن الحديث عن الآخر يضمن في أعماقه خطابا عن الذات. للاستزادة حول الموضوع انظر: مليكة نجيب، المرأة في الرحلة السفارية المغربية خلال القرنين 18-19م، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2014، ص 63-74.

المقدمة.....

الغربي للبحر الأبيض المتوسط، خاصة أن الأندلس الإسلامية التي استغاثت من هجمات النصارى في الشمال غدت في وقت ما جزءاً لا يتجزأ من دولة المرابطين التي انتهت بسقوط مراكش في يد الموحدين وما شكله من منعرج في حضور المرأة، فارتبط تاريخهما ومصيرهما ببعضهما البعض، كما كانت الفترة في نفس الوقت مرحلة انتقالية خلفت تلك الانعطافات الكبرى والتغيرات الحاسمة لا في الجانب السياسي فحسب؛ من اختفاء السلطة المركزية التي انتهت بسقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ/1030م وانتكاس القوة الإسلامية مرات عديدة، بل وإلى عمق التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي أرخت بظلالها على المرأة كما الرجل، وعلى النظرة إلى الأنثى بشكل خاص.

إشكالية البحث:

لامراء في أن تاريخ النساء جزء أساسي من التاريخ الاجتماعي للغرب الإسلامي، أثرت فيه وتأثرت به، بحكم موقعها المتميز في الحياة العامة، وإنطلاقاً من ذلك فإن البحث في موضوع صورة المرأة في الغرب الإسلامي في عصر دول الطوائف والمرابطين يمنح الفرصة لطرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى تنوعت وتعددت وتمددت صورة المرأة في مجتمع الغرب الإسلامي عصر الدراسة؟.

ويعني تنوع الصور في هذا الموضوع مختلف النظرات حولها، من قبيل نظرة الاحترام والازدراء، الكراهة والحب، الحظوة والتهميش، الغيرة والغبطة، وسمات الخائنة والوفية، أما التعدد فيممس التقسيمات المختلفة للمجتمع كالتبقي مثل الخاصة والعامة أو الإثني مثل البربر والعرب والصقالبة، أو حتى الديني المذهبي مثل المسلم والذمي، السني وغير السني، ومختلف التقسيمات الأخرى إن وجدت.

أما تمدد الصورة فيشير إلى حالات التداخل والتقاطع والتأثير والتأثر البسيط أو المركب في صور المرأة بين دول الطوائف ذاتها، أو مع المغرب الإسلامي.

والواقع أن هذه الإشكالية تتضمن أسئلة فرعية عديدة أهمها:

- ما هي النظرة التي نقلتها لنا إسطوغرافية المرحلة المدروسة عن المرأة في الغرب الإسلامي؟ وهل اختلفت من مضان إلى أخرى؟.

- هل تباينت هذه الرؤى بين مجتمع الطوائف والمرابطين؟ أم أن الاختلاف شمل مجالات محددة بعينها؟.
- أكان تعدد الصور المبتوثة للمرأة أما كانت أو زوجة أو أختا وابنة مرتبطا بذهنية فقهية وسلطان العرف، أم أنها تتعدى ذلك؟.
- ما هي دلالات هذه الصور وانعكاساتها على واقع المرأة في الأسرة والمجتمع؟
- أمن المعقول أن هذه الصور كانت نتيجة لخروجها من منزلها وولوجها أغلب فعاليات الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية؟.
- هل كان جميع الرجال ينظرون بنفس النظرة للمرأة على اختلاف طبقتها ومكانتها ومعتقداتها وعمرها؟.
- هل ساهمت المرأة وحدها في صنع هذه الصورة بشقيها الإيجابي أو السلبي، وكيف كان موقف المرأة نفسها من هذه الصورة ؟ .
- وأخيرا ما هو مدى تقاطع هذه الصور وانفصالها عن بعضها البعض، و عن نظرة المجتمع لمثيلاهما في المشرق في نفس الفترة؟.

أسباب اختيار البحث:

ساهمت عدة عوامل في اختيار عنوان البحث موضوعا للدراسة، منها ما هو ذاتي و منها ما هو موضوعي، أما الدوافع الذاتية فقد تمثلت في ميلي الشديد لدراسة التاريخ الوسيط والتاريخ الاسلامي بالخصوص، انطلاقا من مرحلة اليسانس إلى الماجستير، والذي لامست بعض ملامحه في أمهات الكتب التراثية التي لفتت الانتباه بقله ما رشح حول المرأة من صور وتمثيلات، أما الموضوعية فالبحت في الموضوع لم يلق حقه من لدن الدراسات التاريخية التي اهتمت بموضوع الذهنيات، وتعرضها للمرأة في بعد واحد مقترن بالأسرة، رغم ازدهار فن التراجم الذي برع فيه المسلمون عصرئذ، ثم إنه يمكن وفي غاية اليسر ملاحظة غياب الحديث عن صورة المرأة إلا لماما، مما ولد الرغبة في تخصيص دراسة أكاديمية مستقلة تقدم صورة واضحة عن النظرة إلى المرأة في الغرب الإسلامي في مختلف المجالات وبشقيها المقدس والمدنس، الايجابي والسلبي على اختلاف درجاته، تكون لبنة أولى ومحاولة تدفع قدما بحقل تاريخ الذهنيات في الدراسات الأكاديمية الجزائرية، إذ على الرغم مما كتب

فيها إلى حد الآن، تبقى الحاجة ملحة إلى المزيد من الإسهامات التي تنير جوانب ظلت غامضة في حياتها، لكون صورتها تحتل قراءات ذات مستويات متعددة.

كما أن هذا النوع من الدراسات جاء عرضيا دون قصد، في فروع العلم الأخرى كعلم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع الأسري والأدب، لكنها لم تلق قدرا من الاهتمام من لدن علماء التاريخ، لأن الحديث عن المرأة بقدر ما هو عذب شيق بقدر ما هو شائك، فالأسئلة حول المرأة ومكانتها وحريتها وموقع الإسلام من كل ذلك، مازال مثار نقاش حتى اليوم، وهو ما يجعل النظر في صورتها في مرحلة من التاريخ الإسلامي ضرورة معرفية في محاولة للبحث عن جزء من الأجوبة عن أسئلة الحاضر في أحداث الماضي، لأن منطلق النهضة بأوضاع المرأة لا يقتضي فقط التركيز على العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية، بل الاهتمام أساسا بتغيير الذهنيات، والذي لا يتأتى إلا بفهم عقليات الماضي لاستنكاه عقلية الحاضر ثم المستقبل، ولعل إدراك مدى مساهمة ذهنية مجتمع الغرب الإسلامي في تطور النظرة للمرأة من عدها منذ العصر الوسيط، والوقوف على متغيرات صورة المرأة خلال حقبة الدراسة، بتقلصها أو اندثارها أو تطورها، وانعكاس روافدها على نسوة اليوم معبر أساسي لهذا الاختيار.

الدراسات السابقة:

لقد أنجزت في هذا الموضوع دراسات وأبحاث عدة، لكنها في مجملها -حسب اطلاعي- ركزت على الأندلس، أو جاءت مجملة لفترة زمنية طويلة يصعب معها رصد تطورات النظرة للمرأة، كما ارتبطت في مجال آخر بالحقول الملامسة للتاريخ كالأدب والأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا وعلم النفس، لذلك كانت منطلقاتها ومراكزها تختلف مع هذه المحاولة، ثم إن هذه الدراسة تكتسب فرادتها من تطرقها إلى موضوع المواقف والرؤى من الأدوار النسوية لا الأدوار نفسها، ولعل من أهم الدراسات:

- كتاب راوية عبد الحميد شافع الموسوم بـ " المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط قرطبة"، والذي أفاد في التعرض لمختلف أدوار وفعاليات المرأة في الأندلس، وبالتالي تسهيل التقاط مؤشرات رؤى المجتمع، لكن تخصيصه لنطاق الأندلس في نطاق زمني خارج إطار الدراسة قلص من مجال الاستفادة منه.

- مجموعة المقالات المتضمنة في العدد 13-14 من مجلة أمل المغربية، والتي تراوحت بين التأريخ للمرأة في العصر القديم مروراً إلى الوسيط وحتى الحديث والمعاصر، وكانت الإفادة متفاوتة من مقالة إلى أخرى، رغم تهميشها للوعاء السياسي، وتركيزها على الوعاء الاجتماعي الذي كان له الحظ الوافر.

- كتاب صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني لعللي أفرار، والذي عالج فيه نظرة الدين والأمثال الشعبية للمرأة من منطلق سوسيولوجي نفسي، وفائدته في منهجه الصارم، لكنه تجاوز الفضاء الزماني والمكاني المدروس، بالإضافة إلى ندرة تناوله للنظرة نحو المرأة في الحياة السياسية والاقتصادية وحتى الثقافية .

- أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط أعدتها عبد الشكور، نبيلة تحت عنوان " إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية التاسع للهجرة " إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، 2013، حيث أفادت الموضوع عند تعريجها عن مختلف مظاهر حضور المرأة في التراث اللامادي، ورسمها خطاً كرونولوجياً للأحداث السياسية التي ساعدت في تتبع صورها، إلا أنها أهملت حضور المرأة الاقتصادي والديني بالخصوص عصر الدراسة.

-مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي لحميدي مليكة موسومة ب" المرأة المغربية في عهد المرابطين " إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2001-2002، وأسهمت في خدمة الموضوع من شتى الجوانب خاصة السياسية والعسكرية، بما أوردته من نماذج لبعض النسوة اللاتي بلغن شأواً في الحياة العسكرية، وبعض لقطات الجانب الأسري، إلا أن تعرضها للمرأة في الوعاء الديني وحضور صورة الجسد الأنثوي كان خافتاً.

-أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط معنونة ب" الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الإسلامي الى سقوط غرناطة" للباحثة مليكة حميدي، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر2، 2013-2014، وعلى الرغم من غرف البحث منها في شتى المراحل، لكن حضور صورة المرأة كان خافتاً سيما في المجال الاقتصادي، ناهيك عن توسع فترة دراستها، والتي جعلتها تقع في تجاوز بعض أوعية المرأة عصر الطوائف.

أهداف البحث:

لا شك أن لدراسة صورة المرأة في الغرب الإسلامي عصر الطوائف والمرابطين معان كبرى، سواء بالنسبة للتاريخ الإسلامي بصفة عامة، أو لتاريخ الغرب الإسلامي بصفة خاصة، حيث تسعى بشكل أساسي إلى محاولة ملامسة ورصد الصورة الحقيقية للمرأة في مجتمع الغرب الإسلامي من خلال النش في المصادر والنصوص، كمقدمة تشكل مدارا للعديد من البحوث والدراسات تمهد للشروع في كتابة تاريخ للمرأة في العصر الوسيط، باستلهاهم ماضي الأمة وتفهم بنياته العميقة للخروج من الواقع المضني الذي تتخبط فيه الشعوب العربية الإسلامية.

و كان تيسير عملية البحث للمؤرخين من ناحية أخرى مراد الدراسة، بتوفير نصوص متناثرة وموزعة لهذا الموضوع، وترتيبها منهجيا في أوعية متعددة، تسهم في إمالة اللثام عن بعض القضايا النسوية كما يدركها المجتمع، كما تروم الدراسة في مجال آخر إلى تتبع وفهم وتعليل ذهنية مجتمع الغرب الإسلامي إزاء نظرتة للمرأة، من أجل الإمام بخصوصيات هذا التفهم من حيث الثابت منها والمتغير، ما من شأنه المساهمة في تأييث الفضاءات التاريخية وإبراز شخصية الدولة الإسلامية في الغرب الإسلامي، ولعل من أهم الأهداف المنتظرة الخروج من نمطية بعض التصورات والأفكار المسبقة والتعميمات والمسلمات التي ربطت صورة المرأة بالغواية والرقص والحريم في فترة الدراسة، في ظل عودة السجال مرة أخرى في العالم العربي والإسلامي عن المرأة باعتبارها مكبوتا دينيا لا ينبغي تحريره، أو التيار الموازي المنفتح الذي يرى تفتحها مصدر كل خير وتقدم، في زمن فرضت، أو تسعى فيه المرأة الغربية لفرض صورتها كنموذج لا مفر منه، وهو ما يحتم مساءلة صورة المرأة لرصد تحولاتها بالعودة إلى التاريخ الوسيط.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع إتباع منهجية تاريخية متنوعة بتنوع مضامين الفصول، لاتساع الموضوع في حد ذاته، ولأننا أمام كائن حي يعيش بيننا، ومازالت ترسبات الماضي تؤثر فيه بدرجات متفاوتة؛ فالظروف العامة لدولة الطوائف والمرابطين جعلت البحث يعطي أهمية بالغة لتوضيح كل المسارات والتحويلات الهادفة لتتبع صورة المرأة، مما سمح بإتباع آليات المنهج التاريخي الملائم لهذا النوع من الدراسات والبحوث، عند ترتيب وعرض الأحداث التاريخية المتعلقة بتلك الفترة ووصفها، كما تم اعتماد المنهج الاستقرائي للخروج برؤية موضوعية تخدم

البحث وتعميمها؛ عند جمع الاختلافات والآراء خاصة حول رؤى المجتمع بمختلف فئاته وتحليلها لاستخلاص نتائج موضوعية حول موضوع الدراسة، وأفاد الموضوع أحيانا من المنهج الإحصائي عند رصد نماذج لصور المرأة بترجمتها ومعالجتها إلى رسوم تخطيطية وتفسيرها رياضيا حتى تسهل دراستها، كما طعم الموضوع أحيانا بالمنهج المقارن عند موازنته بين العدوتين في كل ما تعلق بصورة المرأة، أو غيرها من الكيانات المجاورة عصر الدراسة، وعند معالجة ثنائياتها الكبرى التي حكمت مسارها.

كما إرتأى الموضوع في تعامله مع المعطيات والنصوص تفادي الإكثار من تعريف الأعلام التاريخية التي تعددت وتنوعت وشملت كل صفحة من النص تقريبا، والاقتصار على ذكر تاريخ الميلاد والوفاة أو فترة الحكم إلا في ما بدا ضروريا للبحث، ثم الالتزام بذكر تاريخ الميلاد والوفاة فقط عند المرة الأولى، لأن أغلب الشخصيات النسائية تتكرر على مجمل فصول البحث، حتى لا يتضخم الموضوع ويخرج عن مسعاه الأساسي.

صعوبات البحث:

إن أي عمل علمي لا يخلو من صعوبات يعرفها من تضرع مشاق البحث، ولعل أولى وأهم الصعوبات ما تعلق بالهندسة الشكلية للموضوع، كيف تصاغ خطة ملائمة ومحكمة البناء في ظل التقاطع والتداخل الكبير بين صور المرأة في عصر الدراسة، تداخلا يصعب الفصل أحيانا، فانطباع واحد قد تجد له صدى في جميع الأوعية بجدة أكبر أو أقل، وهذا التقاطع شكل أكبر هواجسي على طول البحث، في ظل شبه غياب صوت المرأة الذي زاد من تحديات البحث، ولعل قلة المراجع المتخصصة التي تناولت مواضيع على هذا المنوال زادت من هذه الصعوبات، ناهيك عن شح المعلومات المتعلقة بصورة النساء عموما في ثنايا المصادر، مما استوجب القراءة المتأنية مرارا وتكرارا لتلقف موقف اتجاه قضية معينة، ثم إن جيوبا وفراغات تاريخية لم يجد لها الموضوع مظانا في العصر الوسيط، حتمت في بعض الأحيان تقديم عجلة التاريخ إلى الأمام أو إرجاعها إلى الوراء لاستلهاام حالات مماثلة وإسقاطها على العصر الوسيط، ومع إدراك مزلق هكذا طرائق، إلا أن المنهجية الصارمة والتي تعتمد على فرضية بطئ تحولات بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية وفق منطق الزمن الطويل الذي جاء به فرناند بروديل مسوغ لهذا الإجراء.

عرض الموضوع:

إن طبيعة الدراسة وإملاءات منهجها اقتضت تقسيم البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وملاحق وفهارس، ففي المقدمة عرفت بأهمية الموضوع وإشكاليته والمنهج المتبع والصعوبات والفصول، وأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت في البحث.

أما الفصل الأول فقد أُفرد للإحاطة بصورة المرأة في الوعي السياسي، متناولا في مبحثه الأول عصر ملوك الطوائف، معرجا على أهم الدويلات التي عرفت بها، مستهلين هذا المبحث بإمارة بني زيري بغرناطة والتي شهدت حضورا قويا لصورة الأم المستشارة والمرييات، وما خلفه استعمال اليهود في وزارات سيادية على رؤى مختلفة للمرأة إيجابا وسلبا، ليتوجه نحو إمارة بني عباد باشيلية الذي تعددت فيه صور المرأة رغم قوة وجبروت حكامها، فظهرت اعتماد الرميكية المستشارة السياسية والإدارية، ناهيك عن تبلور صورة البنت الأسيرة، ثم ينتهي بباقي دول الطوائف التي ظهرت فيه لقطات للمرأة تتدخل في تولية المناصب والمحافظة عليها في دولة بني حمود، إلى صورة المرأة الجاسوسة عند الكلام عن صاحب دانية علي بن مجاهد العامري، مروراً بصورة المرأة المفضوحة في التوسعات الداخلية والخارجية عصرئذ، أما المبحث الثاني الذي إختص بصورة المرأة في عصر المرابطين، فقد عرج فيه على صورتها داخل الأسرة المرابطية الحاكمة أولاً، مستعرضاً أهم النماذج النسائية التي كان لها صدى في المنطقة، سواء في مراحلها الجنينية كما هوة الحال عند زينب النفزاوية، والمكانة الإدارية التي بلغتها الحرة حواء زوجة سير بن أبي بكر والي المرابطين على إشبيلية، أو مراحل متأخرة من عمر الدولة عندما سيطرت قمر على الأمير علي بن تاشفين وتدخلت في ولاية العهد وبعض الأمور العسكرية، وبروز فارسات محاربات أيام توسع الموحيدين، ليتحول إلى رصد صورة المرأة خارج نطاق الأسرة المرابطية، سواء كان من الأصدقاء أو الأعداء.

وفي الفصل الثاني المعنون بصورة المرأة في الوعي الاقتصادي، فتم التركيز في مبحثه الأول على أهم المهن المتعلقة بالخدمات الاجتماعية، من قبيل القابلة، والمرضعة، والمربية، والماشطة، والطاهية، إضافة إلى المتسولة على إمتداد منطقة الغرب الاسلامي، ثم عرج في المبحث الثاني عن نوع آخر من المهن المرتادة من النساء والتي تعلق بكل ما هو ترفيهي موساتي، ومختلف الرؤى والمواقف حولهن، مثل القوادة، والعاهرة، ناهيك عن العرافة، وحتى النائحة، ثم تم التطرق في المبحث الأخير إلى صورة المرأة في المهن الإنتاجية البحتة، ورصد مختلف نظرات المجتمع وأهل الصنعة من حضورهن، فكانت الفلاحة والمزارعة أول ما ابتدأ به المبحث الأول، مفرزين

بين نظرة أهل البادية وأهل الحضر لنشاط هؤلاء وعوامل ذلك، ثم عرج الموضوع في نطاق آخر على صورة التاجرة التي كانت أكثر ظهوراً كمنظور إليها وفق موقعها والوسط الذي تعيش فيه، ناهيك عن الطريقة التي تربت بها أو عليها سواء بالاستقلال أو الاعتماد على غيرها في تدبير شؤونها، ليكون المبحث الثالث رهنا على صورة الناسجة والغازلة التي كانت أكثر المهن انتشاراً عند شريحة العامة.

ولما كان الفصل الثالث تحت عنوان صورة المرأة في الوعاء الثقافي والديني، فقد ابتداءً بصورة المرأة في حقل التربية والتعليم، متضمناً النظرة إلى المتعلمة سواء أبناء الطبقات العليا أو حتى الدنيا انطلاقاً من محيطها الصغير والمتمثل في الأسرة إلى محيطها الأكبر والذي يشمل المجتمع، ليصل المبحث إلى مستوى المعلمة من الأحرار أو الجوّاري، في البوادي والمدن، سواء معلمة للنساء أو حتى للرجال، والتي اختلفت المواقف من حضورها سلباً وإيجاباً بين شرائح المجتمع، ليعرج المبحث الثاني على رؤية المجتمع للأدبية والفنانة، بكل ما يشمل النوع الأول من ضروب الأدب كالشعر والنثر والعروض والأزجال والموشحات، والذي كان محط تنوع وتمدد في الصور، انطلاقاً من ولادة وغاية المنى وغيرهن في عهد الطوائف، إلى غاية الحرة حواء بنت تاشفين وحمدونة وأختها زينب في العهد المرابطي، أو ما تضمنه وجه الفنانة من خط ورسم وعمارة وموسيقى، والذي كان محط تميز ومواقف مشرّفة لنسوة الغرب الإسلامي، واختص المبحث الثالث والأخير في هذا الفصل بصورة المرأة الفقيهة والصالحة وكل ما يمت بالحقل الديني، لاسيما من تعلقت منهن بالفقه والدراسات القرآنية، مثل طونة بنت عبد العزيز بن موسى، وريحانة التي مهّرت في القراءات، ناهيك على من نهجن طريق الصلاح والتقوى والأخلاق، من المحسنات والزاهدات المتصوفات، وكيف حكم عليهن من طرف رجال مجتمعهن، في حياتهن وحتى عند مماتهن.

أما الفصل الرابع والأخير الذي يمثل أكبر الفصول والموسوم بصورة المرأة في الوعاء الاجتماعي، فجاء على حصر صور المرأة في مؤسسة الأسرة في المبحث الأول، سواء أما، أو بنتاً، أو أختاً وقريبة، لأنهن مركز العائلة الصغيرة، لتتأرجح معهن العلاقة مع المجتمع الصغير والكبير بين الود والقطيعة، وكانت هذه العلاقة المنفذ الأساس أولاً وأخيراً على تنوع صورهن، ليتوجه الموضوع نحو صورة الزوجة، سواء قبل البناء؛ في كل ما يتعلق باختيار العروس وتحضيرات الزفاف، أو في أنثائهن؛ وفي كل ما يتعلق بالعلاقة بين الزوجين إيجاباً وسلباً، أو حتى بعده، والتي تعد السمة الغالبة على صفة المرأة في هذا الموضوع، والأكثر تداولاً في المصنفات المتاحة، سواء من الحرائر أو الإماء، رغم تقاطعها الشديد مع مؤسسة الأسرة على اعتبارها جزءاً لا يتجزأ منها، ذلك أن الرجل

الذي كتب وروى حولها، ونظر وقارن، ثم ترك انطبعا، ركزه حولها بالأساس، كما هي من ناحية أخرى مدار الالتصاق بالرجل في مدة طويلة من حياته، لذلك كانت أسباب الفصل عن مؤسسة الأسرة أولى من أسباب الجمع، في حين خُصّص المبحث الثالث لجمع مختلف الصور المتفرقة للمرأة في الحياة المجتمعية والتي لم تتناول سابقا، فكانت صورة المرأة الشيطان المغوية من أكثر الصور رسوخا وتكررا وتمددا بين العدوتين، فاعتبرت قاطع ممتد من المجتمع مصدر شقاء وتعاسة، في حين وقع البعض في ثنائية الجارة المكشوفة والحرمة، وتطلع البحث إلى رصد صورة المرأة المساحقة بين الحرمان والتطرف الجنسي على اعتبارها من المواضيع اللامطروقة والمسكوت عنها، كما حفل الموضوع بتتبع صورة المرأة الكبيرة، لا عند غيرها من شباب وشيوخ الرجال، بل عند العجوز ذاتها، ليعرج إلى بث صور متعددة حول تفهم الجسد الأنثوي وثنائية المتعة والخطيئة، ليمر على التقاط الرؤى نحو المسيحية والجارية، وحتى السجينة والمغتصبة.

وكانت الخاتمة حوصلة لأهم النتائج المتوصل إليها في البحث، وذُيّلت بمجموعة من التوصيات، بالإضافة إلى الملاحق والفهارس التي تكمل البحث وتفيد الباحث والقارئ.

عرض المصادر والمراجع:

لاشك أن إقبال الباحث على استجلاء صور المرأة سيتطلب مراجعة مجموعة من المصادر والمراجع على تنوع اتجاهاتها وفنونها، سواء منها التاريخية، أو كتب الجغرافيا والرحلات، إضافة إلى المصنفات الفقهية، مروراً بكتب التراجم والآثار، ناهيك عن كتب الأدب، لإفتكاك مادة تثري الموضوع وتدعم طروحاته، مع الإشارة أن البحث لم يجد مصنفا من هؤلاء يجمع كل ثناياه، فكان كل مصدر معبرا للقطات تكمل من مضان أخرى لتظهر الصورة العامة للبحث، كما طعم الموضوع بعدد من المراجع الحديثة من كتب ودوريات ورسائل جامعية كان لها الأثر الطيب في إمطة اللثام على بعض القضايا الشائكة، وتبقى الاستفادة متفاوتة من موارد إلى أخرى حسب قربها من الحدث وصلتها بالنساء، ودرجة التعبير عن الانطباع حولهن، ولعل من أهم المصادر والمراجع:

1-المصادر:

أولا- كتب التاريخ العام والمحلي:

كان للمصادر التاريخية الأثر الطيب في بناء الدراسة، فمن خلالها وقف البحث على مجموعة من أخبار النساء هنا وهناك تجلي صورتهم، سيما ما ارتبط بالجانب السياسي.

وتعد مذكرات عبد الله بن بلكين آخر أمراء غرناطة والمسماة بـ "كتاب التبيان" مصدرا لا غنى عنه، لا في التأريخ المحلي لدولة بني زيري في غرناطة فحسب، بل لدول الطوائف الأخرى، رغم أن الكتاب يعبر عن وجهة نظر خاصة لأحداث القرن 05هـ/11م، وبدايات تدخل المرابطين في الأندلس، إذ عرّج فيه على نصوص هامة على وزن أمه في الحياة السياسية والعسكرية، ناهيك عن تعرضه للمحات من عالم الحرّيم داخل القصر الغرناطي وتوظيفهن في الجوسسة وتدير المؤامرات، واستغلالهم من جانب اليهود الذين استبدوا بالحكم من خلال المرأة.

ولم يكن وفاء البيذق صاحب مصنف "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" والذي رافق ابن تومرت وكان أحد تلامذته؛ بل وصنع بعض الأحداث التي عرضها في مصنفه، حاجزا أمام اعتماد هذا المصدر، لخصوبة المعلومات التي جاء بها عن صور المرأة، فقد أفاد هذا الكتاب في التعرف على صور المرأة في أواخر العصر المرابطي أثناء دعوة الموحدين، مع التركيز على المنكرات اللاتي جئن بها، إضافة إلى تعرضه لوزن الأم من خلال التسمي بهن، وإلى جلد وقوة بعض الفارسات المرابطيات.

وتأتي أهمية كتاب "الذخيرة" لابن بسام الششتري (ت542هـ/1147م) من اعتباره موسوعة تاريخية تتضمن في طياتها تراث القرن 5هـ/11م، حيث أمد الموضوع بلقطات هامة عن بعض الأحداث التاريخية التي خلفت خلالها صورا للمرأة في عصر الطوائف، من قبيل التعرض للعلاقة بين المعتمد والريكية، وأبياتا شعرية لبعض شاعرات المغرب والأندلس، وملامح من جمال نسوة الأندلس.

وعند ابن الكردبوس (عاش في القرن 6هـ/12م) صاحب مصنف "تاريخ الأندلس" تظهر أولى أمارات التعصب للموحدين على حساب المرابطين، فعبّر عن ذلك بمناسبة تعريجه على القادة والولاة المرابطين الذين انتسبوا لأمهاتهم، وهو ما أفاد منه الموضوع في تتبع وزن الأم عموما.

وحمل كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي (ت647هـ/1249م) نفس الميول الموحدية، ورغم ذلك فقد ساهم في التأريخ للنواحي السياسية بين الفترة الانتقالية للطوائف والمرابطين، وتعرض لسطوة النساء على رجال الدولة في أواخر دولة الملتهمين.

أما مصنف "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذارى المراكشي (كان على قيد الحياة سنة 712هـ/1312م) فتكمن أهميته من استيقاء معلوماته من روايات معاصرة لأحداث الدراسة، من قبيل

الإشارات القيمة حول صورة المرتدة، وتبرز أهميته أكثر في الجزء الرابع الخاص بالمرابطين، والذي تعرض فيه لوجه المرأة السياسية وسلطتها على الزوج الأمير، إضافة إلى تعريجه على وجه الأدبية المرابطية.

وتعددت أوجه الإفادة من مصنفات ابن الخطيب (ت1374/776) المتنوعة، فقد رشف الموضوع من نصوصه القيمة المدرجة في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" حين التعرّيج على صور المرأة في المجال الفني سواء الغناء أو الخط، ناهيك عن "كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام"، الذي حشد معلومات ضخمة عن الجوانب السياسية والعسكرية والإدارية، وحضور المرأة من خلالها.

ولعل أهم الكتب المغربية التي أفادت البحث بطريقة مباشرة مصنفات ابن خلدون (ت808هـ/1405م) سواء في "المقدمة"، عندما فسر نظرات المجتمع اتجاه بعض المهن النسوية الترفيهية، وإسقاطات فلسفته على تفهم صور النساء بين الريف والمدينة، أو معلوماته الفريدة في كتابه "العبر" التي تجاوزت الحديث عن عناصر السكان في المغرب وأهم القبائل، إلى تناول شخصيات نسوية فاعلة في المراحل الأولى للدولة المرابطية كزينب النفزاوية، ومختلف الصور المبثوثة حولها، وتعريجه على دور شيوع المنكر عند نسوة أواخر المرابطين في حمل مسوغات التمرد والثورة.

وشكل كتاب "نفح الطيب" لمؤلفه أحمد بن محمد التلمساني المقرئ (ت1041هـ/1631م) مصدرا هاما لأقاليم الأندلس وصفات شعوبها، تتخللها ومضات عن التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمنطقة الأندلس والمغرب، بما فيها المرأة والصور المبثوثة حولها، معرجا على تراجم هامة لعالمات وشاعرات وأدبيات عصر الدراسة، كانت لهن نظرة خاصة في مجتمعهن.

ثانيا- الكتب الفقهية:

تنوعت المصنفات الفقهية بين كتب النوازل والفتاوى والحسبة والوثائق، وتعتبر بحق من مرتكزات الموضوع، سيما ما تعلق بالحياة اليومية للنساء وتعاملاتها في إطار محيطها الصغير أو الكبير.

1- كتب النوازل والفتاوى والأحكام:

تناولت هذه المصادر مجمل القضايا التي تحتاج أن يفصل فيها وفقا للشرعية الإسلامية، وتكمن أهمية هذا النوع من المطان في ارتباطها بتلقائيتها وتعلقها بنبض الحياة الواقعية للمرأة في المجال الاجتماعي والاقتصادي

المقدمة.....

للغرب الاسلامي، وفتحها بابا للخروج من النمط السكوني ومأزق الحديث عن المرأة وكأنها ليست كائنا جديرا بالتأريخ، خاصة أن جزءا معتبرا من مؤلفيها عاشوا في فترة الدراسة، لذلك اعتبرت معينا أساسيا ومحوريا في الكثير من الانطباعات والرؤى حول المرأة، ويأتي في مقدمتها مصنف "الإعلام بنوازل الأحكام" لابن سهل (ت486هـ/1093م) التي عرجت على مختلف رؤى المجتمع حول حضور المرأة في الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية، وخلاصاته المتميزة في مسائل الموقف من نساء أهل الذمة والعبيد.

وخدم الشعبي المالقي (ت497هـ/1103م) الموضوع في مؤلفه "الأحكام"، بما تضمنه من إشارات هامة في ثناياه حول النظرة إلى المرأة في كل تفاصيل الحياة العائلية، وموقف الحيرة عليهن من خلال مسائل الأحباس والصدقة والهبة، ومكانة الإماء في وجدان أسيادهن، وبالمقابل موقف المرأة الحرة من الجارية والعكس، وتزداد أهمية هذه الاشارات إذا علم أنه تقلد قضاء مدينة مالقة.

كما عرضت فتاوى أبي الوليد بن رشد الجد (ت520هـ/1126م) لأغلب حقول الحياة الأسرية، من خطبة وزواج وطلاق وعلاقات وتفاعلات بين أفراد العائلة، ومع المجتمع، في عالم الريف بالخصوص، وتضمنت في كل ذلك لقطات مهمة حول النظرة إلى المرأة في كل ماسلف، ونفس الخدمة قدمتها "نوازل ابن الحاج التجيني" (ت529هـ/1135م)، إضافة إلى نوازل متأخرة من قبيل "جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام" للبرزلي (ت841هـ/1438م)، الذي لامس مختلف سلوكيات المرأة، خاصة أن المعطيات لم تتغير بشكل جوهري عما كانت عليه في فترة الدراسة، فأغلب القضايا التي رجع إليها في هذا النص تعكس أحوالا تتميز بتطورها البطيء والتشابه من حيث الموضوع .

وكانت الاستعانة بكتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والاندلس والمغرب" للونشريسي (ت914هـ/1508م) في كل فصول الدراسة تقريبا، لأن هذا المؤلف الضخم الموسوعي تناول الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والحضارية، راصدا هنا وهناك صورا من كل المجالات السابقة، وزاد من قيمته اشتماله على أحكام وفتاوى من سبقه من القضاة والفقهاء الذين يعودون لفترة الدراسة.

2- كتب الحسبة:

المقدمة.....

عبرت كتب الحسبة عن جهود العاملين في هذا المجال من أجل الإصلاح المجتمعي، فكانت كتب " ثلاث رسائل في الحسبة" لابن عبدون وابن عبد الرؤوف والجرسيفي بحق منجما لاستخراج صور للمرأة عصر الدراسة، خاصة فيما تعلق بالمعاملات الاقتصادية، من ملكيات وأحباس وهبات، وبعض مظاهر التشايف بين المسلمين والمسيحيات، والتي ألفت بظلمها على تصورات المجتمع لهؤلاء، ناهيك عن علاقة الجوّاري بالحرّاث.

في حين شمل "كتاب في آداب الحسبة" للسقطي(عاش في القرن 6هـ/12م) بالإضافة الى صور المرأة في الوعاء الاقتصادي، ملمحا آخر لا يقل أهمية، تعلق بحضور الجسد الأنثوي عند الرجل، والرجل التاجر والمبتاع بالخصوص.

3- كتب السجلات والعقود:

تعد كتب السجلات والعقود موردا هاما لتلمس ما بلغته النظم الإسلامية في الغرب الاسلامي من دقة واحترافية، إذ كانت تسجل فيه كل شاردة وواردة، لا في المجال الاقتصادي فحسب، بل حتى في المجال الاجتماعي والثقافي، حفظا للحقوق وإقرارا للواجبات، ومن أهم هذه المصادر "كتاب الوثائق والسجلات" لابن العطار(عاش بين 330-399هـ)، الذي أفاد في معرفية وضع ومكانة المرأة من خلال عقود الزواج والطلاق والإرث والأحباس التي تضمنها للبنات والزوجات واليتيمات، ناهيك عن لمحات لرؤى المجتمع نحو إسلام نساء أهل الكتاب، وقضايا متعلقة بالنظرات نحو العبيد من النساء على اختلاف أنواعهم.

وعول البحث على كتاب " المقنع في علم الشروط" لأحمد بن مغيث الطليطلي(ت459هـ/1059م)، في التعرف على ملامح من القضايا المتعلقة بالملكية والإرث ونظرات المجتمع خلالها للمرأة، وظاهرة اشتراط النسوة عدم الزواج من أخرى، ناهيك عن ردود الفعل اتجاه عوز وخصاصة بعض النساء، والمشاكل الأسرية التي ألفت بظلمها على تفهم الشريك لدور زوجته داخل الأسرة وخارجها.

وتقاطع كتاب " المقصد المحمود في تلخيص العقود" لأبي القاسم الجزيري(ت585هـ/1189م) مع المصادر السابقة في القضايا المعالجة، من قبيل التعريج على الصور المبتوثة في ثنایا العلاقات الأسرية والمجتمعية ورؤى المجتمع نحو إسلام نساء أهل الكتاب، وقضايا متعلقة بالنظرات نحو العبيد من النساء على اختلاف أنواعهم.

ثالثا- كتب التراجم والطبقات والمناقب:

شكلت كتب التراجم والطبقات والمناقب موردا مساعدا للدراسة، على الرغم من ضآلة وقلة الترجمات لمن مقارنة بالرجال، ثم اختلاف الترجمة ذاتها طولا وقصرا.

فقد خصص كتاب " الصلة " لابن بشكوال (ت578هـ/1183م)، في آخر الجزء الثاني في رصد أوجه المرأة في ميدان التربية والتعليم، وترجمة لعدد من الأدبيات والشاعرات والزاهدات في الغرب الاسلامي، ساعدت على تفهم أسباب تمدد نظرة التوقير لمن بين العدوتين، وسار على نفس المنوال مصنف " بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس " للضيبي (ت599هـ/1203م)، الذي أولى اهتماما خاصا بأهل العلم والأدب، إذ عرض في آخر فصول تأليفه جزءا للنساء، أفادت الموضوع في تتبع وجه العالمات والشاعرات في فترة الدراسة، وكذلك الحال عند ابن الأبار (ت658هـ/1260م) في مؤلفه الموسوم بـ " التكملة لكتاب الصلة "، وكان ابن سعيد (ت685هـ/1286م) صاحب كتاب " المغرب في حلى المغرب "، عالما رحالة، جاب مدنا كثيرة من الأندلس والمغرب والمشرق، التقى خلالها بفظاحل العلماء والأدباء، مما ساعد على تتبع بعض صور الشاعرات والأدبيات والصالحات في عصر الدراسة، لتبقى إسهامات مصنف " الذيل والتكملة " لابن عبد الملك المراكشي (ت703هـ/1309م) تتعلق بالفصل الثالث، عند تعرضها لأفكار المجتمع حول العالمات والأدبيات والصالحات.

ووظف كتاب " التشوف إلى رجال التصوف " لابن زيات التادلي (ت627هـ/1230م) في التعرف على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية من خلال تراجم الزهاد والمتصوفة ومختلف الانطباعات المتضمنة في علاقاتهم مع زوجاتهم، كما غرغ الموضوع من تلك الإشارات التي توحى بإيلاء بعض الإخوة الذكور مكانة هامة لرباط الدم، من خلال القيام بأخواتهن البنات في صحتهم كما سقمهن، ورسم خط للعابدات اللاتي انقطعن للعبادة وفضلن العنوسة.

رابعا- كتب الجغرافية:

شكلت كتب الجغرافية معينا للبحث على طول فصول الدراسة، إذ تضمنت معلومات هامة ذات صلة بصورة المرأة في إطار التاريخ الحضاري، ويأتي على رأسها مصنف " المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب " للبكري (ت487هـ/1094م)، وتأتي أهميته من معاصرته لدولة المرابطين، وحسه الإثنوغرافي المرفه، بتلفه لكل ماهو عجيب وغرائبي حول عادات وتقاليد شعوب المنطقة ونسائها.

وكانت الاستفادة مزدوجة من كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي (ت564هـ/1160م)، سواء الاقتصادية من خلال التعرض لمختلف تمثيلات المجتمع للمرأة المغربية العاملة في الصناعة النسيجية، أو الاجتماعية من قبيل التعرض لصورة الجسد ومدى توظيفه من النساء ونظرات الرجل إليه.

كما طعم الموضوع بكتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري (ت900هـ/1300م)، والذي وفر معلومات إثنوغرافية وجغرافية هامة ساهمت في مقارنة موضوع حرية المرأة وسفورها.

ومع مصنف "وصف إفريقيا" للحسن الوزان (559هـ/1552م) الذي ضاع نصه الأصلي باللغة العربية، وبقيت نسخته بالاطالية التي ترجمت إلى عدة لغات، بما فيها الفرنسية التي أعيد منها الترجمة للعربية مرة أخرى، تبرز مظاهر اجتماعية متنوعة في المغرب، رسمت معها خطوطاً لوجه المرأة، حتى وإن كانت متأخرة زمنياً، من قبيل صورة العرافة والعاهرة، ومختلف مظاهر النشاط النسوي في الريف والحضر.

خامساً- كتب الأدب:

إنفتح الموضوع على كتب الأدب، بمختلف أنواعها لما عكسته من واقع مجتمعيها، ولما تضمنته من قيمة توثيقية هامة، بغض النظر عن تعمقها في الخيال من عدمه.

ويأتي على رأسها الدواوين الشعرية، ولعل من أهمها ديوان ابن زيدون (463هـ/1070م) الذي خط نظرة طائفة الشعراء إلى الجسد الأنثوي في مغامراته العاطفية مع ولادة، ومع شعر المعتمد بن عباد (488هـ/1095م) تتوضح نظرات الطبقة العليا من قضايا الحب والعشق والتغنج، لا من الزوجة والحظية فحسب، بل من الجارية على أجناسها وطبائعها، ويتلمس مع الأعمى التطيلي (ت525هـ/1130م) صورة متميزة لنساء السلطة المرابطية، وفي ديوان ابن حمديس (ت527هـ/1132م) نموذج راق لتمثيلات الأب لابنته البارة المطيعة، ناهيك عن ديوان ابن خفاجة الأندلسي (ت533هـ/1138م) الذي ألمح إلى المكانة الإدارية التي وصلت إليها مريم بنت إبراهيم المرابطية.

ويأتي على رأس الكتب النثرية رسالة طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي (ت456هـ/1064م) الذي يعتبر بحق معلمة حول صور المرأة، لا في قضايا الحب فحسب، بل كل ما تعلق بالأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إضافة إلى كتاب "قلائد العقيان ومحاسن الأعيان" لابن خاقان (ت529هـ/1135م)

المقدمة.....

والذي جمع فيه طائفة كثيرة من شعراء الأندلس، معرجا على لقطات مفيدة حول إجراءات أمراء وقادة المرابطين اتجاه نساء المغرب الإسلامي، والتي تظهر نظرة العطف والحيرة عليهن.

ومع فن الأزجال الذي تربع على عرشه ابن قزمان (555هـ/1160م) في ديوانه "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض"، تنفتح صور متعددة للمرأة، فهي الحبيبة، ومصدر المتعة والراحة تارة، ومصدر المشاكل والمنغصة لمتع الحياة أطوارا أخرى، كما رسم خطا اتجاه الجارة، والجسد الأنثوي، والخدمة، وغيرها من المسائل المتعلقة بالمرأة، ومنطلقا لدراسة التاريخ لنظرة الجماعة انطلاقا من نظرة الفرد.

وخدم كتاب "أمثال العوام في الأندلس" للزجالي (ت694هـ/1294م) البحث في كافة الفصول، لتعلقها بحياة المجتمع، لما حفظته الذاكرة الشعبية، ونقلها لخبرات متوارثة صيغت في جمل بسيطة ذات مغزى عميق، ثم هي تمارس سحرا خاصا، لأنها تمثل حكمة الأجداد، ليرauh موقف الرجل الذي صاغها بين الإيجابية أحيانا والسلبية في كثير من المرات.

2-المراجع:

أدت المراجع الحديثة والمقالات والرسائل الجامعية دورا مهما في تقديم إشارات مهمة إلى مختلف صور المرأة في عهد الطوائف والمرابطين، ولعل أهمها أبحاث ودراسات إبراهيم القادري بوتشيش، بمنهجيته ومقارباته الدقيقة، وتوظيفه للمصادر الدفينة واللاإرادية، وتتبعه للفئات المهمشة والمسكوت عليها، مثل كتابه مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، الذي قدم فيه إشارات قيمة عن المرأة الذمية في أعين المجتمع المرابطي، إضافة إلى تعريجه على صفات المرأة المحببة كما يدركها أهل البادية.

وكان مصنف المغرب والأندلس في عصر المرابطين نموذجا لتتبع حالة وتطور ذهنية اتجاه قضايا نسوية متعددة من حياة عائلية ومعتقدات شعبية، ولأمس كتابه إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي منزلة الفلاحة والتجارة والمرأة المالكة في فترة الدراسة، ناهيك عن عدد ليس بقليل من المقالات التي اختصت بظاهرة محددة، من قبيل تعرضه لظاهرة التسول في مقاله ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين، وشرح كوامنها السوسيولوجية والاقتصادية التي حملت تلك الازدواجية في الرؤى لمرتاها، ومقال الفكر السحري والعرافة بالأندلس والمغرب خلال العصر المرابطي.

كما إتكأ البحث على مصنف المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الاسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة، لراوية عبد الحميد شافع، عند تناولها لمختلف أدوار وفعاليات المرأة في الأندلس، وبالتالي تسهيل النقاط مؤشرات تمثلات المجتمع لبعض المهن الترفيهية والاجتماعية، وارتياح السوق للمتاجرة. و رقد مصنف " المرأة في الأندلس " لسناء الشعيري الموضوع بملامح متعددة من صور النساء الأندلسيات سواء كن حرائر أم جوارى في الحياة الأدبية، على الرغم من انتفاء التهميش الذي صعب العودة للمظان المعتمد عليها.

وشكل كتاب دولة الإسلام في الأندلس العصر الثاني دول الطوائف منذ قيامها حتى العصر المرابطي، لمحمد عبد الله عنان منطلقا أساسيا للموضوع؛ خاصة فيما يتعلق بالفصل الأول وكل ما تعلق بالجانب السياسي والإداري، ومدى حضور أوجه المرأة في هذا العهد قوة وضعفا.

كما كانت دراسة اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس لخالد يونس عبد العزيز الخالدي التي تناولت تواجد اليهود بالأندلس منذ الفتح إلى غاية سقوط غرناطة، معينا على تتبع أهم أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعلاقاتهم مع المسلمين والمسيحيين في ديار الأندلس، وحقلا لا ينضب من الإشارات المتعلقة برؤية المجتمع اليهودي الأندلسي للمرأة ودخولها في مختلف الأنشطة الثقافية، ومدى تأثيرها وتأثيرها في المجتمع النسوي المحلي، وبنفس القدر كانت استفادة الدراسة من مصنف فاطمة بوعمامة الموسوم " اليهود في المغرب الاسلامي في القرنين السابع والثامن الهجري الموافق ل14-15مليادي " خاصة فيما تعلق بالحياة الاجتماعية للنسوة اليهوديات اللاتي عاشوا بين ظهراي المسلمين وبعض الملامح من تراثهم اللامادي والفلكلوري للمنطقة التي شملتها الدراسة .

أما الكتب المترجمة فقد أفادت البحث في مسائل عدة منها على الخصوص كتاب تاريخ الفكر الأندلسي لأنخل جنثالث بالنشيا، تعريب حسين مؤنس، حين عرج على حضور المرأة في الجانب العلمي والفني، والمثاقفة التي حدثت في الأندلس والتي كان لها انعكاس على صور المرأة.

ويأتي في مقدمة الرسائل الجامعية المستفاد منها أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط معنونة ب " الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الاسلامي الى سقوط غرناطة " للباحثة مليكة حميدي، التي أعانت الموضوع في شتى المراحل، خاصة الجانب الثقافي، ومع أطروحة الدكتوراه الموسومة ب " إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية التاسع للهجرة

"، والتي أعدتها للأستاذة عبد الشكور نبيلة، تتبع البحث حضور المرأة من خلال الخط الكرونولوجي الدقيق والمختصر للأحداث السياسية عصر الطوائف بالخصوص، وعرضها للنسوة من منظور التراث اللامادي.

في حين كانت مذكرة الماجستير للباحثة السابقة حميدي مليكة والمتعلقة بـ " المرأة المغربية في عهد المرابطين" ذات إسهام متزايد فيما عرضته لمكانة الأم في القبائل المرابطية، وبعض نماذج النسوة اللاتي بلغن شأوا في الحياة العسكرية، وبعض لقطات الجانب الأسري، وتم الاستفادة من مقال للباحثة لطيفة البوحسين معنون بـ:

Latifa El Bouhsine, Les Métiers féminins au Maroc Medieval En: Image de femmes regards de société, sous la direction de Fouzia RHissassi, coordination Khadija Amiti, Éd La croisée des chemins, Casablanca, 2005.

والذي ساهم في تتبع جملة من المهن النسائية في العدة المغربية، لا سيما ذات الطابع الاجتماعي، معتمدة في ذلك على جملة من المظان التاريخية المتراوحة بين الفقهية وكتب الرحلات.

وبعد، فلا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور مبارك بوطارن الأستاذ بالمدرسة العليا للأستاذة بوزريعة، والذي أشرف على هذا البحث، وتابع إنجازة خطوة بخطوة، منذ أن كان فكرة، إلى أن اكتملت فصوله، باذلا معي جهده ووقته، رغم كثرة مسؤولياته وانشغالاته، فقد أفادني من علمه وفتح لي صدره، فجزاه الله عني خير الجزاء، وبارك في عمره، كما أتقدم بآيات الشكر والامتنان إلى كل من مد لي يد المساعدة من قريب أو بعيد، وإلى أعضاء لجنة المناقشة المحترمين الذين تجشموا أتعاب فحص هذا العمل وقراءته، وقدموا لي النصح والتوجيه من أجل الارتقاء بموضوع البحث.

الفصل الأول

صورة المرأة في الوعاء السياسي

أولا- ملوك الطوائف

1- في عهد بني زيري بغرناطة

أ- ما قبل عهد عبد الله بن بلكين

ب- عهد عبد الله بن بلكين

2- في عهد بني عباد باشبيلية

أ- ما قبل عهد المعتمد

ب- عهد المعتمد بن عباد

3- في دول الطوائف الأخرى

ثانيا- العصر المرابطي

1- داخل الأسرة المرابطية الحاكمة

أ- في المراحل الأولى لقيام الدولة

ب- في مراحل متقدمة من عمر الدولة

2- خارج نطاق الأسرة المرابطية

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

شهد الغرب الإسلامي في القرن الخامس والسادس الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي حضوراً متفاوت القوة للمرأة في الحياة السياسية، ولو كان من بعيد، وبطريقة غير مباشرة، إذ لم تكن مقطوعة بشكل من الأشكال عن الواقع السياسي الذي يحيط بها، فقد لعبت المرأة سواء في دول الطوائف أو المرابطين دوراً فاعلاً إيجاباً أو سلباً على هذا المنحى، مؤدياً إلى تنوع صور المرأة في المجتمع، أمّا و زوجة، أو محضية وجارية، وإذا كان من الصعب تتبع أنواع صور المرأة في فترة الدراسة كل على حدة، لوفرة بعض الصور على أخرى، فإن الموضوع حاول دراستها ضمن مجموع الكيانات السياسية القائمة على مختلف بيئات الأندلس والمغرب.

أولاً - ملوك الطوائف:

1- في عهد بني زيري بغرناطة⁽¹⁾:

يجب الإشارة في منطلق هذا الموضوع أن تصورات المجتمع للمرأة تبدو باهتة⁽²⁾ إذا ما قورنت بالمجالات الأدبية والعلمية في نفس الحيز المكاني والزمني، ولاغرو أن ابن رشد الحفيد (ت595هـ/1198م) استطاع بحسه الفلسفي أن يشرح ويفسر هذا الغياب والتهميش، مرجعاً ذلك إلى الظروف السياسية والطبيعية الفيزيولوجية، خاصة أنه يمتزج ببنية جسمانية تختلف عن الرجال فتجعلهن "أضعف منهم، فقد ينبغي أن

¹ أسرة مغربية أندلسية منحدرت من قبيلة صنهاجة البربرية، حكمت أجزاءً ممتدة من المغرب الإسلامي خلال الفترة (361-546هـ/972-1152م) بفضل تحالفها مع الفاطميين، وحكم فرع منها في غرناطة بالأندلس بعد عبورهم نحوها في فترة سيطرة العامريين، وعرف بدولة بني مناد (411-483هـ/1020-1090) نسبة إلى زاوي من مناد، أسقطها المرابطون سنة 483هـ/1090م. عبد الله بن بلكين، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة،، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006، ص 30-40. ابن عذارى (أحمد بن محمد المراكشي)، البيان المغرب في أخبار إفريقية والمغرب، ج3، تح ج. س. كولان وليفي برونفسال، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 262-263. ابن الخطيب (لسان الدين السلمي)، تاريخ إسبانية الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام، تح ليفي برونفسال، ط2، دار المكشوف، بيروت، 1956، ص 130-131. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الثاني دول الطوائف منذ قيامها حتى العصر المرابطي، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997، ص 120-124. 342.

² ويرداد هذا الأفلو اتضاحاً في الناحية العسكرية والإدارية مقارنة بالوعي السياسي، ومرد ذلك تلازم حضور المرأة في المؤسسة العسكرية والإدارية بالسلطة السياسية، على اعتبار الإدارة والجيش أداة من أدوات تدبير شؤون الرعية والدفاع عن حوزة البلاد ضد الأعداء المتربصين في الداخل والخارج. مركزين على نماذج لمشاركة المرأة في المشاركة بالمواجهات الحربية التي قامت في فترة الدراسة بين المسلمين أنفسهم، أو حتى مع غيرهم من غير المسلمين. ولعل تفهم بعض الفقهاء لنصوص القرآن والسنة معلم على هذا الخفوت العام، فمن أدلة المانع لظهور المرأة في الحياة السياسية قوله تعالى: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. سورة النساء، الآية 34. واستدلوا من السنة ببعض الأحاديث التي فهموا منها أن السياسة والحكم خارجان عن دائرة المرأة مثل حديث "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة". الترمذي (أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة)، سنن الترمذي، ج4، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، ط1، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1962، ص 527-528. (كتاب الفتن، باب ماجاء في النهي عن سب الریح)

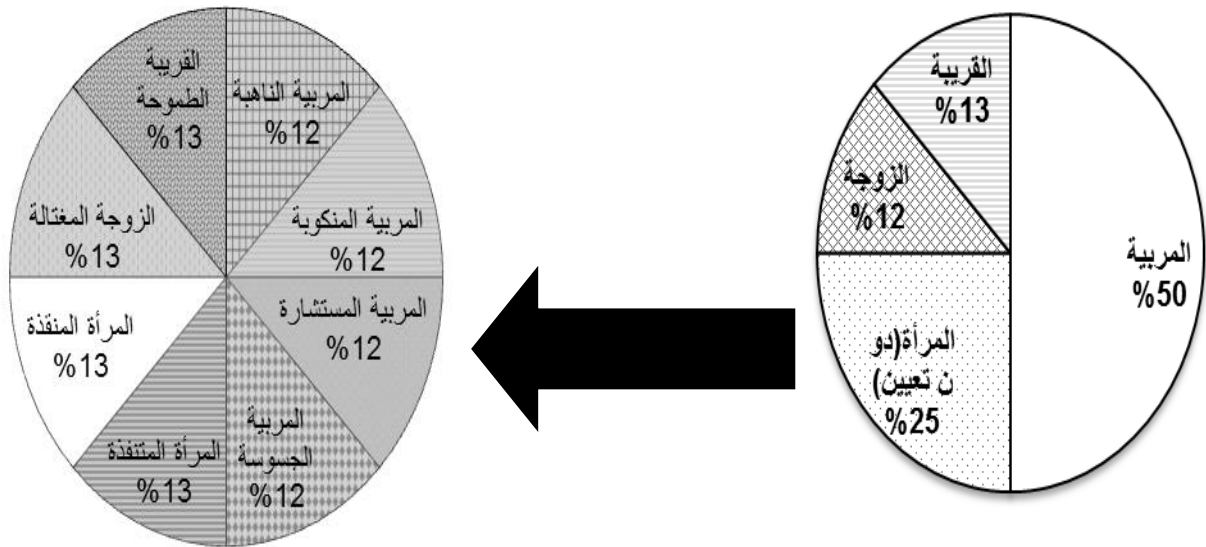
الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

يكلفن من الأعمال بأقلها مشقة"⁽¹⁾، ومن اللافت للنظر أن هذا الفهم وظف مفهوم الأنوثة، وما لصق بها من ضعف في قلة حضور المرأة في المجال السياسي.

أ- ما قبل عهد عبد الله بن بلكين:⁽²⁾

بدأ تدخل المرأة في المجال السياسي انطلاقاً من المربية إلى الزوجة والأم في فترة من تاريخ دولة بني زيري بإفريقية، لينتقل هذا التأثير عند إقامتهم لإمارتهم بالأندلس، فامرأة الحكم؛ وهي المرأة التي شاركت في الحكم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، قد صورت بأنماط تختلف عن نسوة العامة، إذ أسبغت عليها سمات التميز طورا، وهوت بها إلى التنقيص والتحقير في أطوار أخرى، مركزة في النوع الأول على صفات حميدة كالشجاعة ورد الجور والشفاعة، كما عولجت صورتها في إطار الجور والخيانة والمؤامرات في الشق الآخر، والشكل البياني التالي يوضح ذلك⁽³⁾:

شكل رقم 01: أنماط حضور المرأة ما قبل عهد عبد الله بن بلكين



¹ ابن رشد الحفيد (أبو الوليد محمد بن أحمد)، الضروري في السياسة مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، نقله من العبرية إلى العربية أحمد شحلان، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص124-125.

² لا بد من التنويه صور المرأة في هذا الوعي حضرت في عهد الأمير عبد الله بن بلكين آخر أمراء بني زيري بغرناطة، كما في عهد من سبقوه، بما حمله عصره من أحداث، ولأن مدار الصور حوله، وسار البحث على نفس الخط في أسرة بني عباد باشبيلية، لذلك ارتأى الموضوع أن يجزئ هذا العنصر إلى ما قبل عصر عبد الله وما بعد عصره، لتلقف أكبر عدد من الصور الموثقة في متون المصادر، لكي يستقيم البحث منهجيا.

³ إرتأى الموضوع جعل الأشكال البيانية في بداية كل عنصر لمناسبة ترك انطباع مجمل وعام حول صورة المرأة، مع العودة إلى التحليل والتفسير في ثانيا كل حالة أثناء العرض في المتن، وهو المنهج المتناول على طول الفصل الأول، ويجدر الإشارة أن عدد الحالات يظهر في الجزء الثاني من كل شكل حسب ما هو متوفر عند الباحث.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

وعند القراءة العامة لهذا الشكل البياني يتضح مايلي:

- سيطرة المربيات على الحياة السياسية في عهد ما قبل عبد الله بن بلكين إذ قدرت النسبة 50% وهي نسبة مرتفعة مقارنة ببقية أصناف النسوة رغم كونهن أقرب للأمير كالزوجة والقريبة، وهو شيء مرتبط بالاحتياج إلى المربيات من لدن الأمراء الذين ردوا لهن جميل تربيتهم.

- أغلب صور المربية جنحت إلى السلبية فمن بين أربع حالات كانت ثلاث حالات لها دونية بنسبة مرتفعة تقدر ب75%، وهو ما ينم عن طابع الأنانية وإيثار الذات في القصر الغرناطي في هذه الفترة.

- تمدد الوسم السابق على بقية أصناف النساء عدا حالة واحدة من أربع حالات بنسبة 25% من مجموع الحالات الباقية تركز إلى الإيجابية (المرأة المتقدمة).

ومن أولى مؤشرات صورتها في البلاط الغرناطي في ظل حكم بني زيري وجه المربية المستغلة، الذي ينحو إلى السلبية والتنقز، وتحديدًا في فترة باديس بن حبوس⁽¹⁾، وما شهدته عصره من نفوذ قوي لهن، حيث كن يتلاعبن بأموال خزانة الدولة خدمة لأغراضهن الخاصة، وهو ما أشار إليه صاحب كتاب التبيان بقوله: "ومما أعان على الفساد قبل ذلك أن أبانا كان مع أمهاته اللاتي ربين ولده المعز... وكانت أمهاته يطالبنه ويمنعنه عن صحبة اليهودي حتى شعر بذلك، واتفق رأيهما على مطالبة النساء عند الرئيس وتخرجيهن بسرقة المال وإرساله إلى البلاد، فلما وقف جدنا على المقالة وقد وقعت المفاسدة بينهن، صار ملوما من الأب والنساء، وتحيل النساء على أن يبرأن أنفسهن مما قذفن به، ودعت الضرورة لسيف الدولة أن يتصالح مع النساء لرجوع أبيه معهن..."⁽²⁾، فرغم إدراك باديس بن حبوس لأمر فسادهن، إلا أنه لم يستطع اتهامنهن أو إبعادهن، بل عمل على مهادنتهن، خشية تفاقم كيدهن⁽³⁾، ولاشك أن لمناخ القصر الذي يشيع بالتآمرات والنكبات أثر محسوس في تلجيم كل محاولة إصلاح أو تتبع للجنة من النسوة.

¹ هو باديس بن حبوس بن ماكس بن زيري بن مناد الصنهاجي، ثالث حكام طائفة غرناطة في عهد ملوك الطوائف، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 428هـ-1037م، ترك باديس الشأن الداخلي في إمارته لوزيره اليهودي يوسف بن النرجيلة، الذي استأثر بالسلطات ونصب العمال والحياة من اليهود، وقد أبدى ابن النرجيلة همه في جمع الأموال، جعلت له حظوة عند باديس أنظر: ابن عذارى، المصدر السابق، 262/3-264. ابن الخطيب (لسان الدين السليماني)، الإحاطة بأخبار غرناطة، ج1، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان، دار المعارف، مصر، د.ت، 439.

² عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص58.69. حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر2، 2013-2014، ص118.

³ ابن الخطيب، الإحاطة، 1/448.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

ومما أدى إلى ظهور نوع من الفساد والتفسخ في الجهاز الحكومي، تدخل النساء في الحكم الذي ينم عن صورة سلبية لهن في وجدان رجال البلاط⁽¹⁾، فقد كن بكثرة وكون فرقا؛ كل فرقة منهن كانت تطمح في تربية أبناء السلطان حتى تكون لها الخطوة والغلبة⁽²⁾، مما ساهم في تأجيج مؤامرات البلاط، وإذكاء نار المنازعات، فكل طائفة من النسوة كانت تطمح في ولاية من تربيته من أبناء السلطان، حتى يكون لها الخطوة والغلبة.

وعلى النقيض من ذلك فقد حضرت صورة المرأة المنقذة في سياق تدخلاتها في البلاط الغرناطي، ويعود ذلك إلى حادثة اغتيال أمير رندة البربري أبي نصر بن أبي النور⁽³⁾ بمعية جمع من الأندلسيين، وتحت تحريض من المعتضد بن عباد(ت461 هـ/ 1069 م)، وما سببه ذلك من غضب لباديس، حتى جال بخاطره الفتك برعاياه الأندلسيين في غرناطة يوم الجمعة بالمسجد، ليحصده بذلك أكبر عدد منهم، لولا تحذير النسوة لزعماء الأندلسيين من الحضور للمسجد⁽⁴⁾، واستطاعت المرأة بذلك حفظ أرواح عدد كبير من وجهاء غرناطة، رغم إدراكها لخطورة هذا الفعل في حال كشفها.

وإذا ما واصل الموضوع تلقف صور المرأة ببلاط زيري بغرناطة، يتبادر نمط الجاسوسة داخل القصر، والمسهمة في أحداثه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فهذا يوسف بن إسماعيل بن النرجيلة⁽⁵⁾ الذي أثار استهتاره بالمسلمين وتجاوزاته كره مسلمي غرناطة، وشاركهم في هذا الشعور كثير من قادة صنهاجة، يستغل ضعف

¹ ولعل تمرير ابن حزم لرسالة قد يفهم منها إبعاد النساء عن تدخلهن في أمور السياسة بالغرب الاسلامي، فمكأنهن عنده البيت وليس تشابكات وصراعات القصر، عندما يورد عن "سيرة ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر، لأنهم يقولون: إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تتشوف الى الرجال، وتحن إلى النكاح". ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ج1، تح إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987، ص166.

² عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص69. 134. رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، دت، ص296.

³ أبو نصر فتوح بن أبي نور اليفرنى، ثالث وآخر حكام طائفة رندة في عهد ملوك الطوائف، تولى أبو نصر اليفرنى حكم طائفة رندة بعد وفاة والده أبي نور اليفرنى لمدة 8 أعوام كان فيها حسن السيرة في رعيته، استطاع المعتضد بن عباد استئجار فارس دخل قصر أبو نصر، وهاجمه، فذعر وقفز من إحدى شرفات القصر ليرتطم رأسه بالصخر وموت لفوره، وتنتهي بذلك دولة بني يفرن في رندة حيث ضمها المعتضد بن عباد دون قتال، عام 457 هـ/ 1065م. ابن عذارى، المصدر السابق، 313/3-314.

⁴ ابن الخطيب، الإحاطة، 437/1. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص141. حميدي مليكة، المرجع السابق، ص119.

⁵ هو من بيت مشهور بغرناطة، كانت له سيطرة كبيرة على دولة باديس بن حبوس من خلال منصبه الوزاري، وكانت له اليد الطولى في دولته، كما كان وراء قتل بلكين بن باديس، ونتيجة لتجاوزاته على المسلمين وغيرهم قامت ثورة ضده أدت إلى مقتله وصلبه على أبواب المدينة سنة 458 هـ/ 1066م. ابن الخطيب، أعمال، ص230-231. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، فلسطين، 2011، ص215-216.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

باديس بن حبوس، في تعيين اليهود على الأقاليم، محتاطا بإستراتيجية فعالة تقوم على بث شبكة ممتدة من عيون النساء في كل مكان داخل قصر باديس، واللاقي ضمن ولائهن بالعطايا والهبات، حتى صارت تصله أدق أخباره⁽¹⁾، في إشارة منه إلى ضرورة التحوط الشديد الذي عرف عليه، وإدراكه لمدى فاعلية استعمال المرأة والخدم والجواري بالخصوص في تفصي أحوال القصر، ومعرفة خباياه وما يحاك فيه، من أجل زيادة إحكام القبضة عليه بإستراتيجية كيسة فعالة في زمانها، تقوم على الإدارة على ما طابق زمانه، معبرا في نفس الوقت عن وعي تام بعالم القصور والجواري الذي خبره منذ نعومته في ظل وزارة والده إسماعيل.

ونتيجة هذا التدخل المتزايد في دواليب الحكم، وبالموازاة مع الجو المتعفن في غرناطة ودول الطوائف عصرئذ، والذي استغله يوسف ابن إسماعيل بن النرجيلة أحسن استغلال، أصبح من الشائع الافتراء على نسوة القصر، لتتلور معها صورة المرأة المبهوتة، والتي كانت من إفرازات الصراع على السلطة هنا، فقد خطط يوسف لقهر وإذلال وتشويه سمعة ماكسن بن باديس⁽²⁾ بتشويه صورة أمه وبعض الدايات المربيات له، من خلال الافتراء عليهن والإشهاد على ذلك " حتى جعلته الأنفة من مكروه ما نقل إليه أن يأمر بقتل أمه ودائاته"⁽³⁾، ولعل لانسحاب باديس من فعاليات الحكم، وتنامي سلطة الأم والدائات السالفة الذكر والتي يخمن أنها حملت نوعا من الوعي السياسي بالتوجيه والإرشاد والنصح دورا في توريطها في تجاذبات السلطة ومشاكلها رغبة في تلجيمها.

وفي المقابل فإن إدراك ابن النرجيلة بمدى تغلغل نفوذ النسوة في القصر يحيل على وجه المرأة السياسية الماكرة، فقد كان وزن نساء قصر غرناطة بالثقل الذي أخاف الوزير اليهودي القوي والمتمكن، وشككه في قدراته، مما جعله ينظر إليهن بتوجس، ويتخذ موقف الحذر والحيطه منهن، لدرجة أنه إرتأى في عدة مناسبات الحرب⁽⁴⁾، وليس هذا الفعل بمستغرب من رجل خبر عالم القصر وتجاذباته، والدرجة التي وصلت إليها بعض النسوة، التي وظفها هو أحيانا، فعمل على الاحتياط، وحتى الفرار بنفسه إن لزم الأمر ذلك.

¹ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 57-58. ابن عذارى، المصدر السابق، 3/ 265-266. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 215-216.

² هو الابن الأصغر للأمير باديس بن حبوس، كان ولدا مخمولا عريدا، سيئ الطريقة قليل البر خشن الكلام، مع عجز في الرأي، كرهه أهل الدولة وكثر عليه الطلب عند أبيه، عينه والده على مدينة جيان فأساء السيرة، كما كان في علاقة سيئة مع وزير والده اليهودي ابن النرجيلة. عبد الله بن بلكين، نفسه، ص 57. 79. مريم قاسم طويل، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ط1، مكتبة الوحدة العربية ودار الكتب العلمية، الدار البيضاء بيروت، 1994، ص 164.

³ عبد الله بن بلكين، نفسه، ص 65. ابن عذارى، المصدر السابق، 3/ 265. ابن الخطيب، أعمال، ص 231. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 217.

⁴ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 70. 58.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

ويمكن طرح تساؤل مشروع في هذا الجانب، يترتب على ما قيل سابقا، لم كل هذا التعلق بيوسف بن إسماعيل على الرغم من إهانته للإسلام؟⁽¹⁾، أيمكن تصور عدم العلم بهذه التجاوزات، أم أن ملوك غرناطة غضوا عليها الطرف لمبررات خاصة؟ أهى مسائل تتعلق بيوسف أو باديس في حد ذاته، أم داخلية في نطاق السياسة الداخلية لبني زيري؟.

يبدو أن الاستعانة بنصوص شاهدي العيان، سيما إذا كانوا من الفاعلين في صنع القرار، وإن كانت تختص بعصر سابق، وإسقاطها على هذا الواقع تسهم ولو بجزء بسيط في تلمس خيوط الإجابة على التساؤلات السابقة، فقد علل الأمير عبد الله بن بلكين⁽²⁾ ذلك بقوله: " وكان في اليهودي من الكيس والمداورة للناس ما طابق الزمان الذي كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم، فاستعمله لذلك استيحاشا من غيره، ولما كان يرى من طلب بني عمه له، ولأن هذا يهودي ذمي، لا تشره نفسه إلى ولاية، ولا هو أندلسي، فيتقى منه إدخال داخلية مع غير جنسه من السلاطين⁽³⁾، ولاحتياجه إلى الأموال التي يُطبى بها بني عمه، ويحاول بها أمر الملك، لم يكن له بد من مثله أن يجمع له من الأموال ما يدرك معها الآمال، ولم يكن له تسلط على مسلم في حق ولا باطل، ولأن الرعايا أكثرهم بتلك البلدة، والعمال إنما كانوا يهودا، فكان يجبي منهم الأموال ويعطيه، فيلقى ظلما منهم إلى ظلمة، يأخذ منهم ما يملأ به بيت المال، وإقامة أود المملكة أولى به منهم"⁽⁴⁾. وتأكيذا لما سبق تأتي الإجابة من يوسف في حد ذاته، لتجذر هذا الطرح إذ صرح لباديس بقوله " أنا رجل ذمي لا همة لي إلا خدمتك وجمع الدراهم لبيت مالك"⁽⁵⁾. ويتوضح والحال هذه أن المبررات السياسية والاقتصادية والإدارية، المطعمة برجحان العقل والتي حولت له فهم ظروف العصر وملايساته، كانت على رأس أسباب هذا التمشي.

¹ ابن عذارى، المصدر السابق، 3/ 265-266. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 215-216.

² عبد الله بن بلكين الصنهاجي، رابع وآخر حكام طائفة غرناطة في عهد ملوك الطوائف، وصل إلى الحكم بعد وفاة جده باديس بن حبوس، حيث اتفق شيوخ صنهاجة على توليته متجاوزين شقيقه الأكبر تميم بن بلقين الذي كان واليا على مالقة من قبل جده، كان لوزيره سماعة الصنهاجي دور في تسيير دولته، تحالف في العديد من المرات مع نصارى الشمال، شارك عبد الله مع قوات الأندلس إلى جانب جيش المرابطين في معركة الزلاقة عام 479هـ/1086 م، وما لبث أن خلعه يوسف بن تاشفين 483هـ/1090م، ونفاه إلى أغمات بالمغرب، حيث ألف كتابه التبيان الذي يعد مرآة صادقة على عصر الطوائف. عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، 91-100. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 142.

³ كان هذا في بداية الأمر، لأنه وبسبب تضخم طموحه في مرحلة لاحقة تطلعت نفسه إلى إقامة دولة يهودية في المرية بعد التحالف مع ابن صمادح ثم الانقضاض عليه. ابن بسام (أبي الحسن علي الششتري)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، تح احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997، ص 767-768. ابن عذارى، المصدر السابق، 3/ 266.

⁴ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 48.

⁵ نفسه، ص 54.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

وفي نفس السياق؛ ونتيجة الظاهرة السابقة، برزت صورة المربية المستشارة التي كان يؤخذ رأيها في مواضيع خطيرة، وليس الأمير بلقين بن باديس (ت456هـ/1057م) ببعيد عن ذلك؛ حيث احتكم إليهن عندما أراد الفتك بالوزير اليهودي يوسف⁽¹⁾. وهو ما سمح بانقشاع وجه المنكوبة التي دخلت في تجاذبات البلاط وصراعاته، فكانت طرفا في تصفية الحساب وكبش الفداء الذي يقدم وقت الضرورة، ما يدل في ناحية أخرى على حضور وجه المرأة المتآمرة بالقصر، سيما أنها اقترنت بصورتها العامة التي تنحو إلى الغواية والفساد بصفة عامة، وتنبؤنا في هذا المجال المظان التاريخية أن بلقين بن باديس لم يكن على وفاق مع يوسف اليهودي، حتى صار هاجسا لدى هذا الأخير، في ظل المكانة التي تبوأها لدى والده، فدبر حيلة للقضاء عليه، وألصق التهمة بجواري ابنه اللاتي سممنه، وتفرق أمره، فقتل باديس من جواري ولده ومن فتيانه وبني عمه جماعة كبيرة، وخافه سائرهم ففروا عنه⁽²⁾، ولا يستغرب هذا الموقف من باديس خاصة أن الحجة محبوكة بشكل دقيق، وزادها إقناعا جو المؤامرات والدسائس التي كانت تعيشه بلاطات ذلك الوقت، والتي لا يستبعد أن تكون للمرأة حرة أو جارية وجه من الإسهام فيها، ناهيك عن الثقة المطلقة التي أولاها لوزيره يوسف.

ويتلمس من خلال مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك غرناطة من الدولة الصنهاجية نظرة سلبية نحو المرأة، باعتبارها حملت وسم الوسيلة والأداة السياسية للتأثير على الحكم في عهد من سبقوه، فقد عرج في مذكراته على توظيف النساء في مختلف أطوار دولة أجداده بقوله: "... ثم أنت بالخيار عند غفلته وإقباله على راحته، وعليك باشغاله بالنساء، وعجل له ابتياع الرقيق..."⁽³⁾، وهذه اللفتة على إيجازها ذات فائدة معتبرة؛ خاصة أنها صدرت من لدن أمير ابن أمير، إذ توحى إلى حد بعيد بانقشاع صورة المرأة في المنحى السياسي؛ في ظل شيوع ظاهرة الكلف بالتسري بالنساء لدى الطبقة الارستقراطية، وامتلاك بعضهن مقومات ومؤهلات جعلتهن يحظين لدى الأمراء والقادة، فهل كان هذا ديدن كل ملوك الطوائف؟، أم أن هذه الحالة استثناء؟.

وتتحفنا المصادر بوجه المدبرة للاغتيالات السياسية في نفس الفترة والأسرة، وحسبنا في ذلك أن كريمة المظفر باديس بن حبوس سعت جهدها للتخلص من والدته ماكسن غيرة منها⁽⁴⁾، مما يرسخ فكرة أن تكليف النسوة بمهمة الاغتيالات السياسية كانت أمرا مألوفا وشائعا، بحكم قربهم من الأمير أو القائد المستهدف.

¹ عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص57.

² نفسه، ص56-59. ابن عذارى، المصدر السابق، 265/3. ابن الخطيب، الإحاطة، 434/1. مريم قاسم طويل، المرجع السابق، ص163.

³ عبد الله بن بلقين، نفسه، ص 109-110.

⁴ نفسه، ص86.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

وفي نفس المجال ينضج وجه المرأة الطموحة التي تريد بلوغ المكانة المؤثرة في الحياة السياسية، فهذه "أم العلو" ابنة عم ماكسن بن باديس كانت لها حظوة كبيرة في البلاط الغرناطي وفي الجانب العسكري على الخصوص، إذ "كانت مطاعة في قومها، وقد استمالت أكثر نساء الجند"⁽¹⁾، وهو ما يحيل على ما وصلت إليه بعضهن من القوة والنفوذ حتى أصبحن مطاعات بين أقرانها، فهل يمكن القول أن سيطرة النساء غدا ديدن كل أمراء وقادة غرناطة، أم أن الأمر تعلق بهذه الحالة والظرفية التاريخية التي تعيشها الإمارة الغرناطية. ويبدو أن هذا الطموح كان تحت تعزيز طاعة قومها لها، خاصة بعد ضمان ولاء نساء الجند، بحرصها على الزواج من ابن عمها لما ولي الحكم (سنة 465 هـ / 1072م)، مما يحيل من ناحية أخرى على صورة من صور المرأة داخل البلاط، تسعى من خلالها للحصول على الحظوة لدى الحكام، بما يؤهلن للعب دور في تسيير الحكم مع ما يتماشى ومصالحهن وطموحاتهن. ولعل وسم عبد الله لماكسن بالمنحوس⁽²⁾ مؤشر إلى ما ترمى لسمعه من أخبار حنكتها ودهائها السياسي الذي فرط فيه هذا الأمير.

ولاغرو في أن التقرب من أم العلو حرك نساء أخريات في القصر، جاء على شكل حركة موازية داخل البلاط لمنع هذه الزيجة⁽³⁾ في شكل صورة المرأة السياسية الغيورة والمقاومة، لما فيه من خطورة على وضعهن، ومن بينهن "كرمة باديس التي أرادت تزويجه إحدى محضياتها"⁽⁴⁾، على الرغم من رفض ماكسن لابنة عمه زاعما أنها لا تصلح له⁽⁵⁾، وهذا ما يعطي انطبعا على المحاولات الكثيرة من نسوة من الأسرة الحاكمة ومن خارجها، وردود الأفعال المتعددة التي تهدف في مجملها إلى إبقاء الحظوة والسيطرة في نطاق واحدة ليتبلور معها وجه المخطية السياسية، وهذا ما يعكس إلى حد كبير صورة المرأة في نطاق الأسرة، ويحيل على فهم الرجل الأرستقراطي لعلاقة الحب مع المرأة، التي يظهر فيها أن الشعور بالحب متعدد الاتجاهات، ولأن ايلاتها حقوقها والعدل بينهم حسب ذات الرجال هو الأساس، في ظل ما يكفله القانون الاسلامي، ونظم وعرف المجتمع للرجل بالزواج من عدة نساء، إذا توفرت فيه الإمكانية المادية والجسمية⁽⁶⁾.

¹ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص86.

² نفسه، ص86-87.

³ وقد قارب ابن حزم الصواب عندما أشار إلى تفرغ النساء، خاصة عليية القوم منهم، ودوره في توجيههم لأمر السياسة بقوله: "وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لاشغل لهن غيره، ولا خلقت لسواه". ابن حزم، رسائل، 1/ 165. سناء الشعيري، المرأة في الأندلس، ط1، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، الرباط، 2009، ص31.

⁴ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص86.

⁵ نفسه.

⁶ وقد اتكا هؤلاء على فهمهم لهذا المعنى بتأويل قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. سورة النساء، الآية 03. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾. سورة المعارج، الآية 29-30. وقد

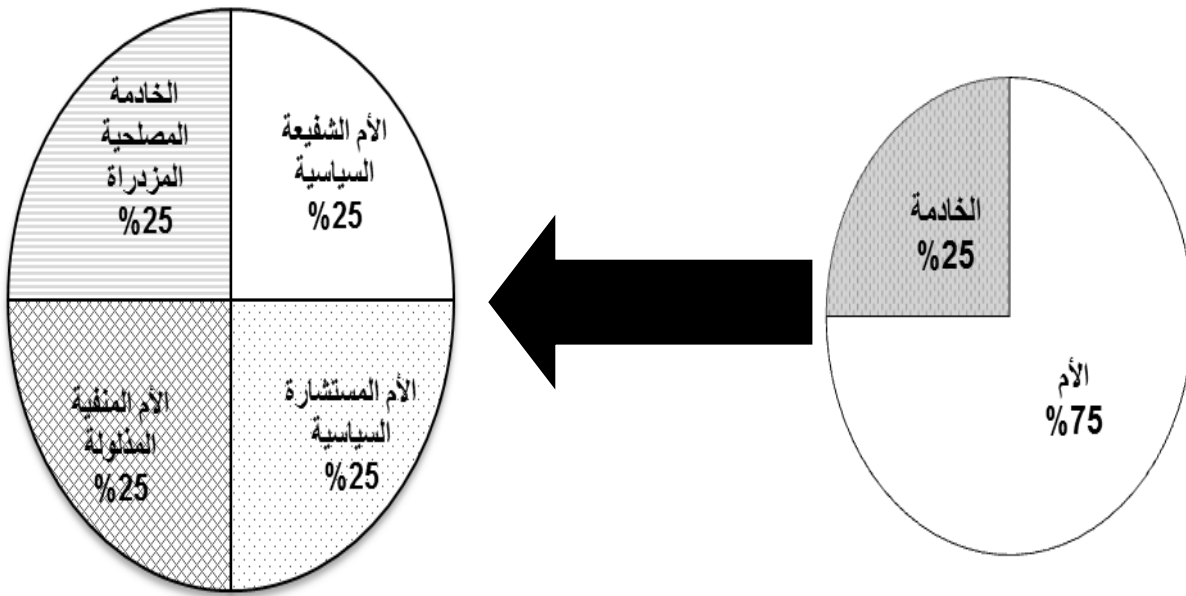
الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

كما كان أسر المرأة ورقة ضغط هامة في وجدان السلطة ضد معارضيها، وإستراتيجية شديدة الفعالية تطبق على الخارجين عليها، فقد لحق بالكاتب الوزير أبي الفتوح⁽¹⁾ أذى شديد نتيجة هروبه من غرناطة مع يدير بن حباسة بن ماكسن ابن عم باديس، ليرتسم عنده صورة المرأة المأسورة، بعد اشتداد شوق أبي الفتوح إلى أهله لما بلغه أن باديس قبض على زوجته وبنيه وحبسهم، إذ كان لها من نفسه موقع عظيم، وكانت أندلسية جميلة جدا لها طفلان ذكر وأنثى، لم يطق عنهما صبرا، وعمل على الرجوع إلى باديس طمعا في أن يصفح عنه⁽²⁾.

ب- عهد عبد الله بن بلكين:

تعددت صور المرأة في عهد عبد الله بن بلكين ما بين الإيجابية والسلبية على مختلف درجاتها، والشكل التالي يظهر ذلك:

شكل رقم 02: أنماط حضور المرأة في عهد عبد الله بن بلكين



سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن حق الزوجة على زوجها فقال: " أن تطعمها إذ طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت " أو " اكتسبت " ولا تضرب الوجه ولا تحجر إلا في البيت ". أبو داود(سليمان بن الأشعث الأزدي)، سنن أبي داود، ج2، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، دت، ص244-245.

¹ هو ثابت بن محمد الجرجاني ثم الاستراباذي، يكنى بأبي الفتوح، من علماء المشرق الوافدين على الأندلس، كان الغالب عليه علم اللسان وحفظ الغريب والشعر، إضافة إلى علم الأوائل والمنطق والنجوم والحكمة، ناهيك عن التصرف في حمل السلاح والحدق بأنواع الجندية، وقد أخذ عليه أخبار المشاركة، وحكايات كثيرة، شجع يدير بن حباسة بن ماكسن على الخروج على باديس. ابن الخطيب، الإحاطة، 454/1-455. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص127.

² ابن الخطيب، نفسه، 455/1-456.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

ومن الملاحظات الهامة التي يكشفها هذا الجرد الإحصائي:

- الحضور الطاغي للأمم في حياة ولدها عبد الله بن بلكين، إذ مثل ثلاث حالات من أصل أربع بمعدل 75%، ويبدو أن إلى تسارع الأحداث في عهده، لا علة دولة بني زيري فحسب، بل على دول الطوائف ككل، كما أن حداثة سنه معبر لتفهم هذا الحضور.

- كل الصور المبثوثة للأمم تنحو إلى الإيجابية بنسبة 100% فهي المستشارة والشفيع، وحتى المدلولة في أواخر الدولة.

- استمرار وجه الخادمة الأنانية في القصر الغرناطي حتى في الأيام الحالكة للدولة، ولا بد أن أفول صورتها اصطدم بمكانة الأم.

فقد عرفت الأندلس نموذج الشفيعية السياسية، فرغم ما سببه تميم أخ عبد الله بن بلكين من فتن ومناوشات داخل الإمارة الغرناطية، إلا أن تنفذ والدته الأمير عبد الله لدى ولدها، جعلها تتدخل في فض النزاع بينهما وتحقيق العفو السياسي على تميم⁽¹⁾، ولا شك أن تدخل الأم هنا لم يكن بدافع العاطفة فحسب، بل لتحقيق لحمة المنطقة، وتجنيد البلاد من شر الصراع الداخلي الذي يؤدي إلى تمزق الدولة.

ومن ناحية أخرى تظهر صورة المرأة الأندلسية في الحياة السياسية متضمنة فيما كان لنساء القصر من نفوذ لدى الأمراء ورجال الدولة، فتتضح صورة المرأة الأم الوسيطة المتدخلة في القرارات عند اجتياز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 483هـ/1090م، والذي كان في استقباله بالإضافة إلى الأمير عبد الله بن بلكين وزيره أبي جعفر القليعي⁽²⁾ ضارباً بخيامه قرب موقع يوسف بن تاشفين، مما جعله محط شك في ولاءه، فسجنه وقام بضربه، لتتدخل والدته الأمير لأنها " خافت على ولدها عقاباً من الله بسببه، فلاطفته حتى حل عقاله

¹ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 119. كرزاز فوزية، دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن الخامس إلى منتصف القرن السابع الهجري، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 2006، ص 49. خالد بن عبد الله الشريف، مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها 892/422هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 2009، ص 74. مريم قاسم طويل، المرجع السابق، ص 163. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص 39.

² أبو جعفر أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغساني المعروف بابن القليعي، من أهل غرناطة، وجلة أعيانها، كان فريد عصره في الخير والعلم، كثير الرواية، صدوقاً، بعيد الصيت، توفي سنة 498هـ/1104م. ابن بشكوال، كتاب الصلة ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي، ج 1، الصلة، تح شريف أبو العلا العدوي، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص 93. ابن الخطيب، الإحاطة، 147/1-148.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

وأطلقه من سجنه"⁽¹⁾، ولعل ذلك للحفاظ على أركان الدولة ورجالاتها، ولكي تظهر ليوسف بن تاشفين وحدة البلاط.

وبمناسبة إشارة عبد الله بن بلكين إلى المواقف المختلفة من الحصار الذي فرضه يوسف بن تاشفين، وانصراف جمع كبير من الناس عليه، تبرز في أعين السلطة رؤية خاصة إلى المرأة الخادمة في القصر، تركز إلى الازدراء؛ لدرجة أن الأمير عبد الله وصفهن بالمصلحية⁽²⁾ في ظل اتساع ظاهرة الزواج المختلط والذي خول للمرأة المسبية عموماً إمكانية الوصول إلى مراتب متقدمة في القصر في حال توفر خصائص محبة لديهم.

وفي مسألة حصار جيوش يوسف بن تاشفين لغرناطة سنة 483هـ/1090م تجل آخر لتفهم الخاصة للمرأة، تنم عن الإحترام والتقدير باعتبارها جزءاً من العرض، سواء للطرف المحاصر أو المحاصر، فمن بين بنود كتاب الأمان الذي أرسله أمير المرابطين تأمينه " النفس والأهل دون المال"⁽³⁾، حتى أن عبد الله بن بلكين ذاته يقر بهذا الصنيع حين يقول: " صار الكل فينا من خادم وغلّام، ماخلائي وأمي"⁽⁴⁾، ولاشك أن ذلك يعكس سماحة يوسف بن تاشفين وحرصه على مكانة المرأة في حاضرة الدولة الغرناطية، إضافة إلى حضور بعد إقتصادي قائم على حرمان عبد الله بن بلكين من الأموال التي كانت وستكون مصدراً للتمرد، بعدما خبر طبائعهم المتقلبة في جوازاته السابقة، وتوجيههم الأموال لضرب بعضهم البعض، وإعطاء الجزية للممالك النصرانية، سيما إذا أخذ في الحسبان بعد حاضرتهم في المغرب.

ولم تقتصر الاستشارة لدى الأم في فعاليات الدولة أيام سيادتها فحسب، بل امتدت إلى قبيل سقوطها وفي مراحلها الأخيرة، مع ما تتطلبه المرحلة من حنكة ودبلوماسية ودراية للخروج بأقل الأضرار رغم الشدة التي تعرضوا لها، فقد اشتهر عن والدته الأميرة عبد الله بن بلكين نصحتها له بخروجه للمرابطين واستسلامه لهم⁽⁵⁾، ولاشك أن هذا الصنيع انعكس على وضعهما المقبول إلى حد بعيد كمنفيين بالمغرب مقارنة بالمعتمد بن عباد.

وبالسخرية القدر المتوج لمشوار أم الأمير عبد الله بن بلكين بنظرة المرأة المنكسرة المنفية عند ولدها الملك المخلوع في خضم حركة المرابطين على غرناطة لتوحيد جبهة الأندلس، لدرجة شطط قادة المرابطين في

¹ ابن الخطيب، الإحاطة، 154/1.

² عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 184.

³ نفسه، ص 187.

⁴ نفسه، ص 190.

⁵ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط، تح أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971، ص 104-105.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

استخلاص ما بيدهم من أملاك ومتاع في انتظار ترحيلها إلى المغرب، مما جعل ولدها عبد الله يهون عليها بعد أن صارحته بقولها " نخشى أن نبقي فقراء! والموت أهون من الفقر! فسهلت عليها الأمر"⁽¹⁾، ولعل استحضر حياة النفي التي ستواجهها، والتقتير الذي ستعرض له من قبل المرابطين مسوغ لهذا الملح.

2- في عهد بني عباد باشيلية⁽²⁾:

إذا انتقلنا إلى إمارة بني عباد باشيلية، فهي الأخرى تطلعنا على صور متعددة للمرأة، تدخلت فيها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في قرارات السلطة⁽³⁾، وبالتالي رسم معالم السياسة في زمنهن.

أ- ما قبل عهد المعتمد:

يبدو أن صورة المرأة عند الرجل الأرسقراطي تختلف كل الاختلاف عن موقفه منها، فقد كانت الطريق ممهدة جدا أمام الرجل لكي تتبلور صورته بكل يسر وسلافة في ظل المجتمع الذكوري، على عكس المرأة، ولكن ذلك لم يمنع من ظهور صورهن إذا حظيت سواء حرة أم جارية⁽⁴⁾، مصورة بأنماط تختلف عن نسوة العامة، إذ أسبغت عليها أوصافا عالية حيناً، وهبطت بها إلى التحقير في أطوار أخرى، وفي الشق الأول ركزت على صفات حميدة كالشجاعة والعطاء والعدل ورد الجور والشفاعة، كما تناولت الجور والخيانة والمؤامرات في الشق الآخر، والشكل التالي يوضح ذلك:

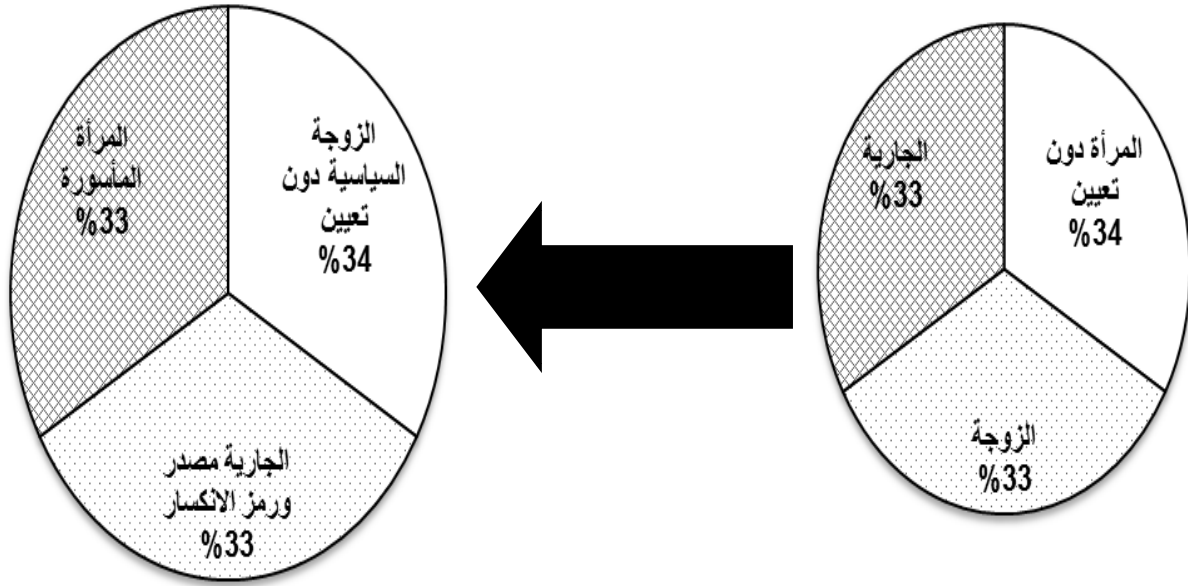
¹ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 191، 195-196.

² أسرة عربية اشتهرت بتأسيسها مملكة في إشبيلية جنوب الأندلس خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وفدت الأسرة إلى الأندلس في نهاية عصر الدولة الأموية، أول من برز منها القاضي أبو الوليد إسماعيل، وبعد ثورة في إشبيلية طرد على إثرها بنو حمود من الحكم، عين أهالي المدينة ابنه أبا القاسم محمد حاكماً للمدينة، وهو يعد المؤسس الفعلي لسلالة بني عباد، شهدت المملكة اتساعاً في عهد المعتمد، وازدهر الشعر والأدب والعمران في إشبيلية ازدهاراً كبيراً، انتهت دولة بني عباد على أيدي المرابطين عام 484هـ/1091م. ابن عذاري، المصدر السابق، 193/3-194. 273-274. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 32-35.

³ ظل الحضور النسوي في بلاطات دول عصر الدراسة من الأمور الخفية التي سعت السلطة إلى حجبها عن الناس، إلا ما تسرب على مضض، وبالتالي فتويت معطيات كانت لتفيد في الملمة الموضوع، ويعود ذلك إلى تعميم السلطة التي تراها من أسرار الدولة، إلى جانب نظرة الكتاب إلى هذا الموضوع والمغلقة بمسوح أخلاقية معتبرة إياه من المحرمات. وحسبنا في ذلك ما صرح به طوق الحمامة عند قوله "ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة- وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم، فلا ينبغي الإخبار به عنهم، لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل" ابن حزم، رسائل، 92/1.

⁴ يرجع كثير من المؤرخين نفوذ النساء في سطوتهم إلى تفشي سحر المرأة وتأثيرها على عواطف الرجال وانفعالاتهم، كما رد عامل حسن الرأي هذه الخطوة. ابن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، تح محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347هـ، ص 29.

شكل رقم 3: أنماط حضور المرأة ما قبل عهد المعتمد بن عباد



ومن خلال الشكل البياني يبرز مايلي:

- تنوع صور المرأة وهو ما ينم عن تداخل للفواعل السياسية في هذا العصر.
- اقتراب الانطباع إلى المأسورة واعتبارها كنقطة ضعف بنسبة 66% مما يعطي تفهما باشتداد الضغط الداخلي الاسلامي من العدو المغربي والخارجي المسيحي.
- ففي مملكة إشبيلية التي خضعت لحكم أسرة بني العباد؛ تلقت ابنة مجاهد العامري⁽¹⁾ ملك دانية وزوجة المعتضد بن عباد(ت461هـ/1069م) مكانة متميزة عند زوجها رغم تعدد جواريه ومحضياته⁽²⁾، مع أن المصادر لم تكشف لنا مواطن تدخلاتها السياسية.

كما عرف على المعتضد كلفه الشديد بالنساء، لذا كان خصومه يأمرهم بقتل نسائهم ومحضياتهم في حروبهم معه، خشية وقوعهن بين يدي المعتضد، وانسجاما مع تمثيلهم للمرأة المسيية⁽³⁾، ما ينهض دليلا على

¹ هو أبو عبد الله مجاهد بن يوسف العامرين مؤسس الدولة العامرية في دانية ومبورقة، رومي الأصل، وكان تحت كنف المنصور بن أبي عامر، انتقل بعد الفتنة إلى دانية وتملكها سنة 412هـ/1021م، وكانت منطلق توسعاته الجرائر القريبة منها، توفي في 436هـ/1044م. ابن عذاري، المصدر السابق، 3/155-156. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص189-190.

² ابن بسام، المصدر السابق، ص29. المقرئ (أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ص283.

³ حول مفهوم الرقيق والسي وأهم روافده في الغرب الاسلامي انظر: عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2004، ص127.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

مكانة النساء لدى الطبقة الخاصة، ناهيك عن مرارة السي والمذلة، ففي توسعات ملك إشبيلية سنة 461هـ/1068م على دولة بني حزمون⁽¹⁾ نجد أميرهم يأمر بقتل امرأته لأنها كانت لطيفة المحل من قلبه، ولم يقتصر على ذلك، بل أمر أن تقتل أخته كذلك⁽²⁾، فالأسر ظاهرة عريقة في التاريخ وهو عبارة عن ورقة ضغط على العدو وإرهابه وإذلاله، وهذه اللفتة على قصرها ذات فائدة معتبرة؛ خاصة أنها صدرت من لدن أمير ابن أمير، إذ توجي إلى حد بعيد بارتسام تخمر المسؤولية إتجاه المرأة في المنحى العسكري؛ في ظل شيوع ظاهرة كلف الملوك والطبقة الأرستقراطية بالتسري بالنساء.

كما يضاف تصور احتقاري إلى نوع مخصوص من النسوة؛ عند الحديث عن الحروب والحصارات بين القلاع والمدن، حيث حملت الجوارى المغنيات فيها دورا غير مباشر في قلب النصر المحتوم إلى تراجع وانكسار، لأنها في أعين بعض القياد عامل إلهاء وصرف عن النصر، فقد أقدم جند المعتضد أثناء حصار مالقة على اللهو والعبث و" ارتياد القينات"⁽³⁾ بعد بدء الحصار بأيام قليلة، مما سمح للسكان مالقة باسترجاع الأنفاس، وإعداد العدة للتمركز والاستماتة في الدفاع عن المدينة .

¹ ينتمي بنو حزمون إلى بني يرنيان، إحدى بطون زناتة، أسس هذه الدولة أبو عبد الله محمد بن حزمون بن عبدون الخزري أمير بني يرنيان الذي ظهر أيام الفتنة بقلشانة الواقعة بشذوذة، وذلك في سنة 402هـ/1011م، ثم تغلب على أركش فملكها وأقام بها دولة. ابن عذارى، المصدر السابق، 294/3. ابن الخطيب، أعمال، ص238. محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، ص155.

² ابن عذارى، المصدر السابق، 273/3. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص156. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص133.

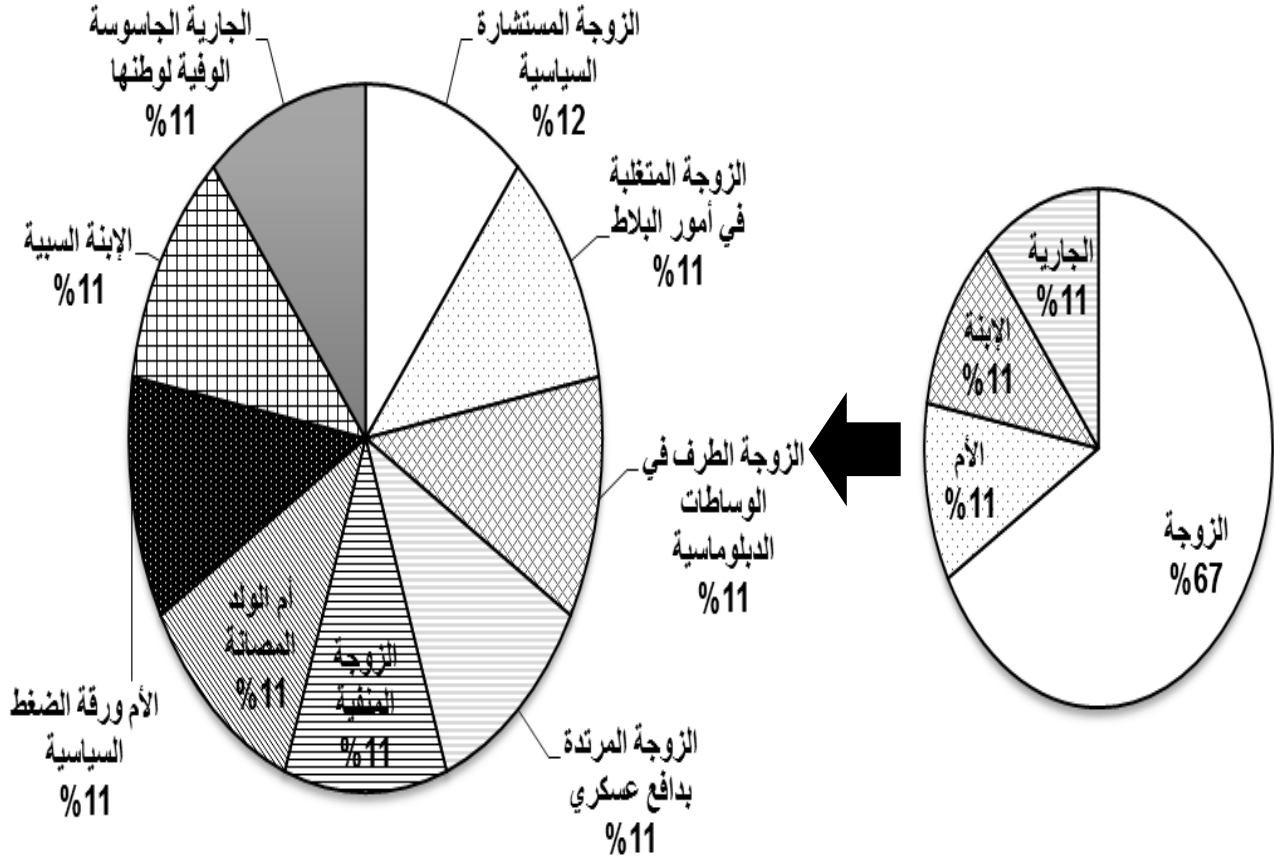
³ ابن حاقان (أبي نصر الفتح بن محمد)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج1، حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1989، ص 82. مريم قاسم طويل، المرجع السابق، ص 142.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

ب- عهد المعتمد بن عباد:

تعدد صور المرأة في عهد المعتمد بن عباد، ولعل من أهمها كما يوضحه الشكل التالي:

شكل رقم 04: أنماط حضور المرأة في عهد المعتمد بن عباد



وما تشير إليه الحالات السابقة:

- الحضور الكبير للزوجة بنسبة 67%، بعد أن كانت متساوية مع بقية الفواعل قبل عهد المعتمد، وهو ما يبرهن على ركون الأمراء لزوجاتهم، وتنوع المجالات التي نضجت فيها كطرف في العلاقات السياسية الداخلية سواء مستشارة ومتغلبة أحياناً، أو منفية ومأسورة في طور آخر .
- خفوت صورة الأم واعتبارها مصدر انكسار وضغط، وتمدد هذا إلى الابنة السبية، وبرز نماذج جديدة من الصور من قبل الوفية للوطن التي تحيل على توظيفها في صراع الدول الإسلامية.
- أخذت مصطلحات القتال والسلاح والسي تأخذ شيئاً فشيئاً حيزاً كبيراً في صور المرأة، مما يدل على مضمون الصراع والتناطح وتزايدته وتيرته، وانعكاس كل ذلك على النسوة اللاتي كن من أولى إفرازاتها.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

ويتمظهر في أولى مراحل حكم المعتمد نموذج المرأة المهتوكة العرض في الحروب والتوسعات الداخلية بين دول الطوائف، فبعد سنتين من موت المعتمد ونتيجة اشتداد الحصار المضروب على مدينة قرطبة من طرف المأمون بن ذي النون⁽¹⁾، استغاث ملك قرطبة بالمعتمد الذي بعث بجيش لنجدة⁽²⁾، مما اضطر المأمون إلى رفع حصاره، وقد أحسن المعتمد استغلال الفرصة لدخول المدينة " فقبض للحين على عبد الملك وإخوانه، وجميع أهل بيته، وبالغوا لوقتهم في الانتهاك لحرمه..."⁽³⁾، سيما أن قرطبة كانت تمثل مركز الخلافة الروحية ودائرة الاستقطاب الثقافي والعلمي.

ولعل من أولى أمارات نضج صورة المرأة في وجدان رجل الدولة؛ وجه الزوجة السياسية بعيدة النظر المشيرة عليه، الخائفة على عرشه من طمع الطامعين، والتي حضرت في اعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد، التي رفعت من طبقة الجوّاري⁽⁴⁾ إلى مصاف نساء الملوك⁽⁵⁾، حتى لقبت بالسيدة الكبرى⁽⁶⁾، كناية عن تبلور صورتها عنده، والتي أدت دورا مباشرا في الحياة السياسية، وما لها من تأثير كبير على حياة المعتمد⁽⁷⁾، ولاشك أن هذه

¹ المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون ثاني حكام طائفة طليطلة من بني ذي النون في عصر ممالك الطوائف، أمضى سنون حكمه في حروب متواصلة مع ملوك الطوائف، واستطاع في الكثير من المرات التوسع عليهم، أذعن كغيره من ملوك الطوائف للحزبية التي كان يدفعها فرناندو الأول ملك ليون وقتشالة، توفي سنة 460هـ/1068م. ابن بسام، المصدر السابق، 41/3-42. 250 / 1/3. ابن عذارى، المصدر السابق، 227/3. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 105/2.

² اختلف المؤرخون في تفسير أسباب ودوافع تلك الحملة، فالبعض يرى أن هذا الأمر كان مبيّنا حسب خطة سرية نسجت تفاصيلها في إشبيلية مع ما يحمله هذا الرأي من وجهة، فليس من المنطق لحاكم عرف عليه الدهاء وحساب الأمور أن يترك الأمور دون تخطيط ويسير خبط عشواء، سيما إذا أخذ في الحسبان النزعة التوسعية على دويلات الجوار وما تشكله قرطبة من إغراء وموروث يضيف إلى قوتها، أما البعض الآخر فيرى أن ذلك وليد الساعة، وأنه لم يحدث إلا عندما أفلح ابن ذي النون عن قرطبة، ابن عذارى، المصدر السابق، 259/3. محمد عبد الله عنان، نفسه، ص61، وما يؤسف له أن ذلك التوسع لم يكن نابعا عن شعور قومي أو ديني بمهدف جمع الشمل ونبد الفرقة والتجزؤ، وإنما كان لمطامع ذاتية بعيدة عن المصلحة القومية والدينية.

³ ابن عذارى، المصدر السابق، 258/3. ابن الخطيب، أعمال، ص149-151. صلاح خالص، المعتمد بن عباد الإشبيلي دراسة أدبية تاريخية، مطابع دار الأخبار، بغداد، 1958، ص125.

⁴ تجدر الإشارة إلى أن انتشار الجوّاري كان حكرا إلى حد بعيد على الطبقة الخاصة، ولم يكن بين نساء العامة إماء إلا شذوذا أوقات الغزو والانتصارات، ذلك أن ارتفاع أسعار الجوّاري بالنسبة لدخل الرجل العامي يجعل هذا النوع من الملكية بعيدا عن قدرته وعسيرا على مورده، خاصة أن أسعارها قد تصل إلى ألفين أو ثلاثة آلاف دينار تبعا لميزاتها. صلاح خالص، إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص92.

⁵ وقد أحسن غرسيه غومس الوصف عندما قال عن هذه الحالة: "إن ذلك القرن الحادي عشر الأندلسي لعالم عجيب مندفع الحركة، عصر كانت فيه الغاسلات ينتقلن من ضفة النهر إلى العروش". إميليو غرسيه غومس، الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، تر حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص25-26.

⁶ ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)، الحلة السيراء، ج2، تح حسين مؤنس، د.ط، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص62.

⁷ بلغ بالمعتمد لشدة ولعه بها أن اشتق من لقبه إسماء لها، مُعبرا عن هذا الهوى بنظم أبيات يبدأ كل حرف بيت منها بحرف من اسمها. ديوان المعتمد بن عباد، تح حامد عبد الحميد و أحمد أحمد بدوي، ط3، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000، ص8.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

الصورة امتزجت بصورة الخطوة الإدارية عند زوجها؛ ويشهد بذلك ما تحمله النقوش⁽¹⁾ في ذكر اسمها يوم الشروع في بناء صومعة إشبيلية سنة 472هـ⁽²⁾.

كما أشارت مصادر أخرى إلى صورة المرأة السياسية المتغلبة على زوجها، فابن الأبار يروي أن المعتضد والد المعتمد غاظه ما بلغه من غلبة إعتماذ على ابنه، فعزم على عقابه، لكنه عدل بعد ذلك⁽³⁾، في إشارة منه إلى السطوة التي أصبحت تمثلها إعتماذ على نفس الأمير، والتي يبدو أنها أثارت انتباه وحفيظة والده، وما يمكن أن يفرزه ذلك على سياسة الدولة ومصيرها في المستقبل.

ولعل إعطاء المعتمد لابنه اليافع القليل الخبرة الملقب بالظافر زمام قرطبة بعد أخذها وانتظام أمرها تدلل على صورة المرأة السياسية التي تدخلت في تولية الأمر لابنها على الرغم من حداثة سنه، في ظل اتساع ظاهرة الزواج بالجوارى والمحضيات، والذي حول للمرأة امكانية الوصول إلى مراتب متقدمة في القصر، في حال توفر خصائص محببة، وما سرعة فقدان المدينة بعد مدة قليلة لا تتعدى خمس سنوات إلا دليل على سوء تدخل النسوة في تولية الأمور وتغليب العاطفة على العقل والكفاءات وانصياع أزواجهن لذلك، سيما بعد استسلامهم للترف والدعة وعدم تقدير العواقب⁽⁴⁾.

¹ وجدت لوحة رخامية محفوظة في كنيسة سان خوان دي لابلما مكتوبة بالخط الكوفي، توجد الآن في متحف إشبيلية الإقليمي ونصها "بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، أمرت السيدة الكبرى أم الرشيد أبي الحسين عبد الله ابن المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييده، وأمره وإعزازه، بإقامة هذه الصومعة بمسجدها، صنه الله، طلبا لجزيل الأجر والثواب، فتمت بعون الله على يدي الوزير الكاتب الأمير أبو القاسم بن حجاج وفقه الله، وذلك في شعبان من عام ثمانية وسبعين وأربع مائة". محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1966، ص 62. السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، دار شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986، ص 95-96.

² محمد عبد الله عنان، نفسه. السيد عبد العزيز سالم، نفسه، ص 95. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 317. أحمد بن عهود، التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع الشويخ، تطوان، 1983، ص 193. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص 42.

Lévi. provençal, inscriptions arabes d'Espagne, leiden, paris, 1931, p40.

³ ابن الأبار، الحلة، 2/ 70-71.

⁴ ابن خاقان، المصدر السابق، ص 67. ابن بسام، المصدر السابق، 276/1/2. المراكشي (محي الدين عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، ط 1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949، ص 60. ابن الأبار، نفسه، 61/2. المقرئ، المصدر السابق، 625/1-626. علي أدهم، المعتمد بن عباد، مكتبة مصر، القاهرة، دت، ص 142.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

وبعد ظهور بوادر الحفاء الذي وقع بين الوزير ابن عمار⁽¹⁾ والمعتمد⁽²⁾؛ ودخوله في خدمة المؤمن بن هود(ت478هـ/1085م)، تظهر مرة أخرى صورة المرأة كطرف أساسي في العلاقات الدبلوماسية بين ملوك وأمراء الطوائف، إذ سعى هذا الأخير إلى الوساطة من أجل تسريح عيال ابن عمار المتواجدين باشبيلية إلى سرقسطة؛ فوافقه في ذلك⁽³⁾.

وانطلاقاً من الخطوة لدى ابن عباد تتجلى صورة المرأة المستشارة في سياق آخر، فتزامنا مع سعي الرميكية إلى الإمعان في تقليص نفوذ الوزير أبي بكر بن عمار رفيق المعتمد وصديقه ومستشاره الأكثر حظوة لديه، وإبعاده نهائياً عن المسرح السياسي، أوعزت بقتل الوزير أبا بكر محمد بن عمار لتعريضه بالمعتمد وزوجته بقوله:⁽⁴⁾

أَلَا حَيٍّ بِالْغَرْبِ حَيًّا جَلَالًا أَنَاخُوا جَمَالًا وَحَازُوا جَمَالًا

وتمثل هذه الحادثة نوعاً من الصراع الخفي بين الوزراء والمستشارين الرجال وبين الجوّاري الحسان اللائي ملأَن قصور الحكام، وكيف تستطيع بدهائها الارتقاء في السلم الاجتماعي وتحتل الصدارة في قلب الخليفة، ومن ثم توجه سياسة القصر وفق أغراضها وطموحاته، ومع ذلك فلا يرقى هذا المعطى كسبب الحقيقي في قتله، بل وجدت مسوغات سياسية أدت إلى تصفيته، تمثلت في استغلال ابن عمار مكانته الرفيعة لدى المعتمد فحاول اقتسام ملكه، عندما وثب على مرسية التي استرجعها ابن عباد، وهو الأمر الذي أقلق الرميكية ورفضته، وقامت تحرضه على الفتك به بعد سجنه، إذ " ذكرته الرميكية به، وأنشدته هجاءه فيه، وقالت له: قد شاع أنك تغفو عنه، وكيف يكون ذلك بعدما نازعك ملكك، ونال في عرض حرمك؟ وهذان لا تحتملهما

¹ هو أبو بكر محمد بن عمار الأندلسي، شاعر ووزير وسياسي أندلسي، يلقب بذي الوزارتين، ولد محمد بن عمار في قرية من أعمال شلب لأسرة متواضعة، رحل في صغره للدراسة في شلب ثم قرطبة، فبرع في الأدب والشعر، واتخذ من الشعر وسيلة لكسب قوته على أبواب الأمراء ينتقل بينهم إلى أن استقر مقامه ببلاط المعتضد بن عباد، وهناك حاز على إعجاب المعتمد بن عباد الذي جعله وزيراً وصديقاً ومشيراً، فلما نذب المعتضد ولده المعتمد لحكم شلب جعل المعتمد من ابن عمار معيناً له، وتوثقت بينهما الصلات، وفي عام 461هـ/1069م عينه المعتمد في بداية حكمه والياً على شلب لفترة وجيزة، قبل أن ينقلب عليه، توفي 477هـ/1084م. ابن عذارى، المصدر السابق، 278/3. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 105/2. 220.

² حول أسباب هذه القطيعة بين الصديقين انظر: ابن الأبار، الحلة، 2/ 155 وما بعدها.

³ نفسه، 2/ 149-150.

⁴ نفسه، 2/ 157. المقري، المصدر السابق، 4/ 212. أغل جنثالث بالنيثا، تاريخ الفكر الأندلسي، تعريب حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. د.ت، ص 82. كرراز فوزية، المرجع السابق، ص 29.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

الملوك، فثار عند ذلك، وقصد البيت الذي هو فيه، فهش إليه ابن عمار، فضربه بطبرزين شق به رأسه...⁽¹⁾. وقد وصف ابن الأبار الوزير أبا بكر بن عمار فقال: "إلا أن مساوئ أفعاله ذهبت بمحاسن أقواله، أدمن الخمر وهون على نفسه الغدر، فأداه ذلك إلى رداه، وكان كالذي نفخ فوه و أوكت يداه"⁽²⁾، فقد اشترى مقتله بنفسه بسبب طموحه البعيد والشبهات التي دارت حول ولائه، ولاشك أن ظهور وتبلور صورة المرأة المشيرة مرتبط بتزايد الخطوة عند الأمراء والقواد.

والواضح أن صورة الرميكية الايجابية في الحال السياسي مقترنة بوقوفها إلى جانب زوجها، فهي التي نبهته إلى الخطر الذي أحرق به، والذي هدف إلى اقتسام ملكه، وهذا دليل كاف على احتلالها مكانة بارزة بالبلاط في حياة المعتمد، خاصة وأنه كان شديد الميل إليها⁽³⁾، ولعل وقع الكلمة وسحر الأدب وسرعة البديهة جعلتها تحتل عرش وقلب المعتمد معا، وظل المعتمد بقية حياته شديد الولع باعتماد الرميكية، وصارت هي عنده غاية المنى⁽⁴⁾، إذ كان يرى نفسه مضطرا لاستجابة كل ما تطلبه، مهما تكلف في سبيل تحقيقه⁽⁵⁾، ولابد من الانتباه على وجود بعدين رئيسيين في تفضيل المرأة وإلقاء مقاليد الأمور إليها داخل القصر، أما البعد الأول فأخلاقي، والثاني فنفسي جمالي، وهذا ما يلوح إليه ابن حيان حين يقول رافدا الصفات السابقة والتي تحمل على خطوة الأنثى: "أوتيت من اللبابة والفتانة واللفظ والحلاوة وجمال الصورة وعذوبة المنطق وحلاوة الإشارة وحلاوة الخليفة أفضل ما أوتيت أنثى"⁽⁶⁾.

وتحضر المرأة المستشار العسكرية في شخص الرميكية مرة أخرى، فقد كان هذا الأخير في قلق من خطر الإسبان⁽⁷⁾، وكان أعيان دولته يجتمعون به، ويشيرون عليه بالاستنجد بسلطان المغرب يوسف بن تاشفين؛

¹ المقرئ، المصدر السابق، 310-311/4. رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 297.

² الحلة، 134/2.

³ نلسم مرعشلي، المعتمد بن عباد، دار الكتاب العربي، دم، دت، ص 15.

⁴ لا يعني بالضرورة حب الرجل الأرستقراطي لمرأة بعينها الاقتصار على المرأة الحبيب في صلات الرجل الجنسية وحتى العاطفية، وإنما تفضيلها وحظوتها على غيرها، فالمعتمد أحب اعتماد وبقي على شعوره هذا إلى اليوم الأخير من حياته، ولم يمنعه ذلك من أن يتغزل بغيرها، بل امتلك ثمانمائة امرأة. صلاح خالص، إشبيلية، ص 101.

⁵ رينهارت دوزي، المسلمون في الأندلس، ج 3، تر حسن حبشي، د.ط، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م، ص 92-93.

⁶ ابن حيان القرطبي، المقتبس، ج 5، اعتنى بنشره ب. شالميطا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع ف. كورينطي و م. صبح وغيرهما، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979، ص 9.

⁷ وقد جاء عن تلك الوضعية الخاصة التي عرفتها الأندلس في علاقته مع نصارى الشمال "أن كل ساكن في الأندلس إنما هو كالأخذ بعنان جواد في سبيل الله، وذلك أنهم كانوا يسكنونها على رغم من العدو دمره الله. ولهم مع العدو وقائع كل يوم مشهورة وغارات معلومة للمجاورة التي بينهم على قتلهم وانقطاعهم عن أهل ملتهم، إذ أمامهم لحر مهلك و خلفهم عدو مدرك، والعدو-دمره الله- في وقرهم واتصال بلادهم. فلا ترى في

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

لوقف زحف الإسبان، وهو الرأي الذي لم يعجب زوجته، التي أخذت تحذره من العاقبة، فلما جاز يوسف ورأى التحف والذخائر المهداة له من المعتمد، كان هذا أول ما وقع في نفس يوسف من التشوف إلى مملكة جزيرة الأندلس⁽¹⁾، حتى أن تنبؤات اعتماد صدقت إلى حد بعيد؛ فبعد انتصاره في معركة الزلاقة (479هـ/1086م) صرح قائلاً: "كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد، صغرت في عيني مملكتي"⁽²⁾، خاصة أنه كان ذا شخصية طموحة، في ظل الانقسام والتشرذم الذي عرفته الأندلس في تلك الفترة، ولا يعدم في المقابل تأثير إغراءات أصحابه أثناء مقامه بقصر إشبيلية وتزيينهم لحسن الأندلس وتوفير المطعوم والمشروب والملبوس بها⁽³⁾ قائلين له: "أن فائدة الملك قطع العيش فيه بالنعيم واللذة كما هو المعتمد وأصحابه"⁽⁴⁾.

كما حضرت اعتماد في أعين المؤرخين والفقهاء بطريقة سلبية، إذ حُرِضت على التهاون في الواجبات الإدارية، فرميت بأنها ورطت المعتمد فيما أصابه من تهاون وخلاعة واستهتار ومجاهرة بها، وتعطيل صلوات الجمعة⁽⁵⁾، ناهيك عن الأموال التي تنفق في بلاط المعتمد إرضاء لزوجته الريمكية والتي تحملتها الخزينة، مما أدى إلى تدمير الناس، فكانوا كلما ذكرت بمحضرهم لعنوها، ولم يخفوا سخطهم عليها⁽⁶⁾ حتى كان المتدينين لا ينطقون أبداً اسم هذه السلطانة، إلا مستعيزين بالله ويقولون أنها هي التي تدفعه إلى الانغماس في الملذات

أرض الأندلس إلا عينا ساهرة في ذات الله أو مجاهدا في سبيل الله أو محارباً للعدو في طاعة الله". الزهري (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر)، الجغرافية، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت، ص 81.

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص 331، 335. ابن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج 5، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دت، ص 476-477.

² المراكشي، نفسه، ص 138. ابن الخطيب، أعمال، ص 163. محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري، الدار التونسية للنشر، 1984، ص 92. سيدبول.أ، تاريخ العرب العام، تر محمد عادل زعير، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1948، ص 285.

³ لم يغب عن ذهن المعتمد أطماع المرابطين في بلاده، ومع ذلك فإنه في غمرة ظروف وقته لم ير بأساً من استدعائهم؛ وهو ما يحسب له، على الرغم من تحذير أصحابه من وقوعه في شباكههم، وما عبارته الشهيرة إلا نموذج لذلك عندما قال: "حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير". مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه سهيل زكار عبد القادر زمامة، ط 1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص 45. الحميري، المصدر السابق، ص 288. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص 92. صلاح خالص، المعتمد بن عباد، ص 148.

⁴ المقرئ، المصدر السابق، 374/4.

⁵ نفسه، 272/4. أنخل جنتالث بالنثيا، المرجع السابق، ص 95. صلاح خالص، المرجع السابق، ص 61-62.

⁶ عبد الوهاب عزام، المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع، دار المعارف، مصر، 1959، ص 86.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

والفتن، وإذ رأوا المساجد غير عامرة بالمصلين يوم الجمعة، نسبوا إليها انصراف الناس عن الصلاة⁽¹⁾، ولاغرو أن هذا التفسير يعود في كثير منه إلى ذهنية فقهية متراكمة، ولدت استهجانا لمكانة وحضوة المرأة، زاد بروزها في كتب الحسبة والفقه وبعض الفتاوى الشرعية، فلقد كانت حرية المرأة في الأندلس منطلقا للانعتاق غير المعتاد، مكرسة بذلك صورة المرأة القائمة والناقصة العقل والدين، والتي استغلت حريتها لأغراض مخالفة للشرع والأعراف الاجتماعية، فتصوروها وصوروها في أغلب الأحيان مخلوقا خبيثا همه الدس والكيد، لا يسعى إلا لإرضاء شهواته وإشباع رغباته وفي هذا الصدد يقول ابن الحاج العبدري: "وحيلهن في هذا وغيره قل أن تنحصر"⁽²⁾، واستنادا إلى ذلك فهم يعاملونها بكل حيطة وحذر، ويحرصون على حفظهن في القصور والدور، في ظل انتشار مظاهر الترف في المجتمع الأندلسي والمقرون عندهم بتدخل المرأة في أمور السياسة وتولية أمور الناس، فهل النظرة هنا خوفا على السياسة من المرأة، أم خوف من تلاشي وذوبان الرجل في صورة المرأة السياسية المحنكة؟.

وقد تكون نظرة طبقة الخاصة للمرأة أيام الحروب والأزمات الداخلية والفترات الانتقالية في السلطة مغايرة للوتيرة السابقة، إذ يذكر صاحب التبيان المعاصر لأحداث تلك الفترة، أنه لما ظفر المرابطون بالمعتمد أخذ "خدمه وعبيده، حاشى أمهات الأولاد"⁽³⁾، وهو ما يعكس سماحة يوسف بن تاشفين وحرصه على مكانة المرأة الأم والزوجة .

ورغم ذلك، تنبع رؤية تركز إلى المصلحية واعتبارها مصدرا للمساومة، فبعد أن أخضع قادة المرابطين مملكة إشبيلية سنة 484هـ/1091م وظفوا المرأة الأم كورقة ضغط مع الأبناء المعارضين والمستمسكين بالمقاومة، مما جعل اعتماد تسارع بالكتابة إلى ولديها المتمركزين ببعض الحصون المنيعه؛ تستعطفهما في النزول عن تلك الحصون شفاعاة لوالدهما، بل شدد المرابطون "أن دم الكل منهم مسترهن بشوئهما"، وهو ما أتى أكمله حيث "عطفتهما عواطف الرحمة، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ... ونزلا الحصنين بعد عهود مبرمة"⁽⁴⁾، ولم يكن هذا ديدن الدولة المرابطية دائما، إذ يفهم أنه اقتصر على الطبقة الخاصة، بالإضافة إلى كونهم من أزواج المعارضين بالدرجة الأولى، واللاتي تخشى دعواتهن في التأليب على السلطة الجديدة وإثارة

¹ دوزي، المرجع السابق، ص 94.

² ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري)، المدخل، ج2، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص16-17.

³ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص206.

⁴ ابن خاقان، المصدر السابق، 85/1. المراكشي، المصدر السابق، ص204 .

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

الفوضى، ولا غرو أن للحروب الداخلية دورا أساسيا في التأثير على الأوضاع الاجتماعية، وما يتعلق بها بصورة المرأة، سببا وإذلالا وخرقا للشريعة والأعراف في بعض الأحيان.

وفي نفس الخط ينقشع موقف الشماتة من لدن بعض الشعراء الذي يحمل في طياته صورة المدبرة، والذين حملوها مسؤولية ما حدث في إشبيلية عند نفيها مع زوجها إلى أغمات عند قولهم:

في فؤادي من الرجال جروح وجروح من بعض كيد النساء

والزيمكية اللعوب أرادت طول حزني وغررتي وبكائي

ولم تفكر بأن أغمات دار لابن عبّادها وللأشقياء⁽¹⁾

وفي آخر حلقات حياة اعتماد تبلور صورة المرأة المنفية، بعد اسقاط المرابطين لإشبيلية لتوحيد جبهة الأندلس، بعد محاولات من ابنها عبد الجبار لانقاذها منهم، لتنفى بعدها رفقة زوجها نحو أغمات⁽²⁾.

ويبدو أن حزنها كان شديدا واضحا من خلال شعر زوجها⁽³⁾ المنفي في أغمات⁽⁴⁾ والذي ارتسم في خلده المرأة المقهورة حينما قال:

قالت لقد هُنا هُنا مولاي أين جَاهُنا

¹ حميدي مليكة، المرجع السابق، ص159.

² ابن بسم، المصدر السابق، 227/1/2. عبد الله ابن عساكر، وأبي بكر بن خميس، أعلام مالقة، تقدم وتعليق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الأمان، الرباط، 1999، ص263. المراكشي المصدر السابق، ص155، 141.

³ حول محنة المعتمد وأسرته التي مثلت خطأ هاما لصورة المرأة على اختلاف تجلياتها في المراحل الانتقالية للدول انظر: أحمد بن عبود، التأريخ والأزمات في الأندلس، قصة المعتمد بن عباد وابنه إسماعيل، مجلة البحث العلمي، العدد39، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1989، ص33-37.

⁴ لا بد من الإشارة إلى أن المعتمد كان متقلبا في حكمه للأمور، وظهر ذلك واضحا في استنجاهه بالمرابطين الذي يمثل ذروة مواقفه المتزنة، رغم نصح بطانته ومستشاريه وملوك عصره في الأندلس، ليؤثر جانب نصرته الإسلام في مقولته المشهورة، بل كان في الخطوط الأمامية في موقعة الزلاقة الشهيرة مع جيش يوسف بن تاشفين، لينقلب إلى التعاون مرة أخرى مع نصارى الشمال، رغم أن الظرف والحنة تسمو بالخلافات وتترفع عن المطامع الشخصية لتوحد القلوب والسواعد، وهي النقطة التي تحسب عليه والمركز الأساسي للجفوة بينه -حسب رأينا- وبين المرابطين بعدما بدأ يحس بشعبيتهم المتزايدة في مملكته وباقي الممالك، بل في العالم الاسلامي ككل، خاصة أنه من أقوى الكيانات السياسية بالأندلس وأفسحهم ملكا وأوسعهم ثراء وجاها، مع قدرة مملكته قيادة وتزعم المقاومة ضد الممالك الأندلسية تحت جناح ودعم المرابطين. عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص203-204. ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص106. ابن الخطيب، أعمال، ص163. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص350-351.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

قلت لها إلى هنا صَيَّرْنَا إِلَهًا⁽¹⁾

وهذه بشينة بنتها؛ يتحمر معها منظور الرأفة والرحمة للبنات من الخاصة في الحروب والمراحل الانتقالية بين الدول، حيث سلبها الدهر كل شيء، بعد أن بيعت في سوق النخاسة كما يباع العبيد، واشترها أحد تجار إشبيلية ووهبها لابنه للطفها وجمالها، فلما أرادها الابن امتنعت عليه قائلة له: إني لا أحل لك إلا بعقد نكاح، لأنني حرة وبنت ملك، ولا أتزوجك إلا برضى أبي الولي الشرعي، وأشارت على أهل الابن أن يوجهوا كتابا إلى أبيها السجين بأغمت، على أن تتولى هي كتابة الكتاب الذي ضمنته هذه الأبيات التي شكت فيها سطوة الزمان وقهره، عندما قلبت حياة عائلتها رأسا على عقب بقولها⁽²⁾:

لا تُنْكروا أَيْ سَبَيْتُ وَأَنْتِي بِنْتُ مَلِكٍ مِنْ بَنِي عَبَادٍ

ملك عظيم قد تولى عصره وكذا الزمان يؤول للإفساد

لما أراد الله فُرْقَةً شَمَلْنَا وأذاقنا طعم الأسى عن زاد

قام النفاق على أبي في ملكه فدنا الفراق ولم يكن بمراد

فَخَرَجْتُ هَارِبَةً فَحَازَنِي إِمْرُؤٌ لَمْ يَأْتِ فِي إِعْجَالِهِ بِسَدَادٍ

إِذْ بَاعَنِي بَيْعَ الْعَبِيدِ فَضَمَّنِي مَنْ صَانِنِي إِلَّا مِنَ الْإِنْكَادِ

وترسم صورة أخرى للمرأة الوفية لوطنها والتي وظفت كجاسوسة لقلب المعلومات، فقد كان للمعتمد بن عباد جارية شاعرة نشأت بالمغرب، أهديت له من قبل يوسف بن تاشفين، خاصة بعد انتشار إهداء النساء بين الملوك والأمراء، سيما الجميلات والمتقفات منهن، وبلغت عنده مكانة عليية، حتى كان يصطحبها في نزهاته، ورغم ذلك فقد صفيت برميها في النهر نتيجة شعرها الذي تمدح فيه المثلثين، عوض أن تخفف عنه

¹ ديوان المعتمد بن عباد، تح حامد عبد الحميد و أحمد أحمد بدوي، ط3، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000، ص114. المقرئ، المصدر السابق، 212/4.

² المقرئ، نفسه، 284/4. عمر قلعي، أغراض الشعر النسوي في الأندلس من عصر ملوك الطوائف إلى عصر المرابطين، ضمن كتاب: المرأة في الغرب الإسلامي الصفحات المشرقة والتحديات المحدث والأسئلة العالقة، تنسيق وتقديم عبد الباسط المستعين، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2016، ص386.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

كرهه، بعد أن بلغته أخبار عن نية يوسف بن تاشفين في انتزاع بلاد ملوك الطوائف منهم⁽¹⁾، وليس من المستبعد بعد رد فعل كهذا أن تكون من الجاسوسات اللاتي نقلن أخبار الدولة إلى المرابطين الذين نضجت طموحاتهم في الاستيلاء على دول الطوائف وتوحيد جبهة الأندلس.

كما ألقى انتقال السلطة في الأندلس بظلاله على تفهم ينم عن مكانة المرأة الجارية عند فئة ممتدة من المجتمع بما فيها السلطة، إذ يطالعنا نص فتوى يعود لسقوط إشبيلية في يد المرابطين وخلع سلطانها المعتمد بن عباد سنة 484هـ/1091م، يفهم منه موقف حفظ كرامة النساء، سواء من أسيادهن الذين طالبوا باسترجاعهن، أو من السلطة المرابطية التي اضطرت إلى إرجاعهن لأسيادهن بعد غضبهن من طرف الجند⁽²⁾، فالحروب الداخلية بنواتجها تلعب دوراً أساسياً في التأثير على الأوضاع الاجتماعية، وما يتعلق بها بصورة المرأة من ناحية تجاوز الأعراف في معاملتهن، وتُظهر شهامة المرابطين في ناحية أخرى، رغم حالة الصراع والتوسع الداخلي، في وقت كان فيه السبي أو الأسر جزءاً من معاناة المرأة واضطهادها في هذه الفترة، وهاجسا مثيراً لها ومهدداً لحياتها، وما للمرأة الأندلسية إلا أن تدفع ثمنها باهظاً كلما تعرضت دويلة للاختيار أو التقهقر سواء كانت هذه المرأة زوجة أو أختاً أو بنتاً أو مملوكة.

وللمعلومات الواردة في المصادر المسيحية إسهام كبير في تكميل أو مطابقة أو معارضة المعلومات الواردة في المصادر الإسلامية والعربية، إذ توافينا المتون التاريخية بتصور المرأة المرتدة عن دينها من منطلق عسكري انتقامي، في استمرار للموقف من المرأة الكافرة، فقد تزوج أشهر ملوك قشتالة وليون في القرن الخامس ألفونسو السادس⁽³⁾ من كنة المعتمد بن عباد الإشبيلي⁽¹⁾ المسماة سيده أو زائدة (Ceida. Zaida la Mora)

¹ المقرئ، المصدر السابق، 275/4-276. سحر سالم عبد العزيز، بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص 77. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ص 217. حياة قارة، النساء في فضاء البحر الأبيض المتوسط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2011، ص 177-178.

² الونشريسي (أبو العباس بن يحيى)، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج 9، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، ص 209. كمال السيد أبو مصطفى، دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة، مركز الإسكندرية للكتاب، القاهرة، 1997، ص 36.

³ ألفونسو السادس أو ألفونس وينطق أذفونش وأذفنش، ابن الملك فرناندو الأول، ملك قشتالة وليون بعد اقتسام مملكة والده، استولى على أماكن عديدة في الأندلس كقرطبة ومرسية وطليطلة، كان جمع كبير من ملوك الطوائف يؤدون له الجزية، ومن أشهر المعارك التي خاضها ونجح فيها معركة الزلاقة (479هـ/1086م) ومعركة أفلش (503هـ/1109م)، توفي سنة 503هـ/1109م. ابن الأبار، الحلة، 249/2. ابن عذاري، المصدر السابق، 50/4-52. ابن الخطيب، اللوحة، 56.

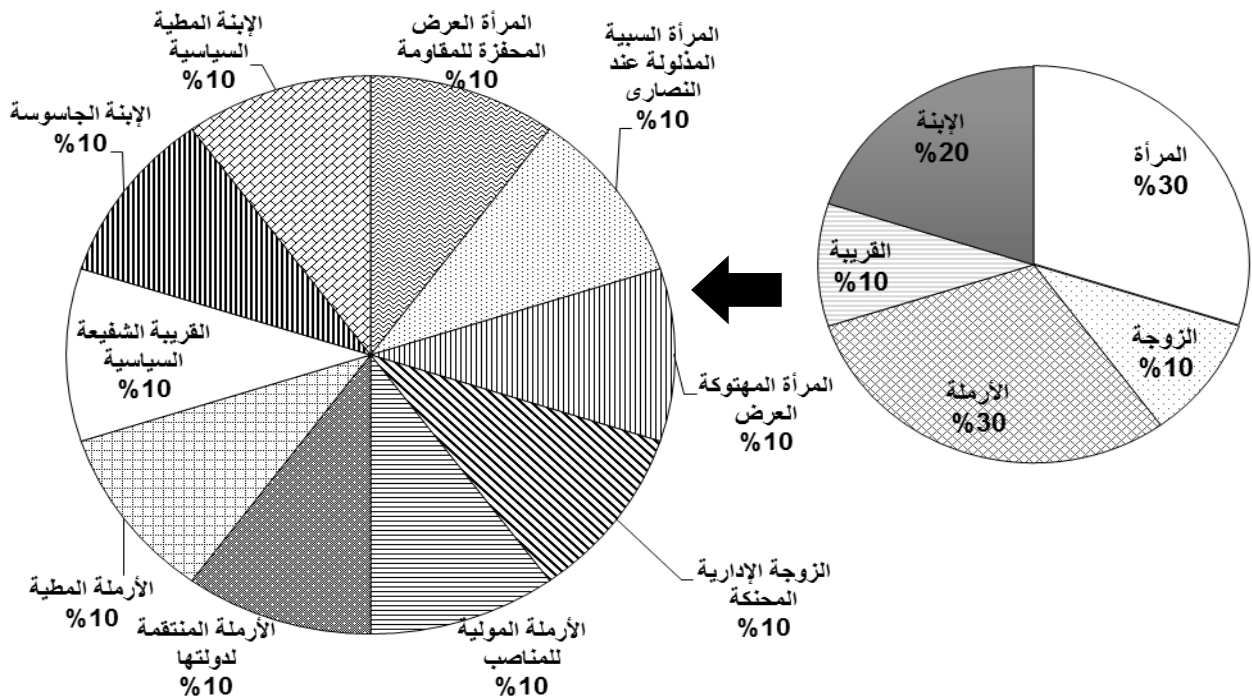
الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

وذلك بعد أن قتل المرباطون زوجها المأمون بن المعتمد، ولم تلبث أن أصبحت زوجة شرعية لأنفونسو السادس بعد أن تنصرت وأصبحت تدعى إيزابيلا أو ماري وأنجبت له ابنه الوحيد دون شانسو⁽²⁾، ولعل فعلتها هذه كانت حقدا على قاتلي زوجها من المرباطين، أو قد تكون إحدى إفرازات ظاهرة الجوّاري المنتشرة عصرئذ واللاتي لم يتعمق الإيمان في قلوبهن.

3- في دول الطوائف الأخرى⁽³⁾:

نتيجة انفصام عرى الخلافة في الأندلس، وتحزب كل قائد بالناحية التي تليه، والرغبة في التوسع على حساب جيرانه الضعاف، تبرز في خضم كل هذا رؤى متعددة للنسوة جاء على توضيحها الشكل التالي:

شكل رقم 05: أنماط حضور المرأة في دول الطوائف الأخرى



¹ حول هذه القضية التي اختلفت في صفتها ومسارها في أحداث أواخر الدولة العبادية انظر، ابن عذارى، المصدر السابق، 4/50. ليفي برونفيسال، الإسلام في المغرب والأندلس، تر السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مراجعة لطفي عبد البديع، مكتبة تحفة العرب، القاهرة، 1956، ص153-155. 160. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرباطين والموحدين، ج1، ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996، ص100. صلاح خالص، المعتمد، ص84.

² الونشريسي (أبي العباس أحمد بن يحيى)، أسنى المتاجر، تح حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1996، ص63-64. ليفي برونفيسال، نفسه، ص153-155. 160. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص345. يوسف أشباخ، نفسه.

³ نتيجة قلة صور المرأة في كل دولة من دول الطوائف على حدة، على عكس دولة بني زيري بغرناطة ودولة بني عباد باشبيلية، جمعت الحالات المبثوثة في هذا العنصر لتحقيق نوع من الانسجام مع بقية عناصر الموضوع المدرجة أعلاه.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

ومن أهم الملاحظات العامة التي يمكن الخروج بها من الشكل البياني:

- حضور متفاوت للمرأة، وإن عبرت مرة أخرى على الوضع السياسي المتدهور بتكرار حالات استغلالها من الطرف المناوئ، مسلما كان أو من دار الحرب.
- توظيف النسوة في لعبة السياسية داخل الدويلة في حد ذاتها أو خارجها، أصبح أمرا شائعا ومألوفا بغض النظر عن مآلاته (الجناسوسة، الإدارية المخنكة، المولية للمناصب...).
- أخذت مصطلحات القتال والسلاح والسبي حيزا كبيرا في هذا الشكل، مما يدل على مضمون الصراع وتزايد سواه داخليا أو خارجيا مع نصارى الشمال.
- بروز صورة الأرملة السياسية التي لم تتبعد بعد عن دواليب وحشيات الحكم رغم خروج الرجل الذي ارتبطت به من سيرورة الحكم (المولية للمناصب، المطية، المنتقمة).

وأولى الصور التي تصادف هذه الدول وجه المرأة المفضوحة المهتوكة العرض عند التوسعات الداخلية، ففي إطار هذا الواقع وصلته بالموقف من نساء الخصوم، يُورد ابن عذارى مشهدا من مأساة قبيلة "بني دمر" بمورور⁽¹⁾، حينما أغارت عليها عدة جيوش من دول الطوائف، تحت قيادة باديس أمير غرناطة، وحاصرت حصنا من حصونها " حتى دخلوه عنوة، فقتلوا رجاله عن آخرهم وهتكوا الأستار وفتكوا بالأبكار، حتى كانت دماؤهن تسيل على أقدامهن عاريات باكيات، واستحوذ السودان وسفال العسكر على النساء، فكانت أخبيتهن مملوءة منهن، إلى أن برح باديس بعد ثلاثة أيام عليهن فطردوهن عاريات حافيات وخرج نساء هذا الحصن إلى سائر القرى والحصون"⁽²⁾، ولعل مقاومة سكان الحصن كانت وراء هكذا رد فعل، مع أنها فعل غير

¹ هي إحدى ممالك الطوائف التي أسسها بنو دمر في جنوب الأندلس بعد تفكك الدولة الأموية في الأندلس إثر اندلاع فتنة الأندلس، كان بنو دمر من بربر زناتة، وفد جدهم أبو تيزري الدمري إلى الأندلس أيام الحجاب المنصور، وخدم في جيوشه. وفي زمن الفتنة أقطع سليمان المستعين بالله بني دمر مورور، فاستقروا بها، خلفه ابنه نوح بن أبي تيزري حتى وفاته عام 433هـ/1042م، ثم ابنه محمد بن نوح الذي تلقب بعز الدولة، دخلت في صراعات مع دول الطوائف للحفاظ على كيانها، توفي 445هـ/1055م بعد أن غدر بهم المعتضد، خلفه ابنه مناد بن محمد بن نوح الذي تلقب بعماد الدولة، حافظ مناد على أراضي مورور، إلا أن المعتضد واصل الضغط عليه، فهاجمه من حين إلى آخر فراسل المعتضد يسأله تسليم مورور والعيش في كنفه في إشبيلية، فوافق المعتضد على طلبه، وعاش مناد الدمري في إشبيلية حتى وفاته عام 468هـ/1076م. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 154-155.

² ابن عذارى، المصدر السابق، 269/3. محمد عبد الله عنان، نفسه، 2/ 154-252. كاظم شهود طاهر، الشيعة في الأندلس الخلافة الحمودية العلوية، ط1، دار الكتاب العربي بغداد، مؤسسة الصفاء للطبوعات لبنان، 2010، ص91.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

مقبول، كما لا يعدم من ناحية أخرى الجانب الدعائي، فهو رسالة إلى كل المناوئين والأعداء لبث الرعب في قلوب كل من لم يرضخ لهم.

وفي دولة بني حمود⁽¹⁾ خلال النصف الأول من القرن الخامس، تظهر صورة المرأة التي تتدخل في تولية المناصب والمحافظة عليها، إذ عملت سبيعة زوجة الأمير الحمودي يحيى القاسم بن حمود(ت431هـ/1039م) بعد وفاته سنة 431هـ/1039م على رجوع نجاء الصقلي⁽²⁾، بعدما أراد إخراج ولديها من الجزيرة الخضراء قائلة له: "يا أبا الفوز أقطع مواليك وتكشفهم في البلاد؟ ما هذا بحسن، فاستحي منها وانصرف إلى مالقة"⁽³⁾، ويدلل هذا على شخصيتها القوية والمؤثرة التي أسهمت في الحفاظ على الإمارة، محافظة بذلك على المناصب السياسية التي أقرها زوجها، ولاشك أن هناك أسباباً أخرى أساسية غير هذه، لخصها عبد الواحد المراكشي في فتور المقاتلة وعدم تحمسهم لمقاتلة صاحب الجزيرة الخضراء⁽⁴⁾، ولا غرو في أن رواية المراكشي هي القريبة إلى الصواب، إذ ليس من المنطقي أن يتخلى أبو الفوز عن مهمته حياء من امرأة. ونسجل على نطاق مغاير تظاهرها آخر للمرأة المنتقمة التي لا تنسى أصولها، حيث سميت الأميرة فاطمة بنت الحسن زوجها الحسن بن يحيى بن علي رابع حكام طائفة مالقة الحموديين سنة 434هـ/1042م، ثأراً لأخيها يحيى بن إدريس الذي قتله الحسن⁽⁵⁾، ومن اللافت للنظر في هذه الحادثة هو حضور رابطة الدم والغيرة من الأخت، التي استطاعت

¹ بنو حمود أسرة من البربر الأدارسة، بعد سقوط دولتهم دخلت إلى الأندلس زمن الفتنة، نازعت الأمويين على خلافة المسلمين في الأندلس، وبعد أن أقصيت عن الخلافة نهائياً عام 417هـ/1026م، أسس يحيى المعتلي بالله طائفة مالقة إحدى ممالك الطوائف التي تكونت في تلك الفترة. وفي عام 427هـ/1036م، استقل محمد بن القاسم المهدي بالله طائفة الجزيرة الخضراء التي انفصل بها عن طائفة مالقة، ظلت الطائفتان في صراع متواصل مع الممالك المجاورة، إلى أن استولى باديس بن حبوس حاكم طائفة غرناطة على مالقة عام 446هـ/1054م، واستولى المعتضد بن عباد على الجزيرة الخضراء عام 449هـ/1057م. ابن عذارى، المصدر السابق، 114/3-117. 124. 188. عنان، المرجع السابق، ص47-48. 123. كاظم شمهود طاهر، المرجع السابق، ص68-69.

² أبو الفوز نجاء الصقلي العلوي، خامس حكام طائفة مالقة في عهد الطوائف، كان وزيراً ليحيى المعتلي بالله، ساهم في التمهيد لتولي إدريس المؤيد بالله شقيق يحيى ووالي سبتة وطنجة، بعد وفاة إدريس ومشاكل العرش جهز جيشاً عبر به إلى مالقة وحاصرها لموقفه المدعم للحسن بن يحيى المعتلي بالله، فكافئه وجعله والياً على سبتة، بعد موت الحسن والفراغ الموجود في الدولة الحمودية عبر إلى مالقة وأعلن نفسه حاكماً، اغتاله جنوده سنة 434هـ/1043م. ابن عذارى، نفسه، 216/3-217. كاظم شمهود طاهر، نفسه، ص75-76.

³ ابن عذارى، نفسه، 216/3. كاظم شمهود طاهر، نفسه، ص75.

⁴ المراكشي، المصدر السابق، ص64.

⁵ الحميدي(أبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008، ص52. الضبي (أحمد يحيى بن عميرة)، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، مؤسسة الخانجي، مصر، 1884، ص60. ابن الأثير(أبي الحسن علي بن أبي الكرم)، الكامل في التاريخ، ج8، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص105. ابن الخطيب، أعمال، ص141. المقري، المصدر السابق، 432/1. كاظم شمهود طاهر، المرجع السابق، ص75.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

استغلال قريها من زوجها وتسميمه إنصافاً لأخيها، ويمكن التخمين أن سبب التصفية ناتج كذلك عن فتور العلاقة بين الأمير وزوجته، خاصة إذا قام ضمن المصاهرات السياسية الشائعة عصرئذ، والتي لم ترع بدرجة أولى رغبات الأنثى، بقدر ما بحثت عن أسباب لنسج علاقات جيدة.

وتستمر صور المرأة في التحلي في هذا المجال، إذ تنقش مرة أخرى صورة الأم المدبرة السياسية والمخططة الحربية في والدة الأمير الحمودي محمد بن إدريس المهدي (ت444هـ/1053م) وما كان لها من أثر على ابنها حيث كانت "تشدد منه وتقوي مُنته وتُشرف على الحرب بنفسها وتحسن إلى من أبلى"⁽¹⁾.

ومن جهة أخرى، فقد وقعت المرأة في أنواع كثيرة من الاستغلال جراء إدخالها في لعبة السياسة، لتتمظهر صورة المرأة السياسية المستغلة، ضعيفة الرأي، وقليلة الخبرة في وجدان بعض القادة الطموحين، فقد أحسن إسماعيل ذي النون الذي تلقب بناصر الدولة (ت435هـ/1043م) استغلال ضعف أرملة الفتى واضح العامري حاكم قلعة كونكة ليدخلها في حمايته، في خطوة أولى للسيطرة على القلعة، ومنطلقاً للتوسع وتشكيل مملكة طليطلة⁽²⁾، فهذا الرجل أحسن توظيف الظروف العصبية التي تمر بها الأرملة، وشدد على وتر ضعفها وحاجتها لمعين وحليف، كخطوة أولى نحو التوسع والسيطرة، في غياب حامٍ للقلعة.

كما يتخمر في أعين بعض القادة منظور المرأة السياسية المطية؛ فقد شكّل عنصر المصاهرة السياسية في عصر الطوائف خطأ من خطوط بروز صورة المرأة في الحياة السياسية، فهذا الأمير أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية (ت478هـ/1084هـ) يلتمس حماية المؤتمن بن هود صاحب سرقسطة سنة 477هـ/1083م، وقدم ابنته لتكون عروساً لابنه المستعين في مقابل ذلك، لتكون بادرة للتعاون وحسن الجوار وتوثيق الروابط، فوافقه المؤتمن⁽³⁾، ولاشك أن هذه الصورة تظهر ما تخلقه المصاهرات من إمكانيات للتعاون والتآزر، من أجل إقامة حلف قوي بين المملكتين، ولو اضطر الأمر إلى إدخال البنت في لعبة السياسة. وفي نفس السياق، يبرز تصور يعزز مكانة المرأة المكرومة المصانة في وجدان والدها، لدرجة تعكير العلاقات الخارجية بين الحلفاء، ففي إطار توسعات دول الطوائف على بعضها البعض، وظف سوء معاملة عبد الملك بن عبد العزيز أمير بلنسية (ت457هـ/1065م) لزوجته من طرف صهره أمير طليطلة المأمون بن

¹ ابن حزم، رسائل، 208/2.

² ابن بسام، المصدر السابق، 143/1/4.

³ ابن عذارى، المصدر السابق، ص304. حميدي مليكة، المرجع السابق، ص121. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص226.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

ذي النون في تسويغ ضم بلنسية سنة 457هـ/1065م، ونفي عبد الملك⁽¹⁾، لذا فإن التصورات نحو المرأة تجاذبته الظروف السياسية والعسكرية لهذه الدول، والمتأرجحة بين القوة والضعف، خاصة في فترة الفتن الداخلية.

ومن النساء اللواتي أثرن في حياة الرجل من الناحية السياسية بطريقة غير مباشرة؛ المرأة ذات العلاقات السياسية الواسعة المحبوبة، وتأتي على رأسها ولادة بنت المستكفي (ت484هـ/1091م)، إذ أثر التنافس في حب ولادة بين الوزيرين ابن زيدون وأبو عامر بن عبدوس، هذا الأخير الذي وصف بأنه "أحد أعيان المصّر، وبعض من هذى باسمها، وتصرف على حكمها"⁽²⁾، وما انجر عنه هذا الحب على ابن زيدون من سجن ومعاناة بسبب مكائد غريمه الذي كاد له عند ابن جهور⁽³⁾، ولولا هذا الغرام للمرأة المحبوبة ما ذهب شاعرنا إلى إشبيلية و لما حظي بقرب المعتضد ثم المعتمد⁽⁴⁾.

و تلقفت الأرجال التي شهدت انتشارا كبيرا في عصر الدراسة لبساطة تعبيراتها وعمق معانيها، أقول تلقفت صدى الحروب وما خلفته من ملامح المرأة التعيسة؛ إذ أصبحت النسوة تعاني بسبب عدم الاستقرار الذي عرفته الفترة، وخروج الرجال إلى ميدان الحرب وغياهم طويلا، ويلخص ذلك ابن قزمان متأسفا في قوله⁽⁵⁾:

وَالرَّيْضُ لَا شَيْخُوحَ وَلَا حُجَّاجَ

وَأَرَامِلَ مَلَّاحَ بِلاَ أَزْوَاجَ

وعلى الطرف الآخر؛ تأثرت بعض العلاقات الزوجية بسبب ضياع عقود الصداق، وذلك كثير في زمن الفتن والحروب الداخلية في الغرب الإسلامي عصر الدراسة، لتحيل إلى صورة المرأة الضحية، حيث تشير

¹ ابن عذارى، المصدر السابق، ص266-267، 303. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص223.

² ابن بسام، المصدر السابق، 1/1/432، 429.

³ هو أبو الوليد محمد بن جهور، ثاني حكام طائفة قرطبة في عهد ملوك الطوائف، نشأ نشأة دينية وتولى الحكم بعد وفاة أبيه أبي الحزم بن جهور عام 435هـ/1043م بعد أن أجمع عليه أهل قرطبة بسيرة حسنة كوالده، وعرف بالحلم والتواضع والزهد في مظاهر السلطان كما اشتهر بأنه قرب إليه المؤرخ ابن حيان والشاعر ابن زيدون، توفي سنة (462هـ/1068م). ابن عذارى، المصدر السابق، 2/221.

⁴ محمد سعيد الدغلي، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب الأندلسي، ط1، دار أسامة، الأردن، 1984، ص50.

⁵ ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق وتصدير فيديريكو كورينتي، تقدم محمد علي مكّي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1995، ص268.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

إحدى النوازل إلى غبن الرجل لزوجته بعد مطالبتها بكائها، نتيجة ضياع كتاب صداقها في هذه الأوضاع المتردية⁽¹⁾، ويمكن التخمين أن الزوج استغل هذا الظرف ليتنصل من دفع مستحقاته ويتهرب من مسؤولياته، سيما إذا كان صداقها مرتفعا، وليس بعيد أن تحريره كان تعبيرا عن رفضه للتغالي في المهور، وبمجرد أن أتيحت له الفرصة تنصل منه بالطريقة المذكورة.

وبسبب الصراع على السلطة بين ملوك الطوائف سقطت برشتر⁽²⁾ التي كانت تحت حكم المظفر بن هود (ت475هـ/1081م) حاكم لاردة⁽³⁾ سنة 456هـ/1064م، لتتمظهر نظرة المرأة المسلمة المذلولة في إطار الحملات العسكرية، ولعل من أبشع الأعمال التي بسطتها كتب المؤرخين هي حادثة انتهاك أعراض بنات ونساء المسلمين في وحشية مقززة، تجلى معها نظرة الحقد لنساء المسلمين في وجدان نصارى الشمال، إذ يقول ابن عذارى في ذلك: "وكانوا يومئذ يهتكون حريم أسراهم وبناتهم بحضرتهم إبلاغا في نكايتهم، ويعبثون في الثيب ويفتضون البكر، وزوج تلك وأبو هذه موثق في الحديد، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك أعطاهن لغلمانهم يعبثون فيهن"⁽⁴⁾، كما ذكر أن النساء كن يصعدن إلى أعالي سور المدينة، و ينادين من يدنو منهن من جنود الأعداء، وقد علّقن آنية بجبال مدلاة نحوهم، ويتوسلن إليهم في سبيل جرعة ماء لهن ولأطفالهن، وكان الجنود يقايضون إناء الماء بما لديهم من مال أو حلية أو كسوة، بل تخير قائد الحملة بعد دخول المدينة خمسة آلاف من أجمل فتيات المدينة وأرسلهن هدية إلى صاحب القسطنطينية وإلى بابا روما⁽⁵⁾، إعلانا وابتهاجا بفوزه على المسلمين ونكاية فيهم كنوع من أنواع الإذلال للمسلمات والإسلام، بعد أن كان السبي سابقا من

¹ الونشريسي، المعيار، 118/3.

² مدينة عظيمة في شرقي الأندلس من أعمال بريطانيا، لها حصون كثيرة، اشتهرت بكثرة العلماء. ياقوت الحموي(شهاب الدين رأي عبد الله)، معجم البلدان، المجلد1، دار صادر، بيروت، 1977، ص 370-371.

³ مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة، لها عدة كور وحصون، لها نهر يسمى سيقر، ينسب لها مجموعة من العلماء. انظر ياقوت الحموي، نفسه، 7/5.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، 184/1/3. ابن عذارى، المصدر السابق، 226/3. المقري، المصدر السابق، 449/4-451. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص149.

⁵ البكري (أبو عبيد الله)، المسالك والممالك، ج2، تح أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقق والدراسات، 1992، ص910. ابن عذارى، المصدر السابق، 225/3. ابن بسام، المصدر السابق، 186-185/1/3. المقري، المصدر السابق، 449/4-450. مجهول، الحلال، ص76. لطفي عبد البديع، قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج1، ج2، جامعة الدول العربية، 1955، ص286. دوزي، المرجع السابق، ص177. عبد الوهاب خليل الدباغ، التحدي الصليبي للوجود الاسلامي في سرقسطة الأندلسية(430-503هـ/1038-110م)، مجلة كلية الدراسات العربية والإسلامية، العدد21، دبي، 2001، ص238-239.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

الشمال إلى الجنوب، نتيجة انكماش الحمية الجهادية، ويقظة ما يعرف بحركة الاسترداد⁽¹⁾، وفي ظل غياب سلطة مركزية إسلامية قادرة على القيادة والتعبئة، وسيادة الفرقة والصراع بين باقي القوى الموجودة، ومع اختلال التوازن بين المسلمين ونصارى الشمال، وما نجم عنه من خمول على مستوى النشاط الحربي الجهادي، فأصبح المسلمون في موقع دفاع بعدما كانوا في موقع هجوم ومبادرة، ويمكن التأكيد بكثير من الاطمئنان أن اشتراك عدة قوى أوروبية من خارج شبه الجزيرة الأيبيرية في الهجوم المسلح العنيف والمتكرر على عدد من المدن الإسلامية ذات الموقع الاستراتيجي كبريشتر، أقول أن المسألة لم تكن إسبانية محلية، بل أكثر من ذلك بكثير، لا سيما بعد المباركة البابوية وتشجيعها لها. وتمشيا مع نفس الصورة يورد الفقيه ابن العسال⁽²⁾ أبياتا يقول فيها:

ولقد زمانا المُشْرِكون بأَسْهُمٍ لم تُحْطَ لكن شَأْنُهَا الإِصْمَاءُ

هَتَكُوا بِخَيْلِهِمْ قُصُورَ حَرَمِهَا لم يبقَ لا جَبَل ولا بَطْحَاءُ

جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا في كل يوم غَارَةٌ شَعَوَاءُ

مَاتَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِرَعْبِهِمْ فَحُمَاتُنَا فِي حَرْبِهِمْ جُبْنَاءُ

كَمْ مَوْضِعٍ غَنَمُوهُ لَمْ يُرْحَمْ بِهِ طِفْلٌ ولا شَيْخٌ ولا عَذْرَاءُ

وَلَكُمْ رَضِيعٌ فَرَّقُوا مِنْ أُمِّهِ فله إِلَيْهَا ضَجَّةٌ وَبَغَاءُ

وَلَزَبَ مَوْلُودُ أَبَوِهِ مُجَدَّلٌ فوق التُّرابِ وَفَرَشُهُ الْبِيدَاءُ

¹ اختلف المؤرخون في تحديد مفهوم حركة الاسترداد المسيحي (La Reconquista) هل تشمل مقاومة كل غاز لشبه الجزيرة الأيبيرية من القوى الأجنبية، أم أنها تقتصر على مقاومة المسلمين الذين فتحوها سنة 711م حتى طردهم منها وانتهاء وجودهم السياسي عام 1492م، والواقع أن الرأي الثاني هو الشائع لدى جبهة كبيرة من المؤرخين. محمد محمود النشار، دراسات في تاريخ اسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2007، ص9.

² هو أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال، شاعر وفقيه من طليطلة، اشتهر بالزهد والكرامات وإجابة الدعوات، ساهم في التحريض على الجهاد ضد نصارى الشمال، لما سقطت طليطلة ارتحل عنها وسكن غرناطة إلى أن وافته المنية سنة 487هـ/1095م. ابن الخطيب، الإحاطة، 463/3. ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)، التكملة لكتاب الصلة، ج4، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2011، ص22. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1993، ص21.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

وَمَصُونَةٌ فِي خَدْرِهَا مَحْجُوبَةٌ قَدْ أَبْرَزُوهَا مَالَهَا اسْتِخْفَاءً⁽¹⁾

ولا يخفى ما كان للشعر في العصور الإسلامية من دور لا في حياة الشعوب فحسب، بل في حياة الدول والممالك أيضاً، فالشعر عدا عن كونه أهم وسيلة للإعلام الرسمي والشعبي في تلك العصور، وهو ما تمثله الصحف والمجلات والإذاعات المرئية والمسموعة اليوم، فإنه كان الوسيلة الأكثر فاعلية في التعبير عما يختلج في النفس البشرية بكل حالاتها وتطلعاتها وأملها وآلامها وأتراحها وأفراحها، ولا شك أن الموقف من النسوة المسلمات هو الذي حرك سعي الشعراء⁽²⁾ إلى الخوض على الجهاد ورثاء حال المدينة⁽³⁾ ونسوتها، والتكلم بلسان حال الجماعة وتصوير ما آلت إليه المرأة المسلمة المسترقة المعذبة المستذلة، لتذكير الغافل وتشجيع المتردد، لا سيما أن قلق المسلمين على نساءهم أمر مسوغ وطبيعي في خضم نظام الرق المستشري آنذاك، واعتباراً لحرمة المرأة التي تشكل عرضاً مصوناً في الدين والعرف الاجتماعي يجب المحافظة عليه والدود على حماه.

وإمعاناً في تصوير المرأة السبية بسبب الحروب مع النصارى في الشمال لدى التاجر اليهودي⁽⁴⁾ بموازاة المجتمع المسلم، يروي لنا صاحب الذخيرة رواية ذات دلالة على طولها " تمثل لذوي النهى صورة البلوى التي تتوقع شروها، وهي ما حكاه لي بعض من أكاثبه بالشغور عن رجل من تجار اليهود، أتى بريشتر البائسة بعد

¹ الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص90-91.
² وحول تصوير الشعر لهذه النكبة وغيرها انظر: يوسف عيد، الشعر الأندلسي وصدى النكبات، دار الفكر العربي، بيروت، 2002، ص31-35.

³ تمتزج في مجال آخر المرأة المستشارة العسكرية بالمتدينة في وجدان سيدها، عند دخول ألفونسو السادس الذي دخل طليطلة مظفراً سنة 478/1085م على عصر الطوائف، فأوعزت زوجته الفرنسية بمعمة الرهبان بمحاولة طمس معالم الإسلام في المدينة وضرب أكبر رمز لذلك، لاجئة إلى تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة كبيرة، وهو ما ينهض دليلاً على صورتها الفضلى لدى زوجها وقطاع عريض من رجال الدين، وعلى طابع الحروب الدينية بين المسلمين ونصارى الشمال في الأندلس. ابن بسام، المصدر السابق، 168/1/4. المقري، المصدر السابق، 447/4. الأمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص380. مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، تر: لطفي عبد البديع، السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1995، ص72. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص33. محمد عبد الله عنان، الأندلس وآثارها الباقية، ص81.

⁴ اختص اليهود بعمليات الغداء في المنطقة بسبب شبكة العلاقات والاتصالات التي ربطوها في حوض المتوسط، بالإضافة إلى إتقانهم للغات الأجنبية التي تفرضها هكذا وظائف، ولا شك أن ازدياد عداوة نصارى غرب أوروبا للمسلمين في المشرق والمغرب نتيجة لمحاولاتهم المتواصلة لفتح جزر وأراضٍ تابعة لهم، حفز يضاف إلى عدم تجرؤ كل من التجار المسلمين أو النصارى من الوصول إلى بلاد الآخر، فأفسح المجال لليهود وخولهم فرصة ذهبية لسد هذه الثغرة. ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله)، المسالك والممالك ويليّه نبذة من كتاب الخراج، مطبعة بريل، ليدن، 1889، ص153. ابن عذاري، المصدر السابق، 41/4. الحميري، المصدر السابق، ص556. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص359-360. فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجري الموافق ل14-15 الميلادي، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، ص47. 233. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص28. كمال السيد، تاريخ مدينة بلنسية، ص277.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

الحادثة عليها، ملتصقا فدية بنات لبعض وجوه من نجا من أهلها حصلن في سهم قومس من وجوه الرابطة فيما كان يعرفه، قال: فهديت إلى منزله الذي كان نزله فيها، واستأذنت عليه فأجده جالسا مكان رب الدار مستوليا على فراشه، رافلا في نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما تخلفهما ربحما يوم محنته، لم يتغير شيء من ريشهما وزينتهما، ووصائف على رأسه روقة مضمونات الشعور قائمات على رأسه ساعيات لخدمته، فرحب بي وسألني عن قصدي، فعرفته وجهه، وأشرت له إلى وفور ما أبدله في بعض اللواتي على رأسه، وفيهن كانت حاجتي، فابتسم وقال بلسانه: لسريع ما طمعت من قرب فيما أبرزناه لك فعارض عمن ها هنا، وتعرض لمن شئت ممن صيرته بحصني من سبي وأسراي أقاربك في من شئت منهن"⁽¹⁾، ولا مشاحة أن يكون المسلمين أكثر حرصا على فك أسراهم، لحضور صورة المرأة الحرة لديهم، حيث ازداد حجم الأوقاف الموجهة لفداء الأسرى الذين وقعوا في قبضة النصارى بدار الحرب منذ القرن 5هـ/11م⁽²⁾، متجاوزة إنفاق العلماء إلى أصناف آخر من المحسنين، لإفكالك الأسرى الواقعين بيد العدو، والذي غدا خطأ معروفا في الأندلس، ينم عن كل ما يتصل بنظرة عطف وأنفة المجتمع للمأسورين عموما، والمرأة بالخصوص في أوقات الحروب والأزمات، والتي دنست من طرف العدو النصراني. ولعل تعدد خصال النساء المسيبات المسلمات في جانب آخر أمانة تدل على صورة المرأة المذلة المقهورة القائمة على روح انتقامية بقوله: "فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه، اصطفتيتها له مع جمالها لولادتي، حسبما كان قومها يصنعونه بنسائنا نحن أيام دولتهم، وقد رد لنا الكرة عليهم، فصرنا الآن فيما قد تراه، وأزيدك بان تلك الخود الناعمة - وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية - لمغنية السخين العين والدها التي كانت تشدو له على نشوانه، إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة - يناديها بلكنته - خذي عودك فغني زائنا يشجوك، قال: فأخذت العود وقعدت تسويه، وإني لأتأمل دمعها يقطر من خذها، فتسارق العليج مسحهن واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا، فضلا عن العليج، فصار من الغريب أن حث شربه هو عليه، وأظهر الطرب منه..."⁽³⁾، ويظهر أن موقف نصارى الشمال لم يكن بنفس المرونة والتسامح الإسلامي مع الأسيرات الأندلسيات اللائي تعرضن لشراسة الانتقام النصراني على الإسلام في الأندلس⁽⁴⁾، والتي أخذت في الأندلس منحا تصاعديا، في ظل خور أغلب قوى دول الطوائف، واستسلامها للملذات.

¹ ابن بسام، المصدر السابق، 186/1/3. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص358. أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة والتجار في الأندلس، تع فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، 2002، ص114.

² ابن عذارى، البيان قسم الموحدين، ص146. الونشريسي، المصدر السابق، 140/7.

³ ابن بسام، المصدر السابق، 187/1/3. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص358-359.

⁴ عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص155-156.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

ويمكن التخمين أن سبي النساء ومبلغ صورة المرأة المسلمة المضطهدة في أعين بعض أمراء الطوائف، والفضائع التي بلغها العدو عند الاستحواذ على المدينة؛ أقول شكل كل ذلك جوا عاما من الحزن الذي أصبح دافعا لرد فعل يوازي هذه المصيبة، وهو ما أدى إلى تلك التعبئة العسكرية الكبيرة لاسترجاعها تحت قيادة أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة⁽¹⁾، وهو ما تم في سنة 457هـ/1065م، ليرتسم في خلده خط المرأة الكافرة السبية، كرد فعل على ما حدث في بريشت في السنة السابقة " ففتحها الله عز وجل على يديه عنوة، فقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية، ودخل سرقسطة نحو خمسة آلاف سبية مختارة... ومذ ذاك تسمى بالمقتدر بالله⁽²⁾ ".

ولم تكن هذه هي الحالة المحفزة الوحيدة على رد فعل قوي في المنطقة، فبتاريخ لاحق ونتيجة سقوط بلنسية سنة 487هـ/1094م بيد القنبطور⁽³⁾ ومعاناة أهلها سيما المسلمات، عزم يوسف بن تاشفين على تعبئة جيش معتبر لاستعادتها⁽⁴⁾، انطلاقا من واجبه الإسلامي، وحفظا لكرامة الأهالي في المنطقة.

وتطالعنا الروايات التاريخية بتصور مزدوج ومتناقض في نفس الوقت للمرأة أثناء عملية الافتداء في الحروب والحملات العسكرية، ففي الحالة الأولى تتمظهر المرأة السياسية الحظية عند زوجها، لتتقلب النظرة إلى الدونية عند الحديث عن المرأة الكافرة المرتدة عن دينها، فقد استطاع مجاهد بن عبد الله العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية أن يفتدي زوجته جود النصرانية وبناته، بعد انهزامه وفشل مشروع البقاء في سردينيا⁽⁵⁾ بعد غزوها سنة 406هـ/1016م⁽⁶⁾، ولاشك أن للعرض والشرف دورا هاما في عملية الافتداء، لتتقلب الصورة إلى حال

¹ هو المقتدر بالله أبو جعفر أحمد سليمان بن هود، حاكم سرقسطة زمن الطوائف، شهد عهده تقدما حضاريا هاما، لعنايته بالعلوم على أنواعها من منطق وفلسفة وفنون، ناهيك عن اهتمامه بالعمارة، كما شهد عهده توسعا في حدود المملكة بعد أن أعاد توحيد المملكة، دفع الجزية لنصارى الشمال على غرار بقية ملوك الطوائف لمتاخمة أراضيهم، توفي سنة 474هـ/1080م. ابن عذارى، المصدر السابق، 223/3-224. 277-287. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 274-283.

² الحميري، المصدر السابق، ص91. لطفی عبد البديع، المرجع السابق، ص286. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص149.

³ الكمييدور أو الكنبطور: فارس قشتالي، تعني التسمية السابقة المحارب الباسل، اسمه الأصلي: رودريجو دياث دي بيبار، أما تلقبه بالسيد elcid فهو تحريف لكلمة السيد بالعربية، عاش في القرن 5هـ/11م، جال في أنحاء الأندلس مقدما خدماته للأمراء المسيحيين والمسلمين. ابن الخطيب، أعمال، ص203، محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص232.

⁴ ابن عذارى، المصدر السابق، 4/34.40. ابن بسام، المصدر السابق، 5/98. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 2/244.

⁵ حول مشروع التوسع على سردينيا وعوامل فشله انظر: عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية التاريخ الإسلامي لجزر البليار، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص147-149.

⁶ الضبي، المصدر السابق، ص457. ابن الخطيب، أعمال، ص219. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، 2/195. عصام سالم سيسالم، المرجع السابق، ص149.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

مغايرة تنم عن الإعراض عن المرأة الكافرة المرتدة عن دينها بعدما فضلت أمه النصرانية وأختها العيش في أرض المشركين والكفار⁽¹⁾، لذلك فإن السبي أو الأسر كان جزءاً من معاناة المرأة واضطهادها وهاجسا مثيراً لها ومهدداً لحياتها، وعنصراً مفرزاً لتعدد المواقف من السبية.

وقد أدى ترشيح مجاهد العامري لابنه علي إقبال الدولة (ت474هـ/1080م) ولياً لعهدده وملكاً على دانية والبلبار من بعده، إلى تأجيج العداء بينه وبين أخيه ولي العهد المخلوع حسن سعد الدولة الذي بيت الغدر له، لتتحلي صورة المرأة الشفيعية السياسية، كنوع من اللجوء السياسي لأخيها، ففي سنة 437هـ/1046م وقبل وفاة مجاهد العامري بأشهر قليلة فشلت حركة التآمر التي دبرها حسن ضد أخيه⁽²⁾، ليحاً إلى أخته السيدة أسماء بنت مجاهد العامري، بعدما ألحت على زوجها ملك بلنسية عبد العزيز بن عبد الرحمان المنصور (ت452هـ/1058م) في استضافته⁽³⁾، ولاشك أن إقدامه على هكذا خطوة، مع إدراكه ما قد تخلفه من خطر على دولته، يؤشر على باعها الطويل وحظوتها لديه وتدخلها في أمور سياسية وعسكرية عند عهد زوجها.

وإذا كان عقد المصاهرات مع الأقارب يتيح الوصلة والالتحام الداخلي للقبيلة، فالزواج من الأبعد لا يخرج عن كونه إلغاءً للحرب ووسيلةً للتحالف وحتى التجسس، ويكفي للدلالة على صدق هذا التخرج ما عرضته المصادر عند تعريجها على صاحب دانية علي بن مجاهد العامري الذي كانت له بنات فائقات الجمال؛ تنافس ملوك الطوائف على الزواج بهن، في وقت كانت فيه المصاهرات إحدى أهم المظاهر المنتشرة في عالم السياسة⁽⁴⁾، من أجل إيجاد نوع من التقارب السياسي والتعاون العسكري بين حكام المنطقة، فاستثمرهن

¹ الضبي، المصدر السابق، ص458. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص221. عصام سالم سيسالم، المرجع السابق، ص150. ويمكن التساؤل هنا هل النظرة في هاته الحالة لرافد الدين والغيرة على الإسلام؟ أم لتفريط والدته في عسرتهم وتفضيلها لغيرهم؟.

² ابن بسام، المصدر السابق، 169/1/3-170. ابن عذارى، المصدر السابق، 157/3. ابن الخطيب، أعمال، ص221.

³ ابن عذارى، نفسه، 158/3. عصام سالم سيسالم، المرجع السابق، ص166.

⁴ كان للزواج السياسي دور هام في كسب الخطوة أو تعزيز النفوذ، ومن أشهرها في عصر الدراسة بالمشرق تلك المصاهرة التي ربطت بين ثالث حكام السلاجقة طغرلبيك (ت455هـ/1063م) الذي زوج ابنة أخيه للخليفة القائم بأمر الله سنة 448هـ/1056م. وجدان حسن العزايزة، المرأة في العصر العباسي 447-656هـ/1055-1258م)، رسالة للحصول على درجة الماجستير في التاريخ، إشراف يوسف حسن غوانمة، جامعة اليرموك، الأردن، 1425هـ/2004م، ص74.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

علي وجعل منهن عيوننا وجواسيس لديه⁽¹⁾، وربما كان في ذلك إتاحة الفرصة للوصول إلى الحكم، والحصول على مرتبة سياسية عالية، ولتحقيق مكاسب ومرامي متعددة، إلى جانب التأكيد على التقرب وتوثيق العهود المبرمة، وتحقيق نوع من التعاون بين الممالك، وضمان الطرف الآخر.

وقد طبعت المرأة المربية في بعض الأحيان بتصور مدموم، لأنها لم تعمل جهدها في تكوين فرد مطلع بأعباء الجندية والخصال العسكرية في دولته، في الوقت الذي كانت قادرة فيه على عمل فرق، فقد جنح يحيى بن إسماعيل بن ذي النون ثاني حكام طليطلة (ت467هـ/1075م) إلى الدعة، تاركا أمور الدولة للخصيان والنساء يتصرفن فيها وفق مرادهن⁽²⁾، ولا يعدم في هذا المجال تأثير تربية الدلال في تكوين فرد مستهتر، مندفع نحو الشهوات ومنصرف عن تدبير أمور الجندية، في ظل استخدام العديد من الملوك للنساء الجواري في تربية أولادهن، لكن ذلك لا يمنح الحق بتحميل المربيات الوزر الأكبر من ذلك، رغم ما للنشئة الأولى من فضل في رسم معالم الفرد وميولاته، فأين هي شخصيته من كل هذا؟ ثم لماذا لم ينجرف بقية أمراء وملوك الدويلات الأخرى في نفس التيار، مع التشابه والتقاطع في نفس ظروف النشأة أحيانا؟.

أما سبي النصرانيات فيبدو أنه كان أخف وطأة وأكثر تفهما من سبي النصارى للمسلمات في الأندلس، إذ حفظت كرامتهن، وتمتنع بحرية العقيدة، أو اعتناق الإسلام على طيب خاطر، وعوملن معاملة حسنة في قصور الأمراء والأغنياء⁽³⁾، لاسيما إذا كانت الأسيرات ذات حسن وجمال وأصبحن أمهات أولاد.

هذا وقد شكلت الجواري الحسان دافعا أساسيا في إسلام بعض من تولى مناصب حكومية في بساط أمراء الطوائف من أهل الذمة، لتتخمر معها صورة المرأة المحفزة على إسلام القيادات الإدارية والسياسية في الدولة من غير المسلمين، فهذا اليهودي أبو الفضل حسداي بن يوسف⁽⁴⁾ الوزير في عهد حاكم سرقسطة المقتدر بالله بن

¹ العذري (أحمد بن عمر)، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تح عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، دت، ص29. ابن بسام، المصدر السابق، 266/1/4. ابن الخطيب، أعمال، ص219. عصام سالم سيسالم، نفسه، ص184.

² ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص79. مليكة حميدي، المرجع السابق، ص389.

³ Levi provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t3, Maisonneuve, paris, 1999, p178-179.

⁴ أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي، كان أبوه يوسف بن حسداي من بيت شرف لليهود بالأندلس، نال حظا في الشعر والعلوم والهندسة والموسيقى والطب أواخر الطوائف وبداية المرابطين، ابن خاقان، المصدر السابق، 547-545/2. ابن بسام، المصدر السابق، 458-457/1/3. ابن دحية (أبي الخطاب عمر بن الحسن)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبياري حامد عبد المجيد أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، دت، ص196. ابن سعيد، المغرب، 441/2.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

محمد بن هود؛ يروى أنه أسلم لشغفه " بجارية ذهبت بلبه، وغلبته على قلبه، فجن بها جنونه، وخلع إليها دينه، وعلم بذلك صاحبها، فزفها إليه ووضع زمامها بين يديه"⁽¹⁾، وليس هذا بغريب عن ظروف وملابسات العصر الذي شاع فيه الشغف بالجواري الحسان والتذلل لمن، على الرغم مما يحيط بهكذا دخول للإسلام من الغموض والمحاذير.

وبلغ النبوغ الإداري النسوي في الأندلس حدا معتبرا، حيث تشير المصادر إلى حادثة طريفة تنم عن صورة المرأة الإدارية، فقد روى المقرئ أن زوجة قاضي مدينة وادي لوشة كانت تساعد للبت في القضايا والنوازل المستعصية بين المتقاضين، إذ كان هذا القاضي يستأنس في حكمه عندما يستعصي عليه الأمر بما تشير عليه زوجته الفقيهة، حتى قيل أنها فاقت العلماء في الأحكام والنوازل، ما جعل القاضي محط سخرية فأنشدوه:

بَلُوشَةُ قَاضٍ لَه زَوْجَةٌ وَأَحْكَامُهَا فِي الْوَرَى مَاضِيَه

فِيَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُن قَاضِيَا وَيَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَه

وغبر بعيد أن هذا التعريض جعل القاضي يطلع زوجته على تلك الأبيات التي قيلت فيه، فكتبت على البديهة مُعْرِضَةً وَمُنْتَقِدَةً:

هُوَ شَيْخٌ سَوْءٌ مُزْدَرَى لَهُ شَيْبٌ عَاصِيَه

كَلَّا لَنْ لَمْ يَنْتَهَ لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَه⁽²⁾

ويلمح من خلال ردها وحضور بديهتها أنها كانت على قدر معتبر من العلم والأدب والتفقه في الدين، على الرغم إلى ما تشير إليه هذه الأبيات من الامتعاض من المرأة المتدخلة في شأن إداري لدى العامة، والذي يمكن تأويله بالتأثير الكبير للمرأة على هذا القاضي ذي المنصب الحساس والمهم، مع الأخذ في الحسبان أن ذلك لا يعني بالضرورة الإنقاص من قدر القاضي، بقدر ما يكون للنساء أحيانا تفهم ونظرة خاصة في أمور قضائية معينة مرتبطة بالنساء قد تكون غائبة على وجدان القاضي.

¹ ابن بسام، المصدر السابق، 458/1/3. المقرئ، المصدر السابق، 401/3. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص239.
² المقرئ، نفسه، 294/4. رواية عبد الحميد شافع، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الاسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة، ط1، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، مصر، 2006، ص176.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

ثانيا- العصر المرباطي:

اتسمت الدولة المرباطية بالطابع العسكري سيما في مراحلها الأولى، وسمح لهم هذا الأمر إقامة دولة في المغرب، ساهمت في بنائها النسوة، ما لبثت أن توسعت إلى الأندلس، لتشكل واحدة من أهم الدول التي جمعت بين العدوتين.

1- داخل الأسرة الحاكمة:

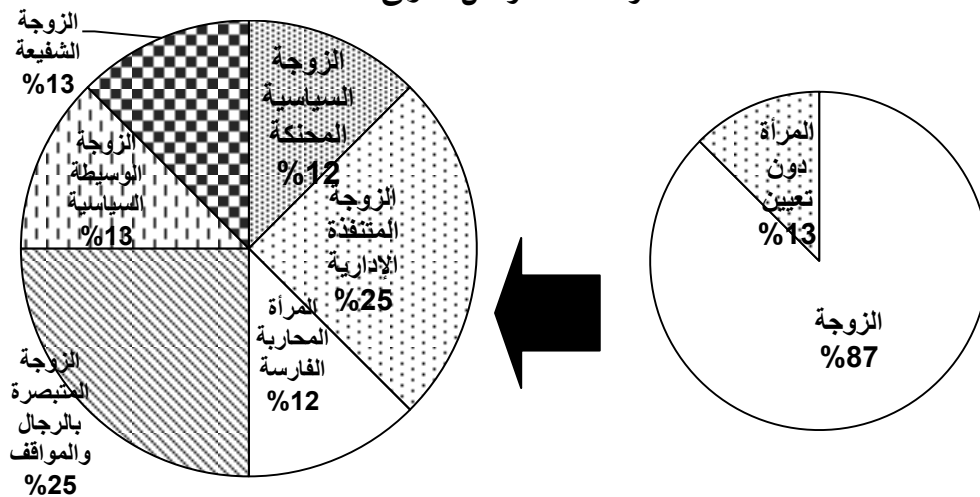
لقد أفردت هذا المبحث لنساء الأسرة الحاكمة نتيجة ما عرف به المرباطون من احترام للمرأة، والذي كان سببا في ولوجها مراكز حساسة لم تتوفر لغيرها، فقد وردت بأنماط تختلف عن نسوة العامة، إذ أسبغت عليها أوصاف عالية حيناً، وهبطت بها إلى التحقير في أطوار أخرى، وفي الشق الأول ركزت على صفات حميدة كالشجاعة والعطاء والعدل ورد الجور والشفاعة، كما تناولت الجور والخيانة والمؤامرات في الشق الآخر.

أ- في المراحل الأولى لقيام الدولة:

بدأ تدخل المرأة في المجال السياسي في مضارب المثلثين الأولى بالصحراء، ليتواصل إلى الأيام الأخيرة من سقوط الدولة، مفرزا صورا شتى حول هذا الحضور، والشكل البياني التالي يوضح طورا من أطوار ذلك:

شكل رقم 06: أنماط حضور المرأة داخل الأسرة الحاكمة

المرباطية "المراحل الأولى"



الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

ومن أهم الملاحظات التي تفصح عنها قراءة هذا الشكل:

- الحضور الطاغي للزوجة في الحياة السياسية بنسبة مرتفعة فاقت 87%، مما يؤكد على بلوغهن في وجدان أزواجهن القادة والأمراء شأنًا متعاضداً، ويؤكد على تجذر الطابع الأميسي للمجتمع المرباطي.
- إقترن هذا الحضور في الحمل بكل ما هو إيجابي، ومدعم لقيام الدولة واستمرارها وزيادة قوتها(الفارسية، المتبصرة بالمواقف ومعدن الرجال، الإدارية المكنكة، المستشار الحكيم...)

ففي فترة مبكرة من جنينية الدولة، كانت نسوة المرباطين يتمتعن بوسم المحاربات الفارسات، وقد كن يحاربن مثل الرجال إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ما ينبئ عن كفاءة عالية، وشجاعة في خوض غمار الحرب، فهن معتادات على القتال، متعطشات إليه، وما أنزلنه بجيوش الأعداء والخصوم كفيل بإثبات ذلك، وتوجد هناك إشارات واضحة إلى معارك حربية دارت في ديار لمتونة بالصحراء، خاضتها نساؤهم ملثمت في زي رجال لصد غارة على بيوتهم في غياب أزواجهن، وقد انتصرن على المعتدين⁽¹⁾، فتاريخ المرأة المحاربة يشكل جزءاً هاماً من التاريخ المرباطي، في ظل بيئتهم الصحراوية المحرصة للنزاعات على المرعى والانتجاع، إذ تحمل السيف وتدافع عن قبيلتها وأرضها، رغم أن هذا ليس ميدانها، لكن في الظروف الطارئة لم يفرق سيفها عن سيف الرجل. ولاغرو أن ابن رشد الحفيد استطاع بحسه الفلسفي أن يشرح ويفسر هذا الحضور، مرجعاً ذلك إلى الظروف السياسية التي تؤدي إلى "اشتراكهن في صناعة الحرب وغيرها، فذلك بين من حال ساكني البراري وأهل الثغور"⁽²⁾، ولا مشاحة أن هكذا حالات تعلق تساوي المرأة مع الرجال في المسؤولية، سيما في المناطق التي يقل فيها الرجال كالثغور، بفعل الحروب المستمرة، أو التي يضرب فيها الرجال للتجارة، والتي تؤدي لا محالة إلى نزف ديمغرافي رجالي كبير، يغطي في الغالب بما توفر من نسوة يتلمس فيهن حسن التدبير، خاصة إذا كان الرجل بعيداً عن الأسرة في التجارة أو الرعي.

وتسمح الروايات التاريخية بتتبع تصورات متميزة للنسوة في عهد المرباطين، لا سيما للمرأة التي كانت قريبة من مركز القرار، والتي ضحت بكل ما تملك في سبيل التمهيد لقيام الدولة، وحسبنا في ذلك السيدة زينب النفزاوية (ت464هـ/1072م) زوج يوسف بن تاشفين التي كانت خير نموذج للمرأة المرباطية حين نتحدث عن علاقة المرأة بالسلطة، إذ استطاعت أن تترك بصماتها في تاريخ المغرب في العصر الوسيط، وظلت حية في المخيال الجماعي، كصورة رمزية للمرأة السياسية الحكيمة، والمستشارة الشخصية التي ساعدت زوجها "وبسطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة، فأركب الرجال الكثيرة... وجند الأجناد وأخذ في

¹ ابن خلكان، المصدر السابق، 129/7. أحمد مختار العبادي، صور من حياة الحرب والجهاد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000، ص 97.

² ابن رشد، الضروري، ص 124-125.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

جمع الجيوش"⁽¹⁾، وما اعترف يوسف بن تاشفين الذي يمثل قمة هرم الدولة المرابطية إلا تصور لحظوة زوجته⁽²⁾ في الاستشارة العسكرية، فورود ذكرها في الجماعة إلى جانب المستشارين وأسماء ثقيلة في الدولة المرابطية مؤثر لصورة المرأة السياسية ومدى نجاحها في فرض نفسها على الساحة السياسية حتى أصبحت حديث العام⁽³⁾ والخاص، إذ لم يتورع ابن تاشفين بالتصريح في كم من مناسبة " لبني عمه إذا خلا بهم وورد ذكرها: إنما فتح البلاد برأيها"⁽⁴⁾، ولاشك أن دفعا كهذا في جنينية الدولة المرابطية ينم عن توفر امرأة حازمة ذات مواصفات زعاماتية وافرة الذكاء شديدة الاخلاص لزوجها ولدولتها رغم كونها من خارج البيت اللمتوني⁽⁵⁾، كما ينهض دليلا على حنكتها في التخطيط وهندسة مسارات الحكم، والوصول بابن تاشفين إلى سدة السلطة، بعيدا عن التبصر والكهانة التي رميت بها، لأنهم لم يستطيعوا ببساطة أن ينكروا حضورها وقوتها.

ويبدو أن بعض القضايا السياسية الحساسة والمصيرية في الأطوار الأولى للدولة المرابطية كانت مناط تبلور الصورة السياسية لدى زوجها، فعندما بلغ الأمير يوسف أن ابن عمه الأمير أبا بكر بن عمر أمير

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، 22/4. الناصري(أبو العباس أحمد بن خالد)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، الدولتان المرابطية و الموحدية، تحقيق و تعليق محمد الناصري، جعفر الناصري، الدار البيضاء، 1954، ص21. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1980، ص352.

² كانت زينب النفزاوية مثال المرأة الطموحة، فريدة زمانها في مطلبها ومرماها حتى وصفت بالحمق، ففي الوقت الذي بدأت تستقيم فيه الأمور للأمير أبي بكر بن عمر المرابطي وهو بأغمت، إذ ترمى إليه أن امرأة جميلة لبيبة تنزل بها تعرف بزينب النفزاوية وقد ذاع ذكرها وأمرها في قبائل المصامدة وخارجا، وكان يخطبها أشياخهم وأمرؤهم فتمتنع مع ما يحمله هذا الموقف من صورة المرأة المسككة لزاما أمورها والمتمتعة بالحرية والمكانة والكرامة وعدم الجبر في وسطها، بل ترفض منوثة بقولها: "لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله"، فكانوا يرمونها بالخبل والحمق والسحر لذلك. ابن عذاري، المصدر السابق، 18/4. حياة قارة، المرجع السابق، ص154.

³ وما يؤكد رجاحة عقلها وذكاءها وصورتها المتميزة في مخيال المجتمع الرجالي في فترة المرابطين، ما حكاه ابن الأثير عن نفر الثلاثة الذين اجتمعوا فمضى "أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتنمي الثاني عملا يعمل فيه لأمر المسلمين، وتغني الآخر زوجته النفزاوية وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده، فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر، وقال للذي تغني زوجته: يا جاهل ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه، ثم أرسله إليها، فتركته في خيمة ثلاثة تحمل إليه كل يوم طعاما واحدا، ثم أحضرته وسألته وقالت له: ما أكلت هذه الأيام؟ قال: طعاما واحدا، فقالت: كل النساء شيء واحد، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقتها"، وهو ما يحيل على حضورها الكاريزمي القوي، فتحاسب وتعاقب وتغفو، خاصة أنها جمعت المال والسؤدد والجمال والمكانة والحظوة. ابن الأثير(عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد)، الكامل في التاريخ، ج9، راجعه وصححه، محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص99.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق، 30/4. النويري، المصدر السابق، 146/24. محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسية إلى مدينة العلم، دار الوعي، الجزائر، 2009، ص23.

⁵ خاصة إذا أخذ في الحسبان أن أغلب نساء البلاط المرابطي من قبيلة لمتونة التي قامت عليها الدولة، وزينب خارج هذه المجموعة، أقول إن هذا لينهض على ذكائها وطموحها وحيويتها في الحياة السياسية، إذ السبيل إلى تبوأ هذه الصورة ليست من السهولة بمكان، مقارنة إن كانت من لمتونة، ولعل ما أفادها ركون المجتمع المرابطي لحضور المرأة .

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

المرابطين(ت480هـ/1087م) قد أخذ في الرجوع من الصحراء إلى بلاد المغرب؛ اغتم لذلك، سيما بعد ترتيب ما رتب من الأجناد، وتطويع البلاد، وتفتق طموحاته لتوسيع المملكة، فعرفت زينب ذلك في وجهه، فقالت له موسية: "أراك مهموما مكروبا من وصول ابن عمك إلى ملكه الذي ولاك عليه"⁽¹⁾، لتشير عليه بمجموعة أساليب محكمة، تمزج بين إظهار الخضوع والملاطفة والترغيب بالقوة؛ تمثل نموذجا لتفهم نفسية القادة، ومعرفة لبواطن القوة والضعف فيهم، بحكم أنها كانت زوجته سابقا، وتعرف طباعه وزهده قائلة: "إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه، ولكن بادره بمدية جليلة فلا يقاتلك على الدنيا، فإن الرجل خير لا يستحل سفك دماء"⁽²⁾، وهو ما حدث بالفعل، ففي سنة 465هـ/1071م كان وصول الأمير أبي بكر بن عمر من صحرائه إلى مراكش "فوجد يوسف قد استبد بالمملكة، وأعجبته الإمرة و طاعت له جميع البلاد الغربية، فعلم أنه مغلوب عليه، وعزم على تسليم الأمر إليه"⁽³⁾. هذا وقد حضر الرقيق النسوي كتطبيب للخاطر ووسيلة لدرء الفتن السياسية على صورة الرقيق الهدية السياسية في وجدان زينب، فبمناسبة عودة أبي بكر بن عمر اللمتوني من الصحراء وتطيبا لخاطرهم وصرفا له عن حكم بلاد المغرب، قام الأمير يوسف بن تاشفين بتقديم هدية تضمنت إضافة إلى الأفراس والبغال والسيوف والبرانس "عشرين جارية أبكارا، ومائة خادم، وإحدى وخمسين خادما"⁽⁴⁾، وهكذا ولم تقتصر مساعدتها لزوجها على الجانب اللوجستي، بل تعدته إلى الجانب المعنوي والنفسي، وهذا الأخير أهم وأنفع وأصلح من الأول، لما يقتضيه خبرة واسعة في أمور الحكم، وفن في الإدارة والمداورة، وتجنب الدولة الفتية صراعا على السلطة قد يذهب بأساسها.

ومما زاد من مكانتها صورة الخبرة في وجدان بعلها، فقد رتقا المتميزة على تلقف وتمييز الكفاءات وأصحاب المواهب الذين أثبتوا جدارتهم بالنصح والتوجيه والإرشاد لأركان الدولة، معبر لهذه النظرة، التي أظهرت صدق حدسها حين إشارة ونصح عبد الرحمان بن أسباط الكاتب الأندلسي على يوسف بن تاشفين بقبول مساعدة ملوك الطوائف شرط تسليم المعتمد للجزيرة الخضراء، كموطئ قدم ونقطة عبور، يجعل فيها جنده وسلاحه وكبار مستشاريه⁽⁵⁾، ولا بد أن هذا الحدس الصائب، والرؤية الدقيقة للكفاءات الملائمة زاد في

¹ ابن عذارى، المصدر السابق، 23/4.

² نفسه، 23/4. الناصري، المصدر السابق، 20/2. كراز فوزية، المرجع السابق، ص44.

³ ابن عذارى، نفسه، 24/4. الناصري، نفسه.

⁴ المراكشي، الحلل، ص27-28. ابن عذارى، نفسه، 26/4.

⁵ مجهول، الحلل، ص49-50. ابن الخطيب، الإحاطة، 523/3. عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ص169. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 53/3.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

حظوتها عند الأمير المرابطي. وزاد قدرها حتى بلغ من سلطتها أنها تتمتعن القضاة على سلطتهم المتعاضمة، لتبلغ بذلك درجة المتنفذة في مرآة من كتبوا عنها، وحادثة القاضي أبا محمد عبد العزيز السوسي الصوفي⁽¹⁾ الذي أمتحن على يديها وسبق إليها مكبلا ماثلة في الأذهان⁽²⁾، ويبدو أن الثقة العمياء الممنوحة لزنب جعلتها تستدعي وتمتحن من تشاء، ولو كان من أفاضل الناس، كما يمكن أن يكون امتناع هذا الرجل الصالح الفقيه من تولي مسؤولية عرضت عليه لانقطاعه عن الدنيا وزهده عن المناصب.

ولعل قصتها مع القاضي والأديب زهون المعروف بابن خلوف ارتسام آخر لصورتها الإدارية المتميزة، فبعدها استتب الأمر ليوسف بن تاشفين، واستكمل معالم دولته، وجدت لنفسها صلاحيات أخرى داخلها، ومنها أنها كانت مسموعة الكلمة عند زوجها، حيث بلغ زنب أن القاضي مدح الحرة حواء وزوجة سير بن أبي بكر⁽³⁾، وفضلها على سائر النساء بالجمال والسودد، فأمرت بعزله⁽⁴⁾، ولم تردّه إليه إلا بعد رضاها عليه، وتطليق حواء مجازا من زوجها.

وهو ما استلطفته، فقالت له زنب يا قاضي طلقته منه، فقال: نعم ثلاثة وثلاثة وثلاثة، حينها كتبت إلى يوسف برده إلى منصبه⁽⁵⁾، ويظهر من أخبار هذه المرأة أنها كانت حازمة بارعة في تدبير شؤون الدولة، وافرة

¹ هو أبو محمد عبد العزيز التونسي، فقيه زاهد، أصله من تونس، أخذ الفقه عن أبي عمران الفاسي، وأبي إسحاق التونسي، سكن مالقة وغيرها من بلاد الأندلس، واستقر أخيرا بأغمات، درس الناس الفقه ثم تركه لما رآهم نالوا به من الخطط والعمالات، توفي بأغمات 486هـ. كتاب الصلة لابن بشكوال ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي، ج2: كتاب الصلة، تح شريف أبو العلا العدوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص 22. ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تح أحمد التوفيق، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص 92.

² القاضي عياض (عياض بن موسى بن عياض السبتي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج8، تح سعيد أحمد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1983، ص168. عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء، ص169.

³ هو الأمير سير بن أبي بكر، ابن عم يوسف بن تاشفين، وأحد القواد الكبار الذين كان يعتمد عليهم، أوكل إليه أمر الأندلس سنة 483هـ/1090م، استطاع القضاء على دولة بني عباد بإشبيلية، كما عزا معظم مدن الطوائف ناهيك عن محاربه للإمارات المسيحية، توفي 507هـ/1113م. ابن عذارى، المصدر السابق، 56/4. ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص141. 147. 161-162.

⁴ ولابد من التوقف عند هذه الصور المثبوتة في المصادر والتي تحيل إلى ميزة قل حضورها لدى نساء البلاط، وهي تنزهها في الغالب الأعم عن التورط في مكائد ومؤامرات القصر من قتل وتآمر وتسميم وتحريض وقتل بالخصوم والمناوئين، كحال قطاع عريض من نساء خلفاء وأمرأ ذلك العصر في المشرق والمغرب، بل تركزن كل فعاليتنا إلى الإيجابية والفائدة لزوجها وللدولة من منصبه.

⁵ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج24، تح عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص146. عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء، ص169-170. كرزاز فوزية، المرجع السابق، ص46-47. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص359.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

الذكاء شديدة الاخلاص لزوجها الذي أحلها مكانا رفيعا في قلبه وقصره، فكانت تساعد في تدبير مهام الحكم وأعمال الدولة بشيء من الذكاء والبصيرة وحسن التصرف، وحتى التجاوز أحيانا، وتسهر معه على سلامة الدولة.

ورغم إشارة المصادر التاريخية إلى تشبث قطاع عريض من النساء المرابطيات بالتشريعات الدينية الإسلامية وإيلاء مسألة الأيمان والندور حيزا هاما في حياتهن كما فعلت الحرة حواء بنت تاشفين عند عودتها إلى دار الإمارة مع زوجها الجديد⁽¹⁾، أقول في مقابل هذه الصورة المتدنية لحواء بنت تاشفين نجدها لا تتورع على اقتراح تصرف غريب يتنافى مع ماهو مبثوث سابقا، إذ قامت بمساعدة خدمها وعبيدها على تسميم زوجها بإفساد الماء الذي يشربه، مما سبب له مشاكل عقلية جعله لا يقدر على التمييز وضبط الأمور، بل أصبحت تراوده الوسواس والهواجس⁽²⁾، فهل وصل بها المقام إلى ارتكاب هذا الفعل نتيجة مشكل دار الإمارة، والتي حلفت بعدم العودة إليها، أم أن الأمر تعلق أولا وأخيرا بمشاكل عائلية بينهما.

ويتلمس مرة أخرى ملمحا هاما لوجه المرأة الوسيطة السياسية في حواء زوجة تاشفين بن يغمر صاحب تلمسان من قبل يوسف بن تاشفين، أقول هذه الزوجة عملت جهدها في تلافي الحصار الذي ضربه المنصور بن الناصر الحمادي (ت498هـ/1105م) صاحب القلعة سنة 496هـ/1103م عليهم عندما خرجت إليه "متذمة راغبة في الإبقاء، متوسلة بوشائج الصنهاجية، فأكبر قصدها إليه وأكرم موصلها، وأفرج عنهم صبيحة يومه، وانكفأ راجعا إلى حضرته بالقلعة"⁽³⁾، ومع مجازاة هذا الطرح وتفسير التراجع باحترام أواصر القرابة، إلا أن ظروف المرحلة وطبيعة الموقف تنأى عن هذا الود الزائد والرحمة المفرطة، ويمكن التخمين أن قوة المرابطين على عهد يوسف، وتوقع صاحب القلعة لرد فعله مسوغ منطقي إلى تعليل هذا التفاوض والانكفاء.

¹ ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد)، فتاوى بن رشد، ج2، تقدم تحقيق وجمع وتعليق المختار بن طاهر التليلي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987، ص1223-1224. ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحاج التجيني القرطبي)، نوازل ابن الحاج التجيني، ج3، دراسة وتحقيق، أحمد شعيب اليوسفي، مطبعة تطوان، تطوان، 2018، ص603. الونشريسي، المصدر السابق، 65/2-66.

² ابن زهر (أبو مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي)، التيسير في مداواة والتدبير، تح ميشيل حوري، المنظمة العربية للتربية والتعليم، دمشق، 1983، ص98. عصمت عبد اللطيف دندش، أدوار، ص176-177.

³ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، تاريخ ابن خلدون، ج6، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ص234. كرزاز فوزية، المرجع السابق، ص48.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

وبلغ من نفوذ نساء المرابطين حضور صورة المرأة الشفيعية، فكان قبلة أصحاب الحاجات يلتمسون وساطتهم، فقد كتب الشاعر ابن خفاجة (ت533هـ/1137م) إلى الأميرة مريم بنت أبي بكر بن تيفلويت يستشفع بها إلى زوجها الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف⁽¹⁾ في أبيات جاء في مطلعها:

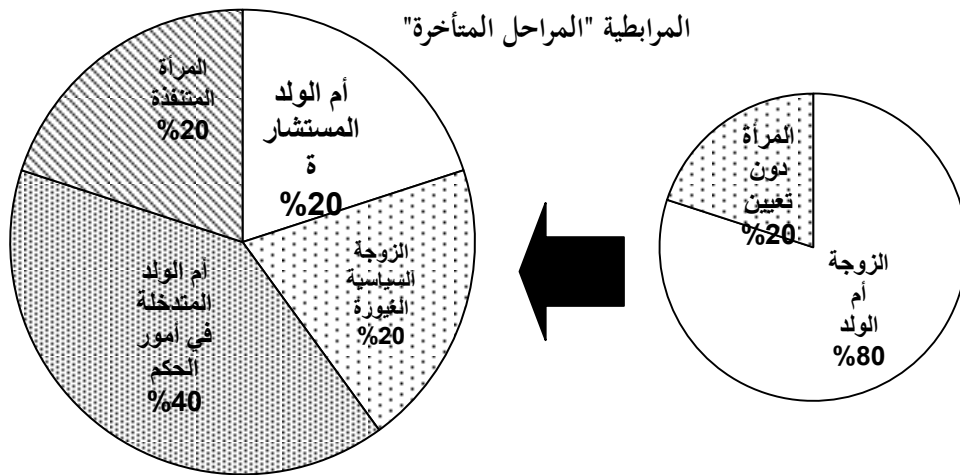
يَمَّمْتِ مِنْ عَلَيَّكَ خَيْرَ مُيَمِّمٍ وَحَلَلْتِ مِنْ مَعْنَاكَ دَارَ مُحَيِّمٍ

فما إن وقفت على ما كتب، حتى نفذ العهد بحمله على أتم وجوه البر والمحافظة والمكارمة⁽²⁾، وهو ما يجلي مرة أخرى على الخطوة الإدارية التي كانت لنسوة خاصة المرابطين، والتي يبدو معها في آخر خيرية هؤلاء الممدوحات.

ب- في مراحل متأخرة من الدولة:

استمر تدخل النساء في الشؤون السياسية إلى عهود متأخرة من الدولة المرابطية، مع اختلاف في الظروف والأدوار والمواقف وحتى النتائج، والشكل التالي ينطق بذلك:

شكل رقم 07: أنماط حضور المرأة داخل الأسرة الحاكمة



¹ هو أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، ابن يوسف بن تاشفين، وأخ أمير المسلمين علي بن يوسف، ولي حكم غرناطة بين سنتي 500-503هـ/1107-1111م، ثم نقل إلى تلمسان، وعاد مرة أخرى نائبا لأمر المسلمين على الأندلس بين سنتي 515-516هـ/1123-1124، عزل في سنة 520هـ/1126، وهي السنة التي توفي فيها. ابن عذاري، المصدر السابق، 50/4. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص164. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 46-45/3. 61-60/3.

² ديوان ابن خفاجة، تح السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1960، ص96. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص316.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

ويبرز من خلال هذا الشكل:

-دخول نوع آخر من الزوجات متعلق بأمهات الأولاد بنسبة مرتفعة بلغت 80%، والذي يفسر في جزء كبير منه إلى ميل المرابطين إلى الدعة والترف بعد توسع الحضارة وضم الأندلس.

- ينحو تدخل أمهات الأولاد إلى السلبية والتأثير على وقع الحياة السياسية بالدخول في صراعات حول ولاية العهد، وتصديق الجبهة الداخلية، ليتجاوز هذا التأثير الواقع السياسي نحو الحياة الاجتماعية .

فهذه أم الولد "قمر" تبلغ شأنًا عظيمًا في حياة علي بن تاشفين، فكان لا يعقد أمرًا إلا باستشارتها، لتتضح معها صورة المرأة المستشارة المؤثرة في القرارات السياسية والإدارية، ومن أقرب الناس إلى السلطان وأشدّهم بأسًا، ولو بحجم تولية الجيوش؛ حتى أنه لما عين ابنه تاشفين على ولاية الأندلس ونتيجة بلائه الحسن في حماية الثغور والدفاع عليها، ناهيك عن جهاده للنصارى، ومع ذبوع صيته وحب الرعية والجند له لتملكه نفوسهم بالعدل والإحسان، تتبلور صورة المرأة الغيرة سياسيًا، سيما أن ولدها سير لم يكن يقارع ابن ضرتها ضوء الصباح⁽¹⁾، مستغلة جنوح علي إليها في إقناعه بعزله وإقفاله إلى مراکش الحاضرة⁽²⁾، ولاشك أن هكذا رد فعل مؤسسه لجم صيت ابن ضرتها، والحرص على عدم تفاقم أمره لدى الأمير علي والجند ومختلف شرائح المجتمع المتعطشة لكل ما يمت بصلة إلى الجهاد ورفع راية الإسلام، كمرحلة أولى لتولية ابنها ولاية العهد والذي استسلم للدعة.

ولم يقتصر الأمر عند هذا، فب وفاة سير تتجلى صورة المرأة المستشارة السياسية، إذ سعت على منع تاشفين من ولاية العهد، ونقلها إلى ولد ربه، لكن لم يتحقق ذلك لصغر سنه وميل الناس لتاشفين⁽³⁾، إمعانًا منها في صرف الأمر عن تاشفين، وإدراكًا منها لفقد هيمنتها على البلاط إن هو ولي الأمر، فعملت بطريقة غير

¹ كانت في نفس الفترة تقريبًا تركان خاتون(ت487هـ/1094م) بعاصمة الخلافة العباسية مثالًا لوجه المرأة الجريفة المخططة التي كان لها حضور بارز في حياة زوجها السلطان السلجوقي جلال الدين ملكشاه(ت485هـ/1092م) وتمددت هذه الصورة حتى بعد وفاته، فقد عملت جهدها لتجعل السلطنة لابنها السلطان محمود البالغ من العمر يومها أربع سنوات، ونجحت في الحصول على ذلك نتيجة حنكها السياسية ومعرفتها لتوازنات السلطة. وجدان حسن العزايزة، المرجع السابق، ص67.

² المراكشي، المصدر السابق، ص208. ابن عذاري، المصدر السابق، 4/97. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص165. ابن الخطيب، الإحاطة، 1/446-447. عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء، ص175. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص494. كرزار فوزية، المرجع السابق، ص37.

³ ابن عذاري، نفسه. ابن الخطيب، نفسه، 4/447. عصمت عبد اللطيف دندش، نفسه، ص178-179. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص360.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

مباشرة في تسريع تشييت ملك المرابطين⁽¹⁾، ولاشك أن السعي لحرمان الدولة المرابطية من قائد كفؤ كان في استطاعته عمل الكثير، كان له مفعول سحري في بداية انهيار دولتهم بالمغرب نتيجة النزاع الأخوي على الإمارة، وبالتالي إغفالهم الدفاع عن أمن الأندلس التي تكالب عليها النصارى، وزحف الدعوة الموحدية في المغرب.

ويبدو أن خللا ما أصاب المنظومة القيمية لمجتمع الغرب الإسلامي في عصر الدراسة؛ مؤداه سيادة الانتهازية والوصولية والمحسوبية، بحيث تلقفت الأمثال الشعبية ذلك وكشفت عن بعض الوسائل التي اتبعت في قضاء الحوائج⁽²⁾. وهذا ما يبرر اعتماد المعارضة السياسية على المرابطين أرضية انطلاقها من عناصر تنبع حسبها من روح الانتماء إلى الإسلام وتطبيق شرائعه ونظمه، ولاشك أن سطوة النساء ملمح لتمرير هذا الإصلاح، فقد وظف فقهاء المعارضة الموحدية المرأة، والتي طبعت عندهم وعند قطاع عريض من المجتمع بمنظور الإغواء والميل إلى الدعة والتدخل في السلطة؛ في تأجيج السخط والتذمر اتجاه السلطة الحاكمة المرابطية، إذ أوردت المصادر الموحدية عن نساء القبائل التي شكلت أساس العصبية المرابطية صفات تركزت إلى السلبية فقد "صارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور"⁽³⁾، والواقع أن الصورة التي قدمتها الاستغرافيا الموحدية عن نساء المرابطين بادماجهن في كثير من مشاكل الدولة⁽⁴⁾ لا تخرج في كثير من أهدافها عن التجريم والتشنيع، ناهيك عن اعتماد الحملات

¹ ابن الخطيب، المصدر السابق، 474/4. حميدي مليكة، الإسهامات، ص130. ولعلها هذه الوضعية قرينة هامة تنسجم مع المقولة الخلدونية التي ترى أن صورة النساء السياسية السلبية، سيما ما تعلق بأمر ولاية العهد وحبك المؤامرات داخل البلاط، تتناسب عادة مع المراحل الأخيرة في عمر الدولة. ابن خلدون(عبد الرحمان بن محمد)، مقدمة ابن خلدون، ج2، تح علي عبد الواحد وافي، ط7، دار نهضة مصر، مصر، 2014، ص544.

² وفي ذلك تقول العامة: "اعْمَلِ التَّيْدَ، وَتَعْمَلْكَ مَا تُرِيدُ". الزجالي (أبي يحيى بن عبيد الله بن أحمد القرطبي)، أمثال العوام في الأندلس، القسم الثاني، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المملكة المغربية، دت، ص29.

³ البيهقي (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1971، ص20. المراكشي، المعجب، ص177.

⁴ لم تذكر المصادر التي- وصل إليها الموضوع- امرأة واحدة ينطبق عليها هذا القول، اللهم إلا إذا أُعتبر جانب سفورها وحريتها غير المعهودة في الغرب الإسلامي، وليس ببعيد أن ذلك في إطار الدعاية الموحدية المفرضة ضد المرابطين التي إتخذ إمامها ابن تومرت من سفور المرأة المرابطية ذريعة لمهاجمة المرابطين. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، ج1، البصائر الجديدة، الجزائر، دت، ص476. ومع الاعتراف بالمكانة التي بلغت المرأة المرابطية في عصر المرابطين يجدر طرح تساؤل بديهي؛ هل بلغ من ضعف الدولة وأمرائها هذا الحد؟، والذي أصبحت فيه المرأة تتدخل في الأمور، سيما السلبية منها!، ثم أَمِنَ المعقول أن لا تغفل المصادر على ذكر أخبار الأدبيات المنطلقات كأمثال زهون وغيرها من النسوة اللاتي حضرن في الحياة الثقافية، ويغفلن عن ذلك عند التعرض لنسوة البيت الحاكم؟!، ثم من ناحية أخرى أمن المنطقي إلصاق كل هذا التفسخ على المرأة لوحدها؟، ويمكن التخمين أن الموضوع تماشي مع طرح الذهنية العامة في المنطقة والتي تقرن النساء بالشر، وهذا ما يحيل إلى

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

الدعائية ثوابت استندت إليها العصبية الحاكمة في الغرب الاسلامي، من قبيل السقوط في المحظورات التي شكلت القضايا الأخلاقية أهم تجلياتها للإطاحة بخصومها، ويتضح أن المعارضة هنا تعاملت مع الموضوع بأسلوب يؤكد وعيها بأهمية هذا القطاع في تدعيم توجهها المعارض. وقد أصاب مصطفى نشاط عندما أكد أن المهدي بن تومرت كان مدركا بأن الظفر بالحكم لا يتوقف على العصبية والنحلة فقط، بل يحتاج أيضا إلى خلخلة في اقتناع الناس بسلوكيات المرابطين وأخلاقهم سيما الحضور المتعاطف للمرأة⁽¹⁾، ولعل هذا التصور يستقيم تماما مع النظرة التي بلورها ابن خلدون فيما بعد عن ضرورة توفر بعض الشروط الممهدة لمقتضيات الغلبة والرياسة، فقد خصص لها فصلا في أن من علامات الملك التنافس في الأخلاق الحميدة وبالعكس " فإذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل، وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم "⁽²⁾، ويبدو أن هذه الإستراتيجية الأولية أتت أكلها، ونجحت في تأطير الأهالي وتعبئتهم للانخراط في حركته، من خلال تركيزه على تعاطي المرابطين للمحظورات، والتي غدت مسوغا هاما لإسقاط حكمهم، على الرغم مما تحمله هذه الروايات من تضخيم ومبالغة بادية، والتي يشتم فيها رائحة الدعاية بين ثناياها، سيما أنه وبمرور الوقت ومع توسع الدولة سيتضح أن خلفاءه لن يستطيعوا الوفاء للشعارات التي انطلقوا منها، لأن وضع المعارض أسهل، بالقياس مع مرحلة تسيير أمور الدولة.

الذهن مباشرة ذلك النوع من المبررات لوجوب زوال الملك المرابطي الذي مكن النساء من مفاصل الدولة، تمكينا خلف ورائه كل مفسدة، وليس أفضل من ذريعة تسلط النساء؟، أم كانت هذه التجاوزات إفرازات لوقع اجتماعي واقتصادي وسياسي ميز المجتمع ككل، بما فيه المرأة في حد ذاتها، حتى وإن سلم الموضوع بهذه التجاوزات أواخر العصر المرابطي، فكيف يمكن تفسير إعجاب المراكشي نفسه بأمراء المرابطين حينما يصرح عن الأمير علي بن يوسف بن تاشفين والذي يفهم أن تعسف النساء سيما قمر كان في وقته عندما قال: " وكان إلى أن يعد من الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين " المراكشي، المعجب، ص235، وكما نسب ابن عذاري صراحة الأمير تاشفين بن علي إلى طريق التصوف حين قال: " وكان يسلك طريق ناموس الشريعة ويميل إلى طريقة المستقيمين وقراءة كتب المريدن ". البيان، 79/4، بل إن تاشفين بن علي بن يوسف والذي استمرت الحركة الموحدية في عهده تحليه المصادر بالأمير الذي " لم يشرب قط مسكرا ولا استمع إلى قينة ولا اشتغل بلذة صيد ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من سائر اللهو ". ابن عذاري، نفسه، 90/4. فحتى مع الاستسلام التام لها في الامور السياسية والعسكرية لا يمكن الركون إلى أن أمراء بهذه الصفات يمكن أن يسمحوا ويغضوا الطرف على المسائل الأخلاقية.

¹ مصطفى نشاط، جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 206، ص 64-65.

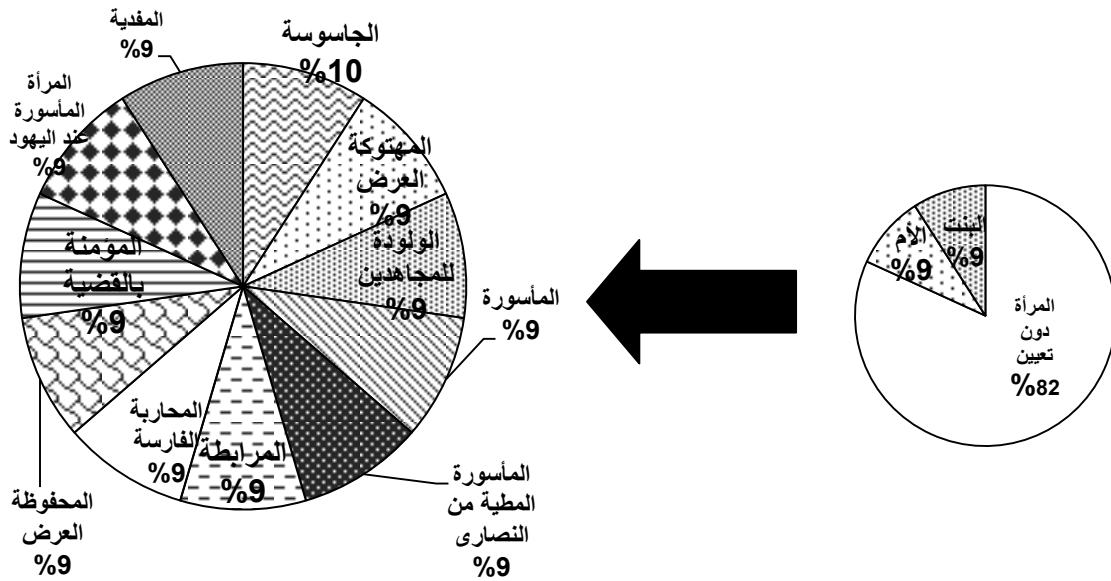
² ابن خلدون، مقدمة، 2/ 501.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

2-خارج نطاق الأسرة المرباطية:

لم يقتصر حضور المرأة وتعدد صورها داخل الأسرة المرباطية، بل شمل قطاعا واسعا خارج إطار العائلة الحاكمة، بما صنعتته الظروف التي ظهرت وتطورت وانهارت فيها الدولة المرباطية ، والشكل التالي يسمح بإبراز مجمل ذلك:

شكل رقم 08: أنماط حضور المرأة خارج الأسرة المرباطية



ويمكن استنتاج مجموعة ملاحظات من الشكل أهمها:

- الأصناف المتعددة للنسوة يدل على شمول تنوع وتعدد صور المرأة في الحياة السياسية في مرآة المسلمين وغير المسلمين .

- غلبة صفة المرأة المأسورة بنسبة مرتفعة قدرت 77%، وسمّة الأسر التي رافقتها، تفصح عن سجالية الصراع بين الأطراف الإسلامية في الغرب الإسلامي بنسبة 33% من القيمة السابقة يظهر صورة المرأة أثناء الصراعات الإسلامية، خاصة في المراحل الانتقالية، ومع نصارى الشمال بنسبة 44%، والذي يظهر بداية تفوق المسيحيين.

- دخول المرأة في مجال الدعاية السياسية والدعم اللوجستي، وتحملها الأذى والاضطهاد في سبيل ذلك (المرأة المؤمنة بقضيتها في ثورة المريدن).

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

وقد احتلت المرأة مكانة مهمة في المعادلة الأمنية، لذا لا نستغرب أن يرتسم في أعين السلطة صفة الماشطة المُنخِرة، التي نُظر إليها على أنها مصدر للمعلومة أواخر الدولة المرابطية وبداية الموحدية، حيث وظفت لديهم بموجب الأنشطة التي تمارسها داخل المدينة و خارجها؛ من قبيل التعرف على دخل سكان المدن، ومصادر الثروة وأماكنها " وليخبرن بمكان الحلي وأولي الذخيرة على قل هذا المتاع بهذا الأفق وخلو الأيدي منه"⁽¹⁾، ولاشك أن لتردها على بيوت كل طبقات وأطراف المجتمع، وقدرة المرأة الفائقة على الوصف وتحري الأخبار أكثر من الرجل دور في هذا المنحى.

ووصل الأمر إلى حد القيام بتمرد عسكري في سبيل امرأة في عهد علي بن يوسف، ما يجلي تصور المجتمع للمرأة الحرة؛ ولو نحو من قدم لهم يد العون من المرابطين وقادتهم، عندما كانوا في حاجة لذلك، ويعود ذلك إلى عام 515هـ/1121م حينما امتدت يد عبد من عبيد الوالي المرابطي في مدينة قرطبة أبو بكر يحيى بن رواد على امرأة خرجت ضمن جمع من النساء يوم عيد الأضحى لحضور احتفالياته واستعراضاته العسكرية، التي كانت أشبه باحتفالية حربية خاصة تعقدها الدول عقب انتهائها من تحضيراتها العسكرية، فأثارت استغاثاتها أهل قرطبة الذين وصل غضبهم لنهب دور المرابطين⁽²⁾، ولاشك أن مكانة المرأة وسوء فعل العبد؛ والذي يبدو أنه كان كاسرا لأعراف المجتمع القرطبي، دور بارز في سوء العلاقات.

ورغم ذلك فقد عملت الدولة جهدها في تلافي صورة المرأة المهتوكة العرض، ليرتسم موقف حازم للسلطة المرابطية نحوهم وقت انفلات الأمن، وما إشارات ابن خاقان إلا تمثل لذلك، حيث توحى على إيلاء قادة الملمثمين أهمية قصوى للضرب من حديد على بعض الفساق في مدينة فاس بعد أن شاع فسادهم، حتى أنهم "منعوا جفون أهلها السنوات، وأخذوا البنين من حجور آبائهم والبنات... إلى أن تدارك أمير المسلمين-رحمه الله- أمرهم، وأطفأ جرحهم، وأوجعهم ضربا، وأقطعهم ما شاء حزنا وكربا، وسجنهم بأغصات"⁽³⁾، ما يبرز مرة أخرى على بروز هذه الظاهرة أوقات انفلات أمور الدولة أو تهاونها إلى جانب انشغالها بجروبها الخارجية،

¹ ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ج2، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، دت، ص324.

² مؤلف مجهول، الحلل، ص 86. النويري، المصدر السابق، 151/24. ابن الأثير، المصدر السابق، 187/9-188. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 82/3-83. على الرغم من التشنج الذي خلفه هذا الفعل على الطرفين، فقد أحكم العقل بتدخل فقهاء المنطقة الأندلسية أمثال أبو عبد الله محمد بن الحاج الشهيد وابن رشد الجد الذين وصلوا إلى اتفاق مع علي بن تاشفين ينهي الحزازات بينهم.

³ ابن خاقان، المصدر السابق، 100/1. المقرئ، المصدر السابق، 220/4.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

ويظهر أن مسألة تشدد الأحكام على هكذا تجاوزات، تحيل إلى رؤية تروم القضاء على مظاهر الفوضى والفساد، في ظل ظرفية تاريخية مليئة بالاضطرابات.

كما كانت مناطق الاحتكاك الحربي بين المسلمين والنصارى في الشمال من مجالات تجلي تصور راق للمرأة المجاهدة في التخوم، والمقرون بطبيعة المجال الثغري الذي يحتم "اشتراكهن في صناعة الحرب وغيرها"⁽¹⁾، فبالإضافة إلى الأعمال التقليدية للمرأة، والتي تتضمن لا محالة تحضير الطعام والاعتناء بالنظافة، فإن كثيرا من الربط في الأندلس تضم عديد النسوة اللاتي شاركن في الجهاد أوقات النفير في الثغور البحرية والبرية إلى جانب الغزاة والمتطوعة أواخر العصر المرابطي، ولا مشاحة أن ذلك كان يبعث الثقة في نفوس المحاربين ويدفع إلى الاستماتة في الدفاع عن حمى الإسلام⁽²⁾، ولاشك أن المقاومة النسوية انعكست على الروايات المسيحية التي نقلت صدى موقف أشاد به الأعداء قبل الأصدقاء، بتأكيد أن الجيش المرابطي ضم عددا من النساء اللاتي شاركن في إحدى المعارك الواقعة عام 526هـ/1131م في عهد علي بن يوسف، مرتديات ثياب الرجال ويقاتلن على طريقة الفرسان، ولم يكتشف النصارى ذلك إلا بعد الموقعة، حيث وجدوا الكثير منهم بين القتلى⁽³⁾، فظروف الحرب، والوضعية الخاصة التي كانت تعيشها مناطق التخوم بين دار الإسلام والكفر كانت ذات استعدادات خاصة، حتمت على المرأة الدخول في هذا المجال البعيد عن تكوينها الفيزيولوجي والنفسي، بما فيها إعداد محاربات مقاومات يرفدن الرجال في حال هجوم مباغت أو غارة مفاجئة، أو حتى نزف رجالي، يسمح على الأقل بالمداخلة على النفس حال العدوان.

ولعل مساهمتها في الدفاع عن المدن الإسلامية أثناء حصارها، جنبا إلى جنب مع الرجل، إلى درجة أنها قلبت الهزيمة إلى نصر في كثير من الأحيان؛ ضرب من ضروب الصورة المثلى لها، ففي أثناء حصار مدينة إفراغة⁽⁴⁾ عام 528هـ/1134م ساهمت المرأة بتضحياتها في سبيل كسر الحصار الذي فرضه ألفونسو

¹ ابن رشد، الضروري، ص124.

² محمد مفتاح، مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي، مجلة عالم الفكر، العدد1، وزارة الإعلام، الكويت، 1981، ص199

³ يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص 258. حميدي مليكة، المرأة المغربية في عهد المرابطين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي، إشراف صالح بن قرية، جامعة الجزائر، 2001-2002، ص75.

⁴ مدينة أندلسية تقع غرب لاردة، بينهما ثمانية عشر ميلا، وهي مدينة كثيرة الزيتون، حسنة البناء، حاصرها ألفونسو المحارب لكنه مني بهزيمة ساحقة على أيدي المرابطين سنة 528هـ/1134م، عاد وتملكها الإفرنج سنة 543هـ/1148م. ياقوت الحموي، المصدر السابق، 1/227. الحميري، المصدر السابق، ص25.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

المحارب⁽¹⁾ على المدينة⁽²⁾، ويبدو أن ابن رشد استطاع بحسه الفلسفي أن يشرح ضمور تهميش صورتها العسكرية في العديد من الأحيان والمناطق، مرجعا ذلك إلى الظروف السياسية والطبيعية والتي تؤدي إلى "اشتراكهن في صناعة الحرب وغيرها، فذلك بين من حال ساكني البراري وأهل الثغور، ومثل هذا ما جبلت عليه بعض من النساء من الذكاء وحسن الاستعداد، فلا يمتنع أن يكون لذلك بينهن حكيما أو صاحبات رياسة..."⁽³⁾، وهكذا حالات تعلل تساوي المرأة مع الرجال في المسؤولية، خاصة عندما يقل فيها الرجال كالثغور بفعل الحروب المستمرة، والتي تؤدي لاحالة إلى نزف ديمغرافي رجالي كبير، يغطي في الغالب بما توفر من نسوة يتلمس فيهن حسن التدبير، ناهيك عن تبعات الظروف الطبيعية الملحمة في كثير من الأحيان لحضور شخصية الرجل بسبب شح المورد الذي يتطلب بدوره عملا ثنائيا دؤوبا من الطرفين الرجل والمرأة لتوفير مستلزمات الحياة خاصة إذا كان الرجل بعيدا عن الأسرة في التجارة أو الرعي، بالإضافة إلى أسباب أخرى لم يركز عليها ابن رشد من قبيل الأوضاع الاقتصادية التي ترمي بثقلها على تمثلات المجتمع للمرأة، كما لا يمكن تجاهل رواسب المخيال الجمعي السلبي الذي اقترن بالخطأ في الغالب بفهم مهلهل للدين وللقوماة بالخصوص.

وكثيرا ما كانت الحروب مع ما تخلفه من الأسر وحالات الفداء معبرا لوجه المرأة البنت الموهونة، ولايتعلق الأمر بالمسلمات دائما، فقد وقعت عصر الدراسة حالات رهن نسائية من أهل الحرب، فقد يتوسل أحيانا بعض المأسورين الرجال الفداء عندما يقعون في سهم المحارب المسلم، وكبادرة للنية الحسنة في تحصيل مبلغ الفداء يقوم برهن ابنته البكر في حوزة المحارب المسلم⁽⁴⁾، حتى أن بعض الباحثين ذكروا أن المواجهات التي

¹ ألفونسو الأول الملقب بالمحارب، لمشاركته الفعالة في حروب الاسترداد، حكم أراغون ونبرة منذ سنة 1104/499 إلى تاريخ وفاته، خلف أخاه في الحكم، وبواجهه من أوراكا ملكة قشتالة، أصبح الملك القرنين لقشتالة وليون وجليقية، اشتهر لغزوه لسرقسطة سنة 512هـ/1118م، توفي سنة 528هـ/1134م حسرة على هزيمته أمام المرابطين في معركة إفراغة. ابن الأثير، المصدر السابق، 287/9. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 406/2.

² ابن الأثير، المصدر السابق، 287/9. ابن القطان (أبو محمد حسن المراكشي)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، ط2، دار الغرب الاسلامي، 1990، ص247. سلامة محمد سلمان الهرفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، دار الندوة الجديدة، بيروت، 1985، ص238. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 123/3. أما مشاركة المرأة في معركة أوريك سنة 533هـ/1139م والتي إنتصر فيها ملك البرتغال ألفونسو هنريكز (ت 581هـ/1185م) على المرابطين، فلم تأت بنتيجة مأمولة حتى مع دخول النساء كمحاربات، فقد راح ضحيتها عدد كبير من المسلمين مابين قتلى وأسرى من الرجال والنساء. محمد محمود النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ط1، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1995، ص141.

³ ابن رشد، الضروري، ص125.

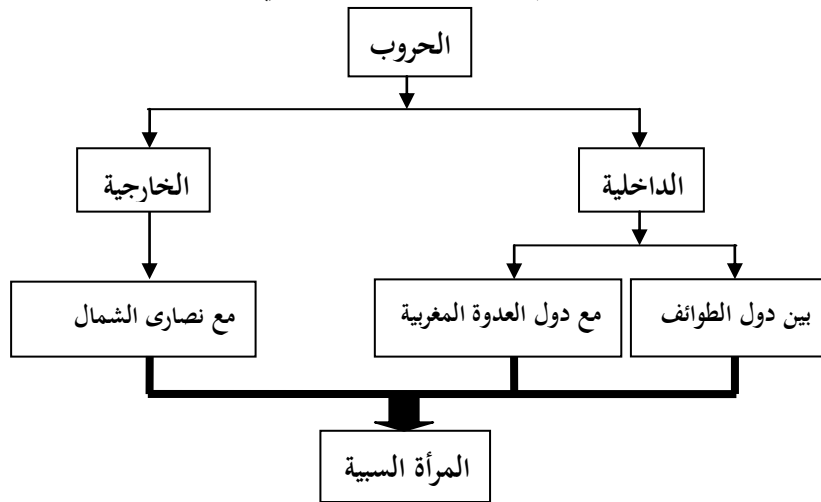
⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 428/2.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

كانت في نقاط التماس الإسلامية المسيحية لم تكن تهدف إلى فتوح ترابية وضم أراض جيدة بالدرجة الأولى، بقدر ما كانت تسعى إلى جلب الغنائم والأسرى والتي كانت المرأة في أولياتها⁽¹⁾.

ثم أفلا يدل حرص شرائح ممتدة بإمداد المحاربين وقت الأزمات والتجسس على مصالحهم وأدواتهم وكل ما يسهم في خدمة قضيتهم وفك أسراهم والتي كانت المرأة أولى ضحاياها، رؤية لصفة المرأة الكريمة لديهم؟⁽²⁾، وهو ما يفسر إلى حد بعيد رواج تجارة الرقيق في ذلك العصر، واعتباره من أهم السلع التي تدخل في نطاق المبادلات التجارية، وفي الشكل التالي ما يوحي بذلك:

شكل رقم 09: علاقة الحروب بسبي النساء



وفي ظل الأحواء المتعفنة التي تنذر باللامن في بلنسية التي سيطر عليها ضغط القمبيطور وشرذمة من قطاع الطرق، تتبلور صورة المرأة المسلمة المهتوكة في ظل التحرشات الاسبانية، وفي ذلك قال ابن الكردبوس: "وفي هذه المدة انقطع إلى القمبيطور وغيره من أشرار المسلمين وأراذلهم وفجارهم وفساقهم ومن يعمل بأعمالهم خلق كثير تسموا بالدوائر، وكانوا يشنون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمات، يقتلون الرجال ويسلبون النساء والأطفال..."⁽³⁾، مما حمل الأهالي على أن يستصرخوا "أمير المسلمين يوسف وبسطوا عنده القول فيما نزل بهم، فجد في أمرهم وأمر قواده وعماله على بلاد الأندلس بنصرهم"⁽⁴⁾.

¹ Heers Jacques, esclaves et domestiques au moyen-âge dans le monde méditerranéen, coll pluriel éd, Fayard Paris, 1981, p25.

² الونشريسي، المصدر السابق، 124-123/7.

³ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص103. كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ مدينة بلنسية في العصر الاسلامي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، دت، ص163.

⁴ ابن عذارى، المصدر السابق، 33/4.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

وعند سقوط المدينة سنة 487هـ/1094م، وفي إطار الخدع العسكرية وكسب الوقت والرأي العام المحلي في بلنسية أعلن المغامر القشتالي القمبيطور في خطبته التي ألقاها على مسامع أعيان مدينة بلنسية برنامجا يقوم على إصلاحات مزعومة متعددة، يأتي من بينها صورة المرأة المسلمة السبية المصانة، بل والحررة، إذ تعهد فيه أنه لن يبق في الأسر أي مسلمة⁽¹⁾، وهو ما يظهر تلك العلاقة بين الحرب والاسترقاق التي تكاد تكون حميمية كما عبر عنها أحد المؤرخين⁽²⁾. ولاشك أنها خطة إستراتيجية تنم عن فطنة وذكاء وإدراك للوضع الراهن عصرها، بحيث تضمن له تسيير المدينة ولو ظرفيا لوقت يسمح فيها له بجمع ما بها من أموال وذخائر، إضافة إلى كونها ورقة تهدئ النفوس ليأمن شهرهم⁽³⁾ ويمتص غضب الأهالي الذين يعتبرون المرأة عرضا وشرفا لا بد صونه والدفاع عنه، خاصة أن المرابطين والقائد مزدي⁽⁴⁾ ليسوا ببعيدين عن الأحداث والمنطقة.

لتتحول نظرة السبية المهانة إلى المسيحيات، فعندما انتصر المرابطون على نصارى الشمال في معركة أقليمش سنة 501هـ/1107م، بلغ بهم الأمر حد التهادي بالسبايا المسيحيات لوفرتن وكثرتن إمعانا في صورة السبية الكافرة⁽⁵⁾، بل نشط الأسطول المرابطي وشن هجمات على أراضي النورمنديين في كل من جنوب إيطاليا وصقلية، ففي سنة 516هـ/1122م أمر علي بن يوسف قائده أبو عبد الله محمد بن ميمون بالتجهيز لغزو النورمان، فانطلق بالأسطول من المرية وهاجم جنوب إيطاليا، فغنم غنائم وافرة وسبى نساءها⁽⁶⁾، وهو ما

¹ ابن بسام، المصدر السابق، 100/3. ابن عذارى، المصدر السابق، 33/4. حسين مؤنس، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 3، العدد 1، جامعة فؤاد الأول، 1950، ص 67-68. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 244/3. كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 170-172.

² عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 129.

³ حتى بعد موت القمبيطور بعد اشتداد مرضه سنة 492هـ/1099م نتيجة هزيمته من طرف المرابطين، تنتظم صورة المرأة العسكرية المقاومة من النصارى، ممثلة في زوجته دونيا خيمينا التي قادت المقاومة بالمدينة واستبسلت في الدفاع عليها على مدى أكثر من سنتين، لتحاول في طور آخر الاستنجاد بالفونسو السادس لصلبة القرابة به، لكنهما انسحبوا في الأخير، ليدخلها القائد مزدي سنة 495هـ/1102م. ابن بسام، نفسه، 101/3. ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 109. ابن عذارى، المصدر السابق، 40/4-41. كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 190-191.

⁴ هو القائد مزدي بن يعانكان أو ملنكان بن عم يوسف بن تاشفين، فتح العديد من مدن الأندلس في عصر الطوائف، وجهت إليه بعض التهم فعاد إلى مراكش وبرأ نفسه منها، قاد العديد من الحملات ضد النصارى، ومات في إحداها مع القشتاليين سنة 508هـ/1115م. ابن بسام، نفسه، 101/3. ابن الكردبوس، المصدر السابق، 110-111. ابن بسام، المصدر السابق، 101/3.

⁵ حسين مؤنس، الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، 1992، ص 37.

⁶ ابن عذارى، المصدر السابق، 66/4. المقرئ، المصدر السابق، 220/3. ميخائيل أماري، المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، ص 282-283. السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1969، ص 246. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 152.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

ينم عن ردود أفعال إسلامية مرابطة لم تقتصر على نصارى الشمال فحسب ، بل تعدتها إلى الشرق الأندلسي، انطلاقاً من القوة البحرية.

وغير خاف ما للعلماء من أدوار طلائعية في عملية الاستنفار والتعبئة للجهاد ضد النصارى، سواء بمشاركتهم، أو متابعتهم لسير العمليات الحربية ومستجداتها على جبهات القتال وخطوط التماس بين المسلمين وأعدائهم، مجتهدين في تحليل دقائقها، وتفسير تطوراتها، وربما وضعوا تصورات لمستقبل الصراع الإسلامي النصراني في بعض البقاع الأندلسية، متكئين في ذلك على توصيف راق للمرأة الولودة صانعة أجيال المستقبل المجاهدين، إذ كان العلماء يدعون إلى "ملاعبة النساء لإيجاد الأولاد المظهرين للاجتهاد في الجهاد"⁽¹⁾، إحساساً منهم بمدى أهمية المرأة في خلق وتكوين جيل مسلم، يستطيع بإيمانه مجابهة النصارى في أرض الأندلس وتحرير العباد والبلاد، في ظل النزف الديمغرافي الناجم لا محالة عن تواصل الحروب بينهما.

ويتلمس من خلال النوازل مدى الاهتمام بالنسوة التي فقدت في الحروب مع العدو⁽²⁾ في منطقة التحوم خاصة في الأندلس، ومصادق ذلك كثرة الاستفسار حول مصير "نساء من فقد بقتندة" البلدة التي كانت بها وقعة بين المسلمين والإفرنج سنة 514هـ/1120م⁽³⁾، ولاريب أن هذا القلق والحيرة عليهن دليل على مكانة متعظمة للمرأة المسلمة⁽⁴⁾، وحرص على عرضها وشرفها إذا وقعت في الأسر، أو غاب خبرها.

وترسم الإشارات التاريخية منحاً محترماً للمرأة في الحروب الداخلية بين المرابطين والموحدين، على الرغم من إكراهات ظروف المرحلة، والتي فرضت حضور عدد من السبي النسائي لدى طرفي النزاع، هذه الإشارات تنهض دليلاً على مدى احترام الرجل لالتماسات بعض النسوة بإطلاق سراحهن حال الوقوع في الأسر من

¹ البلوي (أبي الحجاج يوسف بن محمد)، ألف باء في أنواع الآداب والمحاضرات وفنون اللغة، ج2، اعتنى به وضبطه وصححه خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، لبنان، 2009، ص521.

² نتيجة الحرص على استرجاع المرأة المسيية في الحروب الداخلية وحتى الخارجية، والذي ينم عن صورة المرأة الحرة، كانت المرأة توسم بوشم على أعضاء من جسدها كالوجه والذراع والفخذ والساق، ويمكن التخمين أنه نشأ في الأصل لضرورات اقتضتها كثرة الفتن وتوالي الحروب، حتى وإن سببت أمكن التعرف عليها. عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ص285.

³ ابن رشد، فتاوى، 1396/3. البرزلي (أبي القاسم بن أحمد)، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ج2، تقدم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002، ص480. الونشريسي، المصدر السابق، 483/4. ياقوت الحموي، المصدر السابق، 4/310.

⁴ لذلك وظف المسلمون ما يعرف بالفكاكين الذي كانوا يسعون في استعادة الأسرى مقابل أجر معين. لأخذ لمحة عن ذلك انظر الملحق رقم 03.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

الأعداء، فهذه تاماكونت بنت سير بن ورييل⁽¹⁾ التي سيقّت مع ألف وخمسمائة امرأة أخرى إلى تينملل⁽²⁾ عام 435هـ/ 1048م تطلب الأمير، وتخطبه وتذكره بكل جرأة قائلة: " يا أمير المؤمنين هل شفّع والدي يانتان بن عمر في المهدي ؟ قال لها: صدقت، أنت مطلوقة"⁽³⁾، لكنها لم تكتف بذلك من منطلق موقعها، بل أصرت على إطلاق النسوة الأخريات بقولها " وهل يصح أن أطلق وحدي من أربعمئة رأس؟ فقال لها صدقت، وأمر بإطلاقهن وأرجعن في كرامة حتى وصلت مراكش"⁽⁴⁾، فقد استطاعت بفضل قوة شخصيتها وتأثير منطق حجتها، الدفاع عن نفسها وكسر قيد أسرها ومن معها في هذا الظرف العصيب، رغم ما توحى هذه الظاهرة الخطيرة في تعامل المسلمين مع بعضهم البعض، إذ أفضى السبي والأسر حينئذ إلى نتيجة أفظع، وهي استعباد الأحرار⁽⁵⁾ على سبيل الإذلال والنكابة والإرهاب، وهو ما ينسجم مع ما أورده معيار الونشريسي " أن استرقت امرأة من سبّة ظلما وبيعت بالأندلس، فحكم بحريتها واستعد المحكوم عليهم القضاة على بائعيها"⁽⁶⁾.

ولم تقتصر نظرة الشفقة على المسلمين فحسب، بل تعدتها إلى المشتركات، وليس أدل على ذلك ما أكدته الوثائق المستعربة، إذ تشير إحداها إلى وصية راهبة بعثت مملوكتها المسلمة عند وفاتها⁽⁷⁾، وعلى ما يبدو فإن

¹ من نساء خاصة المرابطين، وهي ابنة يانتان بن عمر القائد المرابطي الذي شفّع في المهدي عند علي بن يوسف المرابطي، فرد لها عبد المؤمن بن علي صنيعها عندما طلبت منه الشفاعة في ألف وخمسمائة امرأة أخرى. البيهقي، المصدر السابق، 28. 49. حميدي مليكة، المرأة المغربية، ص 83.

² منطقة تقع في قلب جبال الأطلس بالمغرب، بما قرى ومزارع يسكنها البربر، وهي منطلق دولة الموحدين. الإدريسي، نزهة، ص 64. ياقوت الحموي، المصدر السابق، 69/2.

³ البيهقي، المصدر السابق، ص 49.

⁴ نفسه. ويبدو أن نفس الموقف كان في الغرب الأوربي الوسيط، بإعلاء نظام الفروسية للمرأة، وتمتّع في ظلهم بمكانة سامية، سواء مع الأصدقاء أو الأعداء. إسمت غنيم، المرأة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، ضمن كتاب دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، 1998، ص 204.

⁵ تعد هذه الظاهرة تعبيرا صارخا على صراع السلطة والمعارضة وما أفرزته الحروب الداخلية من أوضاع جديدة من استرقاق للمغلوبين، حيث تمت المعاملة مع الأسرى على اعتبارهم سبيا يحل بيعه، والمسوغ الأساسي في كل ذلك هو أن أعداءها كفار. ابن عبد الملك، الذيل، 409/1. بل لم تقتصر الحالات على الموحدين فحسب، إذ لم تتورع قوات عبد الله بن ياسين قبلا وهم يقتحمون مدينة أودغست عن استباحة " حريمها وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئا" البكري، المسالك، 863/2. وهو موقف ينم عن تعامل عبد الله مع غير الموالين لدعوته على أساس أنهم كفار على غير دين الإسلام. معطية لنفسها حق النظر في الأسرى الذين غنمهم خلال مواجهاتها، وتقرر بالتالي المصير الذي ينتظرهم إما القتل أو الفداء أو الاسترقاق، رغم مخالفة ذلك للشرع الإسلامي، باعتبار جمهور الفقهاء نظروا إلى الأسير المسلم نظرة الحرية، ورأوا أن لا سبيل إلى استرقاقه نتيجة الأسر، فهو أسير حر. عبد اللطيف عامر، أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، ط 1، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986، ص 237. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 132. 137.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، 220/9-221.

⁷ عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، ط 1، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، 1993، ص 289.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

علاقة ودية نمت بين الطرفين جعلتها تأكل همها بعد وفاتها، كما لا يعدم تأثير تعاليم الإسلام في عتق الرقيق على هذه الراهبة، نتيجة قنوات الاحتكاك التجاري والحضاري في المنطقة. لتمدّد هذه النظرة إلى شريحة الأولياء الذين كان لهم صيت كبير في المجتمع، فهذا أبو شعيب أيوب السارية المتصوف (ت561هـ/1176م) يستشفع عند الخليفة عبد المؤمن بن علي (ت558هـ/1163م) في إطلاق سراح نساء علي بن يوسف ونساء أولاده فاستجاب لذلك⁽¹⁾، ولاشك أن وزن المتصوف في المجتمع واحترام الخليفة لمكانته دور في تلبية هذا المطلب، وعلى الرغم مما يحمله نص المتن من رضوخ وطواعية السلطة لرجال الدين، إلا أنه يكشف لنا في الحقيقة عن واقع متأزم جنح بالرعية إلى الاعتماد على الأولياء والصالحين بما يملكونه من كرامات من أجل التخلص من رقة العبودية والأسر.

تبلغ المرأة مرحل متقدمة من صور الشرف والسؤدد والتضحية من أجل القضية التي تؤمن بها خلال الثورات المحلية، سيما في مراحلها الجنينية، بما تتطلبه من سرية وتضحية، فهي في كثير من الحالات مدار عمليات الاختراق الأمني بين الأطراف المتصارعة، كما تعد نقطة الضعف والقوة في آن واحد، وعلى قدر وعيها الأمني بقدر ما تصعب مهمة اختراق أي قضية، فقد بلغ إيمان امرأة بقضية المريدين وثورتهم التي توسعت وانتشرت عام 539هـ/1135م في الأندلس على عهد المرابطين؛ أنها صبرت على التعذيب أثناء التحقيق معها، نتيجة إصرارها على عدم الإدلاء بمكان بعض المريدين⁽²⁾، وبلغ من صبر وجلد وشجاعة هذه المرأة وثباتها أنهم اقتلعوا عينها، ومع ذلك لم تبح لهم بشيء، ولم تمنحهم أية معلومات⁽³⁾، ولاشك أن إيمان المرأة بالقضية التي تتبناها، وحسها الأمني المتقدم، وإخلاصها وتفانيها في المهام التي أوكلت لها، يجلي علاقة ثنائية الربط بين الأمن والإيمان، وهو ما جعلها تتجرع أصنافا من العذاب في سبيل عدم البوح بأسرارها، وتعرض قضيتها للكشف والمتابعة.

¹ الصومعي (أحمد التادلي)، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تح علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996، ص75.

² تجدر الإشارة إلى استخدام أساليب مبتكرة في تصفية المعارضة واستهداف المنشقين وأسرهم حتى في المراحل الأخيرة من دولة المرابطين، وسقوط مراكش، لتتجسد معها صورة المرأة المغتالة، منها أسلوب الإغراق الذي استخدم في قتل أخت محمد بن سعد بن مرنيش بعد أن حولت بمعية زوجها ولأهلها للموحدين. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تح عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987، ص320.

البيذق، المصدر السابق، ص89.

³ ابن العريف، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة، جمعه أبو بكر عتيق بن مؤمن، دراسة وتحقيق عصمت عبد اللطيف دندش، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1993، ص141. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص61.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعي السياسي

أما حالة الاستنفار التي تلامس موقف التعاطف والاهتمام بالمرأة المستباحة المشغول البال عليها، فلم تكن حكراً على المرأة المسلمة فحسب، بل تعدتها إلى الكتائية، بفضل الثراء الفاحش الذي عرف به اليهود ونتيجة شبكاتهم التجارية المترامية الأطراف، تمكنوا في افتداء أسراهم سواء من إسبانيا النصرانية أو الأندلس المرابطية، وحسبنا في ذلك الرسالة كتبها يهودي في طليطلة سنة 520هـ/1126م حول فدية سجين يهودية في مملكة أراغون، وثبتت رسالة أخرى كتبها أحد التجار المرموقين إلى أحد أصدقائه يطلب منه فيها الاتصال بأقاربه وبصاحب الشرطة لإطلاق سراح السجينة المذكورة⁽¹⁾، فالأسر واحد في معاناته وقهره وتعاسته، عند المرأة المسلمة كما من أهل الذمة، والحيرة عليها واحدة كذلك.

وفي آخر حلقات مقاومة الدولة المرابطية لاجتياح الموحدون لمراكش ينبج مؤثر قوي على إعجابهم بالمرأة فانو بنت يينتان المحاربة المرابطية الفارسية⁽²⁾، التي دوختهم بفروسيتهما وجلدها، فتزعج المقاومة لا تناط إلا بالشهم الجلد المخنك، وإذا كانت المرأة قد سمت إلى هذه الرتبة العالية، وبشهادة الأعداء أنفسهم، فإن ذلك إقرار من الرجال بعظمتها، وسمو مكانتها، وما أنزلته بجيوش الخصوم من خسائر وإطالة في أمد المقاومة معبر لذلك، ويقر البيدق شاهد عيان تلك الأحداث بشجاعتها وانبهاره بأساليبها القتالية التي تبدي صورة المرأة المحاربة حيث يقول "وكان القتال على القصر إلى الظهر، ولم يدخل حتى ماتت فانو بنت عمر بن يينتان، وكانت ذلك اليوم تقاتل الموحدين وهي في هيئة رجل، ومما جعلتهم يتعجبون من قتالها، ومن شدة ما أعطاه الله من الشجاعة وهي بكر، فلما ماتت حينئذ دخل القصر، ولم يعرف الموحدون هل هي امرأة أم لا حتى ماتت"⁽³⁾، فهذه المناقب التي تحمل على التعلق بالرجل الشجاعة والقوة والإقدام، فكان هذا التعلق والاحترام من باب أولى للمرأة الفارسية، التي حملت هاته الصفات إيماناً منها بضرورة الدفاع عن حاضرتها، وتقديم العون للجنود في ساحة القتال، ويبدو أن بعض النساء خضعن لتدريبات عسكرية على الفروسية والرمية وما يتصل بها؛ سيما من علية المرابطين، والتي يتلمس فيها استمرارية التقاليد الصحراوية البدوية الحرب.

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، دت، ص 98. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 352.

² في الوقت الذي كان مركز المرأة في المجتمع الإقطاعي الأوروبي بالغ التعقيد، فلا تستطيع أن تمارس القتال، لأن هذه المهمة منوطة بالرجال أولاً وأخيراً. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص 286.

³ البيدق، المصدر السابق، ص 64. عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص 316. عبد العزيز بن عبد الله، المرأة المراكشية في الحقل الفكري، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 6، العدد 1-2، 1958، ص 272. أحمد مختار العبادي، صور، ص 104.

الفصل الأول.....صورة المرأة في الوعاء السياسي

وفي ختام هذا العرض، يمكن القول أن الغرب الإسلامي شهد في عصري الطوائف والمرابطين تعددا في صور المرأة في الحياة السياسية والعسكرية والإدارية، وتمددا بين العدوتين في بعض الرؤى من قبيل المأسورة والمضطهدة والمتدخلة في السلطة.

فإذا كان البلاط الغرناطي في ظل حكم بني زيري مجالا لوجه الأم المتنفذة التي تتدخل في كل صغيرة وكبيرة في السلطة، فإن المرأة المرية ملمح آخر ورمز للمستغلة في وجدان من قامت بتربيتهم من الملوك وقطاع ممتد من الشعب، وهو ما يبرر تبلور خط المرأة المنكوبة التي دخلت في تجاذبات البلاط وصراعاته، ليرواح التفهم في دولة بني عباد بين المكانة عند الزوجة والحظية، أو الجاسوسة في إطار المصاهرات السياسية، إضافة إلى مهتوكة العرض عند بقية دول الطوائف.

وينقشع في وجدان رجل الدولة مشهد الزوجة المستشارة المدبرة المعينة السياسية في بدايات الدولة المرابطية عند زينب زوج يوسف بن تاشفين، ليعوضه موقف آخر ينحو إلى السلبية عند التحريض على تنصيب الأقل كفاءة سياسيا وعسكريا في آخر عصر المرابطين، وتخلل هذا وذاك تمثلات الحيرة على الأسيرة، والاعتزاز بالمرأة المحاربة على الثغور، والفارسة المغوارة.

الفصل الثاني

صورة المرأة في الوعي الاقتصادي

أولاً- مهن متعلقة بالخدمات الاجتماعية:

1- القابلة

2- المربية

3- المربية

4- الماشطة

5- الطاهية

6- المتسولة

ثانياً- مهن ذات طابع ترفيهي موسمي:

1- القوادة

2- العاهرة

3- العرافة

4- النائحة

ثالثاً- مهن ذات طابع إنتاجي:

1- الفلاحة والمزارعة

2- التجارة

3- الناسجة والغازلة

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

لا بد من التنويه في بداية هذا الفصل إلى أن المهن التي ارتادتها النساء كثيرة ومتنوعة يصعب حصرها، كما ليس من السهولة تصنيف هذه المهن لتداخلها وتقاطعها⁽¹⁾، لكن ما يهمنا هنا هو مخلفات ذلك الاشتغال في وجدان المجتمع؛ ومدى تقبله؛ سلبيًا وإيجابيًا، ولعل من أهم المهن التي نضجت فيها صورة المرأة عصر دول الطوائف والمرابطين:

أولاً- مهن متعلقة بالخدمات الاجتماعية:

1- القابلة:⁽²⁾

تمثل القابلة إحدى المهن التي تداخلت في نسيج المجتمع المغربي عصر الطوائف والمرابطين، لأنها ذات علاقة مباشرة في ظهور إنسان جديد، وما يعكسه ذلك من تجدد الحياة واستمراريتها وإدخال البهجة والسرور على بيوت مجتمع الغرب الإسلامي.

ولاشك أن هناك شروطاً لابد من توفرها، لكي ترتسم معها الرؤية المحترمة لهن، من قبيل الخبرة التي تساعد في حالات تعسر عملية الولادة، كما يضيف ابن خلدون مصدراً آخر لهذه النظرة؛ مستمدة من واقع اختصاصها " بالنساء في غالب الأمر، لما أُنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض"⁽³⁾، وبسبب هذه الندرة نجد موقف التبجيل لعملهن، ذلك أن القابلات هن اللاتي كن يحضرن عند النفاس، ويتولين التوليد بأنفسهن، بينما كان الأطباء المختصون يقتصرون على تقديم النصائح لهن عن بعد ويرشدوهن أثناء الولادة⁽⁴⁾، حتى وإن أدرج وجه التنديد نتيجة بعض التصرفات الخرافية في حال تعسر الولادة، وحسبنا في ذلك أن بعض القوابل كن يمزجن لباب الخبز بزيل الفأر ويطعمنها للموشكات على الولادة، معللين ذلك بتهوين الولادة⁽⁵⁾، ويمكن

¹ كان معتمد تصنيف صور المرأة في هذا الحقل مدى امتلاك نسوة الغرب الإسلامي لوسائل الإنتاج- كلها أو بعضها- ونواتجه على العملية الاقتصادية.

² شمل هذا النوع بالإضافة إلى القوابل بعض النسوة التي قارب عملهن الأطباء، فهن في الغالب لم يبلغن حد الاحتراف، ويصلن لمرحلة يمكن تلقيهن بالطبيبات مثلهن مثل الرجال.

³ ابن خلدون، مقدمة، 872/2. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص176.

Latifa El Bouhsine, Les Métiers féminins au Maroc Medieval En: Image de femmes regards de société, sous la direction de Fouzia RHissassi, coordination Khadija Amiti, Éd La croisée des chemins, Casablanca, 2005,p72.

⁴ عبد الله العمراني، الطب الأندلسي بين هفوة الإهمال وغفوة النسيان، مجلة دعوة الحق، العدد228، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط. 1983، ص37.

⁵ ابن الحاج، المدخل، 284/3.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

التخمين في هذا المجال بأن هذه العقلية مرتبطة بانتفاء الطب العلمي أو قلته، ومصاعب الإنجاب التي تحتم أحيانا اللجوء إلى أمور ميتافيزيقية ليمر الوضع حسبهم بسلام.

ويقترن وجه التفضيل لعملها بمناسبة النسل والولادة وحفظ النسب والأصل، والتي تعد من المناسبات المهمة في حياة مجتمع الغرب الإسلامي⁽¹⁾، ولاشك أن لارتباطها بالنسل والحياة الجديدة التي تولد دورا كبيرا في هذا التحلي.

واستثناسا بما سبق، شهد مؤشر الطلب عليهن تصاعدا مستمرا، حتى ارتفع سعر خدماتهن، ويبدو أن ذلك مرادف إلى حد بعيد بالمهمات المتنوعة التي تقوم بها القابلة دون غيرها من النسوة، أولاها التوليد؛ وما يتبعه من رعاية المرأة الحامل قبل الولادة ومدة الحمل، مفرزا بذلك موقفا يتجه إلى الاحترام الملفوف بنوع مستتر من الامتناع، ويظهر أن مساومة الطبيب ومن يدخل في معناه كالقابلة كانت عيبا ونقصا في الأندلس، وبرهانا على المؤشر السابق، فقد أنشد يحيى السرقسطي المعروف بالجزار(ت631هـ/1209م) قائلا:

عَجِبْتُ لَدِي سَقَمُ مُعْضَلٍ يَسُومُ الطَّبِيبَ وَيَكْدِي عَلَيْهِ

يَضُنُّ عَلَيْهِ بِدِينَارِهِ وَيَجْعَلُ مُهْجَتَهُ فِي يَدَيْهِ⁽²⁾

هذا وتخرم وجه القابلة الثرية الجشعة، فقد شاع في أمثالهم العامية غلاء أجور القابلات⁽³⁾، في ظل ما يتميز به المثل الشعبي من كونه الوسيلة التعبيرية التي تمتاز بالبساطة والتركيز وسهولة الحفظ، جعلها تحظى بالعناية من لدن أهل المدينة كما البادية. وما يؤكد هذا المنحى أن منهن من "كسب بالطب مبلغا جليلا من

¹ حول هذه المناسبة ومختلف الاحتفالات حولها انظر: البيذق، المقتبس في كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص27. يوسف عطا الطريفي، شعراء المغرب والأندلس، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2007، ص 355. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع الذهنيات الأولياء، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1993، ص34.

² ابن بسام، المصدر السابق، 905/2/3. محمد حقي، الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانيبال، بني ملال، 2007، ص102.

³ قيل في الأمثال الشعبية: "ارفع حرك يا مُهْجَة لِقَابِلٍ حَتَّى يَرْحُصَ الْقَوَابِلُ". الزجلي، المصدر السابق، 52/2. الطاهر أحمد مكي، المرجع السابق، ص40. كمال السيد أبو مصطفى، مألقة الإسلامية، ص69. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص177.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

الأموال والعقار" في فترة ليست ببعيدة من عصر الدراسة⁽¹⁾، هذا وإن تعلق بالأطباء الرجال بالدرجة الأولى، لكنه يوطد الاطمئنان في جانب آخر على كونه برهانا على مكانتهن وندرتهن من جهة والتي استغلت في تلك الفترة؛ ناهيك عن حمله في ثناياه بصورة غير مباشرة خطأ آخر ينحو منحى سلبيا لصورة المرأة القابلة، لأنهن الوحيدات اللاتي يمكنهن تقديم المساعدة⁽²⁾، وليس ببعيد مع إفرازات هذه الندرة لقلة الطب العلمي سيما الأثوي منه، معلم لانحسار هذه المهنة ولواحقها في إطار فئة محدودة من كبار الرؤساء والمتنفذين ومالكي رؤوس الأموال.

وتأتي شهادة المؤرخ الكبير ابن خلدون لتبرز تفوق المرأة بما لا يدع مجالا للشك على الرجل في هذه المهنة الخطيرة⁽³⁾، حين أكد أن القوابل كن أعلم بأمور النساء والولادة و" أبصر بهذه الأمور من الطبيب الماهر"⁽⁴⁾، حتى في المجتمع اليهودي المنغلق كن الوحيدات اللاتي يحضرن الولادة " ولا يسمح بدخول أي كان على المرأة أثناء مخاضها خشية من عين السوء لأن المرأة في تلك الأثناء تكون في حالة جد خطيرة، ولا ترى أعضاءها التناسلية إلا القابلة"⁽⁵⁾، بل هي من أهم الحرف التي لاقت التشريف والتقدير من قبل اليهود⁽⁶⁾، مع أن

¹ طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل (أبي داود سليمان بن حسان) ويلي تاريخ الأطباء الفلاسفة لإسحاق بن حنين، تح فؤاد سيد، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص96. ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت، دت، ص486.

² الونشريسي، المعيار، 49/3. مليكة حميدي، المرأة المغربية، ص121.

³ يمكن التساؤل هنا عن تفسير قلة حضور النساء الطبيات وتوابعها، أهو إهمال عن غير قصد؟ أم تجاهل عن عمد؟ ومحاولة لتصغير دور المرأة وشأنها في المجتمع؟! ويمكن القول بشكل عام أن التأريخ للمهن المرتبطة بالطب لم يبدأ إلا في العصور الوسطى خاصة الفترة التي ساءت فيها أحوال الأمة الإسلامية وتفشى فيها الفساد، وقد انعكس هذا الفساد على وضع المرأة حيث أن الرجل قام بوضع المحاذير حول المرأة وعمل على عزلتها خوفا عليها من الفتنة، كرد فعل لهذا الفساد والتسيب الأخلاقي، وبالتالي فإنه يمكن التخمين أن دور المرأة لم يختف اختفاء حقيقيا؛ بقدر ما تقلصت كتابات المؤرخين عنها وتسجيلهم لدورها وحياتها، سيما أنه كان لهم حضور قوي في العصور الأولى للإسلام، وبالتالي فلا يعتقد أن نمط التأريخ المتناقص للنساء العائلات في هذا الحقل يتطابق تطابقا تاما مع الواقع. هدى مفتاح السعدي، النساء ومهنة الطب في المجتمع الاسلامي، مجلة المؤرخ المصري، العدد22، جامعة القاهرة، 1999، ص500، 516.

⁴ ابن خلدون، مقدمة، 873/2-874.

⁵ إيلي مالكا، العوائد العتيقة اليهودية بالمغرب من المهد الى اللحد، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص9.

⁶ ولعل أشهر الأناشيد والأنغام التي تظهر هذه الحظوة ترديد النسوة:

يا القابلة يا السوسية

كل ما سديت شوية

نقوم نمار السبت نخرجك مكسية

يا القابلة يا المقبولة

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

القابلة اليهودية في مجتمع الغرب الإسلامي نظر إليها بنوع من الريبة في الوسط المسلم⁽¹⁾، خاصة أن اليهود عاشوا داخل الدولة العربية الإسلامية وتحت رايته، وفي ظل نظامها الاجتماعي الذي يكفل حق العمل لكل سكانها دون تمييز.

ومع ما شكله ويشكله موضوع إثبات عذرية الفتاة المقبلة على الزواج من رافد آخر للمنظور السابق، سيما من المرأة في حد ذاتها، فبالإضافة إلى وظيفتها في التوليد، كانت تقوم ببعض المهام الأخرى، كالتأكد من بكاره الفتيات، إذ تنوه بعض كتب الوثائق والنوازل إلى عادة قيام امرأتين باختبار أحوال الفتاة، فإذا وجدتاها بكرا تسلمان لها شهادة تثبت ذلك⁽²⁾، وقد أعانها على ذلك أعراف اجتماعية سنحت لها وحدها بالكشف على حالتهن، في مجال أغلق فيه الباب أمام الرجال، فاستأثرت به لوحدها.

كما ساعد على ارتسام حظوة المرأة القابلة؛ مجموع الأدوار في الحياة القضائية واستعانة القاضي بها في القضايا التي قد لا يكون للقاضي إلمام تام بها، على اعتبارها مستشارة في هذا المجال، بل كان يستأنس ويركن بخبرتها في حل بعض القضايا والمعضلات الأسرية؛ من إثبات الحمل والعذرية إلى الإجهاض والولادة والخلو من العيوب⁽³⁾، ولاغرو أن هذه الحالات تحيل إلى حضور عنصر الاستشارة والاطلاع على آرائهم في الموضوع، فالقابلة والحالة هذه هي طبيبة النساء والتوليد وطبيبة الأطفال والطبيبة الشرعية المخلفة.

يا مَبَشْرَة يا مَيْمُونَة

بَشَرْتَنِي اللَّهُ يَعْطِيكَ الْخَيْرَ

نَعْطِيكَ حَاجَةً مَضْمُونَةً.

حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، تاريخ ثقافة دين، تر أحمد شحلان أبو الغني أبو العزم، الدار البيضاء، 1987، ص54. فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص149.

¹ عبد العزيز الليدي، تاريخ الجراحة عند العرب، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 1992، ص182.

² فايز بن مرزوق بن بركي السلمي، المقصد المحمود في تلخيص العقود لأبي القاسم علي بن يحيى بن القاسم الجزيري (ت585هـ)، تحقيق ودراسة، ج1، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الفقه، إشراف محمد بن نبيل غنام، جامعة أم القرى، مكة، 1421-1422هـ، ص67. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص281. المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تح حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 1997، ص331.

³ ابن رشد، فتاوى، 1432/3. البرزلي، المصدر السابق، 2/ 280-282. المنشريسي، المصدر السابق، 4/ 54. 133/8. 230/9. ابن فرحون (برهان الدين أبي الوفاء إبراهيم اليعمرى المالكي) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكماء، ج2، خرج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه الشيخ جمال مرعشلي، دار عالم الكتب، الرياض، 2003، ص78. الصحي بن منصور، المرأة والعلاقات الزوجية بإفريقية في العصر الوسيط، ط1، مجمع الأطرش لنشر وتوزيع الكتاب المختص، تونس، 2018، ص42. Latifa El Bouhsine, Ibid.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ثم ألا يحمل تلقيب شعراء مرموقين بمهن أمهاتهم القابلات نموذج آخر على هذا المعطى؟، فهذا الشاعر أبو بكر محمد بن يحيى الشلطي الملقب بابن القابلة (ت539هـ/1144م)⁽¹⁾، فهل شهرتها وصورتها المحببة في المجتمع هي من أعطته اللقب الذي اشتهر به، أم أن هذه القابلة أنجبت أديبا نابغا أعظم من أن يكون ابن قابلة؟.

ومن طرائف إثبات البلوغ لدى الفتيات التي تتمظهر معها صورة القابلة الخبيرة، التي لا يمكن خداعها بسهولة، أن القوابل كن يفحصن بعض الفتيات اللاتي كن يستعملن بعض الأدهنة لإزالة الشعر عن أجسامهن كي ينفين صفة من صفات البلوغ⁽²⁾، وهذا ما يدعوا إلى ترجيح احتمال عدم قناعتهم بمؤسسة الزواج أو الزوج بسبب المشاكل الأسرية، أو عدم رغبتهم في الزواج من الشخص المعني.

وبسبب انتشار تجارة الرقيق في الغرب الإسلامي، و توسع عمليات التدليس والتي اشتركت فيها بعض المستشارات القوابل غير الأمينات، وقفوا موضع التحوط والريبة من بعض القابلات، رسما على صورة الخائنة للأمانة وأخلاقيات المهنة، إذ " تشهد في استبراء الخدم بمقتضى مرادهم وبحسب ما يعطى مشتريهن، ويقصد التعجيل بالاجتماع بهن"⁽³⁾، ليتوارى هذا الوجه عندما تعرض الجارية و " توقف للاستبراء عند ثقة من النساء"⁽⁴⁾، ويمكن التخمين أن تكرر حالات الغش المتعلقة بالجوازي، وعدم الوقوف على الأحكام الشرعية المتعلقة بالعمليات المرافقة بشرائهن، في ظل اتساع تجارة الرقيق عصرئذ؛ أرست بثقلها في تحري النساء الأمينات في هذا الجانب.

ومن اللافت للنظر أن مهمة القابلات قاربت في كثير من الأحيان حد الاحتراف، لتبلغ بموجبه شأوا عظيما في وجدان الأطباء الرجال، وحسبنا في ذلك وجود عدد معتبر من الجوازي اللائي تخصصن في مجال أمراض النساء، مما يغير في أذهاننا الصورة النمطية للجارية كرمز للمتعة واللهو فقط، وخير مثال على ذلك جارية الطبيب أبو بكر عبد الله الكتاني التي شهد لها بالبراعة في علوم متعددة ناهيك عن " المعرفة بالطب

¹ ابن الأبار، الحلة، 206/2. المقري، المصدر السابق، 610/3.

² الزيلتي (أحمد بن عبد الرحمن)، مختصر فتاوى البرزلي، اعتنى به أبو الفضل الدمياطي، أحمد بن علي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء دار ابن حزم، بيروت، 2011، ص127. الونشريسي، المصدر السابق، 51/3، 133.

² الونشريسي، نفسه، 236/9.

³ السقطي (أبي عبد الله محمد بن أبي محمد)، كتاب في آداب الحسبة، تحقيق ليفي برونفسال وكولان، إرنست لاروا، باريس، دت، ص48. الونشريسي، المصدر السابق، 54/4.

⁴ السقطي، نفسه. الونشريسي، نفسه.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

وعلم الطبائع ومعرفة التشريح وغير ذلك مما يقصر عليه علماء الزمان"⁽¹⁾، كما اضطلعوا بإجراء عمليات خطيرة الشأن تحت إرشاد أطباء مختصين، يقتصرون على تقديم النصائح والإرشادات لمن عن بعد؛ منها تصحيح وضعية الجنين في الرحم وتقليبه تمهيدا لولادته بطريقة سليمة، كما قاموا بالعملية القيصرية؛ إضافة إلى تشريح جثة الجنين وتقطيعها إربا إربا عند ما يقتضي ذلك، عندما تكون الولادة مستعصية نظرا لضيق حوض الأم⁽²⁾، ولا مشاحة أن الاعتناء بالطب مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية، ورافد مهم لعلاقة العلم بحياة الناس وحفظ أبدانهم ورعاية أجسامهم، ناهيك عن تماشيه مع الذهنية السائدة التي تركز على حرمة النساء في وسط يقدس حجب المرأة وصونها؛ في وقت ندر فيه الطب العملي النسائي.

ولعل شيوع منتحلي هذه الصنعة عصر الدراسة والذين أضروا بالناس مفسر للوجه المتحفظ لهذا النوع من المهنة، ولذا قال ابن عبدون الحريص على سلامة أفراد المجتمع الصحية والنفسية بكل مسؤولية إذ " يجب ألا يترك أحد يتسور في شيء لا يحسنه، لاسيما صناعة الطب الذي فيه إتلاف المهج... لاسيما النساء، فالجهل والخطأ فيهن أكثر"⁽³⁾، ويفهم من النص أن شدة الحذر من هذه المهنة انعكس على قلة عدد الطبيبات والقبالات.

2- المرضعة:

تعد المرضعة ذات علاقة وطيدة بعالم الطفولة؛ فهي التي تقوم على إرضاع المولود من لحظة الولادة حتى يبلغ الفطام، سيما في العوائل الميسورة المقتدرة⁽⁴⁾، إذ يعهد بالمولود في حالات كثيرة إلى امرأة قروية تحمله للبادية ويبقى في رعايتها حتى الفطام، لتنتج صورة المرأة المرضعة الحنونة الرحيمة بالأطفال، والتي اقتصت بها نساء السودان على حد تعبير السقطي⁽⁵⁾، والذي يظهر في اشتياقها لهؤلاء الأطفال حتى لو باعدت بينهم

¹ ابن بسام، المصدر السابق، 112/1/3.

² ابن خلدون، مقدمة، 874/1. الهوني فرج محمد، تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، 1986، ص 80. محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ج1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، طبع على نفقة حكومة الجمهورية العربية الليبية، دت، ص151.

³ ابن عبدون (محمد بن أحمد)، الرسالة الأولى من كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، اعتنى بتحقيقها ليفي برونسسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص46. الونشريسي، المصدر السابق، 503/2.

⁴ Heers Jacques, op.cit, p200.

⁵ السقطي، المصدر السابق، ص53. الونشريسي، المصدر السابق، 46/4. 48/6. خالد حسين محمود، الرقيق والحياة الاجتماعية ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام، ط1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص148.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

المسافات والسنون⁽¹⁾، مع تلمس موقف التحذير من بعض المرضعات سيما " رضاع الحمقاء ذوات الطباع المكروهة"⁽²⁾، اللواتي لا يتحرين الأكل من الحلال الطيب⁽³⁾، فتدين المرضعة ينعكس على الطفل المرضع، ببركة عملها الصالح، وحليها الطاهر الذي جاء من مصدر مشروع يسهم في نشأة الطفل في وسط عفيف، والذي لا محالة سيكون له دور فعال في أسرته ومحيطه ومجتمعه.

وما إلزام الأب بدفع راتب شهري متفق عليه للمرضعة، مع عدم أحقية زوجها أو وليها أن يأخذها رغما عنها أو يشاركها فيه⁽⁴⁾، بالإضافة إلى الملابس، إلا طريق مفضية لوجه عزتها⁽⁵⁾، ولاريب أن هذا الاهتمام مقترن إلى حد بعيد بتبعات ذلك على الطفل الصغير المرضع صحة ومرضاً؛ عافية وسقما، فبقدر الاعتناء بالمرضعة بقدر ما يكون الرضيع مرتاحاً ومعافاً ومكتمل النمو جسمياً، وحتى نفسياً، كما هو مؤشر دقيق وقوي على ما بلغته عناية الإسلام بالمرأة العاملة وضمان حقوقها دون مساس بأي بند من شروط الاتفاق، فهل كانت نفس الصورة للمرأة المرضعة غير المسلمة؟.

وغني عن البيان أن اهتمام مجتمع المغرب والأندلس بالمرأة المرضعة نموذج آخر لصورها السابقة، بل تمدد الاهتمام إلى الأمة المرضعة التي تبوأ منزلتها محترمة في وجدان أسيادها الموسرين في المجتمع الحضري⁽⁶⁾، بتقديرها

¹ تأتي قصة عبد الله بن فروخ أثناء زيارته لمدينة الكوفة طلباً للاستماع والتزود بالعلم من أعلامها ما يوافق ذلك، فهو يروي في أثناء موافاته لأحد الأعلام هناك وطول انتظاره: " إلى أن فتح الباب، فخرجت جارية فقالت: ما بالك على بابنا؟ فقلت: أنا رجل غريب، وأعلمتها بخبري، فقالت: وأين بلدك؟، فقلت: إفريقية، فأنشروني لي وقالت: أتعرف القيروان؟ قلت لها: ومن أهلها أنا، قالت: لعلك تعرف دار ابن فروخ؟ ثم تأملتني وقالت: عبد الله؟ قلت: نعم، فإذا هي جارية كانت في بلادنا -أو قال من بلادنا، وأظنه قال: كنت رضيعاً لها فأبعانها وهي صغيرة ". المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد)، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسألكم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج1، تح بشير البكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1994، ص180.

² ابن رشد، المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسم المدونة من الأحكام، ج1، مطبعة السعادة مصر، دار صادر بيروت، دت، ص381.

³ أبو حامد الغزالي (محمد بن محمد بن أحمد)، إحياء علوم الدين، مج 1، الدار المصرية اللبنانية، لبنان، دت، ص78.

⁴ يبدو أن مكوث الزوجة المرضعة في بيت غيرها إقامة دائمة أو مؤقتة أو متقطعة بما يؤثر على حياتهما الأسرية، صنع إلى حد ما صورة المرأة المرضعة اللاحقة بزوجها، فبخصوص أجرة الإرضاع يكون زوج المرضعة هو الطرف الثاني الموقع للعقد إلى جانب زوجته المرضعة، بل في الإمكان فسخ العقد إذا وقع دون إذنه. الزيلتي، المصدر السابق، ص193. الونشريسي، المصدر السابق، 24/3-26.

⁵ الجزيري، المصدر السابق، 97/1-98. ابن الحاج، نوازل، 90/2. البرزلي، المصدر السابق، 386/2. الونشريسي، المصدر السابق، 26/4. 285/8. كمال أبو مصطفى، مالقة الإسلامية، ص69. الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم، ص40. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص52. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p74 .

⁶ Heers Jacques, op.cit,p199.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

حليبيها لأطفالهم، بل تنص كتب الطب على "أن تكون المرأة المرضع متحفظة في الغذاء مرتاضة"⁽¹⁾، بغض النظر عن كونها حرة أو أمة، وفي إصرار الأطباء المسلمين على هذه الإجراءات ملمح العناية بها بقولهم: "ينبغي أن تكون أغذية المرضع من أجود الأغذية وأبعدها عن الفساد وترتاض قبل غذائها رياضة معتدلة، وبذلك يصلح لبنها، وليكن هذا تدبيرها الى الفطام"⁽²⁾، من أجل تحري صحة المرضعة التي تحتاج إلى قدر محترم من الفيتامينات التي تساعد على أداء وظيفتها، بأن تستهلك من كل غذاء أحسنه، والذي ينتقل تأثيره بشقيه الإيجابي والسلبي على الطفل الرضيع وموهور صحته.

3- المربية:

بمجرد ما ينتهي عمل المرضعة تأتي المربية أو الدادة كما شاع لدى المغاربة والأندلسيين؛ وإن تداخل عملهما في بعض الأحيان⁽³⁾.

وانحصر عمل المربية بعلية القوم غالباً، وحسبنا في ذلك الأمير عبد الله الغرناطي الذي يؤكد أنها حظيت في البلاط الغرناطي على عهد حكم بني زيري، وتوجت بالاحترام الاجتماعي، خاصة إذا وصل من تربى في كنفها⁽⁴⁾ إلى مراكز متقدمة من السلطة⁽⁵⁾، ولعل ذلك يعود إلى العلاقة الجيدة التي تربطهم بها واستشعارهم لأفضالها في تنشئتهم ورعايتهم⁽⁶⁾، لتتحول في وجدان السلطة وعناصر ممتدة من المجتمع إلى المرأة المربية المستغلة الكائدة، ذات الوجه السيئ، وتحديدًا في فترة باديس بن حبوس وابنه⁽⁷⁾.

¹ ابن زهر (أي مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي)، النشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو كتاب الأغذية، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص116. ابن رشد، الكليات في الطب، تح الجابري محمد عابد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص475. محمد بشير حسن راضي العامري، فصول في إبداعات الطب والصيدلة بالأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014، ص103.

² ابن زهر، المصدر السابق، ص116. الخطابي محمد العربي، الطبيب ابن خلدون ومذهبه في تدبير الصحة وحفظها، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأول، 1994، ص149.

³ الأهواني عبد العزيز، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج3، ج2، نوفمبر 1957، ص285. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p75.

⁴ ليس من المستبعد أن المربيات داخل البيوت التي إنتمين إليها، وموازة مع العلاقة الوطيدة التي ربطت بينهم من مكونات الأسرة؛ ألا وهي الأبناء، الذين سيكونون شعلة المستقبل، قد شكلن جسراً ثقافياً مهما تسربت عبره ثقافتهن ولغتهن وعاداتهن، وبحمل ما حملته معهن من بيئاتهن الأصلية، في مقابل تأثرهن كذلك في حركية تفاعل هامة، وبالتالي ساهمن في تغير حاسم في عادات المجتمع وتقاليدته.

⁵ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص57-58. 68. المالكي، المصدر السابق، 360/2.

⁶ خالد حسين محمود، المرجع السابق، ص149.

⁷ عبد الله بن بلكين، نفسه، ص68. ابن الخطيب، الإحاطة، 448/1.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

هذا وقد نضجت صورة مشرقة للمرأة المربية لدى الطبقة العامة، لدرجة أن يوصى لها بثالث المال لمن ربه، فتتحفنا النوازل بمسألة الصبي الذي " عهد بثالث ماله لحاضنته ومات، وكان من تسعة أعوام، وثبت العهد كما يجب، فادعى وصي الوارث للعاهد المذكور أن العاهد ما كان يعقل القرية، فأحضر قاضي الموضع الشاهدين بمجلس الحكم وسألهما هل كان يعقل ذلك أم لا؟، فقالا: إنه قال لهما: أشهد علي بالثالث الجائز لحاضنتي فلانة، لأنها خدمتني وربتي، فقال القاضي التسعة أعوام تكفي؟ أم كيف وقد عرف المجازاة على تربيتها له وخدمتها إياه، وأنفذ الحكم بالثالث المعهود لها به" ⁽¹⁾، ولاشك أن هذه المربية أثرت في الولد لدرجة أن رد جميلها بأن وهبها جزءا معتبرا من ميراثه نظير خدماتها وتربيتها له .

ولعل أهم مظاهر ارتسام نظرة التوقير للمربية في المخيال الفقهي؛ إجازة وترخيص الفقهاء خروجها لزيارة من ربتهم، كما يستطيعون زيارتها في المقابل ⁽²⁾، مع التشدد الذي عرفه الفقهاء في هذا الباب خاصة في مجال خروج المرأة، ومنع رؤية المرأة للأجانب عموما، ولم يكن هذا الخط على نحو مستمر من لدن الفقهاء ولكل المربيات، فهناك إشارات يلمح فيها موقف الحذر والحيطه من المربية الذمية للطفل المسلم ⁽³⁾.

ويفهم في سياق آخر أن نوعا من الألفة حدثت بين المربية والولد المربي، جعلت الأسرة تنظر إليها نظرة اطمئنان على وليدها، وتمنحها ثقة كبيرة، فاعتبرت من أفراد الأسرة، بل وصلت لدرجة أن المربيات كن يخرجن أيام العيد بمؤلاء الأطفال للتنزه ومشاهدة مظاهر العيد ⁽⁴⁾، ولا غرو أن ذلك انعكاس لصورة المربية الحنون، ولأجل هكذا علاقات أوصى السقطي باتخاذ الحاضنات من السودانيات لما يتميزن به من رحمة وحنان بالأطفال ⁽⁵⁾، فهل هذه الصفات وراثية في المرأة السودانية دون غيرهن من الحاضنات؟ أم أن الأمر لا يعدو إتقانهن لهذا الحقل من العمل نتيجة السعي لضمان مصدر رزق قار لهن، إلى جانب نشر لسمعتهن الطيبة، خاصة أن بشرتهن السوداء تقع حائلا أمام بروزهن في المجالات الأخرى ⁽⁶⁾ ومنافستهن للنساء الأخريات من الجوارى الحسان.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 248/9.

² ابن رشد، فتاوى، 991-992. الونشريسي، نفسه، 107/3. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p75.

³ ابن سهل، (القاضي أبو الأصبع عيسى)، وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة، دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، 1980، ص86.

⁴ كمال أبو مصطفى، مألقة الإسلامية، ص80. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 187. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p75.

⁵ السقطي، المصدر السابق، ص53.

⁶ هنري بيرس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمتها الوثائقية، تر الطاهر أحمد مكي، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1988، ص 81.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ونتيجة هذا التدخل المتزايد في دواليب الحكم من طرف المربيات في العديد من مناطق الأندلس، وبالموازاة مع الجو المتعفن في غرناطة ودول الطوائف عصرئذ، أصبح من المعتاد الافتراء على نسوة القصر والدادات لتبليور معها صورة المرأة المربية المبهوتة، فقد خطط يوسف بن إسماعيل بن النرجيلة لقهر وإذلال وتشويه سمعة ماكسن بن باديس بتشويه بعض الدايات المربيات له، من خلال الافتراء عليهن والإشهاد على ذلك " حتى جعلته الأنفة من مكروهه ما نقل إليه أن يأمر بقتل أمه وداياته"⁽¹⁾، ولعل لانسحاب باديس من فعاليات الحكم، وتنامي سلطة الأم والدايات السالفة الذكر والتي يبدو أنها حملت نوعا من الوعي السياسي بالتوجيه والإرشاد والنصح دورا في توريطها في تجاذبات السلطة ومشاكلها رغبة في تلجيمها.

أما النظرة إليها في الطبقة العامة، فاستوقف الموضوع أمارات تسقط بصورتها نحو السلبية، إذ أوصى أحدهم رجلا بألا يتزوج من النساء أصنافا كثيرة، وعدد من بينهن ذات الدايات وهي التي عندها كل يوم امرأة تزورها وتقول هذه دايتي⁽²⁾، ولاشك أن مرجع هذه النظرة تردد الزيارات من طرفهن، وما تسببه من إحراج للزوج وإطلاع على أسرار البيت ونقل للأخبار، خاصة إذا كانت المربيات من غير الأقارب، والتي تؤدي إلى التأثير على العلاقات الزوجية.

4- الماشطة:

تعد مهنة الماشطة من أهم المهن النسائية التي تقتزن اقترانا مباشرا بالمرأة، بحكم ارتباطها بصفة الزينة والجمال التي تنشدها كل أنثى.

وقد انعكست هذه الأهمية على صورة المرأة الماشطة، إذ تدلل كتب النوازل على نوع من الخطوة والاستقلالية نابعة من وظيفتها في تعاملها مع محيطها، من قبيل اشتراط الماشطة في عقدتها على زوجها المستقبلي الاستمرار في هذا العمل حتى بعد الزواج⁽³⁾، مما يحيل على الحرية التي تمتعت بها هذه الأخيرة في المجتمع وهامش سلطة القرار المتعاضمة لها، ومعرفة المرأة بقيمة العمل الذي تزاوله ومدى التثبيت به لدرجة أن يكون شرطا في عقد زواجهما، تماشيا مع ما تجنيه من عائد مادي معتبر خاصة خلال موسم الأفراح والمناسبات.

¹ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 65. ابن عذارى، المصدر السابق، 265/3. ابن الخطيب، أعمال، ص 231. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 217.

² المالكي، المصدر السابق، 359/2. 297/1.

³ الونشريسي، المصدر السابق، 278/3-279.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

كما نظر الرجل المقبل على الزواج إلى هذه المرأة نظرة احترام وتقدير، فهي من تهيب له زوجته لتظهرها في أبهى حلة وأفضل طلة⁽¹⁾، خاصة أن ليلة الزفاف للزوجين الجديدين تمثل من أجمل المناسبات، التي لا بد من الاستعداد والتحضير لها.

هذا ومع حرص المرأة على الحسن الطبيعي المكمل أو المصطنع أمر يكاد يكون طبيعيا في نفسها؛ فهو في اعتقادها يزيد جمالها وبهاءها، لذا فقد أدت مواد التجميل المتوافرة يومها دورا أساسيا في حياة المرأة ونظرة النسوة لذواتهن، حيث كانت النسوة يدهن شعورهن بالزيت لتمليسهن، كما هو الحال عند نساء المصامدة اللاتي "تدهن رؤوسهن به على المشط فتحسن شعورهن بذلك وتطول"⁽²⁾، ولاغرو أن هذا الاستعمال الدؤوب لمثل هذه المواد الطبيعية سواء الذاتي منه أو ما ارتبط بالماشطات المحترفات، مقترن بمنحها قدرا من الثقة بالنفس والطمأنينة والرضا، فالصورة الإيجابية مرتبطة هنا إلى حد بعيد بالجمال والتجميل الذي تقوم به الماشطة لإظهار المرأة في أحسن حال.

وبرسم العادة؛ وتوازيا مع احتفاليات العرس، كانت العروس تجلس على كرسي بعد أن زينتها الماشطة أو من تأخذ صفتها، لتحف بها النساء الجميلات، وتتلور مع العروس صورة المرأة الماشطة التي قامت عليها، والجانحة للغبطة والسعادة من عملها⁽³⁾.

مع أن هناك أمثالا تحيل إلى طابع الوقتية والمصلحية لهذه الخطوة والمنزلة المتسامية لها، فتبدل المعاملة التي كانت تلقاها الماشطة غير المعاملة، وتغير سلوك الآخرين معها يبرز صورة الماشطة المجففة، فتتصرفن من دار العروس مشيا على الأقدام، بعد أن كن يأتين محمولات على موكب⁽⁴⁾.

¹ الزيلتي، المصدر السابق، ص124. الونشريسي، المصدر السابق، 278/3. الحسن الوزان (الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ج1، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص256.
² الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بنشره وتصحيحه هنري بيرس، الجزائر، 1957، ص42. الحسين بولقطيب، الحياة الاقتصادية للحلف القبلي المصمودي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، مجلة الاجتهاد، السنة الخامسة، العدد 18، دار الاجتهاد، بيروت، 1993، ص81.

³ وقد قيل في هذا المشهد: "العروس في الكرسي وليس يُدرا لمن هي". الزجالي، المصدر السابق، 53/2.

⁴ وقد استحضرت هذا المثل أحد الفقهاء مما يؤكد هذا التعامل عندما قال: "الماشطة مع عروسة ... تأتيهم راكبة وتنصرف راجلة". الخشني (محمد بن الحارث)، أخبار الفقهاء والمحدثين، دراسة وتحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1991، ص162.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ومن جهة أخرى؛ ذكر ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة" وصفا لبعض الملامح التجميلية عند المرأة الأندلسية وبلوغهن حداً مبالغاً فيه، راسماً معها نظرة للمرأة المزينة والمرتبطة بالمزينة في الأصل؛ سمتها التعود من أفعالهن بقوله "وحريمهم حريم جميل، موصوف بالسحر... وقد بلغن في التفنن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات والتنفيس بالذهبيات والديباجيات، والتماجن في أشكال الحلي، إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر، ويكفكف الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، وأن يعامل جميع من بها بستره، ولا يسلبهم خفي لطفه، بعزته وقدره" ⁽¹⁾، والذي اعتبره ابن الحاج من الرياء الذي لا فائدة منه ⁽²⁾، وليس ببعيد أن مبررات ذبول جمال المرأة الطبيعي بسبب الظروف الصحية والنفسية والتقدم في العمر، والحرص على التفاخر بهذا الجمال، وإظهار الغنى والمكانة الاجتماعية، خاصة أن الأندلس مشهود له بالانفتاح على التجارب والطوائف والثقافات الأخرى في جو من الحرية المتزايدة والمستوى المعيشي الطيب لمرتادي هذه المهنة؛ يحتم الركون إلى وظيفة الماشطة.

كما يحمل الشعر صوراً لبعض أدوات التجميل التي ترسم معها صورة المرأة المزينة الكفئة في وجدان الشعراء والنساء عموماً، فهذا ابن زيدون يتغنى بهذه المظاهر بقوله:

يَجُولُ وشاحاًها على خيزرانة وتشرق تحت البردتين الخالخل ⁽³⁾.

أما الماشطة في أعين السلطة؛ فقد اصطبغت بالصفة السياسية، لتتلور معها صفة الماشطة المخيرة، فنظر إليها على أنها مصدر للمعلومة أواخر الدولة المرابطية وبداية الموحدية، حيث وظفت لدى السلطة بموجب الأنشطة التي تمارسها داخل المدينة و خارجها، من قبيل التعرف على دخل سكان المدن، ومصادر الثروة وأماكنها " وليخبرن بمكان الحلي وأولي الذخيرة على قلة هذا المتاع بهذا الأفق وخلو الأيدي منه" ⁽⁴⁾، ولاشك أن لترددها على بيوت كل طبقات وأطياف المجتمع دوراً في هذا المنحى.

هذا وقد فازت الماشطة بكل احترام ومودة كما أدركته المرأة في حد ذاتها، ولاشك أن هذا الأمر مرتبط بطبيعة عملها، سيما المقبلة على الزواج تظهر في صورة جميلة قولهم " وقد حسنت الوجه" ⁽⁵⁾، ولعل المقصود بتحسين الوجه هنا محاولة إخفاء الماشطة لأي عيب أو نقص في الوجه أو الشعر بأدوات التجميل التي تحملها،

¹ 139/1.

² ابن الحاج، المدخل، 52/3.

³ ديوان ابن زيدون، شرح يوسف فرحات، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994، ص234.

⁴ ابن الخطيب، نفاضة، 324/2.

⁵ المقرئ، المصدر السابق، 175/6.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

فالرابط ينير على علاقة مصلحة تتعلق بمصير الفتاة المتزوجة حديثاً أمام زوجها وأسرته، سيما وأن جمال المرأة الطبيعي يذبل حسب الظروف الصحية والنفسية والتقدم في العمر، فهل نفس النظرة تبقى وتستمر بعد الزواج؟ أم أن القضية ظرفية؟ ثم هل تطورت النظرة للمزينة في العصور اللاحقة حتى ولو كان من الرجال⁽¹⁾؟

وليس ببعيد أن أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتبع من داعية الموحدين محمد بن تومرت عند زجره للنساء المتزنيات المتكحلات في أواخر العصر المرابطي، تخمر آخر لوجه دوني لها⁽²⁾، فيصدد تعديد علامات بطلان عقيدتهم، والتي يبدو أن الماشطة تحملت فيها قدراً من المسؤولية فيقول: "والثالثة أن نسائهم رؤوسهن كأسنمة البخت، يعني أنهن يجمعن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تكون شعورهن على تلك الصفة"⁽³⁾، ولاغرو أن هذا التركيز من الداعية محمد بن تومرت على عنصر نساء المرابطين كان من عناصر مخططه للإطاحة بالدولة المرابطية.

وانطبع لدى الفقهاء كذلك وجه موروث متحفظ على المرأة الماشطة من غير المسلمات، إذ إن " المرأة المسلمة لا يجوز لها أن تظهر شيئاً من بدنّها على النصرانية أو اليهودية..."⁽⁴⁾، ولعل ذلك من باب اطلاعها على مفاتن وعيوب المرأة وإشاعتها بين الناس، مع الأخذ في الحسبان غياب الحس الإسلامي الذي يردع على تلقف هذه المواضيع، إلى جانب أسباب تكاد تكون أساسية من قبيل الخوف من التأثير عليها؛ فتكتسب حصلاً وعقائد من نحلته تؤثر في عقيدة المرأة المسلمة.

وفي نفس السياق، كان موقف فقهاء آخرين من المرأة الماشطة موقفاً ملؤه الامتناع وتحميل قدر متزايد من مسؤولية الزلل، انطلاقاً من مآلات التزيين على المرأة المقبلة على الزواج، وارتباطه بتضييع واجبات ثابتة

¹ يحق للموضوع أن يسأل هنا، هل نفس نظرة الاحترام إلى المرأة تستمر وتبقى إذا كان الرجل هو المزينة وإن ظهر في عصر متأخر نسبياً؟ أم أن الأمر يتعلق بالتحميل والتزيين وإخراج للمرأة في أحسن صورة دون اعتبار لجنس المزينة؟ وفي هذا المجال يطالعنا ابن الحاج بفتوى توحى إلى وجود رجالي في وسط مهني نسوي بامتياز، إلى درجة إنكاره ذلك بقوله "ويتعين على المرأة وعلى المزينة أيضاً أن يجتنبنا ما أحدثه بعضهم من ارتكاب المحرم في كون المرأة يحففها المزينة، وذلك معصية كبرى منهما، لأن فيه خروجاً على المزينة واستمتاعاً له بها، إذ أنه يباشر بيديه خديها وشفتيها، وذلك حرام كله متفق عليه". ابن الحاج، المصدر السابق، 106/4-107، وهذه الإشارة تدلل على أن حضوره أصبح أمراً واقعاً، جعلت ابن الحاج يشترط في المزينة الأمانة والثقة إضافة إلى حضور زوج أو ذي محرم أو جماعة من النساء. ابن الحاج، نفسه، 105/4، فهل حب الجمال والظهور بشكل جميل أوصل إلى هذه الحالة، وجعل الرجال يستسيغون دخول رجل إلى البيت علاوة على تزيينه للنساء؟.

² ابن القطان، المصدر السابق، ص 93. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 353.

³ ابن تومرت (محمد بن عبد الله)، أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق عمار طالي، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 242-243.

⁴ ابن الحاج، المصدر السابق، 111/4.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

عليها في غير عذر مثبت، فحملوا مسؤولية معتبرة للماشطة التي تنصح المرأة المقبلة على الزواج حينما" يقال لها لا تغسله وتمكث دون صلاة، فهذا لا يصدر على من انتمى إلى الإسلام، وكيف تبقى هذه البنت دون صلاة المدة المذكورة بل يوما واحدا... والتزوج يكون على هذا الوجه قل أن تكون فيه البركة"⁽¹⁾.

كما ترسخ الحكم السابق من خلال انتشار ظاهرة التبرج بصفة جليلة في المناسبات والاحتفاليات لاسيما الأعراس، ويبدو أن المحتسبين حملوا الماشطة جزءا من المسؤولية الأخلاقية للتزيين المبالغ فيه الذي كان مدار الرفض، وذلك أن العروس كانت تبدي زينتها لغير المحارم ما حمل ابن عبد الرؤوف على التنديد بذلك⁽²⁾، وقد وافق الفقهاء ذلك التصور، ومنهم ابن ورد الذي أكد "وقوع من التبرج مالا يباح، وقلما تخلو أعراس النساء من مثل هذا"⁽³⁾.

وإذا أريد رصد مظاهر الاحتفاء بالماشطة والمتبدية في أوصاف المرأة خلال مراسم العيد، سيما من مرتاديها من ذوي الدخول المرتفعة، فيكفي الموضوع في هذا المقام ما ذكره ابن قزمان والذي يتلمس فيه جانبا من الانبهار، متمثلا ذلك بقوله "وقد زينب العيون بالكحل والشعور بالترجيل، وكرر السواك على مواضع التقبيل، وطوقت الأعناق بالعقود، وضرب الفكر في صفحات الخدود...ورقمت الكفوف بالحناء، وأثني عن الحسن وهو أحق بالثناء"⁽⁴⁾.

5- الطاهية:

إذا كانت ربة البيت عند قطاع عريض من المجتمع هي من تنهض بأعباء البيت بما فيها طهو الطعام، فإن الشرائح المترفة الموسرة استخدمت طبّاخين وطباخات متخصصين، وهذا ما يؤكد مثول وجه الطاهية المحترفة

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 252/3.

² ابن عبد الرؤوف (أحمد بن عبد الله)، الرسالة الثانية من ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح ليفي برونفسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص83.

³ ابن ورد (أبي القاسم أحمد التميمي)، أجوبة ابن ورد الأندلسي المسماة بالجوابات الحسان عن السؤالات ذوات الأفنان، دراسة وتحقيق محمد الشريف، طوب بريس، الرباط، 2008، ص87. الونشريسي، المصدر السابق، 69/8.

⁴ ابن الخطيب، الإحاطة، 502/2.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

المعترف بإتقان طهيها، بل كان لهم في كثير من المرات حوانيت في الأسواق⁽¹⁾ تعتبر مقصد كل من يطلب إبداعا في فن الطبخ وإرضاءً وذكرنا حسنا من لدن المدعوين.

ولعل تنوع صنوف وأطباق الخاصة بين المحلية والأجنبية، تستوجب استقدام ذوي الخبرة والكفاءة في إعداد هكذا وجبات، لا سيما أيام المأدبات والولائم، وهو ما يشكل معلما آخر لرؤية الطاهية الفنانة، ولو كلف استئجارهن الأموال الطائلة، وما الأوصاف التي وسمت بها بعض الجاربات الطباخات التي كانت مصدر استفادة أسيادهن، نتيجة التخصص في هذه المهن أمانة على موقف التقدير⁽²⁾. وهذا ما يسترسل في ذكره صاحب الروض المعطار وغيره من الجغرافيين بشأن الاستعانة بالنساء السودانيات من أودغست اللواتي اشتهرن بالطبخ فيقول: "ويجلب منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة دينار كبار وأزيد، لحسن عمل الأطعمة الطيبة، ولاسيما أصناف الحلوات... فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن..."⁽³⁾، ناهيك عن حضور بعض الجواري الماهرات في مناطق أخرى من الغرب الإسلامي⁽⁴⁾، وكان من الطبيعي أن تبرز المرأة في مجال صناعة الأطعمة لارتباطها بطبيعتها، وتصبح مثار التقاط الشعراء الذين عرجوا في بعض خواطرهم وأشعارهم وأزجالهم على الإشادة في صنع المأكولات، وحسبنا في ذلك ما وصف به شاعر المدائن؛ وهي تلك التماثيل من الحلوى العظيمة التي يعملها أهل المغرب من العجين بأصناف الألوان، لا سيما التي ترتبط بالمهرجانات والاحتفاليات والأعياد كالحلويات⁽⁵⁾ عند قوله⁽⁶⁾:

مدينة مصوره تحار فيها السحره

لم تبنيها إلا يدا عذراء أو مخدره

¹ البكري (أبو عبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ص158. السقطي، المصدر السابق، ص35. مؤلف مجهول، كتاب الطبخ في المغرب والأندلسي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مجلد9-10، مدريد، 1961-1962، ص26. كمال السيد، مألقة، ص96. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص286. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص352.

² ابن العطار (محمد بن أحمد الأموي)، كتاب الوثائق والسجلات، اعتنى بتحقيقه ونشره ب. شالميتا وف. كورينطي، المعهد العربي الاسباني للثقافة، مدريد، 1983، ص56. المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص330.

³ البكري، المصدر السابق، ص158. مجهول، الاستبصار، ص216. الحميري، المصدر السابق، ص64. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص355.

⁴ ابن العطار، المصدر السابق، ص56.

⁵ انظر الوصف الطريف الذي أتى به ابن قزمان الزجال في ديوانه، المصدر السابق، ص222. هنري بيرس، المرجع السابق، ص272.

⁶ ابن سعيد، المغرب، 294/1.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

بدت عروسا تُحتَلَى من دَرَمِكٍ مُزَعَفَرِه

ومالها مفاتِحُ إلا البنَّانُ العشره

6- المتسولة:

لا توجد في تاريخ الغرب الإسلامي شريحة تعرضت للنسيان والإهمال والطمس أكثر من شريحة المتسولين، فالمؤرخون لم ينصفوها وأسدلوا عليها ستارا من الصمت والتهميش⁽¹⁾، لذا فإن محاولة استخراج صور المتسولة في مجتمع الغرب الإسلامي من الصعوبة بمكان، غير أن النبش في ثنايا المصنفات على اختلافها قمين بتجاوز بعض العوائق والمثبطات.

ويظهر أن المحتاجين من الرجال والنساء من باب أولى⁽²⁾ استغلوا تعاطف الناس التي يظهر نضوج نظرة الشفقة، فأصبحوا يتسولون⁽³⁾ بعرض عاهاتهم أو حتى تصنع المرض، مما حرك المحتسبين للمطالبة بمنع هذه التصرفات سيما مع الأشخاص الذين يتخذون من التسول حرفة لهم، موظفين طرقا ومناسبات وأماكن ذات بعد رمزي لدى جمهور المجتمع بعينها لاستجلاء أكبر قدر من العطف، من قبيل المساجد والأعياد والأسواق⁽⁴⁾، فابن عبدون المحتسب الأندلسي لاحظ أنهم يستغلون فرصة الجمعة لولوج المساجد استدرازا لعطف المصلين، لذلك طالب القائمين على شؤون المسجد "ألا يترك ساع في رحاب الجامع"⁽⁵⁾، رافعين أصواتهم "بالمسألة لأجل أن الناس يجتمعون فيها فيعطون فيها دون غيرها"⁽⁶⁾، ولعل الحرص على تلافي كل من يلجأ إلى هذه الحيل والأساليب، مسلك مواز للشفقة وانقلاب المعادلة إلى صورة المخادعة، فهذا ابن عبد

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين، مجلة مكناسة، العدد 6، جامعة مولاي إسماعيل 1992، ص 115.

² سواء المطلقة والأرملة أو اليتيمة إلى جانب من ليس لديها عائل وأصناف أخرى من النسوة.

³ تختلف النظرة إلى المتسول وطلباته من منطقة إلى أخرى عبر الغرب الإسلامي، ففي فاس كانوا يبالغون في سؤالهم، بحيث لم يكتفوا عما يسد رمق العيش، لتتجاوز إلى طلب أثمان أضياعهم، وسؤال اللحم والملابس والماعون، وهم بذلك يختلفون عن المتسولين بنواحي تلمسان ووهران، والذين لو تجرؤوا على مثل هذه الطلبات لعنفوا وزجروا، وهو ما يقوم دليلا على تباين المستوى الاقتصادي والخصاصة، وبالتالي صورة المتسولة بين مناطق الغرب الإسلامي. ابن خلدون، مقدمة، 804/2-805.

⁴ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 24، 216، 288. إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة التسول، ص 119. أنخل جنثالث بالثيا، المرجع السابق، ص 160.

⁵ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 24. البرزلي، المصدر السابق، 359/1.

⁶ العقباني (أبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التلمساني)، كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المآكر، تح علي الشنوفي، نشرة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي، دمشق، 1967، ص 42.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

الرؤوف يندد بذلك ويأمر بمنع " أصحاب الأورام والقروح البشعة، ومن تعلق مصرائه من جنبه، والذي يصيح بوجع الحصى، والذي يظهر أنه مقعد، والذين يقرحون أيديهم ويوهمون الناس أن ذلك كله بلاء نزل بهم وهم يكذبون وذلك كله منهم حيلة لأخذ أموال الناس بالباطل"⁽¹⁾، خاصة أن شريحة المتسولين لم تكن سوى نتاج لمنظومة اقتصادية متفاعلة وانعكاسا للتمايز الاجتماعي الذي ألقى بثقله على قطاعات عريضة من المجتمع رزحت تحت الفقر ولم تعد قادرة على تحصيل عيشها، وعاجزة عن الاندماج في عملية الإنتاج⁽²⁾، لأن مثل هذه الظواهر لا يمكن فهمها بمعزل عن الظروف التي أوجدت أرضية لبروزها، كما أوجدت عناصر اجتماعية قبلتها كذلك، لتنصهر كلها في بوتقة الفقر وتدني المستوى المعيش.

ولم تقتصر محاربة تلك الظواهر على أعوان السلط فقط، بل تعدته لتشمل كافة أفراد مجتمع الغرب الإسلامي سيما الأندلس، على اعتبارها نوعا من التواكل وعدم الجدية في السعاية لطلب الرزق واستسهال الربح المضمون والسريع من خلال استعطاف الناس، إذ " تكسل عن الكد وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه، فضلا عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر"⁽³⁾، لذا رافقت نظرة الاحتقار كل متسول "لأن هذا عندهم في نهاية القبح"⁽⁴⁾، ويمكن القول بكثير من الاطمئنان أن انطباع هذه الصورة جعلتهم أهل " احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال، فلذلك قد ينسبون للبخل"⁽⁵⁾.

ولعل محاربة الأمثال الشعبية للعطالة المفضي للظاهرة السابقة، وتشجيع العمل وسم لهذا المنحى⁽⁶⁾، ويبدو أن هذه النظرة شملت الرجال والنساء على السواء، وحسبنا في ذلك أن أهالي السوس وأغمات في عصر المرابطين من فرط حبهم للتكسب وتقديسهم للاشتغال وبغضهم للتسول، دأبوا على تعليم نسايتهم صنائع

¹ ابن عبدون، المصدر السابق، ص113. محمد حقي، الموقف من المرض، ص58.

² إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة التسول، ص118.

³ المقرئ، المصدر السابق، 220/1. محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة الإسلامية، ص293.

⁴ المقرئ، المصدر السابق، 220/1. ووافقت الأمثال الشعبية ذلك عند قولها: لا صدق، ولا قول أن مغرّف. الزجالي، المصدر السابق، 455/2.

⁵ المقرئ، نفسه، 223/1.

⁶ حول تفهم الأمثال الشعبية للعطالة انظر قولهم: أخدم باطل ولا تجلس غاطل. ابن عاصم، (أبو بكر محمد بن محمد الغرناطي)، حداثق الأزهار في مستحسن الأجوابة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر، قرأه وعلق حواشيه وقدمه أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم، مطبعة دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة، 2009، ص282. وكذا: من جلس بلا شغل، يطلب في رأس قول غظم. الزجالي، المصدر السابق، 331/2. وقولهم: غبار العمل، أخير من زعفران العطلة. نفسه، 393/2.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

متعددة، خشية الوقوع في براثن التسول، مجذرين هذه الخاصية حتى في صبيانهم⁽¹⁾، وهذا لا ينفى حالات كانوا فيها حقيقة في ظروف حتمت عليهم التسول. وقد عكست الأمثال الشعبية وجه الملحاحة في إزدراء كبير لهذه الشريحة من شرائح عريضة بما فيها الحاكمة، لأنها تبدو طفيلية تلتصق وتؤثر في العمالة على حد تعبيرهم، دون تقديم حلول لهذه المعظلة⁽²⁾، فموقف السلطة عصر الدراسة ظل باهتا، حتى وإن كان لهم جهد في تقزيمه؛ فإنه انطلق على اعتبارهم كأفراد وليس بصفة رسمية، إذ بقيت قيم الرحمة والإحسان تجسد الحل الوحيد للتخفيف من بؤس هؤلاء، لكنه كان حلا على حساب العدالة والمساواة⁽³⁾.

ويرتسم مع المتصوفة الذين ولجوا مفاصل الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع الغرب الإسلامي نظرة العطف والشفقة على محتزفي التسول دون اعتبار للنيات، فهذا أبو العباس السبتي (ت601هـ/1204م) لم يطب له العشاء الذي قدمه له أهله بسبب سائلة وجدها أمام بابيه دون طعام⁽⁴⁾، وقد يكون جوع الأولاد والفاقة والخصاصة مؤشرا آخر للتسول، ففي ترجمة الزاهد أبي إسحاق الأندلسي أن جماعة من أصحابه "صنعوا طعاما لعشائهم وقد قرب المغرب، فأنت إليه امرأة وقالت له: إن أولادي هؤلاء جياع وليس عندي ما أطعمهم، فقال أبو إسحاق لأصحابه: ادفعوا هذا الطعام لهذه المرأة وأولادها"⁽⁵⁾، خاصة أن هذه الشريحة تجشمت إكراهات التقلبات المناخية، ورزحت تحت ضغط الفتن والحروب والصراعات الداخلية والخارجية.

وما ثبات الناس على قيم التكافل الاجتماعي كالرحمة والاحسان والمعروف إلا مسلك لصورة المتسولة المسكينة، وحسبنا في ذلك ما خلفته كتب الفقه والنوازل والمناقب من إشارات كثيرة تؤكد مسارعة المحسنين على الصدقة بجميع أشكالها، وحرصهم في وصاياهم بقيمة من أموالهم على اختلاف قيمتها ونوعها للفقراء والمعوزين، والتي لا بد أنها شملت شريحة المتسولين والشحاذين⁽⁶⁾، ناهيك عن تشبع ووعي قطاع ممتد من المجتمع

¹ البكري، المغرب، ص163.

² ومصدق ذلك قولهم: "بني حاج، بخل دُبان الفرس". الزجالي، المصدر السابق، 134/2. وقولهم: "سمعت بنت السلطان الساعي يسعى، قالت: كنتعمل شبات بشحْم؟". نفسه، 424/2.

³ إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة التسول، ص 113-124.

⁴ ابن الزيات، المصدر السابق، ص466. إبراهيم القادري بوتشيش، نفسه، ص 120.

⁵ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 310.

⁶ نفسه، ص183. 405. 274. المنشريسي، المصدر السابق، 212/2. 105 /7. 268 /9. 496. 301 /10. عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص213.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعي الاقتصادي

بخصوصيات الظاهرة التي ينطبع معها وجه المتسولة المسكينة، وفي الأمثال الشعبية ما ينير على ذلك عند قولهم: "إذا ابتليت بالسَّعَى اقصد الديار الكبار"⁽¹⁾.

ثانيا- مهن ذات طابع ترفيهي مواساتي⁽²⁾:

1- القوادة:

تعتبر هذه المهنة من أقدم المهن النسائية في العالم، ويبدو أن خط الاحتقار كان هو السائد، في ظل عزوف النصوص التاريخية على ولوج هذا المجال من المواضيع المحظورة أو اللامفكر فيها. والقوادة أو السفارة هي الوسيطة التي تجمع بين الرجال والنساء على الدعارة والفجور⁽³⁾، لذا فقد تظهرت في صورة سلبية نتيجة العادات والتقاليد التي تنضبط بالوازع الديني، وحسبنا في ذلك ما جاء في شعر يصف قوادة:

قَوَادَةٌ تَفْخَرُ بِالْعَارِ أَقْوَدُ مِنْ لَيْلٍ عَلَى سَارِ

وَلَا حَاجَةَ فِي كُلِّ دَارٍ وَمَا يَدْرِي بِهَا مِنْ حَذَقِهَا دَارِي⁽⁴⁾

وللقوادة مواصفات ساعدتها على أداء مهنتها إلى جانب ارتسام صورتها السلبية من جهة أخرى، من حسن الشكل والظرف وخفة الظل وسماحة المحيى⁽⁵⁾، لتكون وجها محببا عند النحاسين، جراء توظيفهن لجواربهن، وتحصيل المال وتكوين الثروة⁽⁶⁾.

¹ ابن عاصم، المصدر السابق، ص 275-276.

² يشار أن المقصود بالترفيه والمواساة هنا كل ماله علاقة بالتسلية وما يدخل فيها من حب الاطلاع والتكشاف، ناهيك عن الفواجع التي تصيب الإنسان.

³ التيفاشي (شهاب الدين أحمد)، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تح جمال جمعة، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن قبرص، 1992، ص 67. النفزاوي (أبو عبد الله محمد بن محمد)، الروض العاطر في نزهة الخاطر، ضمن كتاب: الجنس عند العرب، ج 1، ط3، منشورات الحمل، كولونيا ألمانيا، 2007، ص 77. بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1978، ص 763.

⁴ المقرئ، المصدر السابق، 184/4.

⁵ وحول هذه المواصفات انظر: السقطي، المصدر السابق، ص 54. ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة، محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 106. المقرئ، المصدر السابق، 184/4.

⁶ عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 91.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعي الاقتصادي

وتنطبع صورتها لدى العامة فيما خلفوه من أمثال شعبية، تحيل إلى عدم رضاهم عن هذه المهنة وتعلقها بضعاف النفوس، فقد جاء في قولهم: " المرء المدّيد، ما تحتاج لقويّة"⁽¹⁾، لتنتع في نفس السيورة بالأنانية والمخادعة⁽²⁾، سيما إذا أخذ في الحسبان قبوع كل ماله علاقة وارتباط بالممارسات الجنسية وما إليها سواء من قريب أو بعيد، ضمن متون النص الإخباري على تنوعه، رغم ماعرفته من انتشار واسع بكل تمثالاتها وتحليلاتها على مستوى الواقع الاجتماعي. وفي نفس المعنى صور المؤرخون مهنة القوادة الداهية ببرشانة؛ وهي إحدى مدن الأندلس بقولهم أن " لهن بالسفارة في الفقراء علاقة"⁽³⁾، كناية عن اشتغال بعض نساها بالقوادة. وفي تشدد القضاة مع صاحبات هذه المهنة والوصول إلى تعزيزهن مؤشر على تحذر صورتها للأخلاقية في أوساط المجتمع وإن كانت في فترة سابقة، حتى أنها تضرب وتجلد بالسياط، مع التشهير بها، بل وصل الأمر إلى نفيها من مكان إقامتها إلى مكان به قوم صالحون⁽⁴⁾ وما هذه الإجراءات التي يلمح فيها وقع الشدة إلا لضرورة المحافظة على عرض المرأة وصون المجتمع من الوقوع في براثن وألعيب أولئك النسوة.

ولاشك أن تفتن الأهل لممارساتها المختلفة وخطورتها على بناتهن؛ مبرر آخر على قطع التواصل معهن كتصور لدونيتها، إذ تذكر المصادر أن الأسر القرطبية حذرت بناتهن من الحديث إلى ذوات العكاكيز والتسايح⁽⁵⁾، وهي لاشك نعوت للعجائز القوادات في ذلك الوقت، للتمويه على وظيفتهن الأساسية.

2- العاهرة:

بات بديها في ظل بيئة التفتح وانغماس الناس في مغريات الحضارة التي شهدها الغرب الإسلامي أن تنتشر عادات شاذة⁽⁶⁾، من قبيل عمل العاهرات؛ التي تم تداولاً سرا أحيانا من باب التسلل إلى عوالم الجنس والإثم، وفي كتب الحسبة علنا قصد الإصلاح في أحيان أخرى، لتلاقي مواقف متباينة لدى قطاع معتبر من المجتمع، ناهيك عن السلطة التي استفادت منها أحيانا، وغضت الطرف عليها تارة أخرى، وواجهتها بقوة في

¹ الرجالي، المصدر السابق، 47/2. التيفاشي، المصدر السابق، 89.

² في قولهم: " إذا كانت القويّة رشيقة، تُناك قبل العشيق ". نفسه، 16/2.

³ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 106.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 409/2.

⁵ ابن حزم، رسائل، 141/1-142. التيفاشي، المصدر السابق، ص 76.

⁶ ابن خلدون، مقدمة، 818/2.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

حالات عدة، سيما في الحواضر الكبرى للغرب الإسلامي، فانطبعت صورة المدينة الآثمة في مدينة شريش⁽¹⁾، لوجود متهنات الدعارة والتي قيل في وصفها: "لاتكاد ترى بها إلا عاشقا ومعشوقا"⁽²⁾. وقد أشارت وتلقفت الأمثال الشعبية صورتهم وانتشارهن بتهكم وازدراء، فنعتهن بأقبح الأوصاف⁽³⁾، وهو ما ينم عن انتشار هذه الحرفة عصرئذ، وازدراء المجتمع لهن؛ لأنها تجسد المروق عن الدين، والتطلع إلى كسر موضوع العفة بطريقة غير مباشرة، والذي شكل مدعاة للمفخرة ومضربا للأمثال.

وفي خضم الحديث عن أماكن تواجدهن مثل الاسواق والمقابر والاسواق ارتسمت صورة الفاجرة، ماحدا بالمحتسبين إلى إيلاء ذلك أهمية متزايدة للحد والتخفيف من الظاهرة وآثارها، من قبيل إبعادهن عن هذه الأماكن ونعتنهن بكل الصفات القبيحة، في محاولة منهم لتحقيق الضبط في المجتمع، لذا حذروا من مخالطة النساء اللاتي عرفن بالبغياء وممارسة الرذيلة، وصرفهن عن حوانيت التجار، لما عرفن به من سوء الخلق، ومن اللافت للنظر أن البغايا استشعروا مهاتهن، ومصدق ذلك أن ييوتهن كانت بمنأى عن المساكن والأماكن العامة، حتى لقبن بالطرازات⁽⁴⁾، فكان حرص المحتسب وأعوان الدولة مفعلا لتلك المشاعر المختصة بالمهانة والمراقبة وذلك التواري، حتى أن روادهن كانوا ينسلون إليهن في أوقات محددة تفاديا للشبهة.

ويبدو من استنكار بعض الأفراد لعادة خروج النساء والرجال إلى المقابر ليلة العيد احتمال تسلل بعض العادات التي توحى بممارسة الدعارة، أو على الأقل اتخاذهن للمقابر أوكارا للنشاطات المتنفية مع الحشمة وحرمة المقبرة، فمما جاء على كبير الزجالين بالأندلس ابن قزمان قوله⁽⁵⁾:

كُلُّ وَجْهٍ مَزِينٌ لَيْلَةَ الْعِيدِ هُوَ بَرٌّ

وَالْبُكَاءُ بِالْمَقَابِرِ عَلَى الْأَحْبَابِ ذِمَّةٌ

إِحْتِفَالُ الْفَجَائِعِ فَاحْتِفَالُ الْمِسْرَةِ

وَدُمُوعُ التَّرْحَمِ فِي ثِيَابِ الشَّطَارَةِ

¹ مدينة كبيرة من كورة شذوذة وهي قاعدة هذه الكورة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، 340/3.

² المقرئ، المصدر السابق، 184/1.

³ قيل فيهن "... شَرَّشَر، اَطْلَبْ وَحَدَّ تَجَدَّ عَشْرُ" الزجالي، المصدر السابق، 419/2. وفي نفس المعنى قولهم: "الْمَجْبَرَاتُ الْخَرَجَرُ بِصَاطِلٍ". ابن

عاصم، المصدر السابق، ص282.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص27، 50. البرزلي، المصدر السابق، 130/6.

⁵ ابن قزمان، المصدر السابق، ص163.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ولعل الإجراءات المتشددة التي اتخذت ضد هذه الفئة دليل على نضوج الصورة المذمومة للعاهرة في الغرب الإسلامي، حيث كان المحتسب يسعى إلى استتابة كل امرأة عاهرة سمع بها أو بلغه نشاطها، فإن عادت عزرها ونفاها من البلد⁽¹⁾، لتكون عبرة لغيرها من النساء والرجال على حد سواء، ولتحصين المجتمع من انتشار الرذيلة والفحشاء بينه.

حتى أن ابن قزمان يأتي مرة أخرى على وصف إحدى هذه الأماكن ومرتاداتها الظريفات المفقودات حسبته بقوله: (2)

زُهرَ مَرِّمَ عَيْشَه! أَيْنَكُم أَهْتَزُّو!

وَلُولُوا فَحْيَيْشَ بِالَّذِي يَهْدِيكُم!

خاصة أنهن يرتدين ملابس شفافة سهلة الخلع لا تغطي إلا أجزاء محدودة من جسمها زيادة في الفتنة والإغراء⁽³⁾، ويفهم أن هذا اللقب كان انعكاسا لنوعية الملابس المطرزة والمزركشة التي كن يرتدينها بغية إظهار مفاتنهن للرجال، ولاشك أن لحرية السوق وكونه مقصدا من جميع أطراف المجتمع دورا في هذا المنع من المحتسب، إلى جانب عزلة المقابر التي غالبا ما تكون وكرا للفساد، وللحفاظ على حرمة وقداسية هذه الأماكن من جهة أخرى.

وجدير بالذكر أن أشهر أماكن لتبلور صورتها الدونية الفنادق؛ التي غالبا ما تكون قبلة للتجار والغرباء، سيما التجار الأوربيين منهم⁽⁴⁾، فالأمثال الشعبية عبرت عنها بكل عفوية حين قالت "فندق بن زاغوا: نصارا

¹ الشيزري (عبد الرحمان بن نصر)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، قام على نشره السيد الباز العريبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946، ص110.

² ابن قزمان، المصدر السابق، ص60. ابن عبدون، المصدر السابق، ص26-27.

³ المقرئ، المصدر السابق، 232/3-233. هنري بيرس، المرجع السابق، ص342-344. وفي موقف العامة تمثل لذلك بقولهم: "ري فحبة سكرانة طرفه محلول ووسطه مبلول" ابن عاصم، المصدر السابق، ص287.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص50. التيفاشي، المصدر السابق، ص74. إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث، ص193. هذا وقد كان النظام المتبع في المغرب والأندلس يقوم على تخصيص فنادق بذاتها للتجار الأجانب من أوربيين وغيرهم، في مختلف مدن الغرب الإسلامي، وحرصوا على توفير كل مستلزمات الراحة لهم. الإدريسي، المغرب ص198. الحميري، المصدر السابق، ص537. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المربة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1984، ص169. كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الاندلس الاقتصادي في عصري دولتي المرابطين والموحدين، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، دت، ص307. أوليفيا ريمي كونستابل، إسكان الغريب في العالم المتوسطي، تعريب وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة ياسين الصيد، ط1، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2013، ص159-160.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ويُهوّد ومسلمين ان لطاف⁽¹⁾، ناهيك عن نضوج وجه البغية السلعة المتاجر بها عند أسياد بعض الإماء⁽²⁾ المحبرات على هذا الفعل، والتي ما فتئت تزداد رواجاً استحابة لعوائد المجون والخلاعة والريح⁽³⁾. مما جعل صورتها العابثة التي أدت إلى شيوع الفاحشة تلتصق بالأشخاص الباحثين عن المتعة، حتى "أطلق عليهن الباقيات المرتزقات"⁽⁴⁾، وهذه التسمية تدعو للاعتقاد بأن المهنة عرفت حداً معتبراً من الاحتراف بالفنادق، نظراً لاتساع أفق التعامل التجاري مع المدن والأفراد الأوروبيين وغيرهم، مما هياً فرصاً أكبر لتسلل الدعارة إلى المدن المغربية والأندلسية.

ويبدو أن السلطة المرابطية ومع اتساع رقعة الدولة وضم الأندلس المتنوع عرقياً، والمتفوق حضارياً، والمنفتح أكثر على حياة الترف، أقول وفي ظل هذه الظروف عملت كل ما في وسعها لمحاربة تلك الآفة، غير أنها لم تتحكم فيها لظروف داخلية وخارجية، من شيوع الترف وممارساته التي اعتادها الساكنة وبقيت ملقية بآثارها حتى بعد مجيئهم؛ حتى من الأمراء أنفسهم⁽⁵⁾، علاوة على التفسخ السياسي وما يصحبه من انحلال أخلاقي، خاصة أن المجتمع وباعتباره محور الحدث قد اكتوى بنار الحروب والأزمات، ويظهر ذلك مع منقلته المصادر التي أجمعت أن المجتمع الأندلسي دفع ثمناً باهضاً، فالأمن أفرز ظواهر كثيرة من انتشار للزنا والمجاهرة بالمعصية⁽⁶⁾، فالسلطة في حالة تدهور كبير، لا يمكنها والحالة هذه ضبط أو الاعتناء بهذه الأمور، بل هي من أولوياتها الثانوية، ويخيل في الذهن والحالة هذه أن الحروب عصفت بالتحضر والمدنية، بل انحدرت سراعاً كل

Dufourcq C.E, la vie qoutidienne dans l'Europe médiévale sous domination Arabe, ed Hachette, paris, p234-235.

¹ الزجالي، المصدر السابق، 406/2.

² رغم منع ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبَتَّعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. سورة النور، الآية 33.

³ السقطي، المصدر السابق، ص 49. التيفاشي، المصدر السابق، ص 67. أما عن الأجر الذي أشار إليه السقطي والبالغ خمسة دراهم، فإنه يبدو زهيدا وغير مكلف مقارنة بنظيراتها في المشرق الإسلامي والتي تكلف إحداهن دينارين. خالد حسين محمود، المرجع السابق، ص 88.

Latifa El Bouhsine, OP.cit, p83. مما يفسر إلى حد بعيد انتشارها في الغرب الإسلامي عصر الدراسة.

⁴ الحسن الوزان، المصدر السابق، 232/1. الطاهر أحمد مكي، دراسات، ص 50-51. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص 319. الصحبي بن منصور، المرجع السابق، ص 52-53.

⁵ بعد وفاة يوسف بن تاشفين، مال مجتمع المرابطين إلى ألوان الترف، خصوصاً بعد احتكاكهم بالأندلسيين وإطلاعهم على أساليب الحياة في المدن الأندلسية، مما جعلهم يتأثرون بحياة الرفاهية والمتعة والدعة التي كان يحياها أبناء الأندلس، وانتهى إلى الأسماح تلك المجالس التي يحضرها المغنون والشعراء. ابن سعيد، المقتطف، ص 257. ابن عذارى، المصدر السابق، 57/4. ابن الخطيب، الإحاطة، 220-219/1. المقرئ، المصدر السابق، 23/7.

⁶ ابن عذارى، نفسه، 81/3.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

القيم الجميلة الموروثة على الحقب السابقة، حين أفرزت مجتمعا غير مستقر يسوده القلق، وتهمين عليه عقلية الفوضى.

وللتقليل من حدتها وانتشارها في أوساط المجتمع؛ عملت السلط على حصرها وتقنينها في أماكن محددة وناس مخصوصين، لتواكب بذلك موجة القبول والرضوخ للأمر الواقع، ونضوج صورتها لدى عناصر متعددة من المجتمع، حسب ما يفهم من الإشارات التي أوردها ابن عبدون المعاصر لتلك الفترة، والذي أكد على وجود فنادق خاصة بالنساء العاهرات تعرف بدور الخراج، مرفقة غالبا للفنادق، لذا عرفن "بنساء الخراج أو الخراجيات"؛ اللاتي يتخذن منها أماكن للبقاء والتكسب⁽¹⁾، كما وجدت في الأندلس أرباض خاصة ببيوت الدعارة عرفت آنذاك باسم القصيفة⁽²⁾ جعلت بعيدا عن المدينة بالأرباض، بل منهن من كن يقضين ليال في بيوت الأثرياء وعلية القوم⁽³⁾ ومن يدفع لهن، لتصير في وجدان أسيداهن الانتهازيين مصدرا للمال والثراء من جهة، والإمتاع والترفيه الجنسي لدى طالبيهم من ناحية ثانية، وتنضج في بعد آخر الصورة المشينة لهن عند المحتسب في منعهن من الاختلاط مع النساء العفيفات الطاهرات حتى لا يفسدن⁽⁴⁾، ويمكن التخمين أن لعزوف الشباب عن الزواج لغلاء المهور والشطط في ملحقاتها، ولو كان سببا غير مباشر⁽⁵⁾، وانتشار ظاهرة الطلاق وما تخلفه من حالات العوز والخصاصة⁽⁶⁾؛ كانت مخرجا يدعو أحيانا إلى ممارسة هاته الأعمال؛ ويجعل

¹ ابن عبدون، المصدر السابق، ص50. السقطي، المصدر السابق، 49. ابن هشام اللخمي (أبو عبد الله محمد)، المدخل إلى تقويم اللسان، تح حاتم صالح الضامن، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2003، ص441. ابن عاصم، المصدر السابق، ص282. الطاهر أحمد مكي، المرجع السابق، ص49-50. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص319. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p83.

² ليوبولدو طريس بالباس، التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية، ج1، تر محمد يعلي، ط1، دار أبي رقيق للطباعة والنشر، المغرب، 2007، ص305.

³ لا يخفى ذلك التأثير البالغ لمفعول سياسة الترف والجنون التي يتخذها عليّة القوم على المجتمع، وقد قيل "أن الناس على دين مليكهم" ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل)، البداية والنهاية، ج9، تح عبي شيري، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص198. ومن هنا تتحدد لنا الصلة بينها وبين ظهور مختلف الانحرافات السلوكية بحيث لا يشك أن الفئات الاجتماعية على اختلاف انتماءاتها انحدرت هي الأخرى إلى مثل هذا التفسخ الأخلاقي الذي جرى فيهم مجرى العادة، فهذه مدينة برشانة "purchena" كان "بالجنون بها سوق، وللفسوق ألف سوق". ابن الخطيب، معيار، ص82، وعرفت بعض مدن المرية بفسقها أيضا، فكانت أندرش "Andarax" مستباحة المحارم. ابن الخطيب، نفسه، ص84.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص50. السقطي، المصدر السابق، ص49. محمد الأمين بلغيث، مشاركة المرأة الأندلسية في الحياة الأدبية والعلمية في عهد المرابطين، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التنوير، الجزائر، 2006، ص63. كمال السيد أبو مصطفى، مألقة، ص74.

⁵ عكست الأمثال الشعبية هذا الجانب بقولهم: "زَوْجُوهُ حَوْجُوهُ" الزجالي، المصدر السابق، 235/2. وفي نفس السياق عند قولهم: "ما أَطْيَب العَرْسَ لَوْلَا التَّفَاقَةُ". ابن عاصم، المصدر السابق، ص293. الونشريسي، المصدر السابق، 251/3.

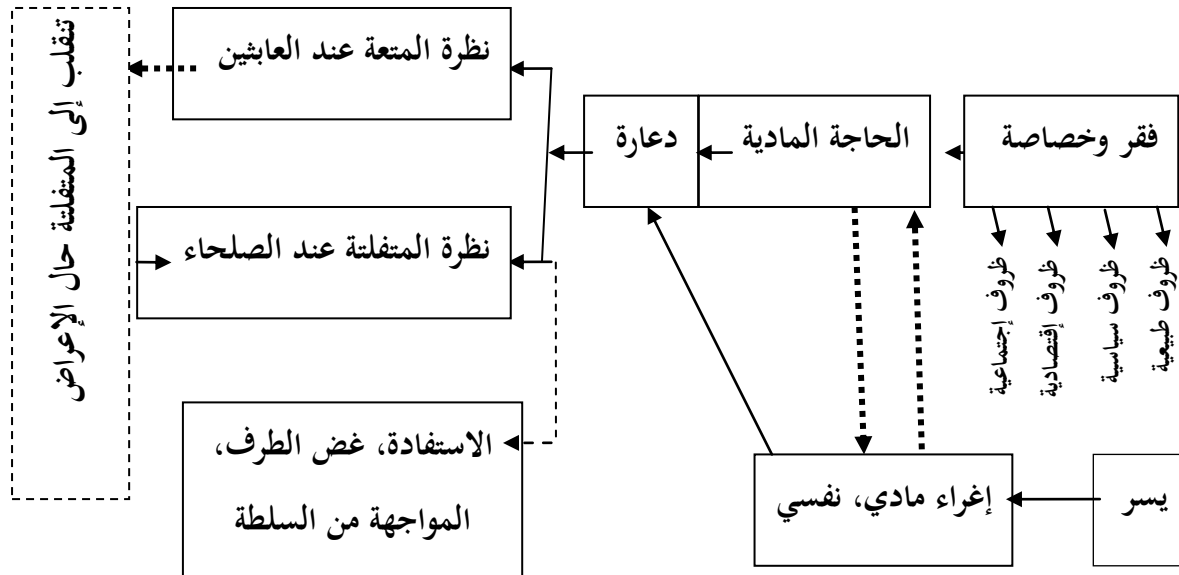
⁶ البرزلي، المصدر السابق، 315/2. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص159.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

جسدها هو سلعتها الوحيدة القابلة للتسويق، فالانفصال لاحالة يلقي بثقله على الأولاد سيما البنات منهن، ناهيك عن الأسر والعبودية التي تفقد فيها المرأة كل مصدر للحرية في مناقشة مصيرها وعملها⁽¹⁾، خاصة بوجود تجار نخاسة جشعين، وطلاب متعة كثر.

غير أن ذلك لا يعني الانفلات بالأمر وتركه عشوائيا؛ بل كانوا تحت عيون ومراقبة المحتسب الذي يقوم كل اعوجاج يظهر عليهن؛ في صورة العاهرة العار، من قبيل الكشف عن رؤوسهن خارج الفندق، وعدم الظهور بزيتتهن أمام باقي النساء، فلاحصان يستلزم من هؤلاء ومؤسسة الرقابة عموما المحافظة صفة الاستقامة في النسوة الأخريات، إضافة إلى النهي عن مشاركة باقي النسوة الأفراح ولو دعين لذلك⁽²⁾، وليس من المستبعد أن سياسة التطويق نبعت من حرص ابن عبدون، ومن ورائه السلطة على عزلهن عن بقية النسوة من عامة المجتمع، حتى لا يكن سببا في إغراء وإغواء غيرهن من النساء والايقاع بهن، في ظل ضعف الوازع الديني، كما يلمح أن هذه الإجراءات تهدف من ناحية أخرى إلى التحذير من معاشرته ينجر عنها ضرر من الناحية الدينية وحتى الجسمية، والمخطط التالي يظهر مختلف العلائق المرتبطة بالعاهرة:

شكل رقم 10: أهم الفواعل الراسمة لصورة العاهرة



¹ السقطي، المصدر السابق، ص 49. التيفاشي، المصدر السابق، ص 67.

² ابن عبدون، المصدر السابق، ص 50-51. السقطي، المصدر السابق، ص 49. علي أفرار، صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1996، ص 16.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

وما يدل على ارتسام النظرات السابقة اعتبار أموالها من الكسب الحرام⁽¹⁾، فلم يكن يتساهل في هذا الجانب فلا شيء يغفر للمومس فعلها حتى لو افترضنا أنها زنت للتصدق⁽²⁾. وقد أحسن صاحب المعيار الذي نقل انطباع البعض عند سخريته الشديدة من استحلال لأموال محرمة لتحقيق هدف مشروع في بيت شعري قال صاحبه⁽³⁾:

كَجَارِيَةٍ تَزْنِي وَتُطْعِمُ جَائِعًا فَيَا لَيْتَ لَمْ تَزْنِ وَلَمْ تَتَصَدَّقْ

ونتيجة لذلك "لا يكلمهن أي فقيه أو تاجر أو صانع محتشم... ويتمنى لهم الموت جميع الناس"⁽⁴⁾، ووصل الأمر إلى ازدياد بل ومعاقبة كل مكتر يوظف المنزل لهذه الأمور⁽⁵⁾، فضلا عن كون العهر والزنا من أكبر العيوب التي تحتم رد الرقيق النسائي، رسما على صورة العاهرة الموبوءة⁽⁶⁾، خاصة وأن تطور التجارة وازدهارها شجع على تشييد فنادق وخانات في أغلب مدن الغرب الإسلامي، كمحطات أساسية للاستراحة والتزود بالزاد والمؤونة، فهل تعلق الأمر هنا بالمهنة في حد ذاتها من زاوية الحرمة؟، أو من جانب الدخل المعتبر الذي يجنيه والذي قد يكون مغريا لفتيات آخر؛ في ظل البطالة النسوية المتزايدة؟، خاصة أن زبائنهم كما سبقت الإشارة من الأثرياء والتجار الأجانب غالبا، ثم هل حاولت السلطة الإفادة من هذه السيولة في فترات ما؟.

ويبرز موقف مرن من العاهرة المجبرة على البغاء، يعبر عن المرأة الأنفة الضحية، فقد يصادف أحيانا أن تضطر المرأة للبقاء لإجبار زوجها لها، أو لضيق ذات اليد، فينقلب الموقف من الاستيحاش نحو التفهم، لا سيما إن بدر منها ما يكشف عن عدم رضاها بهذا الحال، من قبيل المعارضة أو الهرب⁽⁷⁾، ولا مرأ أن هذه الحالات مرتبطة بديانة الرجل الذي لا يغار على عرضه، وفي كثير من الحالات محمل لإكراهات فقر وعوز وخصاصة بعض النسوة، والتي تجعلهن أكثر عرضة للاغتصاب والوقوع في الفاحشة.

¹ البرزلي، المصدر السابق، 165/5.

² نادية لعشيري، ملامح من صورة المرأة من خلال بعض مصادر الأدب الأندلسي، ضمن كتاب أعمال ندوة المرأة والكتابة، جمع عبد المجيد حجي وآخرون، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995، ص 85.

³ الونشريسي، المصدر السابق، 239/6.

⁴ السقطي، المصدر السابق، ص 49. الحسن الوزان، 232/1، 277.

⁵ الجزيري، المصدر السابق، 367/1. السقطي، نفسه.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، 48/6.

⁷ نفسه، 134/3. المقرئ، المصدر السابق، 278/7.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعي الاقتصادي

وكان للأولياء إستراتيجية فعالة في محاربة أو التخفيف من وطئه، تظهر موقف الحيرة عليهن والسعي لإنقاذهن من براثن هذه الظاهرة، تعبيرا عن وجه المرأة الضحية، وعلى اعتبارهن في جزء كبير منها تولدا للظاهرة ولسن مولدا لها، ضحايا لا مدانين، ويندرج في هذا المسعى تجهيز البنات الفقيرات لتحسينهن من الوقوع في الفاحشة⁽¹⁾، من خلال محاربة مسببات وجذور هذه المسألة، والتي يشكل الفقر في ذلك العصر أهم تجلياتها، وبالتالي ضمان الضبط الاجتماعي في الوسط الرجالي والنسائي على حد سواء، وهو ما يعكس وعيا تاما لبنيات المجتمع المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وعوامل التأثير المتبادلة بينهم عصرئذ، وفهم كنه منابع ظاهرة البغاء لمحاولة تخفيفها، ناهيك عن كونها مظهرا من مظاهر التكافل الاجتماعي الذي يقوم على معاشة الأولياء لمجتمعاتهم ومحاولة التأثير الايجابي فيها، بما يضمن الأمن الأخلاقي.

وكان كثير من العاصين يرقون على أصناف من النساء؛ كانت في نظرهم مرتعا للمتعة، سيما إذا كانت من العفيفات التي غدر بهن الزمن، وحسبنا في ذلك القصة التي وردت أواخر العصر المرابطي التي تروي حكاية تلك الفتاة التي ألزمتها الحاجة وضيق الحال، بعد نكبة والدها ودخوله للسجن، أقول ألزمتها هذا إلى تسليم نفسها لمن يطلب المتعة، فلما قربها الرجل للاستماع أجهشت بالبكاء، وحكت له روايتها على إصرار منه، فتعهد بصونها وعدم فضحها، بل والإنفاق عليها، لينبلج بذلك وجه العاهرة المضطرة المغلوب على أمرها⁽²⁾، وهو ما يحيل إلى أن كثيرا من فتيات تلك الفترة ألزمن الحاجة والعوز إلى ممارستها.

هذا وقد التصقت في وجدان رجال الحسبة وضاعة النساء المسلمات اللاتي يزن الكنائس، إذ يبدو أن بعض المسلمات كن يقصدنها للتفرج على الإحتفالات الدينية، والمواكب التي تجري فيها بمناسبة الأعياد، أو مصاحبة صديقاتهن النصرانيات⁽³⁾، فقد أكد ابن عبدون في عدة مناسبات على منع "النساء المسلمات من

¹ البشير غانية، الأولياء والمجتمع في العصر الإسلامي عصر المرابطين والموحدين، أطروحة لنيل دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، 2015-2016، ص226. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب، ص 159. محمد ياسر الهاللي، نظرة المجتمع للمرأة في غرب القرن 8-9هـ/14-15م مساهمة في تاريخ الذهنيات، مجلة أمل، العدد 13-14، السنة الخامسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص 82.

² المقرئ، المصدر السابق، 277/7-278.

³ حول الثقافة التي حدثت في الغرب الإسلامي بين مختلف عناصر المجتمع وبأوجهها المختلفة انظر: الطرطوشي (أبو بكر محمد بن الوليد)، كتاب الحوادث والبدع، ضبط نصه وعلق عليه علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1990، ص150-151. أنخل جنثالث بالنشيا، المرجع السابق، ص485-486. عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1976، ص68-70. عبادة كحيل، المرجع السابق، ص171-173.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

دخول الكنائس المشنوعة، فإن القسيسين فسقة زناة لوطه"⁽¹⁾، وإن كان هذا المثال يرتبط بالزنا أكثر من ارتباطها بالبغاء، إلا أنه قد يفضي إلى ممارسة البغاء. ومع ما يرافق هذا الطرح من تحامل وتعميم موروث من رواسب دينية اتجه بعض المسيحيين، إلا أنه ولاشك مستند على منطلق الإمعان في الحفاظ على شرف وعرض المرأة المسلمة، وحرصا على عدم الإنبهار بالاحتفالات في مناسباتهم الدينية الذي قد يتسلل إلى بعض النساء والمفضي للتقليد، سيما أن المسلمين متعودون على بساطة وسلاسة الشعائر الإسلامية، فضلا على ما يعكسه هذا التفتح بين النساء من انعكاس لروح التعايش والتسامح الإسلامي والتأثير المتبادل بين المسلمين وغيرهم من ساكنة الغرب الإسلامي من أهل الذمة.

ولم يقتصر إرتباط النظرة السابقة بالنساء المسلمات فقط، بل تعدتها إلى الافرنجيات، فبحكم عهد الأمان، وسعيا للضبط الأخلاقي الذي يشمل النسوة بغض النظر إلى إسلامهن من دونه، تُشدّد في منع الافرنجيات من الدخول في الكنيسة إلا في يوم فضل أو عيد، لأنهن يأكلن ويشربن ويزنين مع القسيسين⁽²⁾، ولاشك أن هذا الاجراء كان كمحاولة من رجال الحسبة لتنظيم العلاقات الموجودة بين معتنقي الديانة المسيحية وأماكن عبادتهم، وسعيا إلى عدم تفشي بعض الظواهر التي تعكر الطابع الأخلاقي العام، في ظل الحرية الدينية التي كانت سائدة تحت حكم ملوك الطوائف حتى دخول المرابطين إليها⁽³⁾.

وعلى صعيد آخر؛ فقد تمددت نظرة الإحتقار للمرأة العاهرة إلى كل من له علاقة بها سواء من قريب أو بعيد، في المغرب والأندلس انعكاسا لسمعتها الدونية، فقد ذكرت المصادر رجالا صالحين تزوجوا بمومسات، وهو ما انجر عنه زيادة احتقار المحيطين به رغم صلاحه⁽⁴⁾، بل وصلت صورتها في عين الفقيه إلى حد فسخ عقد الزواج لكل رجل تزوج امرأة زنى قبل أن تستبرأ من الماء الفاسد⁽⁵⁾، ولأجل ذلك ونتيجة إدراك النسوة العاهرات لصورتهن المستقبحة عملن جهدهن على إسقاط جنين الخطيئة في حال الحمل⁽⁶⁾.

¹ ابن عبدون، المصدر السابق، ص48. ابن بسام، المصدر السابق، 705/2/1. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص144. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص255.

² ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص48.

³ محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص72.

⁴ السقطي، المصدر السابق، ص55. ابن الخطيب، نفاضة، 71/2. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p83 .

⁵ ابن رشد، فتاوى، 279/1.

⁶ الشعبي(أبو المطرف عبد الرحمان بن قاسم المالقي)، الأحكام، تح الصادق الحلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص351. ويمكن التخمين في أسبابا أخرى غير خشية المجتمع كانت وراء هذا السلوك، والمتمثل في وجود مولود بجانبها يقلل فرص نجاحها في عملها ويشكل عائقا في تقدم وظيفتها، سيما إذا فرض تحبيذ مرتادي هذه المهنة العاهرة التي تكون دون أولاد، وتحسبهم من هذه الحالات.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوءاء الاقتصادي

وفي نفس السياق، نظر المجتمع بعين الشك والريبة والحيطه للمرأة التي كانت من أهل الدناءة واللفقيه أو القاضي الذي عزم على تزويجها⁽¹⁾، ولاشك أن ذلك من قبيل الحب الكبير للفقه والفقيه، الذي قد ينقلب في أي لحظة إلى احتقار وسخرية، حتى أن ذلك حملهم على تتبع كل شطط منهم ويعتبرونه عظيما، ويقسون في أحكامهم أحيانا على من أخل بأخلاق ومسؤوليات العالم⁽²⁾، وهو ما انعكس في الأمثال الشعبية التي كانت لسان المجتمع⁽³⁾، ولا مشاحة أن ذلك انعكاس لتمثالات المجتمع لصورة الفقيه التي تعكس في الغالب الأعم ما ينتظره الناس من فقهاءهم الذين يمثلون الدين بكل قدسيته، وسلوك مثل هذا يتنافى مع ما تحذر في مخيالهم حول الفقيه الورع البعيد عن كل الشبهات.

هذا وتشير قصة الشاعر الماحن على طرافتها إلى منظور الأب وقطاع ممتد من المجتمع إلى العاهرة، والتي حملت الوزر الأكبر من هذا الانحراف، ناهيك عن حملها لمقوم الرفض لهذه الزيجة وشعوره بالعار رغم خلاعة ولده، فقد كان لوالد ابن نشأ على العفة والطهارة والزهد، فكان أبوه يلومه على إفراطه في الزهد واقتصاره على كتب المتصوفين، ويحضه على الأدب، إلى أن اشتهر في الانحلاع، وفر إلى إشبيلية، وتزوج هناك عاهرا ترقص في الأعراس، فكتب به أبوه شعرا جاء فيه⁽⁴⁾:

يا سُخْنَةَ العين يا بُنيًا ليتك ما كنت لي بُنيًا
فأجابه:

أَوْجَفْتُ خَيْلَ الْعَتَابِ نُحُوي	وَقَبْلُ زَيْنَتِهَا إِلَيَّا
وَقُلْتُ هَذَا قَصِيرُ عَمْرٍ	فَارِيحُ مِنَ الدَّهْرِ مَا تَهَيَّا
قَدْ كُنْتُ أَرْجُو الْمَتَابَ مِمَّا	فُتِنْتُ جَهْلًا بِهِ وَغَيَّا
لَوْلَا ثَلَاثُ شَيْوُخٍ سَوْءٍ	أَنْتِ وَابْلِيسُ وَالْحُمَيَّا

ونفس الانطباع نجده لدى أهل الذمة في الغرب الإسلامي، فقد حُرِمَ حزان⁽⁵⁾ من منصبه، ولم يرض أخبار اليهود إعادته لمنصبه حتى بعد توبته، نتيجة تردده السابق على بيوت الدعارة⁽¹⁾، وماطرده من منصبه والتشدد

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 122/3. 199-198. محمد ياسر الهلاي، المرجع السابق، ص 78.

² المقرئ، المصدر السابق، 221-220/1.

³ كما في قولهم: "مَنْ أَرْوَجَ قَحْبَةً، قَرَّانٌ بِشَهَادَةٍ". الزحالي، المصدر السابق، 289/2. والقران الديوث، أصلها الصحيح قرنان. ابن هشام اللخمي، المصدر السابق، ص 413.

⁴ ابن سعيد، المغرب، 384/1. المقرئ، المصدر السابق، 468/2.

⁵ رتبة إدارية يهودية، ويصف القلقشندي مهمة الحزان بقوله: "وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر، ويعظهم"، ومن مهماته أيضا الإنشاد وإمامة المصلين في المناسبات الدينية، ناهيك عن التعليم، واشترط أخبار اليهود أن يكون الحزان متعلما، صاحب سمعة جيدة، وصوت جميل.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

في عدم إرجاعه إلا تعبير صادق عن هذا الامتهان للمرأة العاهرة لارتباطها بالخطيئة، فالأمر الذي يفهم من هذه الحادثة أن السقوط في المخطور لا يتعلق بشخصه، بقدر ما يرتبط بسمعة الطائفة ككل، والتي شوهت بارتكاب فاحشة الزنا من قبل عنصر هام من عناصر التراتبية في الديانة اليهودية.

كما ألمحت نفس الأمثال للصورة الدونية للمرأة البغية والتي انعكست على كل من له علاقة بها، من قبيل السخرية الشديدة التي أحيطت بالديوث الذي لا يغار على أهله⁽²⁾، كما تظاهرات نظرة السخرية إلى أولئك الذين لا يملكون قوتهم وليس لهم مال، ومع ذلك يتبعون البغايا⁽³⁾، بل استقر في أذهانهم التشفي في حال مرض الزاني، وحتى العاهرة⁽⁴⁾، ولا شك أن العلاقات المختلطة بين النسوة المتعدّدات تفضي إلى أمراض تناسلية متعدّدة، أصبح لا يخفى أثرها في عصرنا الحالي.

ومن اللافت للنظر أن بعض الرجال العابثين وقفوا موقفًا مزدوجًا منها، فهي مصدر متعة في الحالة الأولى سيما الجميلات منهم، يتبعونها بالسير خلفها ومحاولة مداعبتها ببعض الكلمات والعبارات، فيرتسم وجهه مشرق للعاهرة وأماكن عملها، ملؤه القبول والرضا من انتشار هذه المهنة في العديد من المناطق بالأندلس مثل درب ابن زيدون، بل أصبحت محط لوعة وحسرة من اندثارها في عصر ابن قزمان الرجال عندما يقول⁽⁵⁾:

أَيُّ دَرْبِ ابن زيدون وأين احتفاله؟

لينقلبوا عليها فيبرز تصور العابثة إذا لاقوا صدا أو مكرا من جهتها، فيتمظهر بذلك الوجه الآخر لها والذي ينحو إلى الفطنة والحدق⁽⁶⁾، ولا شك أن هذه الازدواجية في المواقف تعزى إلى قلة الوازع الديني الذي كان وراء انتشار اللهث وراء هؤلاء النسوة، في مقابل عدم سداجة محترفات هذه المهنة ومعرفتهن وخبرتهن بطباع وأساليب هكذا رجال، بحكم تعدد وتنوع الزبائن الذين يتنوعون بتنوع شرائح المجتمع.

القلقشندي(أبو العباس أحمد)، كتاب صبح الأعشى، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، ص474. خالد يونس عبد العزيز خالدي، المرجع السابق، ص348. فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص101.

¹ خالد يونس عبد العزيز خالدي، نفسه، ص349.

² مثل قولهم: "أَوَّلُ مَا يُعْطَى لِلْقَرَّانِ حُسْنُ الظَّنِّ". الزجالي، المصدر السابق، 63/2.

³ فقد جاء في وصفهم: "زَلَّالُ الْقَلَاغِ لَا دَارَ وَلَا قَطَاعَ". الزجالي، المصدر السابق، 234/2.

⁴ ويفهم ذلك من قولهم: "عَنْ مُقَابِلٍ: لَوَاطُ مَقْتُولٍ أَوْ زَلَّيْرٌ مُجْدَمٌ". نفسه، 382/2.

⁵ ابن قزمان، المصدر السابق، ص419.

⁶ التيفاشي، المصدر السابق، ص72-73. المقري، المصدر السابق، 297/4.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

وتراوح موقف السلطة حول هذه الظاهرة، يطرح نظرات متعددة لهذه المهنة، فما اشتراط وتشديد الزعيم الروحي للدولة المرابطية عبد الله بن ياسين على مريديه في بداية تأسيس الدولة إلا أمارات تفسر وتوضح منحى الامتعاض، حيث يذكر البكري المعاصر للمرحلة الأولى من الدولة المرابطية " أن الرجل إذا دخل دعوتهم، وتاب عن سالف ذنوبه، قالوا له: قد أذنبت ذنوبا كثيرة في شبابك، فيجب أن تقام عليك حدودها وتظهر من إثمها، فيضرب حد الزاني مائة سوط"⁽¹⁾، ولاشك أن للمبادئ الأساسية التي قامت عليها الدولة المرابطية من الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ومحاربة كل ماهو مخالف للشرع دور بارز في هذا التوجه القائم على ازدياد بل تطبيق حدود الله في أتباع الدولة الجديدة، ولو بأثر رجعي.

وعلى النقيض من ذلك، فقد أوردت المصادر الموحدية عن ظاهرة انتشار الدعارة والتستر عليها بين نساء القبائل التي شكلت أساس العصبية المرابطية حتى أنه " صارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشريد، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور"⁽²⁾ والواقع أن الوضعية التي قدمتها الاستغرافيا الموحدية عن نظرة نساء المرابطين للمرأة العاهرة بالتستر عنهن في أحياء غير قليلة، لا تخرج في كثير من أهدافها على لغة التجريم والتشنيع، ناهيك عن اعتماد الحملات الدعائية ثوابت إستندت إليها العصبيات الحاكمة في المغرب؛ من قبيل السقوط في المحظورات والتي شكلت الدعارة أهم تجلياتها للإطاحة بخصومها.

ولاشك أن مواقف ابن عبدون التي تدعو إلى التشدد مع عمل هؤلاء " ولو أذنوا على ذلك"⁽³⁾، ملمح آخر لانتشار الظاهرة وفهم من منظور الفقيه، كما أن مشاهدات حسن الوزان⁽⁴⁾، تحيل على موقف السلطة الحاكمة وتبريراتها لعملهن⁽⁵⁾، والذي ينحو إلى القبول بالأمر؛ بل توظيفه، إذ تسجل ملاحظاته حضورا للكثير من العاهرات في فنادق مدن فاس اللاتي لديهن ترخيص ببيع الخمر، مفسرا في الوقت ذاته هذا التوجه بقوله: "أنهم ملزمون عند الاقتضاء بأن يقدموا إلى جيش الملك أو الأمراء عددا من مستخدميهم لطبخ الطعام للجنود، لقلة المختصين في مثل هذه الخدمة"، إضافة إلى ما تدفعه تلك العاهرات للدولة من ضرائب للدولة التي هي في

Latifa El Bouhsine, OP.cit, p83.

¹ البكري، المسالك، 864/2.

² المراكشي، المعجب، ص177. محمد الأمين بليغث، الحياة الفكرية، 476/1. وحول مناقشة هذه القضية انظر الفصل الأول ص47-48.

³ الرسالة الأولى من كتاب ثلاث رسائل، ص50.

⁴ وإن جاءت متأخرة زمنيا، إلا أنه يمكن التخمين أنها كانت إستمرارا لما كان موجودا في فترات سابقة، خاصة أن عملية استحضار هذه المعطيات البعيدة عن الفترة التي يهتم بها الموضوع بشكل مباشر منطلق من فرضية مفادها أن العلاقة بينها وبين المرحلة اللاحقة موجودة أو على الأقل لم تنفصم، بالرغم مما حصل من تحول، على فرض بطئ تغير وتطور القيم والسلوكيات في مجتمع الغرب الإسلامي.

⁵ يشير ابن الخطيب إلى ما يفيد بوجود العاهرات المحترفات ووجود أماكن مخصصة لهن للممارسة البغاء، ابن الخطيب، الاحاطة، 473-426/1.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعي الاقتصادي

أمس الحاجة إليها⁽¹⁾، وهو ما يعني ضمناً اعترافاً ضمناً على كون البغاء نشاطاً اقتصادياً، فهل يعني هذا تقاعس السلطة آنذاك على محاربة هذه ظاهرة البغاء التجاري إن صحت التسمية؟، يبدو أن انتشار الفنادق في أغلب المدن الغرب الإسلامي، كما سبقت الإشارة إليه يبرهن على حيوية تجارية وسيروية نشطة للمبادلات، وقد ينهض دليلاً على بروتوكولات غير معلنة قائمة بين الدول تجعلهم يغضون الطرف على بعض التجاوزات من طرفهم، مادامت لا تعكر صفة التجارة والعلاقات بصفة عامة، ولا تؤدي في نفس الوقت إلى انتشارها خارج هذه الأطر، مما يؤدي إلى شيوع روح السخط والتدمير بين الساكنة الذي من شأنه أن يخلق حزازات للسلطة.

وفي ظل استمرار نظام الرق الذي أوجد الجوّاري اللاتي تنوعت أصنافهن وحضورهن حسب معيار الجمال والمهارة والحذق والثقافة⁽²⁾، وقفت السلطة بموازاة العامة ضد بعض سلوكيات جواري الخدمة الزائيات وصلت حد أنها تباع للتخلص منها⁽³⁾ إبعاداً لأذاها؛ وصونا لشرف سيدها.

ومن المواقف الغريبة وإن كانت متأخرة زمنياً؛ على فرض بطئ تحول تمثيلات المجتمع لظاهرة معينة، والتي يمكن أن ترمي المرأة بنعوت وحالات تبعث على التقزز في أعين الآخر الغريب الذي تتلقف عينه كل ماهو عجائبي وخارق للعادة من وجهة نظره، وتكوينه الديني والثقافي، ومستواه الاقتصادي، فقد جاء على لسان الحميري بأن في مدينة أزكي المغربية " إذا بلغت المرأة التي لا زوج لها منهم أربعين سنة تصدقت بنفسها على من أرادها، فلا تدفع عن نفسها من يريد لها، ولا بد من الدخول على هذه المدينة لمن أراد تكوّر وغانة من بلاد السودان"⁽⁴⁾، ورغم التحفظات على هذا الطرح وطابع التعميم المبثوث فيه، يمكن التساؤل عن هذا التسليم اللامشروط، أيتعلق هنا بترسبات قديمة وعدم تغلغل للإسلام في هذه الفترة المتأخرة، أم أن المجال على اعتباره مركز عبور كما صرح الحميري تكثر فيها الفنادق كما سبق الإشارة تثبط الزواج، وتعويض لخصاصة وفقد

¹ ابن الخطيب، المصدر السابق، 473-426/1. الحسن الوزان، المصدر السابق، 232/1، 247. الطاهر أحمد مكي، دراسات، ص 49-50. محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص 319. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p84.

² حول أنواع الإماء وحضورهن في مجتمع الغرب الإسلامي انظر: ابن بطلان (المختار بن الحسن)، رسالة في شري وتقليب العبيد، تح عبد السلام هارون، سلسلة نواذر المخطوطات، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1945، ص 345. ابن حزم، رسائل، 147/1. السقطي، المصدر السابق، ص 48. ابن عذارى، المصدر السابق، 261/1. صلاح خالص، اشبيلية، 96-97. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 132-135.

³ الونشريسي، المصدر السابق، 51/9.

⁴ الحميري، المصدر السابق، ص 28.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

جنسي جعلت تسلم نفسها لمن أراد، وربما لسهولة الطريق إلى الزنا وانتشار المعروض من جوازي اللذة والمتعة، ولا يمكن تلافي تفسير عنوستهن بغلاء المهور⁽¹⁾.

ولعل في بهتان الرجل الصالح متزوجا كان أم أعزب، لا سيما إذا كان "ممن لا يظن به التسري لو طء أمة غيره لفضل عرف به، وكون الأمة المذكورة من دنيات الخدم، تتصرف في كل الأمور ولم تحجب بوجه، وقد ولدت أولادا عدة قبل تزويجها"⁽²⁾ سبيلا آخر لتعزز نظرات العاهرة الشبقة، بل وصل الأمر لجلدها "حد الفرية وحد الزنا لاقرارها به"⁽³⁾، كما يستحضرنا أحكام قضائية متشددة عصرئذ كمؤشر على نظرة الامتعاض عند القضاة الذين تكثر تردد النساء الزناة في مجالسهم، وذلك من قبيل حكم الرجم الذي أصدره ابن رشد في حق المرأة التي زنت مرتين⁽⁴⁾، علاوة على إرجاعها نصف الصداق بعد طلاقها من زوجها والذي ليس ببعيد أن يكون مقترنا بممارستها للبعاء⁽⁵⁾.

ولا يخفى أن ظهور حمل الزنا دفع بالمرأة في حالات كثيرة إلى محاولة التخلص منه إما بقتل المولود، أو ادعاء حملها ذلك من زوج غائب، ليستقر في وجدان المجتمع نظرة السخرية والتقزز من فعلتها، ومن الراجح أن النساء الزانيات كن يقدمن على ذلك تجنباً للفضيحة والعار والسخرية⁽⁶⁾، فالمجتمع ما فتى يزدري هذه الحالات التي يبدو أنها ماثلة في القضاء، ويحمل على المرأة، وما سكوتها حقا إلا دليل واضح حسبهم على الجرم البين.

وهذه النظرة الدونية كانت حاضرة بقوة في مخيلة بعض الفقهاء وهم يناقشون مسألة المرأة المستغيثة المدعية على رجل اغتصبها⁽⁷⁾ دون دليل أو شهود، حيث دفعهم للفتوى بأنها تحد للزنا والقذف إن لم يكن المدعي عليه من أهل الشر والطغيان، حتى وإن جاءت تدمي أو ظهر بها الحمل وكانت من أهل الصون⁽¹⁾.

¹ عكست الأمثال الشعبية هذا الجانب بقولهم "رُؤُوه حُؤُوه" الزجالي، المصدر السابق، 235/2. وفي نفس السياق عند قولهم "ما أطيب العرس لولا التفافة" ابن عاصم، المصدر السابق، ص293. الونشريسي، المصدر السابق، 251/3.

² ابن فرحون، تبصرة، 137/2. الونشريسي، نفسه، 360/10، 235-236.

³ القاضي عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1997، ص82. الونشريسي، نفسه، 236/10، 424/2.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 1243/2.

⁵ البرزلي، المصدر السابق، 315/2.

⁶ رصدت العامة ذلك بقولهم: "جواب أولاد الزنا السكوت". الزجالي، المصدر السابق، 179/2.

⁷ لقد توارى مفهوم اغتصاب إلى خارج النطاق التاريخي، لا سيما مع الرقابة الأخلاقية الشديدة التي غلفت المصادر المغربية الوسيطية، فغيبت هذه الجريمة وجعلتها من الجوانب المسكوت عنها، واللا مفكر فيها؛ إلا شذاذا، وحظرت على الكتاب التأريخ لها، لاتسامها بخاصية سلبية، تبعث على التقزز والاسمزاز باعتبارها موضوعا محرما وغامضا يندرج في دائرة المثالب لا المناقب، ناهيك على لعب الخصوصية التي طبعت المجتمع المغربي

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ومن القرائن التي تدل على حزم السلطة المرابطية في محاربة ظاهرة الدعارة؛ ما ذكر عن عدم تعاون ولاية وأعوان المرابطين في الفتك بهن، حيث تتبعهم أحد الأعوان "واشتدت وطأته على أهل الفساد والدعارة"⁽²⁾، سعيا إلى حفظ الآداب والأخلاق العامة التي انحدرت، حسب ما يشير إليه النص السابق من جدية في المعالجة.

وفي خضم استخدام الأنهار في المغرب والأندلس للتجارة الداخلية، ومنطلقا لحركة الخطوط البحرية الرابطة مع غيرها من المناطق؛ يبرز وجه آخر للمرأة العاهرة سمته التحرز والاحتياط والزجر، سيما في الأندلس التي تعتبر أنهارها وقنواتها صالحة للملاحة ونقل البضائع بعد إقامة مجموعة من المراسي والقناطر والجسور عليها، لربط ضفتي النهر وتسهيل إنتقال التجارات⁽³⁾، لذا راقب المحتسب هذه المراسي، وكل مايتعلق بالملاحة الترفيهية -إن صح التعبير- مشددا على أنه " يجب ألا يُجوز النواتية امرأة يظهر عليها سمة الفجور"⁽⁴⁾، ومن الطبيعي أن تنعكس ظاهرة الملاحة الترفيهية بصداها على حضور المرأة هنا، فتضع لذلك شروطا وضوابط أخلاقية لحركة سير السفن.

ولا غرو أن وجههن الدوني زاد وضوحا في بعض المناسبات الاجتماعية كالأعراس، حيث ألمح المحتسبون إلى ضرورة استخلاص أهل العرس على تصريح من القاضي، خاصة للعروس التي تزف بالبادية؛ يحصلون بموجبه على حراس يحمون موكب الزفاف من مظاهر عربدتهن⁽⁵⁾، وهو إجراء احترازي فعال ضد هؤلاء العاهرات

حدا مفصليا، مما تسبب في إحاطة هذا النوع من الجرائم بسياج من السرية والتكتم، فالعار المتصل بالجنس يشكل خوفا من سوء الأحدثوة والفضيحة والمعرة، وهو مادفع الى تحاشي إشاعة حتى محاولة اغتصاب رجل لإمرأة، لأن العار حتما سيلحقها.

¹ القاضي عياض وولده محمد، المصدر السابق، ص 81-82. الونشريسي، المصدر السابق، 424/2. فهل تركت مثل تلك الفتوى المجال مفتوحا أمام الطامعين فيها للنيل من شرفها بعد أخذ الحيطة والحذر بشكل كامل؟. ويدعو الإنصاف إلى القول أن تلك الفتوى وإن تسببت في ضياع حق نساء معتصبات عجن عن تقديم دلائل الاتهام ضد من اغتصبهن، إلا أنها في الوقت نفسه سدت ثغرة قد تنفذ من خلالها نساء أخريات تعمدن الإفلات من جريمة الزنا والبغاء الاختياري بتوجيه التهم ضد من أردن من الرجال. المالكي، المصدر السابق، 317/1-318. الونشريسي، نفسه، 573/9. 230/10، 235.

² ابن فرحون، الديباج، 219/1. إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث، ص 191.

³ حول أهم الأنهار في المغرب والأندلس وتوظيفها في التجارة والتنقل انظر: عبد السلام الجعماطي، دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012، ص 137. يحيى أبو المعاطي محمد عباسي، الملكيات الزراعية وأثارها في المغرب والأندلس (488-238هـ/852-1095م)، ج2، إشراف طاهر راغب حسين، جامعة القاهرة، 2000، ص 513-515.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 56-57.

⁵ نفسه، ص 54.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

اللاتي تُتبع من طرف الفساد والفجار، سيما أن أعوان السلطان بها أقل، ناهيك عما يمكن أن يحدثوه من فوضى ومشاكل لأهل العرس.

4-العرافة:

حضرت العرافة في مجتمع الغرب الإسلامي وتعددت معها نظرات المجتمع لنشاطها، ورغم أن الحوليات التاريخية لم تعط هذا الجانب الاهتمام ما يستحقه من الدرس، إلا أنه قد أمكن من خلال نصوص جغرافية ونوازل فقهية وتراجم ترميم بعض الثغرات من هذا الجانب المطموس، حيث صورت العرافة لدى شريحة ممتدة من العامة على كونها المنقذة والحل للعديد من المشاكل على اختلاف أنواعها⁽¹⁾، خاصة الأسرية منها، فقد ارتقت في وجدان المرأة⁽²⁾ في حد ذاتها وبلغت شأوا عظيما، لا سيما للتي تأخر أو فاتها قطار الزواج، ناهيك عن أولئك المواجهات لمشاكل زوجية، إذ كان من المألوف في الشوارع المغربية وجود المشتغلين بضرب الحظ أو "كتابة كتب المحبة للنساء إذا أعرض عنهن الأزواج أو خاصموهن"⁽³⁾، عليها تجد فيها الراحة والغاية المزعومة،

¹ كان الأقدمون يوظفون السحر وما يلحقه في أمور عدة؛ يأتي على رأسها التطبيب، حيث كان كثير من الأمم يتداونون بالرقى والعزائم، مع الأخذ في الحسبان اختلاط الكهانة والسحر بالطلب. خليل عبد الكريم، الجذور التاريخية للشرعية الإسلامية، ط 1، سينا للنشر، القاهرة، 1990، ص 29 وما بعدها.

² إن صورة العرافة الممارسة أو الممارس عليها انطبعت في النساء بدرجة أكبر من الرجال، ولعل ذلك يعود إلى الفراغ الذي تعيشه المرأة مقارنة بالرجل الذي تقع عليه القوامة عصر الدراسة، ف"الرجال مقتسمون في كسب المال وصحبة السلطان، وطلب العلم وحيطة العيال، ومكابدة الأسفار والصيد، وضروب الصناعات، ومباشرة الحروب، وملاقة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الأرض، وهذا كله مُتَحَيِّفٌ للفراغ، صارف عن طريق البُطل". ابن حزم، رسائل، 165/1، ناهيك عن الأمية والجهل الضارين في أوساط العامة، إضافة إلى محاولة اللجوء إلى الوسائل المريحة والسهلة في سبيل تطويع المشاكل التي تعترض الحياة خاصة الأسرية منها، في ظل غياب الأمان العاطفي إزاء الشريك الذي له الحق في الزواج من أربعة وامتلاك غيرهن من ذات اليمين، ويبدو أن ترسبات بعض المعتقدات القديمة التي تميل أو تتفاعل مع مظاهر السحر والشعوذة التي طغت على عقلية السكان، تمخض عنها تهيئ الذهنية المغربية الأندلسية لتقبل أنماط الفكر السحري. عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ص 287. ولكن يترأى للموضوع عامل محوري وحاسم في المسألة إضافة إلى ماسبق قوله؛ وهو مكانة المرأة في النسق الاجتماعي والاقتصادي للغرب الإسلامي، فمن أجل تثبيت مواقعهن وانتزاع حقوقهن بعد أن عجزت عن تحسين وضعها على مستوى الواقع الفعلي من خلال تغيير القوانين والذهنيات التي ينشأ فيها الذكر على احتقار الأنثى وتبخيس أعمالها، راحت تهرع لعالم الجن والروحانيات. طوالي عبد النور، الدين الطقوس والمتغيرات، تر وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، 1988، ص 128. لتكيد له بالسحر كسلطة حقيقية لمواجهة واقعها المضطرب وماضع منها ولتفرض حضورها المستلب على الرجل وزوجها بالخصوص لإعادة الاعتبار لذاتها بكيفية سرية.

³ ابن الخطيب، الكتيبة، ص 149. البرزلي، المصدر السابق، 381/1. الونشريسي، المصدر السابق، 171/11. محمد ياسر الهاللي، المرجع السابق، ص 85.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

فبكلمة منها تطمئننها وتريحها وتريح عليها عبء النفور والضررة⁽¹⁾، وفي إشارة الأمثال الشعبية تخمر واضح لذلك عند قولها على لسان المرأة⁽²⁾، ووجه آخر لارتداد السحرة من النساء وصورتهن المثلى لإبعاد المهانة والمرارة التي عبرت عليها الأمثال بتفضيل الموت على الوقوع في هذه الحالات.

ويعكس هذا الأمر حقيقة هؤلاء العرافين الذين كانوا حذقين في التحيل وادعاء معرفة الغيب، مستفيدين في الوقت ذاته من الأوضاع العامة التي كان يزرع فيها المجتمع، ولعل هذا ما نبه إليه ابن خلدون حينما ذكر بأنهم "يأخذون بالتخمين بناء على ما يتوهمونه ويدعون معرفته من الغيب وليس منه على الحقيقة"⁽³⁾، بل أصبحت العرافة تزاحم الرجل وتتفوق عليه في بعض بلاد المغرب الأقصى كغمارة إلى فترات متأخرة من العصر الوسيط⁽⁴⁾، وما تعبير الولد من قبل صديقه بأمة العرافة والمدعوة جعسوس التي تحترف بيع الحروز إلا انتماء لفصيل الرؤية الدونية لممتهنات هذه الصناعة من قطاع عريض من المجتمع⁽⁵⁾، وهو ما يشير إليه ابن خلدون مرة أخرى عندما يقول: "أخبرني المشيخة من أهل المغرب أن أكثر منتحلي السحر من النساء العواتق"⁽⁶⁾، ولعل صورة العجوز السلبية مقترنة بالساحرة التي تكون غالبا من كبار السن اللواتي يغرين المرأة الشابة،

¹Antoine Rony-Gerome, la magie que sais je, 3eme édition, presses universitaires de Frances, paris, 1959, p50.

² من قولهم: " مَشْنِيَةٌ لِلْحَفْرِ وَلَا مَشْنِيَةٌ لِنَيْتٍ أُخْرَى". الزجالي، المصدر السابق، 350/2.

³ ابن خلدون، مقدمة، 427/1.

⁴ انطلق بعض المؤرخين من توجهات أنثروبولوجية ترى أن البربر أقبلوا على العرافة والكهانة ممارسة وإيمانا أكثر من العرب، معتبرين ذلك نوعا من مظاهر الحنين إلى تقاليد المجتمع الأمازيغي الوثني لما قبل الاسلام، والتي كان من أهم مميزاتا تقديس الكهنة والسحرة، فهذا كولدزيهر(coldzihez) الذي قال في هذا الصدد " إن المظهر الذي اتخذته تسجيل الأولياء في الشمال الافريقي يعكس ميل البربر قبل الإسلام للسحر، وإلى التقديس الذي أحاطوا به كهنتهم وكاهناتهم، الذين لم يعتبروهم مجرد سحرة عاديين، بل اعتبروا أنبياء"

Edmond Doustè, Note sur l'islame maghrébin, Revue de l'histoire des religions, N40, Année 1899, p349

وانساق مع هذا الطرح ألفرد بل(alfred bel) حين اعتبر أن "الإسلام رغم وحدانيته المطلقة لم يستطع أن يقضي على التصور الديني القديم عند البربر، وأن ديانة البربر تبدوا لنا محملة ببقايا وثنية عديدة مؤلفة من طقوس دينية سحرية". ألفرد بل، الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح الى اليوم، تر عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 60-61، محاولين أن يربطوا ظاهرة السحر في العنصر البربري دون سواه، وهذا بعيد عن الصواب، لأن الظاهرة انتشرت عند كافة الأجناس والأعراق التي تضمنتها المنطقة من عرب وعجم وبربر، ثم ألا يمكن تفسير ذلك بقلة التثاقف الإسلامي لوقوعهم في مناطق هامشية تقلل فرص الاحتكاك وزيادة الوعي بمكذا أفعال.

⁵ ابن الخطيب، الكتيبة، ص 147-148.

⁶ ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد)، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ص 288.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ومصداق ذلك ماجاء على لسان العامة بقولهم: "إذا ريت عَجُوزَ اذْكُرْ الله وَجُوزَ"⁽¹⁾، وقد وفق الأستاذ بوتشيش عندما أشار بصدد حديثه عن ظاهرة التنبؤ والكهانة المرتبطة بالممارسات السحرية على أنها لم تنشأ في هذا المجال من فراغ، وبمعزل عن خلفيته الاقتصادية، والنسيج السوسيوثقافي، والمناخ السياسي الذي أفرزه، فهي عطاء ومخاض بنيات متراكمة خلفت في مجملها هذه الظاهرة، وتعبير عن مواقف وأدوات لتجاوز المشاكل والأزمات التي تجذرت في هذا العصر، لتعبر عبر ذلك عن طموحاتها وأمانيتها، وتؤسس عالما خياليا تختزن فيه كل توجهاتها وتطلعاتها⁽²⁾.

وبسبب فهم ووعي محترفي هذه المهنة للوضع الاجتماعي وللذهنية السائدة، انتصبوا في أكثر الأماكن التي تتردد عليها النساء، من قبيل الطرقات والدكاكين، لتتبلور معها صورة المرأة المؤمنة بالعرافة البليدة من منظور آخر، إذ "تغذوا عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء القلوب، يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة وأمثال ذلك"⁽³⁾، ولعل محاولة استقطاب هؤلاء للعنصر النسوي قد ركنت في كثير من حيثياته إلى محاولات للهروب من مشاكل عالقة أو توقع مصير مجهول، أو تعبير مقنع ومضمر عبر عن خفايا المجتمع والقطاع المكبوت في الفكر والسلوك، كما حاول طرح البديل الضروري للمحافظة على التوازن الاقتصادي والسياسي والاستقرار مع سيرورة ووقع الزمن.

ويمكن التخمين أن حيثيات مهنتها ونواتجها من الأمور التي تستهوي النفس البشرية، وتثير فيها حب الاستطلاع؛ وما يرتبط بذلك من محاولات استكناه غوامض الكون والأمور، وبالتالي إيجاد فسحة للأمل والتأمل⁽⁴⁾، ناهيك عن إلصاق نواتج عملها بكل فشل أو تحاذل من قبل المرأة ذاتها⁽⁵⁾. بل تطلب الأمر في كثير من الأحيان وقارا لمرئياتها ينم عن وجه راق لها، في مقابل وجه العرافة المُدَّعية الذي يعرفه قطاع ممتد من الناس، وفي هذا المعنى يقول حسن الوزان: "ويشتمل الصنف الثالث من العرافين على نساء يوهمن العامة أنهن يرتبطن بصداقة مع شياطين من أنواع مختلفة... والشخص الذي أتى لشئيء يريد أن يعرفه، سواء كان رجلا أو

¹ الرجالي، المصدر السابق، 12/2.

² إبراهيم القادري بوتشيش، الفكر السحري والعرافة بالأندلس والمغرب خلال العصر المرابطي، ضمن كتاب ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية تيارات الفكر في المغرب والأندلس الروافد والمعطيات، مطبعة دار النجاح، الدار البيضاء، 1993، ص 345.

³ ابن خلدون، مقدمة، 762/2.

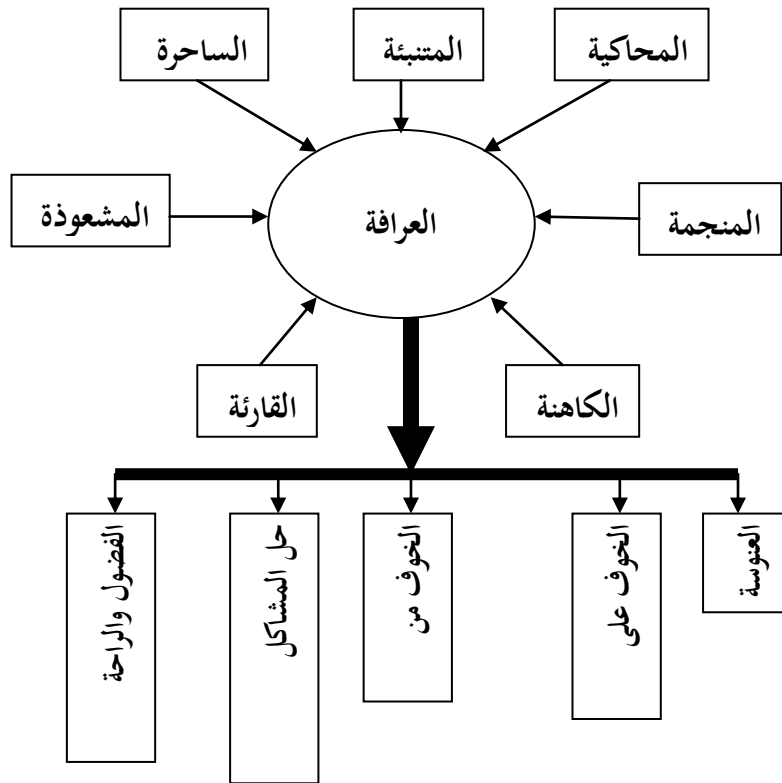
⁴ طوالي نور الدين، في إشكالية المقدس، تر وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، 1988، ص 42.

⁵ جاء في الأمثال قولهم: "خاتها ذراعها، قالت سحروني". محمد أحمد اشماعو، المرأة المغربية وضعية وتعاملا من خلال بعض أمثالنا، مجلة أمل، العدد 13-14، السنة الخامسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص 50.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

امرأة، يطلب ذلك من الروحاني بكثير من الاعتبار والضرعة" ⁽¹⁾، ويمكن الاطمئنان عند القول إن حالة الذعر، والهلوع الدائم لإنسان الغرب الإسلامي بشأن مستقبله، دفعه إلى اللجوء لقراءة أسرار الغيب، وكشف الطالع التي استعملت لتلافي عجزه، وإدخال الطمأنينة إلى نفسه، وليس ببعيد أن اعتماده عليها انطلق من الحاجة لمحاكمة قلق المجهول، وما يتضمنه من تهديد مصيري ، ولاغرو أن يزداد هذا الأمر حدة كلما ازداد الشعور بالقصور عن التحكم بالمصير ⁽²⁾، سيما أن الفكر لا يخلق في الغيبات إلا عندما يعجز عن حل مشكلات الواقع ⁽³⁾، والمخطط التالي يظهر مدلولات ذلك:

شكل رقم 11 : دلالات العرافة وحقول حضورها



¹ وصف إفريقي، 262/1.

² حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي مدخل الى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005، ص161.

³ محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 492/1.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

وتعداه هذا التوقير إلى الرجل نتيجة حرصه على نيل مراد معين⁽¹⁾، وقد فطن ابن خلدون إلى هذه الحقيقة من سذاجة العامة وسرعة تصديقهم لأشكال الفكر الغيبي، حين ربط بين السحر والشعوذة بالعقلية القاصرة والعجز عن المعاش الطبيعي فذكر أن "الذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة"⁽²⁾، ويخيل إلى الموضوع أن المكانة التي احتلها هؤلاء السحرة ترجع إلى نفوذهم الروحي من جهة، وإلى قدرتهم على حل المشاكل والمعضلات الاجتماعية من جهة أخرى⁽³⁾، وليس ببعيد أن لذهنية العامة البسيطة وضيق الحال دورا جليا في الالتفاف والإيمان بمثل هؤلاء العرافات، سيما في المناطق البعيدة عن الحاضرة والتي يقل فيها التعليم.

كما نظر للمرأة العرافة في إطار آخر بازداره وعدم قبول، فانطبعت بذلك وجه العرافة بائعة الوهم، إذ صنف البعض هذا النشاط ضمن المهن غير المشروعة وغير المرغوب فيها، وتبلورت هذه النظرة من لدن العقلاء والفضلاء وأهل الدين، وحتى السلطة، وهو ما يعبر عن تفهم قوله صلى الله عليه وسلم: "من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"⁽⁴⁾، ناعتين ممتحنة هذه المهنة بكل الصفات المذمومة⁽⁵⁾، واستمر استعمال الغلظة عليهن في "خلق الشعوذة وشبه ذلك مما هو سحر أو كالسحر إلى غير ذلك"⁽⁶⁾.

ولاشك أن آثار وإفرازات هذه الظاهرة مبرر قوي لتفسير التوجه السلبي لممتحن هذه النشاطات، بصرف النظر عن كونه من الرجال أو النساء، فهم "يتوصلون بها إلى أكل الأموال وارتكاب الفواحش، ويبهرجون بكثير من ذلك على الخواص والعوام، ويدخلون الوهم والعلل على صحاح الأجسام"⁽⁷⁾، ولا يمكن نفي الظروف الثقافية للمجتمع من انتشار للجهل، وقلة الوازع الديني، وندرة للإطار التعليمي والطبي في انتشار هكذا عقائد تستأنس؛ بل تؤمن بالعرافة، سيما في المناطق التي تعاني خصاصة في الطب العلمي، وضيق حال

¹ الحسن الوزان، المصدر السابق، 264/1.

² ابن خلدون، مقدمة، 839/2.

³ إبراهيم القادري، الإسلام السري في المغرب العربي، ط1، سينا للنشر، مصر، 1995، ص42.

⁴ مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري)، صحيح مسلم، ج4، تح محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار الحديث، القاهرة، 1991. ص1751 (كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان).

⁵ ابن عبدون، المصدر السابق، ص27. الونشريسي، المصدر السابق، 182/2. الحسن الوزان، المصدر السابق، ص263.

⁶ البرزلي، المصدر السابق، 161/6.

⁷ العقباني، المصدر السابق، ص86.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

اليد، بالإضافة إلى غياب مؤسسات الرعاية الأسرية التي تعمل على درء الخلافات والانقسامات، فتصبح والحالة هذه العرافة والسحر الملاذ الوحيد والأخير.

ومهما كان الأمر؛ فقد تسللت وتجدرت الظاهرة السحرية في شرايين المجتمع، وانعكست مظاهرها في كل مناحي الحياة، ولاغرو أن أمثال العامة قد التقطت هذه الظاهرة ونحتتها في ذاكرتها، وكان الجزء المسلط عليها دليلا على رؤية التقريع لهن، فقالت العامة: "صُرَابَةُ الْخَفِيفِ، الْمَقْرَعُ وَالتَّكْتِيفُ"⁽¹⁾، حتى أن حيلهم وتسويفاتهم وما يمينون الناس به أصبح محط سخرية قطاع عريض من الناس إدراكا منهم لعدم حصولها، سيما أن هذه المهن كانت في الغالب من أراذل الناس⁽²⁾، إضافة إلى الأمثال التي تعكس موقفا منكرا لمرتادي السحرة من العشاق⁽³⁾، الذين يظهر أنهم استعملوا قصدوا مباشرة للعارفات دون إدراك العلة الحقيقية، وأسباب صد الطرف الآخر.

ويرجح أن التداخل بين علم التنجيم والعرافة وميدان السحر⁽⁴⁾ هو ما جعل بعض الفقهاء يعمدون إلى اعتباره من العلوم المستهجنة والمحرمة في المجتمع، بل ذهبوا إلى اعتبار كل منجم زنديق ومارق⁽⁵⁾، وفي المنحى ذاته ذهب المحتسب إلى منعهم من التجول حول الدور، والذي قد يفهم في ثناياه إلى جانب التعريض لهن من السلطة؛ تطلع وحاجة خلقت وجه القبول لهن عند نساء العامة، معللا أن ما يحسبونه للناس يعد من التكهّنات والأباطيل، وأنهم يتحيلون عليهم في ذلك⁽⁶⁾.

ونظرا لاعتقاد الناس في ظاهرة السحر والعرافة وما تسفر عنه من شر وعواقب وخيمة، فإنهم اتخذوا موقفا دفاعيا حوله، بما يضمن سلامتهم، ليتبدى معه صورة قائمة لعملهن وما ينجر عنه من أضرار متعددة وعلى

¹ الزجالي، المصدر السابق، 372/2.

² تقول العامة: "يَمَيَّ بِالزَّهْرَا، وَيَسْكُنُ فِي عُشِّ نَسْرَا". نفسه، 483/2.

³ جاء في وصفهم لهذه الحالة: "أَشْ تَنْفَعُ التَّبَاخِرُ وَالذَّا مِنْ دَاخِلٍ". الزجالي، المصدر السابق، 65/2.

⁴ وتدخلت عوامل عدة لتساهم في تكريس الفكر السحري بالمغرب على الخصوص، منها ترسبات بعض المعتقدات القديمة التي تميل أو تتفاعل مع مظاهر السحر والشعوذة، فمن خلال استقراء الماضي، يتضح أن ثمة ديانات وثنية ومعتقدات خرافية طغت على عقلية السكان، بعضها محلي، وبعضها وافد من الشرق تمخض عنها تهيئ الذهنية المغربية الأندلسية لتقبل أنماط الفكر السحري والاعتقاد بوجود أرواح في الجن داخل مختلف العناصر الطبيعية من عيون وأنهار وأحجار وجبال وأشجار، وحتى إنسان، ولا تزال بعض القبائل المغربية- إلى الآن - تعظم هذه العناصر وتقيم لها مواسم سنوية. عبد الوهاب بن منصور، المرجع السابق، ص 287.

⁵ المقرئ، المصدر السابق، 221/1.

⁶ الجرسيفي (عمر بن عثمان)، الرسالة الثالثة من ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص 123. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص 340.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

كافة الأصعدة، فأبو الخير الإشبيلي يتحدث عن نوع مخصوص من الساحرات اللاتي " يستعملنه في أعمالهن من الإيلاف والاختلاف على طريق السحر"⁽¹⁾، وما حَمَلُ هَمِّ الوسائل الكفيلة بالتصدي لهم إلا تبد آخر لهذا المعطى، فابتكروا وسائل وطرقا انطلاقا من موروثهم الثقافي المتراكم، واعتمادا على خبراتهم الذاتية اليومية وعلى ضوء إمكانياتهم، علَّها تُسهِم في إبطال تأثير السحر النسائي من قبيل أكل الفجل ممزوجا بالعسل، إذ ساد الاعتقاد بأنها وسيلة تعمل على دفع السحر وإبطاله⁽²⁾، ناهيك عن نبات النويغ المعروف بالبربرية باسم امسُخسر والعوسج الذي يغرس في الدار⁽³⁾، ولعل للموروث الطبي الإسلامي، إضافة إلى التجارب المحلية التي تنص على فوائد الأشربة والنباتات المختلفة باعتبارها معلما في رسم هذا التعاطي مع هذه الأنواع والأصناف الدوائية، ومن المرجح أن تلك الرقى والتعاويذ استعملت لغرض درء كل شر محقق، أو نيل مراد مستصعب، كما أنها شكلت بالنسبة لصاحبها قوة مساعدة تعوض ذاته النفسية القاصرة عن التحكم في مصيرها، كما استعملوا لتلافيه في أحيان أخرى الحروز والتعاويذ لدرء هذا الخطر المحدق بهم⁽⁴⁾.

ويجب التنبيه في هذا المجال بتمثلات تعكس إلى حد بعيد نظرة المجتمع إلى المرأة المتفوقة والتي تبرز، ويكون لها ذكر وصيت في المجتمع، إذ في كثير من الأحيان ما يقرن هذا النجاح والحضور باستحضار الروحانيات وممارسة السحر والشعوذة، والتأثير على الآخرين لنيل هذه المراتب، وهو تمش يؤكد مرة أخرى على وجه سيئ للمرأة العرافة، وإصاقه بكل طموح نسوي على سبيل القدح والتشبيط وإثارة المثالب، ولنا في زينب النفزاوية أفضل مثال على ذلك⁽⁵⁾، مما يعكس غالبا ارتباط الفكر الغيبي والاتجاء للسحر والشعوذة بالأزمات السياسية والفترات الانتقالية، والتحديات الاقتصادية، ولفتوى ابن رشد خير معين على تتبع ذلك، إذ جاء فيها أن " معرفة ما يتستر الناس به من أسرارهم، وما ينطون عليه من أختارهم، وما يحدثه الله من غلاء الأسعار ورخصها، ونزول المطر، ووقع القتل وحلول الفتن وارتفاعها، وغير ذلك من المغيبات"⁽⁶⁾.

¹ أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ج2، تح محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص617.

² إبراهيم القادري بوتشيش، الفكر السحري، ص348.

³ أبو الخير الإشبيلي، المصدر السابق، 535/2. 463.

⁴ كقولهم: "خُرُوزُ خَطَّابٍ". و"حِرْزُ أَبُو دُجَانَةَ". الزجالي، المصدر السابق، 192/2.

⁵ حول ما رميت به زينب النفزاوية ومدى تطابقه مع سيرورة الأحداث التاريخية والنسق الإخباري انظر: الفصل الأول من البحث ص 39-40.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، 253/1. إبراهيم القادري بوتشيش، الفكر السحري، ص352.

5- النائحة:

يعتبر الموت من أكثر الحوادث ألماً وحزناً في المجتمع، فمقابل اخضرار الحياة يلمع سيف الموت، ليحصد ما زاد عن حاجة الحياة وخصبها، إذ ينتاب أهل المصاب والمقربون إليه من قريب أو أحياناً من بعيد إحساس بالكآبة، يجعلهم يجنحون إلى استدعاء المواسين من الأصحاب والخلان رجالاً ونساء؛ حتى ركن المجتمع إلى طائفة مختصة في إظهار اللوعة وأسى الفراق والمتمثلة في النائحة.

وقد عرفت هذه المهنة القديمة الجديدة في مختلف العصور والحضارات، بما فيها الغرب الإسلامي، و تتمثل وظيفتها الأساسية في البكاء على الميت، متخذة طقوس معينة تستعملها في أداء مهمتها، كالصراخ والندب وما إلى ذلك⁽¹⁾، ويبدو أن النائحة كانت تتقن عملها بحكم احترافها له، مما جعل ابن عبد ربه يقول عنها "وليس النائحة الثكلى، مثل النائحة المستأجرة"⁽²⁾.

هذا وقد تنوعت مواقف مختلف شرائح المجتمع من عمل النائحة، فبينما يتراءى تصور الاستهجان عند الفقهاء، والمركز على فهم ديني وسلوك واقعي، ملائماً لكل طبقات المجتمع، حتى الصلحاء منهم، عززته مظاهر أخرى غير محببة، جعلت الفقهاء يتخرجون من أفعالها، فقد كان القاضي يمنع النساء من النواح والصراخ على الميت، ويذكرهن بأن اجتماع النساء على الميت مكروه⁽³⁾. ولا بد أن هناك عوامل متعددة ساهمت في بلورة هذه الصورة، منها الطقوس والحركات التي تحيط بالنياحة في حد ذاتها؛ من لطم وعويل وولولة وزغردة، فقد سئل بعض الفقهاء عن إخراج الميت الذي يظن صلاحه بالزغردة لعلمه، فأجاب بأنه بدعة⁽⁴⁾، سالكا معهن مسلوكاً قوامه التدرج في عملية زجرهن، معبراً عن ذلك بقوله: " فإذا اجتمع النساء للبكاء ولطم الحدود أو بالنياحة أو الصياح بغير نياحة بقرب الموت قبله أو بعده، فليأمرن برفق، فإن عدن نهن ويغلظ عليهن، فإن ركن نهي فليهن بالضرب والطبع عليهن وخلع أبواهن ويعاقبن ولا يبيح لهن أن يعلن ما لا يحل لهن"⁽⁵⁾، وربما يعود هذا إلى غلبة عاطفة النساء وشدة حزنهن⁽¹⁾، رغم كل المحاذير التي وضعها المختصون

¹ السقطي، المصدر السابق، ص 98. ابن حزم، رسائل، 1/ 252. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 181.

² ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسي)، العقد الفريد، ج 3، تح عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص 183.

³ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 76-77. محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص 63. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص 53.

Latifa El Bouhsine, OP.cit, p82.

⁴ يحيى بن عمر الأندلسي، كتاب أحكام السوق، تح محمود علي مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 4، العدد 1-2، 1956، ص 125. البرزلي، المصدر السابق، 50/1. ابن عبد الرؤوف، نفسه، ص 44.

⁵ البرزلي، المصدر السابق، 6/ 161.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

وأعوانهم. واشتد ابن الحاج في ذلك، محيلاً على ذلك بقوله: "صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما، صوت زممار ورنه شيطان عند نعمة وفرح، ورنه عند مصيبة لطم حدود وشق جيوب"⁽²⁾، ومدار الرفض والتشدد عدم مناسبة الموقف لمثل تلك الحركات في الوقت التي يسترعي السكينة والوقار اللازمة للتعاطف والعبارة، كما لا يعدم طابع التكلف في هذه الأمور، والغلو في الحزن المصطنع، إذ يظهرون هذا الحزن بطرق مبالغ فيها ومتطرفة في بعض الأحيان، ناهيك عن إنهاكهم لميزانية مستأجريهم المحدودة أصلاً، والمنتمين غالباً لطبقة العامة، إذ يظهرون "مرتديات لباساً خشناً، ويلطخن وجوههن بسواد دخان القدور..."⁽³⁾، إذ لا بد أن تتمظهر فيهم مظاهر الحزن على المتوفى من طرف المرأة النائحة، وإلا كانت من الأمور المعيبة في حقهم.

ليلمح بمرور الوقت نظرة القبول إلى عمل المرأة في هذا الحقل، فعمل النائحة عمل معروف وعادٍ، بل معترف به وممارس حسب تعبير ابن حزم، مع اختلاف في طريقة التعبير عن الحزن⁽⁴⁾، مشيراً إلى تركيزها في الطبقة العامة قائلاً: "وفي آخر كل بيت تصيح النساء ويخدشن صدورهن وحدودهن حتى يسيل منها الدم بغزارة، وينتفن شعورهن نائحات مولولات، يدوم ذلك سبعة أيام، وبعد أربعين يوماً يستأنفن نحيبهن لمدة ثلاثة أيام، تلك هي عادة العامة"⁽⁵⁾ ولا ريب في أن المستوى الثقافي لمجتمع العامة وذهنيته المحدودة جعلته ينصاع لهذه المراسم.

ولعل ما يضاف إلى تماثل صورته المستهجنة عند قطاع عريض من الفقهاء والمجتمع، ذلك الاختلاط والهرج الذي يشوب هذا الحدث، فالنائحات يرافقهن "أولئك الأندال الذين يتجولون وهم لا يسون ثياب النساء ليضربوا على دفوف مربعة ويرتجلوا أنظاما حزينة مبكية في رثاء الميت"⁽⁶⁾، إلى جانب تكشفهن وعدم تسترهن، وما إلحاح المحتسبين على "منع النوائح من أن يكن حاسرات متكشفات الوجوه" إلا انعكاس لذلك،

¹ إشتك الرجال في هذه المهنة بالمشرق، إلا أنهم لم يبلغوا وجه النائحة المرأة، إذ مزجت النوائح في العراق بين الندب واللطم وقول الشعر الحزين الذي ألف من طرف شعراء مقتدرين على توصيف الموت ولوعته، بل كانت النائحة أحياناً من المغنيات، ومن أهم المميزات التي تتفرد بها صورة النائحة في المشرق ارتباطها أحياناً بالصراعات المذهبية. ودیعة طه النجم، أضواء على منزلة المرأة في العصر العباسي اجتماعياً وأدبياً، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، وزارة الاعلام، الكويت، 1987، ص228-229.

² ابن الحاج، المدخل، 119/3. الونشريسي، المصدر السابق، 419/6.

³ يحيى بن عمر، المصدر السابق، ص143. الحسن الوزان، المصدر السابق، 258/1. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p82.

⁴ ابن حزم، رسائل، 252/1. الحسن الوزان، نفسه.

⁵ الحسن الوزان، نفسه. الجليلي الغرابي، دراسات في الثقافة الشعبية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013، ص43.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، 334/1. الحسن الوزان، نفسه.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

بل وصل الأمر بالفقيه أن "يشجر من يشجعهن على ذلك"⁽¹⁾، فالحلظة والموقف تؤدي بالمرأة إلى عدم الاكتراث بمظهرها المحتشم، وما تؤديه تلك الحركات من اللطم والندب من تكشف عليها، ويبدو أن هذه الوظيفة من بين أكثر المهن تعريضا لأصحابها ومرئديها، خاصة أنهم أصروا على توصيفها بالأعمال غير اللائقة على اعتبار ما يرافقها من خرق لبعض القوانين الدينية .

ثالثا- مهن ذات طابع إنتاجي:

1- الفلاحة والمزراعة:

تعد الزراعة عصب الحياة الاقتصادية في الغرب الإسلامي، وتطورها من تطور ورفاهية دول عصر الدراسة، وقد اشترك الرجل كما المرأة جنبا إلى جنب في هذا القطاع الهام، على اختلاف نسب مساهمتها بين الريف والحضر وبين شرائح المجتمع في حد ذاته⁽²⁾، والذي تنوعت معه رؤى ولوج النساء في هذا النشاط.

هذا ويشار ابتداءً انطبأ صورة المرأة المزارعة المكافحة لمن غاب عنها عائلها، كالأخت البكر التي غاب عنها أبوها سنين غيبة منقطعة، ولا يعلم له مستقر فصارت هي القائمة على الضيعة، وغير بعيد أن صيتها بلغ درجة جعل رجال المنطقة من الأكفاء يسارعون إلى طلب يدها للزواج⁽³⁾، كما كانت تملك لوحدها أو تشترك في امتلاك العقار وأنواع المزروعات، لتطفو في السطح صورة الفلاحة المتملكة في عصري الطوائف والمرابطين والتي يبدو أنها كانت تكلف زوجها أو أحد معارفها بالعمل فيها⁽⁴⁾، فقد امتلكت امرأة نصف أرض واشترى زوجها النصف الآخر، لكن بعد سنين تشاجرت معه وكشفت أمره بأنه اشترى الأرض بمالها وبأمرها⁽⁵⁾، في حين اختصت نساء الصحراء بامتلاك قطعان من الإبل وظفت عليها رعاة⁽⁶⁾، لتتراوح الصورة الفعلية لها بسبب هذه الثروة بين الاحترام والضغط والغبن، ففي الحالة الأولى؛ يتضح صورة المرأة الفلاحة القويمة القوية التي تملك زمام أمرها وتفرض نفسها، فقد كان من النساء الملاك أيضا، وملك بعضهن أراضي كثيرة ووسائل

¹ السقطي، المصدر السابق، ص 68.

² Latifa El Bouhsine, OP.cit, p68.

³ ابن سهل (أبو الأصغ عيسى بن سهل)، الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، ج1، تح نورة محمد عبد العزيز التوجيري، ط1، 1995، ص 217-218.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 1/293. 3/1581. الشعبي، المصدر السابق، ص 459. البرزلي، المصدر السابق، 5/243. الونشريسي، المصدر السابق، 5/206.

⁵ ابن بشتغير، المصدر السابق، ص 225. الونشريسي، المصدر السابق، 5/39.

⁶ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 98.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

إنتاج شتى، حصلن عليها بطريق الوراثة كما الشراء أو الصداق، بل أصبحن يكرين الأرض ويقمن بفسخ العقد إن أردن، لداع من الدواعي⁽¹⁾، ويفهم في الحالة المالية استغلال عطالة زوجها لتكشر عن وجه الضاغطة المنانة على زوجها في أولى بؤادر الخلاف⁽²⁾، لتنعكس في طور أخير صورة الفلاحة المغبونة المغلوبة على أمرها والتي لا تفقه في أمور الزراعة بقدر حظها من العقار، فتعرض للنهب ومحاولة الاستيلاء عليها بالتقادم، وما لجوء المرأة المرابطية إلى القضاء إلا تمثل على ذلك⁽³⁾، ومما لا يستبعد أن إخضاع الأندلس لسلطة المرابطين كان عاملاً مشجعاً على تنقل وهجرة الأشخاص والخبرات والمهارات وقوى الإنتاج الأخرى على بساطتها بين العدوتين المغربية والأندلسية. لتبرز في الريف شراكات في المجال الزراعي تستهدف استثمار الجهود وتوحيد الإمكانيات، وقد كان العمل في الحقل بين الشريكين مداراً لبروز صور متعددة، ومتناقضة، وانحيازية أحياناً للزوجة المزارعة، فإلى جانب مسؤوليتها في رعاية كل أفراد العائلة، عملت المرأة بإصرار على فرض كينونتها، حيث ساعدت الزوج في العمل الزراعي بالحقل بقطف الثمار وتتبع والتقاط السنابل أثناء الحصاد، فانطبع من ناحية الشريك وجه المتطفلة والتي تتدخل في أمور لا تفقهها، في حين تبلورت لدى الزوج صورة الحريصة على ماله ورزقه، لدرجة أنه يشاجر شريكه من أجلها⁽⁴⁾، ويمكن القول أن حرص الزوجة ثم دفاعه المستميت عليها ساعد على ارتسام نظرة متميزة للزوجة في هذا المجال، في مقابل المرأة التي خرجت من مجال اختصاصها في تربية الأطفال وتنشئتهم، وولجت عالماً يجلب عليها الإخشاشان وتدمير أنوثتها في مرآة الرجل الآخر الشريك.

وما ركون الأقارب إلى ملكية المرأة وخدمتها لأرضها إلا اعتراف ضمني بتبوءها مكانة في خلدتهم، وحسبنا في ذلك ما ذكره ابن رشد عن شركة امرأة مع قوم ذوي قرابة بينهم أملاك مشتركة، يحرق كل واحد منهم ما أمكنه على سبيل التوسع، ويتداولون حرثها وزرعها عام بعام مدة عشر سنين⁽⁵⁾، فلا المدة ولا قوام الملكية

¹ ابن رشد، فتاوى، 30/2. ابن سهل، المصدر السابق، 511/1، 838. ابن الحاج، نوازل، 110/2. 607/3. ابن رشد الحفيد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج4، تح محمد صبحي حسن حلاق، ط1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1415هـ، ص188-190. الونشريسي، المصدر السابق، 213/5. 74/6. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص 161.

² الونشريسي، المصدر السابق، 347/8.

³ ابن رشد، فتاوى، 183/1-184. 293-294. البرزلي، المصدر السابق، 365/5. 430-429/3. الونشريسي، المصدر السابق، 179/8.

⁴ ابن رشد، نفسه، 1116/2. الشعبي، المصدر السابق، ص166. ابن الحاج، نوازل، 468/3. البرزلي، المصدر السابق، 72/2. الونشريسي، المصدر السابق، 132/1-133. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص53. هذا وقد إرتسم وجه الزوجة الفلاحة المعاونة لزوجها في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، بالعمل في البساتين ومختلف الأعمال الزراعية من حرث وتنقية وحصاد. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص 272.

⁵ ابن رشد، نفسه، 206/1. حميدي مليكة، الإسهامات، ص 359.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

الكبيرة ولا القراية الذكور وطبيعة العمل البعيدة عن تركيبها الفيزيولوجية والنفسية؛ استطاعوا أن يؤثروا عليها ويسلبوها ما تملك من حق، وهو ما يسمح بصفة أخرى على تكهن قوة شخصيتها وحضور وفعالية لعملها.

وفي نفس الإطار، تسربت صورة متميزة للمرأة الفلاحية في نازلة جاء على ذكرها صاحب المعيار، نتيجة نجاح استثمارها الفلاحي، لدرجة خمنت الاستيلاء على الجزء المجاور لها⁽¹⁾، وتزداد النظرة تألقا عندما تحبس المرأة الفلاحية أو من في صفتها جزءا معتبرا من غراستها على وجوه الخير⁽²⁾.

ولعل اجتهاد النسوة في تحصيل لقمة العيش سبيل إلى بزوغ صورة المرأة الفلاحية المكافحة الممتزجة بالشفقة، فقد كن يجتهدن ويثابرن على العمل من أجل توفير رزق العيال من خلال صناعة الجبن المرتبط بالماشية والرعي، وفي وصف حالهن قال أحد الشعراء⁽³⁾:

وَمُصَفَّرَةُ الْخَدَّيْنِ مَطْوِيَّةُ الْحَشَا عَلَى الْجَبْنِ وَالْمَصْفَرُّ يُوْذِنُ بِالْخَوْفِ

لَهَا بَهْجَةٌ كَالشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا وَلَا كُنَّهَا فِي الْحَيْنِ تَغْرُبُ فِي الْجَوْفِ

كما شكلت المرأة قوة إنتاجية هامة في الريف، اختلف حضورها حسب موقعها الشريحة التي تنتمي إليها ومقدار ثروتها، وعمالة أساسية مرادفة لكل ماله علاقة بالزراعة، فقد كان منهن من امتلكت حصة معلومة في الأرحاء في عدة مدن مثل شاطبة وقرطبة ناهيك عن أعماط وريكة ومراكش بالمغرب، تستغل في تحقيق فائض من الأموال⁽⁴⁾، كما لم يُستغنَ عنهن في مواسم جني الثمار. وأوكل لها في العديد من الحالات مهمة الإشراف على حراسة البساتين⁽⁵⁾، ناهيك عن حرث الأرض ورعي السوائم⁽⁶⁾.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 166/8. إبراهيم القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2002، ص38.

² الونشريسي، نفسه، 130/7.

³ النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي)، تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تح لجنة إحياء التراث العربي، ط5، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص166.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 183/1-184/3. الإدريسي، نزهة، 571/1، 579. ابن الخطيب، معيار، ص83. البرزلي، المصدر السابق، 429/3-430. الونشريسي، المصدر السابق، 179/8. 461/7. حسن الوزان، المصدر السابق، 42/1.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص 166. ابن الخطيب، الإحاطة، 162/2.

⁶ البرزلي، المصدر السابق، 192/3. الحسن الوزان، المصدر السابق، 331/1.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ومن نافلة القول أن ذلك رافقه سفور وعدم احتجاب، ما جعل الفقهاء يصرون على المنع، لتتوارى نظرة المعاونة وتحل مكانها صورة الفلاحة الكاسرة للقيود الأخلاقية، لينعكس على بعلمها الذي ^{حمل} تبعات انفلاتها حسبهم⁽¹⁾، مع مايشكله هذا الحكم من إحجاف في حق المرأة الفلاحة العاملة التي وجدت نفسها في ظروف ومآلات تحتم عليها العمل والكسب.

وكان الرقيق، ومنهم النساء؛ مصدر صورة المزارعة الكادحة، فهم في عمل مستمر، لا يعرفون راحة إلا في النزر اليسير⁽²⁾، فلا ينتهون من مهمة إلا ويوكل لهم عمل آخر، وهو ما تلقفته الأمثال الشعبية بقولها "أطلق الفأس، خذ المصحاح"⁽³⁾.

وهناك ما يفيد على وعي وفهم الفقهاء والقضاة ^{لكنه} وطبيعة اختلاف رؤى النسوة للعمل في الحقل بين الريف والحضر، إذ لم تستح المرأة من شكوى زوجها لقاضي الأنكحة بسبب تكليفها بما لا تطيقه من الأعمال المنزلية وما ينضاف إليها من أعمال مكملة أخرى عطفًا على صورة المرأة المتبرمة المعذورة؛ فاستخدمت حقها في الشكوى إلى قاضي المنطقة، وكان الحكم لها على العرف المعتاد في بلادها، أما البدوية التي ينضج معها رؤية المتبرمة غير المعذورة، والملزومة في أحيان كثيرة، عند شكواها من شدة خدمتها من الطحن، وحمل الحطب، وغير ذلك من خدمة البادية⁽⁴⁾، فأمرها القاضي بالاستجابة؛ لأن نساء البوادي

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 193/11.

² ويمكن طرح تساؤلات مشروع يفتح آفاقا للمناقشة والإثراء في دراسات مستقبلية، هل استفاد الرقيق خاصة النساء مما كانت تنتج يدها في تحقيق الإنعتاق؟، خاصة أن الشريعة تشجع ذلك فيما يعرف بالمكاتب، وبالتالي يمكن القول أن عوائد الإنتاج حققت فائضا كان له تأثير في وضعيته المادية والاجتماعية، أم أن الأسياد بخسوا رقيقهم الأموال المكتسبة على كثرتها أو قتلها ؟.

³ الزجالي، المصدر السابق، 99/2. ولابد من التنويه هنا أن هذه الوضعية لم تكن هي القاعدة، وحسبنا في ذلك النصوص المبثوثة في كتب النوازل والفتاوى والمصنفات التاريخية التي سيأتي التطرق إليها في حينها.

⁴ كانت نساء البادية أكثر صبرا وجلدا من نساء الحواضر، حتى أن الوزان وصف نساء جبل داس بأثن "كريهات المنظر كالشياطين، لباسهن من أسوأ من لباس الرجال، وحالتهم أقبح من حالة الحمير... يحملن على ظهورهن الماء الذي يستقينه من العيون، والحطب الذي يحتطبونه من الغابة دون أن يسترحن ولو ساعة بالنهار". وصف إفريقيا، 189/1، ويكمن أن نفهم من ظاهر كلام الوزان الخط من قدر هؤلاء النسوة، إلا أن قراءة متمعنة في متون النص تحيل إلى هذا الوصف يتضمن في باطنه الثناء على صبر المرأة الأمازيغية وتجملها ومساهمتها الفعالة في النهوض بالأسرة ومشاطرة الرجل في تحمل الأعباء، فهذه الأوصاف لم تأت نتيجة تراخ أو عجز عن الاهتمام بالذات والتجمل، وغياب لصفة الجمال في هذا المجال، مع ما عرفت به نساء المنطقة والأمازيغيات عموما من الجمال الفائق الطبيعي الذي لا يحتاج إلى تزيين وتزويق لدرجة أنه فتن بما كل من شاهدهن؛ بل إن عدم تخصيص هؤلاء النسوة وقتا لأنفسهن هو ما أدى بهن إلى إهمال ذواتهن، فالمرأة الأمازيغية والحالة هذه مثال للتضحية لدرجة إنكار الذات. حسنة مازي، متغيرات الأنشطة الاقتصادية للمرأة المغربية في مرحلة الحماية الفرنسية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 71، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 2010، ص55.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

دخلن على ذلك⁽¹⁾، وتُفصح الفتوى على سلاسة وتفهم للواقع، إذ أنها لم تُعط حكما وموقفا واحدا لمشكلة بعينها، وإنما أخذت في اعتبارها قدرات المرأة وعادات المجتمع وأعرافه.

ومن اللافت للنظر أن الشغف بالفلاحة والخضرة وكل ماله علاقة بالأرض منعرج هام إلى الافتخار بصورة الفلاحة، سيما من الشواعر الذين صُقلوا على رهافة الحس وحب الطبيعة، فهذه الشاعرة أم العلاء بنت يوسف الحجارية كانت تملك بستانا تزرع فيه القصب، وتغنت بحبها وشغفها وافتخارها بالبستنة والبساتين في خضم إكبارها لبلدها قائلة:

لله بُسْتَانِي إِذَا يَهْفُو بِهِ الْقَصَبُ الْمُنْدَى

فَكَأَنَّمَا كَفُّ الرِّيا حِ قَدْ أَسْنَدَتْ بِنْدًا فَبِنْدًا⁽²⁾

2- التاجرة:

تختلف صورة التاجرة كمنظور إليها وفق موقعها من نشاطها بين الريف والمدينة، علاوة على قدرتها وشخصيتها، والوسط الذي تعيش فيه، ناهيك عن الطريقة التي تربت عليها، سواء بالاستقلال أو الاعتماد على غيرها في تدبير شؤونها، وأيضا مدى القدر الذي نالته من التعليم والثقافة ومعرفة شؤون الحياة.

فبالإضافة إلى الأعمال المنزلية المعتادة لدى المرأة الريفية؛ من إعداد للطعام، وعمل للخبز، وتربية الأطفال، وقيام بالحقل ومستلزماته في جانب آخر، والذي يجلي معها صورتها المكافحة⁽³⁾؛ أنيط بها تسويق منتجات الأسرة، وكل ما توفره البادية من فوائض إنتاجية، فتحمل بعض النساء في الصباح الباكر بعض ماحضرته من حليب ومشتقاته وبعض العسل وماغزلته إلى سوق القرية أو المدينة القريبة بحثا عن سعر أفضل ومشتريين أكثر⁽⁴⁾.

¹ البرزلي، المصدر السابق، 360-359/2.

² ابن سعيد، المغرب، 38/2.

³ Latifa El Bouhsine, OP.cit, p68.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 1116/2. الزجاجي، المصدر السابق، 151/2. المراكشي، وثائق، ص495. البرزلي، المصدر السابق، 72/2. الحميري، المصدر السابق، ص566. المقرئ، المصدر السابق، 226/1. حميدي مليكة، الإسهامات، ص370. حسن قري، المجتمع الريفي في الأندلس في عصر بني أمية، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012، ص215. محمد بن عبود، المرجع السابق، ص191. خالد حسين محمود، المرجع السابق، ص164.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ورافق ذلك وجه المغرّة، إذ يُشار أن يبعهن لصنوف الخبز والفواكه والحب والبيض وضروب من الأطعمة التي تحضرها لتبيعها للمسافرين قبل بنوع من التحوط والتحرز⁽¹⁾، ومصدق ذلك ما تلقفته الأمثلة الشعبية عند قولها "إذا ريت أصفر سوق، وإذا ريت أحمر ذوق"⁽²⁾.

وفي أواخر عهد المرابطين ونتيجة لسفورهن يطالعنا ابن تومرت على اعتباره من أهم فقهاء ذلك العصر على وجه سلبى للمرأة ملؤه الريبة والشك، ومرد هذه الرؤية سفورهن أثناء عملية بيع اللبن في مناطق المغرب الأقصى، وما يولده هذا السفور من محضورات⁽³⁾، كما يمكن أن نتصور في المقابل خشية الرجال من منافستهن في عمليات البيع والشراء، ودوره في هذا التمثل السلبي، واستنادهم لمفهوم القوامة الذي يتعارض حسبهم مع خروج المرأة للاستزاق.

وما تشدد المحتسبين معهن إلا تبد لموقف الإنكار والتحوط⁽⁴⁾، ويعضد هذا التخريج طرح مسألة تجارة الرقيق، فكان رأي بعض الفقهاء إمكانية إذن السيد لأتمته في التجارة، أو عدم إذنه لها⁽⁵⁾، وهي نظرة مغلفة ومتكئة في أحيان كثيرة على صون شرفها وكرامتها، ففضل في أحيان كثيرة إرسال سيدات قعيدات كبيرات في السن إلى السوق للبيع⁽⁶⁾، فمنطلق نظرة التقدير عندهم مرتبط بإعالة أسرهن والإنفاق على أولادهن، وندب أحد للبيع والشراء ممن يضمن دينه وخلقه⁽⁷⁾، ويمكن التخمين أن مرجع ذلك احتواء السوق على أجناس وأمزجة متعددة، وما تتطلبه هذه المهنة من حديث يخشى عليها منه، إمعانا في الحفاظ على شرف المرأة وإبعادها عن كل الشبهات.

¹ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 42. 57. حسن قرني، المرجع السابق، ص 146.

² الزجالي، المصدر السابق، 18/2.

³ البيهقي، أخبار، ص 21. ويظهر في النص نوع من التهويل والتناقض الصارخ، وحضور وتسلل للدعاية ضد المرابطين حول هذه الجزئية بالذات، فرغم الحاجة والعوز الذي ألزمها الخروج للعمل وبيع اللبن لتوفير مصدر العيش لأبنائها، إلا أنها رغم ذلك كانت محلاة متزينة كالعروس المزفوفة، على ما يحتاجه ذلك من مصاريف وأموال؟، رغم كل الانطلاق الذي ألمح إليه بشأن المرأة المرابطية في هذا المجال، والذي كان محط نقد وتركيز من دعاة الموحدين، فهل الموقف هنا يركن إلى إبراز ما يجب أن يكون عليه النسوة من الحشمة والحياء في مخيال الفقيه المرتكز بالأساس على القرون الأولى للإسلام ومثاليته؟.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 47. ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 87. وكأني بهم يؤكدون أن كل النسوة أو على الأقل أغلبهن ستساق لالمحالة للمغريات، أو أن حضورها سيشكل خطرا على البائعين الرجال، فهل الخوف هنا منها أم عليها؟.

⁵ ابن رشد، فتاوى، 1219/2. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 358.

⁶ المقرئ، المصدر السابق، 340/3.

⁷ الشيزري، المصدر السابق، ص 109.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ورغم هذا الإصرار على النهي من لدن المحتسبين، إلا أن صورتها السابقة استمرت وتددت، إذ تؤكد إحدى روايات المعيار أن بعض النسوة تباشر البيع وهي مكشوفة الوجه خصوصا في زمن الحر⁽¹⁾، فهل كان البحث عن مورد للزرق وراء هذا الصبر على العمل تحت هذه الظروف المتطرفة من الحرارة؟.

هذا وقد تبلورت صورة المرأة الغشاشة في إنكار المحتسبين صنائع بعض نسوة التجار، بسبب مشاركة أزواجهن في عمليات التحايل والغش التجاري بالأسواق، بالتستر عليهم وتسهيل الأمر لهم، وهذا ما أشار إليه السقطي بعد تهرب تاجر من دفع مستحققاته للتجار الآخرين وغيبته من دكانه المكترى، بعد إدعاء جهله بأسوام السلع التي اشتراها منهم، لتدخل المرأة في هذا الخط " فتهون زوجته ذلك على التجار بأن تلزم كراء الحانوت لباقي مدة زواجها، ويخرج الزوج من مغيبه، وقد حصل من أموال الناس على رأس مال عنده، فبهذه الحيلة يتجر بها في الحانوت بعد أن يشهر على نفسه بعقد أنه بيده لزوجته المذكورة على وجه السلف من ثياب وأثاث باعتهما أو غير ذلك من الوجوه الشرعية إلى غير ما وصف أيضا من الحيل"⁽²⁾.

وعلى خلاف ما سبق، يبرر مؤشر البائعة المكافحة القدوة والأم المثلى في شخص والدته الشاعر ابن اللبانة أبو محمد بن عيسى الداني⁽³⁾، بعد موت عائلها، فتتحمل بكل شجاعة مسؤولية تربية أولادها، وتوصلهم إلى المراتب العليا، فقد " كانت امرأة برزة فارسة دكان، وصاحبة مكيال وميزان، وعلى ذلك فقد كانت امرأة صدق، وفي حرفتها على ما بلغني صاحبة حق، مشغلة ببيع لبنها، مقبلة على ما يعينها من حال زماها، حتى غلب اسم اللبن عليها، ونسب أولادها إليها"⁽⁴⁾، ولاشك أن انعكاس صورتها الجيدة على تلقيب أولادها بها دليل على ارتسام نظرة التقدير لعملها، فاقترن أشهر أولادها الشعراء بعملها، نتيجة ماشاع من انتساب الأشخاص لأصحاب المهن، ونموذج رائع لعدم اقتصار المرأة على الاعمال التقليدية داخل جدران المنزل.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 197/5. محمد ياسر الهلاي، المرجع السابق، ص77.

² السقطي، المصدر السابق، ص60.

³ أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي الداني المعروف بابن اللبانة، أديب وشاعر أندلسي من أهل دانية بالاندلس، من مشاهير شعراء الاندلس، كان منقطعا الى بني عباد، ولهم أبدع ما نظم من شعره في مختلف الفنون، توفي 507هـ/1113م. ابن بسام، الذخيرة، 666/2-667. ابن سعيد، المصدر السابق، 409/2-410.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، 667/2/3. ابن سعيد، نفسه، 209/2/3. صلاح خالص، إشبيلية، ص92. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص178. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص47.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

ونفس الرؤية المشرفة تنطبع على البدوية العاملة في السوق في بيع الدواجن والبيض في الحواضر المغربية لتعيل أسرتها وتساعدها على تحقيق متطلبات الحياة الكريمة⁽¹⁾، والممترجة بالمغبونة الكادحة ذات الأجر الزهيد كما أشار إلى ذلك السقطي، عندما تعرض لصاحب القمح الذي يواعد نساءً من السعاة ليكنسهن ويجمعهن ويقتسمهن مع الوزان آخر النهار⁽²⁾، وفي مراقبة المحتسب وعقاب كل من يتعرض للنساء في أسواقهن، نموذج فريد عن تعامل المحتسبين والسلطة مع أعمالهن بكل وعي وتأکید على الصور السابقة⁽³⁾.

هذا وقد أوردت كتب الفتاوى والنوازل نصوصاً في غاية الأهمية تحيل لاحالة إلى وجه المرأة البائعة الحيوية والمسؤولة عن تجارتها في عصر المرابطين، ولعل دخول المرأة مجال الاستثمار العقاري وبمبالغ معتبرة وفي مناطق مركزية من الأندلس والمغرب، سر الانطباع الجيد حولهن، لدرجة نهي الفقهاء الأزواج عن منع زوجاتهم من ممارسة التجارة⁽⁴⁾، فنوازل العصر المرابطي تضم معلومات هامة عن أسعار بعض السلع توحى بثناء نسوي في هذا الحقل، وتعيد التفكير بصيغة ضعف الأنثى التي تحض على وجوب تبعيتها للرجل، وتحجب في المقابل قوة الأنثى، وحسبنا في ذلك نازلة وقعت في مدينة بلنسية تضمنت عقد مبيعة بين امرأتين في ملك، وما يظهره من المشاركة في التعاملات التجارية⁽⁵⁾.

وهذا رجل يشتري من امرأة داراً بداخل مدينة قرطبة بحومة مسجد عباد بمائتين وثمانين مثقالاً ذهباً قرونية⁽⁶⁾، إضافة إلى امتلاك الأراضي والعقارات وبيعها، بل كانت صاحبة أموال كثيرة تتصرف فيها كيف شاءت⁽⁷⁾، حتى أن الفقهاء أجازوا لها البيع وإن كانت بكراً في حالة الحاجة كالقاضي ابن

¹ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 42.

² السقطي، المصدر السابق، ص 16.

³ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 87. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 175.

⁴ الشعبي، المصدر السابق، ص 466. ابن الحاج، نوازل، 186/2. 519/3. وعلى العكس من ذلك، كان الزوج في مجتمع الغرب الأوربي الوسيط بمجرد ما تعقد قرانها حتى تصبح الزوجة وجميع ما تملك ملكاً خاصاً للزوج. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص 228-229.

⁵ ومما جاء في العقد المذكور "اشتريت إدلال أم ولد فلان من عائشة بنت فلان جميع الدار التي بحاضرة بلنسية وداخل سورها المحدث وبحومة كذا، ومنتهى حدها كذا، وجميع الحنة التي بخارج مدينة بلنسية بموقع كذا، ومنتهى حدها كذا، بعامة جميع حقوق الدار والجنة المبيعتين المحدودتين فوق هذا، ومنافعهما ومرافقهما الداخلة فيها والخارجة عنهما، ويقاعة ذلك كله وبنائه وأنقاضه علو ذلك كله وسفله، وما في الجنة من ضروب الشجرات وأنواع الغراسات المثمرة وغير المثمرة اشتراءً صحيحاً تاماً". ابن رشد، فتاوى، 1071/2

⁶ ابن سهل، المصدر السابق، 425/1.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، 166/9.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

بشتغير(ت516هـ/1112م)⁽¹⁾، كما زاحت النساء الرجال في المعاملات المالية، وتفوقن في ذلك، حتى أن البرزلي شبههن باليهود في هذا الجانب⁽²⁾.

وتزداد نظرة الاحترام بروزا إذا اقترنت بالطبقة الخاصة، سيما عند امتزاج المال مع الشرف والتقوى، فهذه الحرة حواء التي امتلكت ثروة طائلة أدارتها بنفسها جعلت أحد أشهر شعراء الفترة المرابطية الأعمى التظليلي(ت525هـ/1131م) يمتدحها قائلا⁽³⁾:

دُنْيا ولا تَرْفُ دينٌ ولا قَشْفٌ مُلْكٌ ولا سَرْفٌ دَرْكٌ ولا طَلْبٌ

بَرٌّ ولا سَقَمٌ عَيْشٌ ولا هَرَمٌ جَدٌّ ولا نَصَبٌ وَرْدٌ ولا قَرْبٌ

ولا يعدم في مثل جانب الاصطناع والتملق، لكنه في نفس الوقت يظهر جزءاً ولو بسيطاً من مكانتها وحظوظها الاقتصادية.

إضافة إلى زينب شقيقة محمد بن تومرت المخضومة التي عاشت في ظل الدولتين المرابطية والموحدية، كانت تمتهن غزل الصوف وتبيعه، ومن عمل يدها تطعم ابن تومرت⁽⁴⁾.

ولتنشيط دورة المبادلات التجارية وجد الدلالون، الذين هم وسطاء في المبادلات التجارية وعقد الصفات، ويبدو أن وجود الدلالات على قلته في السوق ملمح ينحو إلى القبول من المجتمع، في ظل صورة غير محببة للدلالين في الوسط الفقهي، مع الوضع في الحسبان ما تفرضه الوظيفة من احتكاك بعالم الرجال وربما الترحال والتردد بين الأماكن من أجل الترويج للسلعة، وكثرة النزاعات والتجاوزات التي تقوم بين طرفي عملية البيع في أحيان أخرى⁽⁵⁾، ولعل قدرة الدلالة في التوغل إلى عالم النسوة دون الرجال، ووجود كثير من السلع ذات

¹ ابن بشتغير، المصدر السابق، ص432.

² البرزلي، المصدر السابق، 11/5.

³ ديوان التظليلي، جمعه وحققه وشرحه محي الدين ديب، ط1، المؤسسة العربية للكتاب، لبنان، 2014، ص49. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 430/5. حميدي مليكة، المرأة المغربية، ص233.

⁴ ابن الأثير، المصدر السابق، 294/8. ابن خلكان، المصدر السابق، 54/5. حميدي مليكة، نفسه، ص148. عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص135.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، 238/5-239. 63/12. 197/5. محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ/12-15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1999، ص317. محمد ياسر الهاللي، المرجع السابق، ص77.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

الطابع النسائي والتي تشكل حرجا على الرجال دورا في هذا الحضور، كما لا يعدم المردود الجيد في الإقبال النسوي على هذا النوع من التجارة لانعدام المخاطرة.

أما إذا انتقلنا إلى أهل الذمة، وأردنا رصد مؤشرات تظهر مدى توافق نظرتهم للمرأة البائعة مع المسلمين، فإننا نجد شططا وغلوا في تشددهم، فالمشروع اليهودي جعل المرأة المتزوجة كالقاصر والصبي والمجنون لا يجوز لها البيع والشراء⁽¹⁾، مما أدى إلى حرمانها في الغالب الأعم من العمل في التجارة بشكل مباشر، ولعل مفهوم وحضور الأنوثة والانغلاق الذي عرفه المجتمع اليهودي مبرر لهذا الموقف، في الوقت الذي بعض المغاربة الذين استقروا لوقت معين بميوزقة، تجارا نشطاء، وفيهم عدد لا يستهان به من النساء، ينتمون إلى مدن فاس وأصيلا⁽²⁾.

وهناك مجموعة من الوثائق والصكوك تصور حياة سكان طليطلة تحت حكم النصارى الإسبان خلال القرن 6-7هـ/12-13م، جمعها ونشرها المؤرخ الاسباني جونثالث بالثيا، وقد نقل منها شكيب أرسلان بعضا من الوثائق الخاصة باليهود تسجل مواقف مرنة من التعاملات التجارية للمرأة اليهودية نتيجة الاحتكاك بالمسلمين، من قبيل ابتياع "أبو اسحاق بن نحيمس اليهودي من جميلة بنت فرج زوجة البليوشي البنا جميع خصصها⁽³⁾، وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجال بحومة قرية جليكس من قرى طليطلة"⁽⁴⁾، وما تسمية المرأة باسمها الكامل، مقترنا بزوجه ووالدها والمكان الذي بيعت فيه البضاعة إلا مؤشرات على الموقف السالف الذكر، ويخيل أن التقارب الزماني بين الحكمين الإسلامي والإسباني في المنطقة لم يغير كثيرا من ملامح الذهنية السائدة على فرض بطئ التحولات التي تختص بالعادات والأعراف والذهنيات غالبا، سيما إذا أخذ في الحسبان استمرار تقليد كتابة جزء من الوثائق التي تختص بشؤون اليهود باللغة العربية.

¹ رشيدة فؤاد، الحماية الأسرية والاجتماعية للمرأة اليهودية في نصوص اليهود الدينية المقدسة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك، الدار البيضاء، 2013، ص12.

² Dufourcq ch.E, l'Espagne catalane et le Maghreb(1212-1331), puf, 1965,p465.

³ الخص هو بيت من الشجر أو الورق، ويبدو أنه يعني هنا نصف كرم. شكيب أرسلان، المرجع السابق، 1/ هامش 367.

⁴ شكيب أرسلان، نفسه، 1/ 367. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 102-103.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

واقترنت صورة الامتعاض للبائعات من النسوة بتبعات ما يحدث في السوق من مواقف تسيء إلى المرأة عموماً، فرسم التعوذ من الوقت برهان على ذلك، " فالذي يجري في هذا الزمان من اختلاط الرجال والنساء ومضامة أجسامهم ومزاحمة من في قلبه مرض من أهل الريبة ومعانقة بعضهم لبعض"⁽¹⁾.

ورافقت نظرة الشفقة بعض النساء أثناء موجات الأزمات والكوارث، فتضطر المرأة بذلك إلى بيع جميع ممتلكاتها بثمن بخس وبأقل من سعره بكثير من فرط الحاجة، ومن ذلك ما ذكر ابن الزيات من أن امرأة باعت دارها بأقل من ثمنها في عام مجاعة، لكي تعيل بناتها، ويتدخل هنا المحسنون من الصوفية الذين عاينوا معاناتها، فأشفقوا لحالها، فأرجعوا لها المال والدار⁽²⁾.

وتوازيا مع انتشار أسواق الرقيق؛ كان من المستلزم حضور المحتسب في فعالياته، والذي رافقته عادة أمانة ذات وجه محمود عند المشتريين والبائعين عند اقرارها بالحق، لتتقلب إلى صورة الجشعة في حالات استغلالها لوظيفتها في تمرير عقود دون موثوقية الشروط، فقد جرت العادة أن يسند لكل جارية عند بيعها عقد يكون بمثابة بطاقة تعريفية لها، بحيث لا يمكن أن تلبس أوصافها مع جارية أخرى، وليسهل تعرف صاحبها عليها إذا أبقت، وحجته العقد الذي بحوزته، ويمكن للشاري أن يرفع قضية إن وجد عيباً في الجارية من آثار مرض أو كسر أو كي لم يصرح به في العقد عند البيع، عند من وثقت بها من النساء لتتظن في تلك العيوب ومقدار صدقها⁽³⁾، وهو ما يعكس اعتناء السلط بعمليات البيع التي لم يتركوها بدون ضوابط، سيما في ظل رواجها بين مختلف فئات مجتمع الغرب الإسلامي، كما ينم عن رؤية متفتحة ومتماشية مع ضروريات العصر وحركة التجارة، لضمان التفتيس والمراقبة واحتراماً لخصوصيات المرأة الجسدية والنفسية ومنع الاعتداء عليها أو غبنها.

¹ محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص133. مع أن الرجوع إلى المصدر الذي أخذ عنه تشير إلى الاختلاط في المجالس التي تعقد لحتم القرآن، الطرطوشي، المصدر السابق، ص46. مع الاطمئنان إلى أن صورة الامتعاض من البائعات في الأسواق بلغت مداها من باب أولى، نتيجة وما يوفره هذا الفضاء من فرص للاحتكاك، وحضور ممتد للفتات الطائشة.

² ابن الزيات، المصدر السابق، ص153.

³ ابن العطار، المصدر السابق، ص33-34. السقطي، المصدر السابق، ص48، 56. محمد عبد الوهاب خلاف، وثائق الطب الاسلامي ووظيفته في معاونته القضاء في الأندلس، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى لابن سهل (أبو الاصبع عيسى)، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، 1982، ص51. وقد يقول قائل أن الضوابط لم تراعى في الأساس الجارية بل الزيون الرجل كان أو المرأة، لكنها في المحصلة أوجدت رابطاً قوياً لم يكن معروفاً ومتداولاً عصرئذ.

3- الناسجة والغازلة:

لاغنى لبني الإنسان عن لباس يلبسه ومنسوج يكون فراشا له، وهو ما جعل الصناعات النسيجية على اختلاف أنواعها بين الأنسجة الصوفية والقطنية وأنسجة الكتان؛ بالإضافة إلى الأنسجة الحريرية التي كانت متمركزة لدى الفئة الخاصة؛ من أهم الصناعات التي أحرزت تقدما كبيرا في منطقة الغرب الإسلامي، فهي من الصناعات الضرورية " في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه"⁽¹⁾، وذلك نتيجة التطور الحضاري والعمراني، ووفرة المواد الأولية اللازمة لذلك، ناهيك عن توفر يد عاملة نسائية ماهرة دفعت بهذه الحرف قدما، لتعمل هذه المحفزات مجتمعة في تجلية صورة المرأة في هذا الخط، وتجعلها أشهر مهن المرأة في الغرب الإسلامي. ولعل الإتقان⁽²⁾ في العمل من أول وأهم موجبات نظرة الاحترام والفخر لهذه الحرفة، إذ أن النساء تنسج " ثيابا من الصوف على شكل أغطية السرير، لكنها دقيقة رفيعة حتى يظن أنها حرير"⁽³⁾، ولاشك أن غلبة الأناقة والنفاسة والإسراف في التفنن منشط لهذا الإتقان⁽⁴⁾.

وفي تحمل الزوجة الشغيلة في الريف لأعباء البيت، علاوة على خبرتها وتفانيها وحذقها في توليف منتج نسيجي أصيل عالي الجودة، مع العلاقة القوية التي ربطت بين إنتاج الصوف وجغرافية البداوة ببلاد المغرب، أقول كان ذلك مصدر تخمر صورة المرأة الحرفية الماهرة، بما تغزله من نسيج ذاع صيته على المستوى الداخلي والخارجي⁽⁵⁾، خاصة إذا كانت تجارها مع رجال خيريين⁽⁶⁾، ساعية بذلك لرفع مستوى البيت ماديا، ولاشك أن هذا التفنن يدل على حس فني راق، ساهم بطريقة مباشرة في رفع مستوى الأسرة المادي. ولا يمكن

¹ ابن خلدون، مقدمة، 871/2.

² ويبدو أن موجبات الإتقان التي تميزت معها الصورة المشرقة للمرأة في هذه الحرفة تكمن في طبيعة مجتمع الغرب الإسلامي خصوصا الأندلس، فقد اشتهر أهلها سيما طبقة الخاصة بأن أهلها يتصفون بحسن المظهر في ارتداء الأزياء ومكملاتها. عبد المنعم حامد الصوي، معالم الحضارة في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1995، ص135. ولم تقتصر هذا الطرح على الخاصة فحسب، بل شملت الفئات الأخرى، إذ وجد أن منهم من لا يكون عنده ما يقوته يومه، فيطويه صائما، فيبتاع صابونا يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حاله تنبوا العين عنها. المقرئ، المصدر السابق، 223/1.

³ الزهري، المصدر السابق، ص102. ابن رشد، فتاوى، 329/1. الحسن الوزان، المصدر السابق، 132/2. علي أفوفار، المرجع السابق، ص70.

⁴ ياقوت الحموي، المصدر السابق، 517/4. مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، 1975، ص58.

⁵ الإدريسي، المغرب، ص62. عبد الوهاب بن منصور، المرجع السابق، 285/1. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p70.

⁶ ابن عبدون، المصدر السابق، ص47.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

الحديث عن المهارة العالية للمرأة في هذه الحرفة دون التعرّيج على جودة الصناعات اليهودية النسائية⁽¹⁾ التي تواصلت حتى عصور متأخرة من القرون الوسطى، إذ تميزت الكسوة الخاصة بمن والمنتشرة في شمال المغرب وفاس والرباط وسلا بمميزات محلية خاصة، من خلال وجود تراصيع تعرف "بالسفيفيا" مطرزة بالخيوط الذهبية على جوانبها وعلى منطقة الصدر، وهي صناعة عرفت بإتقان خياطتها وصعوبة تقليدها حتى استعصت على جل الخياطين المنتشرين في باقي المدن المغربية⁽²⁾، ما ينهض على الاحترام والتقدير والاعتراف بالجهد المبذول من طرفهن من أجل تجويد هذه الصناعة.

كما احتفظت جيان بمركزها في إنتاج الحرير، فكثرت فيها زراعة التوت لتربية دودة الحرير، ولتفوق المنطقة في إنتاجه قرن الحرير بجيان⁽³⁾، ولعل ارتباط تربية دودة القز المنتجة للحرير بالمرأة الشغيلة في الريف الأندلسي سيما في المناطق التي تزرع بها أشجار التوت كألبييرة ووادي آش وقرى المرية وجيان، دليل على وجود نوع من التخصص وتقسيم للعمل والاحتكار الأنثوي لها في الأندلس، إذ برعت النساء في تربية دودة الحرير وكن المختصات بذلك إلى حد كبير⁽⁴⁾، إذ كانت تصدر الألبسة الحريرية عصر الدراسة إلى أسواق أوروبا المسيحية، خاصة أن الأوربيين شغفوا بها حتى أن بعض عظماء المسيحيين وملوكهم كانوا يوصون أن يكفنوا بأكفان من نسيج المرية الإسلامية⁽⁵⁾، ناهيك عن دول المشرق الاسلامي لاسيما مصر⁽⁶⁾، في الوقت الذي كان فيه الفرنجة يشيدون بحرير المرية الثمين والغالي في أغانيهم، ومهاراتهم العالية في صنعه⁽¹⁾، ويبدو أن كثرة

¹ كانت المرأة اليهودية ومهما كان عدد الخدم الذين أحضرتهم معها؛ لا تُعفى من الغزل، مثلما أكّد الحبر أليعازر (ELIEZER)، ولزوجه أن يرغمها عليه، لأنّ البطالة حسب مفهومهم تقود إلى فساد النساء، خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 290. مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية، ص 365. ويظهر من هذه التعاليم إجبارية هذه الصناعة على المرأة اليهودية جاعلا إياها تبرز في الحياة العامة لليهود، مثلما برز رجالها خاصة في النشاط التجاري، فهل هذا التمشي كفيّل بتفسير جودة المنتجات النسيجية للمرأة اليهودية حينما تضطرها التقاليد والأعراف إلى التعاطي معها ولو كانت موسرة؟.

² حاييم الزعفراني، يهود المغرب والأندلس، ج 2، تر أحمد شحلان، دار مرسوم، الرباط، 2000، ص 450-451.

³ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 114. ابن رشد، فتاوى، 330/1. المقري، المصدر السابق، 207/4. أوليفيا ريمي كونستبل، المرجع السابق، ص 263.

⁴ عريب بن سعيد (أبو الحسن الكاتب)، تقويم قرطبة لسنة 961م، تحقيق دوزي، ليدن، ريل، 1961، ص 49. ابن سعيد، المغرب، 51/2.

225. الادريسي، زهدة، 568/2. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية، ص 156.

⁵ المقري، المصدر السابق، 7/1، 93-94. السيد عبد العزيز سالم، نفسه، ص 160. مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 83. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 362. ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب، ص 302.

⁶ Goitein. SD, Letters of medieval Jewish traders, Princeton university press, Princeton, new jersey, 1973, p225.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

مناطق تربية دودة القز وضيق وقت جني المحصول تستوجب توظيف يد عاملة نسائية مكثفة من أجل تزويد صناعة الحرير بالمادة الأولية.

ويفسر ابن رشد ذلك ببلورته لنظرة التقبل والرضا التي تميل الى الواقعية؛ من مرتدات هذا العمل على غرار بقية الأعمال التي برعت فيها النسوة، إذ أورد في كلامه أن النساء " والرجال نوع واحد من الغاية الإنسانية، فإنهن بالضرورة يشتركن وإياهم فيها [في الأفعال الإنسانية]، وإن اختلفن عنهم بعض الاختلاف، أعني أن الرجال أكثر كدا في الأعمال الإنسانية من النساء، وإن لم يكن من غير الممتنع أن تكون النساء أكثر حذقا في بعض الأعمال"⁽²⁾، وربما ساعدها على ذلك ملائمة هذه المهنة لطبيعة جلوس المرأة لفترات طويلة داخل منزلها.

وما ارتفع ثمن بعض الأكسية وشهرته على مناطق عرفت بصنعه إلا خط آخر للموقف السابق، فقد كان لنساء سجلماسة شهرة كبيرة في صناعة غزل الصوف فكن " يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزرق، تفوق القصب الذي بمصر، يبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين دينارا وأكثر"⁽³⁾.

وقد تجاوزت بعض المراكز التي مارست الحياكة مرحلة تحقيق الاكتفاء الذاتي، لتقوم بتصدير منتوجاتها إلى أسواق المناطق الأخرى التي تعاني خصاصة في هذا الميدان، محددة معها موقفا متفاعلا ومستحسنا من طرف نساء الخاصة للمرأة العاملة في هذا المجال، ففي بلاد رجرجة التي تخصصت في إنتاج أنواع ثينة من الأقمشة، لقيت لهذا السبب استحسانا من طرف نساء البلاط المرابطي والموحدي على السواء⁽⁴⁾.

ولا يختلف اثنان في مشاركة الرجال للنساء في هذا العمل، لكن النسوة كن عليه أقدر وبه أمهر، وهو ما حمل الفيلسوف ابن رشد الحفيد على الوقوف موقف الاحترام والتوقير، مبررا ذلك بأن النساء " يشاركن الرجال في الصنائع، إلا أنهن في هذا أقل منهن قوة، وإن كان معظم النساء أشد حذقا من الرجال في بعض الصنائع، كما في صناعة النسيج والخياطة وغيرها"⁽⁵⁾، سيما العوائل الفقيرة التي تزداد حاجتها إلى هذه المهن والصنائع

¹ أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة، ص 257.

² ابن رشد، الضروري، ص 124. أوليفيا ريمي كونستبل، المرجع السابق، ص 263.

³ ياقوت الحموي، المصدر السابق، 192/3. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p70.

⁴ ابن سعيد المغربي (أبي الحسن علي بن موسى) كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه اسماعيل العربي، ط 1، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970، ص 125.

⁵ ابن رشد، الضروري في السياسة، ص 124.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

في الأوقات السيئة والأزمات التي مرت بها الدولة، فيزداد معها صورة الحذق والإتقان في العمل لشدة المنافسة بسبب كثرة من هن في وضعهن، كما ينضاف إليه في جانب آخر ازدهار الدولة ونهوضها الحضاري الذي يتطلب وجود قاعدة حرفية وصناعية فنية تواكب هذا النمط المتسارع من الاقتصاد.

كما كان إعالة المرأة لأسرتها، وتوفير مصاريف جهازها من خلال هذه الحرفة، خاصة إذا كان مصدر الرزق الوحيد للعائلة، وجها محببا للمرأة الغازلة⁽¹⁾، ولعل تنويه المصادر إلى ضرورة حسن معاملة المرأة الممتنعة لحرفة الغزل والنسيج من قبل الرجال المتعاملين معها، والضرب على يد كل من يتعرض لها ولأماكن عملها، دليل على ارتسام صورة التقدير لهن⁽²⁾، في ظل عطالة الرجل أو قلة دخله؛ بما فيهن نساء الزهاد والمتصوفة الورعين، والمنصرفين إلى النسك والتعب⁽³⁾، مصدر نظرة الاحترام للمرأة المشتغلة في هذا الحقل، فهذا أحد زهاد مراکش يشاهد بها وهو "جميل الصورة يلبس عباءة صوف" مصرحا في ذات الوقت أن زوجته تصنع له من صوفها عباءة يلبسها⁽⁴⁾، فالغازلة هنا تأخذ صورة المرأة المطيعة المعاونة لزوجها في الأكل من المال الحلال، والتي نظر إليها بكل احترام اعتبارا لذلك⁽⁵⁾، فالنظرة الايجابية للزوجة من بعلمها الصوفي لم تقتصر على امتهاغها لعمل يدر عليها كسبا من عدمه، بقدر ماهي متعلقة إلى رؤية الزوج لطرائق وأساليب المرأة الزوجة في ترضية زوجها بالكسب الحلال والرزق الطيب ولو قل.

كما تبلور صورة المرأة الغازلة المحترمة في تصريح أزواجهن بذلك، فهذا أبو بكر المرواني الزاهد يؤكد أنه يستعين في معيشتهم بما يعود من بيع غزل زوجته وابنته قائلا: "ولي زوجة وبنت يعود من غزلهما مع ذلك ما

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 128/9. المقرئ، المصدر السابق، 340/3.

² المالكي، المصدر السابق، 260/1. الونشريسي، المصدر السابق، 235/7.

³ بالإضافة إلى الأسباب السالفة الذكر حول ظاهرة احترام النساء لغزل الصوف، أحال بعض الباحثين إلى ارتباطه بفلسفة ما، لا سيما نساء المتصوفة؛ فقد كان حسبهم أول لباس لبسه آدم عقب هبوطه إلى الأرض صوف كبش قيضه الله له، وأمره أن يذبحه ويأكل لحمه ويلبس صوفه، فذبحه وغزلت حواء صوفه، لهذا كان شعار الصالحين لبس الصوف، وعليه فالغزل هو إعادة إحياء الصوف أو الضحية، والمرأة بهذا تقوم بالخلق من خلال الغزل، خاصة لما للصوف من دلالة على الفناء في الله. علي زيعور، العقلية الصوفية ونفسانية التصوف نحو الاتزانة إزاء الباطنية والأوليائية في الذات العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص41.

⁴ ابن الزيات، المصدر السابق، ص117، 106، 96. الغزني، المصدر السابق، ص49. المالكي، المصدر السابق، 50/2. الونشريسي، المصدر السابق، 128/4. عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص216.

⁵ التميمي الفاسي (أبو عبد الله محمد)، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح محمد الشريف، مطبعة طوب بريس، الرباط، 2002، ص144.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

نجد فيه معونة، وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خير كثير⁽¹⁾، وهذه حال الزهاد الذين آثروا الحياة الآخرة وأخذوا من الحياة الدنيا بقدر يسير بمعاونة أزواجهن الصابرات المتعففات.

وامتدت هذه النظرة المحترمة للمرأة الغازلة المتعففة حتى بعد وفاة زوجها الزاهد، رافضة كل مساعدة من الأهل والأقربين، لتفنع بما تجود به حرفة الغزل على ضآلته، ولاغرو أن في جوابها للقريب الذي اقترح مد لها يد العون يمثل صورة الغازلة الزاهدة المتعففة بعد أن سأها "من خلف للنظر في شأنكم؟ فقالت: ليس ذلك لك، فالذي خلفنا له لانتاج معه إلى غيره، فأدركني من جوابها روعة، وعلمت أنها مثله زهدا وصلاحا"⁽²⁾، سيما للأمم العازلة التي ريت ولدها بعد وفاة والده من خلال المدخول البسيط لهذه المهنة ليصبح ذا شأن كما هو الحال عند أبي العباس السبتي⁽³⁾.

وتزداد النظرة بروزا إذا اقتربت بالطبقة الخاصة، فهذه زينب شقيقة محمد بن تومرت المخضومة التي عاشت في ظل الدولتين المرابطية والموحدية، كانت تمتهن غزل الصوف وتبيعه، ومن عمل يدها يُطعم ابن تومرت⁽⁴⁾، ويبدو ذلك مرتبطا إلى حد بعيد بالقداسة التي نالها ابن تومرت من لدن أسرته وعائلته ومحيطه، والتي تركزت إلى تفسير المشاركة في إعالته كنوع من الواجب العائلي إزاء المجهودات الكبيرة التي يقوم وسيقوم بها.

ومن الواضح أن الحث على تعلم الحرف والصنائع تعدى الأمثال الشعبية⁽⁵⁾ إلى الشعراء الذين كانوا يرون في تعلم الحرف عنصرا أساسيا في تكوين شخصية الفرد وتحقيق الرفعة والمجد، وحسبنا في هذا المجال الشاعر أبو بكر البكي (ت560هـ/1164م) الذي رفع من شأن المهن والحرف، والتي كانت الصناعة النسيجية من بينها عند قوله⁽⁶⁾:

قَالُوا الْكِتَابَةُ أَعْلَى خُطَّةٍ رُفِعَتْ قُلْتُ الْحِجَامَةُ أَعْلَى عِنْدَ أَقْوَامٍ

¹ المقرئ، المصدر السابق، 339/3.

² نفسه، 340/3.

³ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 459.

⁴ البيهقي، أخبار، ص42. ابن خلكان، المصدر السابق، 54/5. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p70.

⁵ مثل قولهم: أَخْدَمَ بَاطِلٌ وَلَا تَجْلِسَ عَاطِلٌ. ابن عاصم، المصدر السابق، ص282. وكذا: مَنْ جَلَسَ بِلَا شُغْلٍ، يَطْلُبُ فِي رَأْسِ قَوْلٍ عَظَمَ الرَّجَالِي، المصدر السابق، 331/2. وقولهم: غُبَارُ الْعَمَلِ، أَخْيَرُ مِنْ زَغْفَرَانِ الْعُطْلَةِ. نفسه، 393/2.

⁶ الأصبهاني(عماد الدين الكاتب)، خريدة القصر وجريدة العصر، ج3، تح آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد العروسي المطوي الجليلي الحاج بن يحيى ومحمد المرزوقي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص580.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

لا تَحْسِبُوا الْمَجْدَ فِي طَرَسٍ وَلَا قَلَمٍ الْمَجْدُ فِي صُوفَةٍ أَوْ مِبْضَعٍ دَامَ.

ففي مجال المقارنة هذا يطرح إشكالية هامة تنم عن تقسيم طبقي وفقا للمستوى المهني، فما حاجة المريض المتألم عنده إلى الدواة والقلم، مفاضلا ومفسرا بين أهمية الكتابة التي كانت عصرئذ من المهن الشريفة، وبين باقي المهن، ناصحا ومشددا على اعتبار كل المهن مفيدة كل في مكانها وحسب حاجة كل واحد إليها.

وفي سياق آخر، يطالعنا الرحالة الحسن الوزان على العداء والبغضاء بين المرأة التي تشترك مع النساء الأخريات في حرفة النسيج⁽¹⁾، مما يحيل على صورة دونية انعكست بالسخرية من المجتمع، مصرحا أنهم دائمت الشجار مما يجعل الحاضرين يضحكون على هذا الصنيع⁽²⁾، وغير بعيد أن هذا الانطباع يحيل على إرادة حصر وعزل المرأة في البيت، وتخفيف منابع الوصول إلى أنواع السلطة، وهذا يعني استعماله كقوة محافظة تدعم لا شعوريا الوضع القائم الذي يريده الرجل.

أما موقف الخاصة من محترفات هذه المهنة فينم عن نظرة الأسى لمحترفاتنا باعتبارها مهنة غير مدرة للريح⁽³⁾، سيما لمن عاش حياة كريمة ثم أدبرت عليه الدنيا، فهذا المعتمد بن عباد يتحسر على بناته اللاتي يشتغلن بالغزل للناس، بعد نكبته وسجنه بأغصات بقوله:

تَرَى بَنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرًا

يَطَّأْنَ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَطَّأْ مَسْكَ وَكَافُورًا⁽⁴⁾.

وهو ما يفيد بأن ارتياد المرأة لهذا العمل لا يحتاج إلى كثير خبرة ومهارة في كثير من الأحيان، سيما الموجه للفئات العامة⁽⁵⁾، على اعتبار بنات المعتمد من الطبقة الأرستقراطية التي اعتادت الترف ودعة الحياة، كما أنه

¹ وجاءت الأمثال الشعبية مصداقا لذلك عند قولها: صَاحِبْ صَنْعَتَكَ عَدُوَّكَ، وَلَوْ كَانَ أَخُوَّكَ. الزجالي، المصدر السابق، 359/2.

² الحسن الوزان، المصدر السابق، 239/1.

³ وتبلور هذا التفهم حتى في المشرق، وإن كن أكثر عوزا، فالغزالات كن من أشد الفئات فقرا، ولا شك أن إعتبارهن من الفئات التي تستحق الصدقات ملمح لذلك. ودیعة طه النجم، المرجع السابق، ص233.

⁴ المقرئ، المصدر السابق، 273/4-274. صالح خالص، المعتمد، ص199. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص52.

⁵ على عكس الصناعة الحرفية التي تحتاج إلى مهارة ومران لا تتوفر في باقي الصناعات النسيجية، فلا يمكن والحالة هذه لرب العمل المخاطرة بالمادة الأولية الصناعية اللازمة وتسليمها إلى فتيات لا يتقن صنعها، في ظل قيمتها المادية المرتفعة، ناهيك عن تضرر سمعته إن هو شغل عاملات غير ماهرات تكون نواتج عملهن دون الجودة المطلوبة عند زبائنه الذين يكونون من الموسرين المتطلبين في الغالب.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

يشير من منظور آخر إلى تأفف الخاصة من مزاوله نسائهم لهذه المهنة التي يعتبرونها دون مستواهم، وتركهم في خصاصة مستمرة.

ولعل مراعاة الفقهاء لفقر وعوز العاملات في غزل الكتان من النساء خط آخر من مواقف الشفقة عليهن، فقد استثنت الفتوى النساء الفقيرات منهن أثناء الغزل في رمضان عند شد أحد خيوط الكتان بأفواههن، فيتسرب إلى فمها بعض الملوحة⁽¹⁾، ولاغرو أن ذلك تماشيا مع سماحة الإسلام ومرونته وتقديره لظروف النساء اللاتي اضطرهن الحال لهكذا أعمال في رمضان.

واقترنت الصور السلبية للمرأة في هذه الحرفة مع تعاطي أنواع الغش والتدليس من لدن المحتسب، الذي سلك مسلكا متدرجا، من النهي، ثم الأمر، إلى ايقاع العقوبة، من قبيل " رش الكتان بالماء وجعله في المواضع الندية ليكتسب بذلك رطوبة ويثقل عند الوزن" فيبعنه بسعر أغلى، فضلا عن النسوة اللاتي تخالط الرجال في تجارتها⁽²⁾.

وارتبط الموقف السابق غالبا نتيجة السفور أو المسؤولية عنه ولو بطريق غير مباشر، بما كان يحككه من قمصان وألبسة فاضحة، والتي لبستها بعض النسوة، لا سيما الجواري اللاتي يفضلن القمصان الرقيقة الملاصقة للبدن لإبراز مفاتن أجسامهن⁽³⁾، ويجب التنويه إلى أن هذه الحالات لم تكن عامة، ولم تشمل كل النسوة، بل كانت في مجالس معينة وحالات خاصة ارتبطت إلى حد بعيد بجواري اللذة وحياة الترف في القصور.

ولم تقتصر نظرة الريبة والتوجس لدى المحتسبين والفقهاء بالمرأة المسلمة فحسب، بل تعدتها إلى الذمية، توازيا مع أعمال الطرز التي مارسنها داخل الأسواق والبيوت وفي المعامل الخاصة بهن، وما يحيط بها من معاملات تؤدي إلى الكشف عنهن⁽⁴⁾، وهذا كإجراء وقائي يسعى لاتقاء الشبهات في ظل وسط مهني ذكوري بامتياز، فضلا عن إبعادهن عن حركية وتجاذبات السوق التي من شأنها أن تفضي إلى التحرش بهن ووقوعهن في المحذور.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 422/1.

² ابن عبدون، المصدر السابق، ص 47، 55. ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 87. الجرسيني، المصدر السابق، ص 114، 125.

³ المقرئ، المصدر السابق، 232/2-233. هنري بيرس، المرجع السابق، ص 344.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 49، 47. الونشريسي، المصدر السابق، 197/5.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعي الاقتصادي

هذا وقد رافقت نظرة الاحتقار كل عاطل عن العمل، لهذا كان كل فرد " يَرَبُّاً بنفسه أن يُرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح"⁽¹⁾، ويبدو أن هذه النظرة شملت الرجال والنساء على السواء، وحسبنا في ذلك أن أهالي السوس وأغمات في عصر المرابطين من فرط حبيهم للتحرف والتكسب وتقديسهم للاشتغال، دأبوا على تعليم نسائهم صنائع متعددة، بما فيها النسيجية المناسبة لوضعهم، محذرين هذه الخاصية حتى في صبيانهم⁽²⁾، وقد توجه هذا المفهوم في تبلور حضور متميز لصورة الناصحة في المنطقة وخارجها، نتيجة المران والتجربة إذ أصبح النساء ماهرات في غزل الصوف الذي يعمل منه كل عجيب وحسن بديع مثل " الأكسية الرقاق والثياب الرفيعة ما لا يقدر أحد على عمله بغيره من البلاد"⁽³⁾.

ومن أهم قيم التكافل الاجتماعي التي انطبعت في المجتمع التلمساني والتي كان لها صدى محمود على وجه العاملة في النسيج؛ التضامن الحرفي، فمن عادات نساء تلمسان اجتماعهن فيما " يسمونه التويزة، يغزلن عند امرأة واحدة في منزلها ماتدعوهم لغزله من كتان أو صوف إعانة ورفقا"⁽⁴⁾، لتستمر شهرة النسيج الصوفي في المنطقة إلى أواخر العصور الوسطى⁽⁵⁾ وهو ما يعكس الطابع التعاوني بين أفراد المجتمع، كما تقدم لنا إفادات هامة بشأن بنية الإنتاج وعلاقته السائدة في مجتمعات الغرب الإسلامي.

¹ المقرري، المصدر السابق، 220/1. وانظر محاربة الأمثال الشعبية للعطالة في قولهم: "أَخْدَمُ بَاطِلَ وَلَا تَجْلِسُ عَاطِلًا". ابن عاصم، المصدر السابق، ص282. وكذا: "مَنْ جَلَسَ بِلَا شُغْلٍ، يَطْلُبُ فِي رَأْسِ قَوْلٍ عَظُمَ". الزجالي، المصدر السابق، 331/2. وقولهم: "عُبَارُ الْعَمَلِ، أَخْيَرُ مِنْ زَعْفَرَانِ الْعَطْلَةِ". نفسه، 393/2.

² البكري، المغرب، ص163.

³ الإدريسي، نزهة، 227/2. حميدي مليكة، المرأة المغربية، ص148.

⁴ البرزلي، المصدر السابق، 457/2، 568/2. العقباني، المصدر السابق، ص77.

⁵ Jean Gaoby, le travail de la laine a Tlemcen, RA, V57, 1913, p360.

الفصل الثاني.....صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي

وصفوة القول أن المهن في الوعاء الاقتصادي التي ارتادتها النساء كثيرة ومتنوعة يصعب حصرها، فقد خلفت المهن متعلقة بالخدمات الاجتماعية انطباعات شتى، فمؤشر الطلب المتزايد على بعض المهن يعطي دلالة ذات وجهين، الاحترام من جهة والتذمر من ناحية أخرى، والقابلة والطاهية والماشطة ليست ببعيدة على هذا التوصيف، لا عند المسلمات فحسب، بل حتى عند نساء أهل الذمة، في حين تخمر في وجدان من قامت عليهم المرزعة والمربية سمة الاحترام والتوقير في أغلب الأحيان، ولأن هناك بعض المهن النسائية التي تتعلق بعالم المرأة وكرامتها؛ تتبلور صورة المسكينة المحتاجة عند المتسولة التي امتدت بين العدوتين، أما إذا تعلق الأمر بجمال المرأة، فلا نجد غرابة في تماشي نظرة الإنكار عند الفقيه بالموازاة مع القبول عند المرأة وبعض الرجال في حالات متعددة.

ولعل تراوح نظرات السلطة؛ التي استفادت منها أحيانا، وغضت الطرف عليها تارة أخرى، وواجهتها بقوة في حالات عدة، ملمح شامل يمكن إسقاطه على مختلف صور المرأة داخل المجتمع من المهن النسوية في المجال الترفيهي المواساتي، من قبيل القوادة والعاهرة، وحتى العرافة والنائحة.

وكانت المهن ذات الطابع الإنتاجي معبرا هاما لتتبع صورة المزارعة المكافحة في عالم البادية في المغرب والأندلس على السواء، وخطا آخر لتخمر وجه الفلاحة المتملكة، والتاجرة الحذقة في عصري الطوائف والمرابطين، سواء في المشاريع الصغيرة أو الكبيرة، مع ما يخفيه هذا الحضور من أمارات الانزعاج والتوجس نتيجة مزاحمتها للآخر الرجل، لا عند المسلمات فحسب، بل حتى عند نساء أهل الذمة، ليلعب الإتيقان وتفنن أنامل نسوة المغرب والأندلس، ناهيك عن إعالة العائلة، دورا محوريا في تبلور المرأة الماهرة الشغيلة في الصناعات النسيجية على اختلاف أنواعها، رغم تسرب نوع من الامتعاض نتيجة تدليس وغش بعض مرتادات هذه الوظيفة.

الفصل الثالث

صورة المرأة في الوعي الثقافي والديني

أولاً- في حقل التربية والتعليم

1- المتعلمة

2- المعلمة

ثانياً- في حقل الأدب والعلوم والفن

1- في مجال الأدب

أ- الأحرار

ب- الجوّاري

2- في مجال العلوم

3- الفنانة

أ- الخطاطة

ب- المغنية

ثالثاً- النشاط الديني

1- الفقيهة

2- الصالحة المحسنة

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ما من حضارة ازدهرت إلا وكانت نتاج تضافر جهود الرجل والمرأة معا، إذ لم النساء تكن بمعزل عن رياض الثقافة والمعرفة، وقد حفظت المصادر التاريخية ملامح من صور المرأة إثر فعاليتها الحضارية المتعددة، إثراءً للسجل التاريخي لمنطقة الغرب الإسلامي، كمعلمة ومتعلمة؛ فضلا عن مساهمتها في المجال الأدبي، أو العلوم العقلية والنقلية.

أولا- في حقل التربية والتعليم:

1- المتعلمة:

لم تكن المرأة عصر الدراسة بمنأى عن ساحة النشاط العلمي، بل أخذت بكل ما من شأنه أن يعمل على رقيها، ورفع مكانتها وكسب الثقة والاحترام في المجتمع الذي تعيش فيه، خاصة أن الإسلام دعا إلى العلم والمعرفة والتعلم؛ دون استثناء بين المرأة والرجل، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾⁽¹⁾، و من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: " من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله له طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء"⁽²⁾.

ولقد بلغت المرأة لذلك نصيبا وافرا من العلم والمعرفة؛ مساهمة في بناء صرح الأدب والعلوم وتنسيقه، مما جعل الأستاذ غوستاف لوبون يثني على نسوة الغرب الإسلامي الذين اشتهروا بالمعرفة العلمية والأدبية⁽³⁾.

هذا وقد تنوعت صور المرأة المتعلمة بين الطبقة الخاصة الأرستقراطية والعامة، فرسما على صورة المتعلمة المحظوظة، كان جل نساء بلاط ملوك الطوائف والمرابطين متعلمات، وهو ما ولد نظرة ايجابية لهن، بل لم يُفرّق في الغرب الإسلامي بين الرجل والمرأة في التعليم، فحبهم للتعليم والعلوم متداول " كالغريزة بهم، حتى في

¹ سورة المجادلة، الآية 11.

² أبو داود، المصدر السابق، 3/317 (كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم).

³ جوستاف لوبون، حضارة العرب، تر عادل زعير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 489. سعد بن عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر الطوائف في الأندلس، ط 1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1992، ص 225. في الوقت الذي كانت فيه تعليم الفتاة في أوربا الوسيطة ضئيلا، حتى وإن وجد فقد اقتصر على أبناء النبلاء، أما البقية فقد كان الحكم حازما بحرمانهم من التعلم. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص 257.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

نسائهم وصبيانهم"⁽¹⁾، بل رأوا من حسن التربية أن تتفقه المرأة في دينها وتأخذ بشيء من الأدب⁽²⁾، مما جعل هذا العصر يصدق بالمتعلّقات الذين كان لهم شأن، بعد أن صقلت شخصيتهم، وتوسعت آفاق تفكيرهن، سواء كن شاعرات، أو أدبيات، أو عالمات.

أما البنات من أبناء الأمراء والخاصة، فكان تعليمهن يتم داخل القصور في أغلب الأحيان، ويتولى ذلك سيدات من أهل البلاط أو بعض المؤدبين المشهود لهم بالصلاح والتقوى، فهذا الأمير المعتصم بالله بن صمادح⁽³⁾، يتبلور عنده وجه البنت المتعلمة الذكية، فاعتنى بابتها المعروفة بأمر الكرم وقام بتأديبها؛ لما توسم فيها من كياسة وفطنة⁽⁴⁾ منطلقا من رغبة شديدة للمرأة في الإقبال على التعليم وطلب العلم ومحترما في الوقت ذاته الملكات التي ظهرت عليها. ويفهم في إشارة إلى صورة الجارية المهمشة في حقل العلوم، في وقت بلغ فيه اهتمام وحرص مجاهد العامري على تيسير نشر العلم في الجهات التابعة له شأنًا عظيمًا "فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلمانته"⁽⁵⁾، وعلى الرغم مما تحمله هذه الإشارة من مبلغ الاهتمام بالعلوم وإدخال الرعاية في هذه الحركية، إلا أنها تستوقف الباحث وتجعله يشير إلى أن الجوّاري كن حسبه مستثنات على عهده، أو على الأقل لسن من أوليات ارتياد العلم والمعرفة، على خلاف روح العصر الذي برزت فيه جوار عدة وفي فنون كثيرة، أو أن هذا الاستثناء والتلميح كان رسدا وسبقا لمنقبة من مناقب مجاهد.

وقد عني مجتمع الغرب الإسلامي بتعليم أبنائهم وحرصوا أشد الحرص على مكافحة الجهل والتخلف والبطالة بينهم حتى وصفهم المقرئ بقوله: "وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز

¹ المراكشي، وثائق المرابطين، ص 504. المقرئ، المصدر السابق، 4/166.

² القابسي (أبو الحسن علي بن محمد بن خلف)، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، منشورة ضمن كتاب: التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، مصر، 1968، ص 293. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 255. سهى بعيون، إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ط 1، دار المعرفة، بيروت، 2008، ص 451.

³ هو المعتصم بالله الواثق بفضل الله أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح التجيبي ثاني حكام طائفة المرية من بني صمادح في عهد ملوك الطوائف تولى الحكم عام 443هـ خلفا لأبيه مهين بن صمادح وبعد أن سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة عام 478هـ، اتفق معظم ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين وهو الأمر الذي لم يكن ابن صمادح من المتحمسين له، توفي في أواخر 484هـ. انظر ابن الأبار، التكملة 2/69-70.

⁴ ابن سعيد، المغرب، 2/202. سليمان القرشي، صورة المرأة في الشعر الأندلسي، منشورات دار التوحيد، الرباط، 2015، ص 20. محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ط 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982، ص 446. كرراز فوزية، دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن الخامس إلى منتصف القرن السابع الهجري، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 2006، ص 62.

⁵ ابن الخطيب، أعمال، 218.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

بصنعة... وهم يقرؤون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم⁽¹⁾ أو ما يعرف بالرغبة والتعليم الطوعي في المصطلح المعاصر، الذي لاشك أن مردوده يكون أكبر وأفضل من أي تعليم آخر.

ومما تجب الإشارة إليه أن وضع المرأة التعليمي في الأندلس كان يفضل كثيرا على غربتها في إسبانيا النصرانية، تماشيا مع موقف إلزامية الأخذ بيد المتعلمة، حيث كانت الفتيات يرسلن إلى المدارس الأولية منذ الصغر ويتعلمن ما كان يدرس الصبيان، ثم يواصلن التعليم العالي ويحصلن على الإجازات نفسها التي يحصل عليها الرجال، بل ويعملن في بعض الدواوين مثل ديوان الكتابة⁽²⁾، خاصة بعد أن نادى الفقهاء بضرورة تعليم المرأة، فقد ألزم القابسي مثلا تعليم المرأة لضرورة معرفتها بالدين والعبادات، مع التحفظ على صورة المتعلمة المتعاطية مع الشعر وما ينحو نحوه⁽³⁾، ولاشك أن الفقهاء بالوزن الذي يشكلونه في المجتمع، وصوتهم المسموع، عامل مخفز على سيروية تعلم المرأة ولو كان مرتبطا في الغالب بالتعليم الديني.

ثم أفلا يدل استثمار العنصر النسوي ليكن مثقفات على وجه مرموق للمرأة المتعلمة والمثقفة؟!، في زمن زاد فيه الاعتناء بالعلوم وتوج فيه المتعلمون دون اعتبار للجنس؛ بأعلى درجات الاحترام والمكانة الرفيعة لهن، ومنظور مشرق للمتعلمة المثقفة التي يبلغ فيها التزايد بالأموال درجة كبيرة، ففي المصنفات التاريخية نماذج لخلفاء ورجال فكر وتجار رقيق حرصوا على تعليم إمائهن مختلف الآداب والفنون والعلوم، بغض النظر إلى منطلقات تأديب إمائهن والتي تراوحت بين الحوافز الدينية والقربى إلى الله عز وجل؛ إلى المصالح المادية التي طغت في مراحل متعددة، لا سيما بعد تدفق سيل الجوّاري على حواضر العالم الإسلامي؛ فابن الكتاني المعلم يصف تعليمه القيّان بقوله: "في ملكي الآن أربع روميات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عاملات"⁽⁴⁾، ولاغرو أن هذا التهافت عليهن رغم ارتفاع أثمانهن يشكل دليلا ملموسا على صورتهم المحببة، فهذا أمير السهلة ابن رزين (ت436هـ/1044م) اشترى إحدى القيّان المثقفات المذكورات بثلاثة آلاف دينار⁽⁵⁾، تأكيدا لسعيه

¹ المقرئ، المصدر السابق، 1/220-221. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص209.

² ابن بسام، الذخيرة، 3/320. ابن بشكوال، كتاب الصلة، 2/325. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص74. حياة قارة، المرجع السابق، ص52، 113.

³ القابسي، المصدر السابق، ص293. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص20. كرزاز فوزية، المرجع السابق، ص85.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، 3/320. حياة قارة، المرجع السابق، ص173. محمد المنوني، ثقافة الصقلية، مجلة المناهل، العدد31، السنة11، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 1984، ص139.

⁵ ابن بسام، نفسه. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص227. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص17.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

على توقعهن في بلاطات الأمراء ووجهاء القزم والظفر بأسباب الشهرة الذي يعود عليه بموفور الفائدة، ورغم أن تعليم الجوّاري كان يهدف أساساً لرفع أثمانهن، فإن ذلك لم يمنع بعضهن من المساهمة في الإنتاج الأدبي والفني، وليس ذلك بمستغرب في بيئة الأندلس التي تختلف عن غيرها من المجالات بالغرب الإسلامي عصرئذ، فتقلبات ظروف الدولة بين الحروب والفتن تارة، والسلم والاستقرار طورا آخر، أقول كانت هذه الظروف عاملاً منشطة لصورة المرأة المتعلمة على اختلاف أشكالها.

كما نجد نساء حريصات على طلب العلم الشرعي ونحله من أعلامه وشيوخه، رسماً على صورة المتعلمة المثابرة، فهذه طونة بنت عبد العزيز (ت506هـ/1112م) التي أخذت عن أبي عمر بن عبد البر المحدث (ت463هـ/1071م) كثيراً من كتبه وتوابعه، وعن العذري الدلائي (ت478هـ/1086م) في كثير من العلوم الشرعية⁽¹⁾، رغم شيوع فكرة عند بعض المربين تحيل على صورة دونية للمتعلمة؛ مفادها أن البنت لها نمط مختلف عن الولد في التربية والتعليم، حيث يقول نصر الدين الطوسي "ينبغي منعهن من تعلم القراءة والكتابة وكل الفنون التي لا تكون محموداً من النساء، ويجب تزويجهن لكفؤ عندما يصلن لسن البلوغ"⁽²⁾، وليس ببعيد أن ارتباط هذه الصورة القدحية للمرأة بذلك الفهم الذي يقوم على الهدف من تعليم المرأة من حيث قصّره على تنبيه عقلها وفقط، لتعلق لها المسؤوليات فيما بعد خاصة في حياتها الأسرية فيما بعد⁽³⁾.

كما يتردد اسم إحدى النساء الماهرات في القراءات والمعروفة بريحانة؛ والتي ارتبط تعليمها بفضاء المسجد الذي يمثل المؤسسة العامة التي كانت مقصد كل فئات المجتمع، لأنها مفتوحة أمام كل الناس، بغض النظر عن اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم وفتاتهم الاجتماعية، وما الإجازة التي حصلت عليها إلا نموذج صادق على صورة المتعلمة الخدقة العفيفة التي بلغت درجة متقدمة من الفهم والاستيعاب من وجهة نظر شيخها، فقد كانت تقرأ على يد أبي عمر عثمان بن سعيد المقرئ (ت444هـ/1052م) وتحضر مجالسه خلف ستر؛ مشيراً إليها بقضيب بيده إلى المواقف، فأتمت الأحرف السبعة عليه بهذه الطريقة وطلبت منه الإجازة فمُنِحَتْها⁽⁴⁾،

¹ ابن بشكوال، المصدر السابق، 347/2. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 455/3. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 522/1. سهى بعيون، المرجع السابق، ص457.

² محمد الأمين بلغيث، المصدر السابق، 522/1.

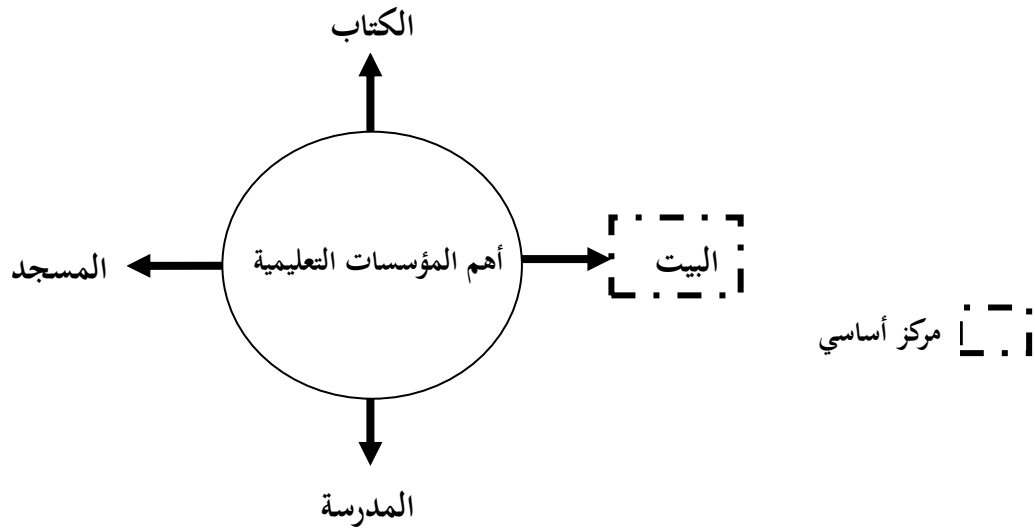
³ الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص92.

⁴ الضبي، المصدر السابق، 732/2. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص226. حياة قارة، المرجع السابق، ص52. محمد المنوني، المرجع السابق، ص199.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

كما وسمت أم شريح المقرئ بالاجتهاد والمثابرة في نظر زوجها أبي عبد الله محمد بن شريح(ت476هـ/1084م) الذي أخذت عليه القراءات⁽¹⁾، ويمكن التخمين والحالة هذه أنهن كن يتعلمن في بيوتهن كمرحلة أولى من طرف آبائهن أو أسيادهن أو أزواجهن أو أحد الأقارب، لينتقلن في طور لاحق إلى التعلم على يد الشيوخ إما بصحبة أحد محارمهن أو أنهن كن يسمعن روايات الشيوخ بشكل غير مباشر، وفي الشكل التالي ما يبين ذلك:

شكل رقم12: أهم المؤسسات مدار حضور صورة المرأة متعلمة



هذا وقد بلغ تعليم المرأة حرة أم جارية حدا واسعا من الانتشار، يمكن أن نستشفه مما ذكره المؤرخون عن أخبار قرطبة، ولاشك أن جزءا منه استمر لعصر الدراسة، حيث قالوا: "كان أهل الرض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا في نواحي قرطبة، فكيف بجميع جهاتها"⁽²⁾، فإذا كان المراكشي يعجب من هذا العدد الضخم في ناحية واحدة من نواحي قرطبة، والذي يعبر عن تفوق في التعليم والدرس، فكم سيكون عدد النساء المتلمات في الأندلس كلها؟.

ولاشك أن الاعتراف بتفوق الطالب على أستاذه، لا سيما إذا كان الطالب من جنس النساء السوداوات، مؤشر قوي على وجه الإجلال لهن، فقد اشتهر على إشراق السوداء العروضية البلنسية(ت450هـ/1058م) التي أخذت عن مولاها أبي المطرف عبد الرحمان بن غلبون

¹ ابن الأبار، التكملة، 236/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 427/5.

² المراكشي، المعجب، ص 372. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 199-200. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص182.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

الكاتب(ت443هـ/1051م) أنها ما فتأت أن" فاقتة في كثير مما أخذته عنه، وأحسنست في كل ما تناولته"⁽¹⁾، فرغم أنها جارية، مع ما تحمله بشرتها السوداء من عوائق تقف حائلا في الكثير من المجتمعات دون تعلمها، والاقتصار على الخدمة والعمل في الغالب، والذي يظهر في الوقت ذاته إرادة قوية من جانبها، وتفهما لموهبتها وشغفها من سيدها، والذي يتوافق مع ما يقره ديننا الحنيف من تشجيع العلم والتعليم.

ولم يقتصر نسوة المنطقة على تلقي العلم في بلدهم، بل تطلّعوا إلى الحواضر الأخرى على امتداد الغرب الاسلامي؛ وصولا إلى المشرق، لتشبع نهمها من العلم والمعرفة، ولتزيد في البحث والتحصيل، فشدوا الرحال في طلب العلم للقاء العلماء والاستفادة من خبرتهم، فكانت انطلاقتهم في رحلات علمية إلى مختلف المناطق، وقمين بالإشارة إلى فوائد الرحلة ما قاله ابن خلدون عن: " أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعلّما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات من المباشرة والتلقين أشد استحكما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"⁽²⁾، ولاشك أن هذه الرحلات العلمية التي قامت بها النسوة، بالإضافة إلى ما اكتسبه من علوم أولية من مناطقهم؛ عملت على تصنيف صورهن في مستودع العالمة المجتهدة، كطالبة للعلم قارعت الرجال، مما ولد لهن امتيازاً عن غيرهن، وأثر شرعي على مناطقهن، وليست ابنة فائز القرطبية، زوج أبي عبد الله بن عتاب، ببعيدة عن التوصيف السابق، فبعد أخذها عن أبيها فائز علم التفسير واللغة والعربية والشعر، وعن زوجها الفقه والرقائق؛ يمت صوب دانية للقاء أبي عمرو الداني المقرئ(ت444هـ/1053م) " فألفته مريضا من قرحة كانت سبب منيته، فحضرت جنازته، ثم سألت عن أصحابه فذكر لها أبو داود بن نجاح(ت496هـ/1103م) فلحقت به بعد وصوله إلى بلنسية، فتلت عليه القرآن بالسبع في آخر أربع وأربعين وأربع مئة، وحجت، وتوفيت بمصر تمام حجها قافلة إلى الأندلس سنة ست وأربعين وأربع مئة"⁽³⁾، وما تقبل تدريس الأب لابنته، والزوج لزوجته، إلا تمثل فريد للعلاقة داخل الأسر العلمية التي تقوم على التكافؤ العلمي والتآزر، والتي تدحض في نفس الوقت الافتراءات التي تروج لكراهة وعرقلة الرجل لتعليم المرأة، مع أهمية معطى

¹ ابن الأبار، التكملة، 232/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 410/5. المقرئ، المصدر السابق، 171/4. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص226. عبد العزيز بن عبد الله، المرأة المراكشية، ص266. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 523/1. حياة قارة، المرجع السابق، ص57. محمد المنوني، ثقافة الصقالية، ص193. هنري بيرس، المرجع السابق، ص238.

² ابن خلدون، مقدمة، 1120/3.

³ ابن الأبار، التكملة، 232-233. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 426/5. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص21. خوليان ربيز، التربية الإسلامية في الأندلس، تر الطاهر أحمد مكي، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994، ص162. حياة قارة، المرجع السابق، ص58. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص56.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

الرحلة التي تدلل لاحالة على نفس حضاري، وشجاعة وجرأة للمرأة في هذا المضمار، لما تحققه الرحلة من تقاف بين العلماء، يؤدي لاحالة إلى تطور المعارف، رغم إكراهات الظروف من المسافات والذهنيات.

هذا وقد كان باب التعليم مفتوحا أمام المرأة، دون اعتبار للطبقة الاجتماعية ولا موقعها من العبودية، ولا الدين؛ إذ تعدى الموقف المحفز للمرأة الراغبة في التعلم إلى أهل الذمة من اليهود، وتحيي قسمونة بنت إسماعيل بالأندلس من ألمع النماذج على ذلك، إذ سعى والدها الشاعر إلى الاعتناء بتأديبها مما يحيل إلى صورة راقية للمرأة المتعلمة من لدن رب الأسرة⁽¹⁾، فأخذت بنصيب وافر من التعليم، حتى برعت في الشعر والموشحات⁽²⁾، ويتمشى مع هذا الفهم ما أشارت إليه وثائق الجنيزة عندما تتعرض إلى وجود " بعض النسوة المتعلمات، وفي حالات نادرة من الخطابات قرأنا حديثا نسائيا عذبا رقيقا ومعبرا"⁽³⁾، خاصة في ظل بيئة عصر الطوائف التي تحتفي بالمتعلمات وما تجود به قرائهن من شعر كرافد مهم وأساس من روافد الثقافة والفن، ومصدر من مصادر الارتزاق والرفاه، والظاهر أن اختلاط يهود الأندلس بالمسلمين، ورؤيتهم لمكانة المرأة وحقوقها في الشريعة الإسلامية، وفي المجتمع الإسلامي، قد أثر في عقلية يهود الأندلس، ودفعهم للتحرر من بعض قيود شريعتهم المهينة للمرأة، والبحث عن مخرج لهم من تلك القيود، وقسمونة هي المثال عن الفتاة اليهودية التي حظيت بالتعلم من قبل أبيها.

ولاشك أن نسوة البلاط أخذن بنصيب وافر من التعليم، جعلهن يبرعن في العديد من العلوم لا سيما الأدبية منها، وما الاهتمام والانبهار بثقافتهن والمستوى العلمي الذي وصلن إليه إلا انعكاس لتدريسهن وتكوينهن الرصين، والذي يبدو أنه أخذ على مؤيدين أفذاذ ثقات، ففي الدولة المرابطية كانت هناك تميمة بنت

¹ انطبعت عموما صورة ازدرائية للمرأة المتعلمة، فالبنيت اليهودية تبعا لمصادر التشريع الديني ووجهات نظر فقهاء الشريعة اليهودي غير ملزمة بضرورة المشاركة في القداس، وهو الموضوع الأساس للتعليم التقليدي، فهي معفاة من تعلم التوراة أو التلمود، وتتم تربيتها إلى غاية الزواج المبكر في الوسط العائلي عن طريق الاتصال بالنساء الأخريات، فهي بذلك لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، إلا في الحالات الاستثنائية النادرة مع العائلات الارستقراطية. أتينجر صموئيل، اليهود في البلدان الإسلامية، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، مجلة عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص65. بل تشدد بعض الخاضعات واعتبروا أن "كل من يُعلم ابنته التوراة، فكأنما يعلمها السخافة". خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص289.

² السيوطي (جلال الدين)، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تح عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، 1986، ص74. المقرئ، المصدر السابق، 530/3. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص345. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص20.

³ جواتين، المرجع السابق، ص206.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

يوسف بن تاشفين أخت علي بن يوسف وتكتني أم طلحة تطلب العلم وتحفظ الشعر وتجيده⁽¹⁾، فقد وجدت بالغرب الإسلامي أسباب أقل مما كانت عليه في البلاد الأخرى؛ يمكن أن تقف عائقا دون تقدير تعليم المرأة، بل بروز مثقفات لذلك.

كما اهتمت الأسر الموسرة بالأمة؛ بتشجيعها على الخوض في غمار العلوم توازيا مع خط القبول لتعلمهن، كالعلياء البلمسية التي شاع ذكرها أواخر العصر المرابطي، حيث كانت مملوكة لأحد الأعيان فاهتم بها وأدبها وعلمها، ففاقت بنات جنسها⁽²⁾، بل كان التعليم في كثير من مراحل فترة الدراسة مشاعا بين الناس، ومتيسرا للفقراء منهم، حتى ندر في الأندلس مثلا أن يرى المرء طفلة أو طفلا بلغ الثامنة عشرة ولم يتزود بالعلم الكافي، على الأقل لتأهيله للقراءة والكتابة⁽³⁾، وبهذا المفهوم لم ترتفع المرأة عموما؛ والأمة خصوصا لأشغال البيت فحسب، وإنما قد اهتمت بها الأسرة وأعطتها مكانتها واعتبرتها فردا من أفرادها فوجهتها للتعليم، في موقف ينم عن التكافل الاجتماعي على المستوى الأصغر من حلقة المجتمع والمتمثلة في الأسرة، وصولا إلى المجتمع ككل.

ولا يمكن التكلم عن التعليم دون التعرّيج على ما كان للبيت والأسرة من دور محوري في تبلور صور المتعلمات المجدات والمتفانيات في طلب العلم، حيث يقوم الآباء عادة أو أحد الأقارب والمعارف بتلقين الصبيان في مراحلهم الأولى بعض آيات القرآن والأشعار⁽⁴⁾، إلى أن يتفوقن، ومن شهيرات الأندلس في عصر المرابطين التي ينبض معها وجه المتعلمة الذكية، وترفد صفاتها بموازة النباهة؛ أم هانئ بنت القاضي عبد الحق بن غالب، وكانت حاضرة النادرة سريعة التمثل، فقرأت⁽⁵⁾ وتأدبت، بعد أن عني بها والدها عناية فائقة⁽⁶⁾، ناهيك عن نزهون بنت القلاعي (ت540هـ/1146م) التي برعت في الشعر وغيره من الفنون بعد أن أخذت

¹ ابن الأبار، التكملة، 4/236. ابن عذارى، المصدر السابق، 4/57. ابن القاضي، 173/1-174. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص357. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص316. محمد الأمين بليغ، الحياة الفكرية، 548/1-549. عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2، دد، 1960، ص74.

² أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 3/457. حياة قارة، المرجع السابق، ص68.

³ سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، 210.

⁴ محمد عبد الحميد عيسى، المرجع السابق، ص216. حياة قارة، المرجع السابق، ص49.

⁵ وهي قراءة الطالب على الشيخ حفظا من قلبها، أو من كتاب تنظر فيه وهو يسمع. حياة قارة، نفسه، ص62.

⁶ ابن الأبار، التكملة، 4/238-239. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 5/406. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 3/457. المقرئ، المصدر السابق، 4/292. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص147.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

عن شيوخ عصرها ونالت إعجابهم⁽¹⁾، على الرغم من نظرة الاستصغار من تعلمها عند فئة الشعراء أنفسهم⁽²⁾، إضافة إلى زينب ابنة عباد بن سرحان(ت حوالي 580هـ/1184) التي روت عن أبيها، وأجاز⁽³⁾ لها⁽⁴⁾، كما وسمت التراجم حمدة بنت زياد بن بقي العوفي المؤدب الوادي آشبة، على كونها أهم النساء المتأدبات المتصرفات انسجاماً مع وجه المتعلمة المحبب، ولاشك أن لمسة أبيها المؤدب تركت عليها هذا الأثر؛ وهذه الصفة التي تدلل على حرصها وتفوقها في طلب العلم⁽⁵⁾، لا سيما أن والدها كان ذا شهرة واسعة التأديب والتدريس، فكانت ابنته الموهوبة من خواص من استفاد من هذه الخبرة.

وما تلقي المرأة للعلوم والآداب ومختلف الفنون عن مختلف الجهات والأطراف والفاعلين في هذا الحقل إلا نموذج آخر لصورتها الحيوية والحركية، فتغرف عن أبيها كما عن أقاربها ناهيك عن الشيوخ، من كل هؤلاء أخذت قدراً قليلاً أو كثيراً من المعرفة، و تأتي كتب التراجم بإشارات على قلتها تنهض مؤشراً على صور دينامييتها التعليمية، والتي تتماشى مع التحصيل في ذلك العصر؛ والمركز على العلوم النقلية، فهذه الغرناطية مسعدة بنت أبي الحسين(ت بعد 570هـ/1174م) قد أخذت وروت عن أبيها وأخيها وزوجها في الفقه المالكي والأدب وغيرها من الفنون⁽⁶⁾ مما جعلها تتبوأ مكانة خاصة في وجدان فقهاء الغرب الإسلامي، وانعكاساً في الوقت نفسه لسمت وسمات ومسؤوليات العلماء التي تفرض عليهم التصدر لمجالس التدريس، فطالما كان أهل العلم كهفا للناس وملجأً.

ومهما كان موقف بعض العلماء من تربية البنات؛ تتردد أسماء لامعة مثل فاطمة بنت عبد الرحمان بن محمد بن حيوة الوشقي، التي يرتسم معها وجه طالبة العلم الشرعي المجتهدة الحريصة على لقاء مشاهيره، فقد

¹ ابن الأبار، المصدر السابق، 239/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 425/5. المقرئ، المصدر السابق، 297/4-298.

² ابن الأبار، نفسه. ابن سعيد، المغرب، 121/2. ابن عبد الملك، نفسه. ابن الخطيب، الإحاطة، 344/3. المقرئ، نفسه.

³ الإجازة عبارة عن إذن الشيخ لتلميذه أن يروي عنه مروياته أو مؤلفاته على سبيل بقاء التأليف ودوامه. حياة قارة، المرجع السابق، ص 63.

⁴ ابن الأبار، التكملة، 241/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 416/5.

⁵ ابن الأبار، نفسه، 242/4. ابن سعيد، المصدر السابق، 145/2. ابن عبد الملك، نفسه، 415/5. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق،

456/3. المقرئ، المصدر السابق، 287/4. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 524/1. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص 242.

⁶ ابن الأبار، نفسه، 240/4. ابن عبد الملك، نفسه، 424/5. أبي جعفر الغرناطي، نفسه، 460/3. محمد الأمين بلغيث، نفسه، 526/1.

حياة قارة، المرجع السابق، ص 55.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

سمعت⁽¹⁾ من أبي داود المقرئ بدانية في سنة تسعين وأربع مئة⁽²⁾، كما يفهم أن فاطمة بنت أبي علي الصدي(ت بعد 590هـ/1194م) أنها تلقت قدرا من العلم ونشطت لذلك، فنشأت صالحة زاهدة تحفظ القرآن وتقوم عليه وتذكر كثيرا من الحديث⁽³⁾.

لكن هذه الصورة المشرقة للمتعلمة والتي تبدو أكثر حضورا في المجال الحضري، بدأت في الأفول؛ لتسبح لظهور وجه الأمية غير المتعلمة في مجال البادية، فقد أشارت النوازل إلى مسألة البنات غير المتعلقات اللاتي يستغل جهلهن بالقراءة والكتابة في هضم حقهن في الميراث، فقد سئل ابن رشد عن "رجل توفي في قرية كان له فيها ملك وفي غيرها، فاستغل ابنه الملكين جميعا مدة ثلاثين عاما بعد وفاة أبيه، ثم قامت عليه أخته تطلب حظها فيما كان لأبيها بالقرية التي توفي بها، فاستظهر عليها أخوها بعقد تضمن ابتياعه منها ذلك الملك فقالت: إنما بعت منه حظي من أملاك الموضع الآخر، فسئلت البينة، فقالت: نذكر البيع ولا نذكر في أي ملك، ونحن أميون لا نقرأ ولا نكتب..."⁽⁴⁾ مما يشير إلى انتشار الأمية في الوسط النسوي بالبادية⁽⁵⁾، ولعل متطلبات الحياة بالريف ومصاعبها تنأى عن اهتمام النسوة بتعلمهن.

1-2- المعلمة:

تسجل المصادر التاريخية، ككتب التراجم والفهارس، حضور صور عديدة للمعلمة، وبرز أسماء العديد من المؤدبات والمتعلقات اللواتي تفرغن للتعليم والتربية، وأسهم بنصيب وافر في توعية النساء، وإرشادهن لقيمة العلم. فمن منطلق إيلاء الملوك والأمراء تعليم أبنائهم وتنشئتهم نشأة خاصة تليق بما ينتظرهم من أعباء ومسؤوليات سياسية مستقبلا، يندرج وجه حظوة المعلمات عند الخاصة بأدوارهن اتجاه أبنائهم، فكما قيل "على قدر جودة التعليم وملكة المعلم، يكون حذق المتعلم"⁽⁶⁾. وللنساء في هذا الحقل دور كبير في تعليم أبناء

¹ يعتبر السماع من الشيخ، سواء كان يلقي الدرس معتمدا على محفوظاته، أم كان يقرأ من كتاب بين يديه، وسواء أكانت الطالبة تستمع دون تدوين، أم كان سماعها مصحوبا بتدوين المادة العلمية التي يقدمها الشيخ؛ من أبرز المناهج العلمية التي اتبعت في الغرب الإسلامي، لأنها تعتمد على اللقاء المباشر بالشيخ. حياة قارة، المرجع السابق، ص 60.

² ابن الأبار، التكملة، 237/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 421/5. محمد عبد الحميد عيسى، المرجع السابق، ص 368.

³ ابن الأبار، نفسه، 243/4. ابن عبد الملك، نفسه، 421/5. محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، 521/1.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 1566/3. الونشريسي، المصدر السابق، 251/6.

⁵ أوردت الأمثال الشعبية نماذج تحيل على نظرة دونية لتعليم المرأة في هذا المجال، ساهمت ولاشك في زيادة أميتها، منها قولهم: "ققر العويد، تقرأ وتفسر" الزجالي، المصدر السابق، 416/2.

⁶ ابن خلدون، مقدمة، 856/2.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

هذه الفئة مختلف فروع العلم المعروفة وقتئذ، من القرآن وما يتصل به من علوم، إلى الشعر والآداب، إذ كان تعليمهم يتم داخل القصور، ويتولى ذلك سيدات من أهل البلاط أو بعض المؤدبين المشهود لهم بالصلاح والتقوى، وحسبنا في ذلك أنهن استطعن أن يخرجن للوجود عملاقا من عمالقة الفكر مثل ابن حزم، ولعل إقراره الذي يستشهد به في تأكيد صورة المعلمة المتميزة ومهاراتها المتنوعة منبر لهذه النظرة المتميزة، فقد أحطن بالقرآن وعلومه؛ إلى معرفتهن للأدب وبراعتهن فيه وإجادتهن لألوانه، ثم تواصل هذا التأثير الذي استمر معه طوال حياته عندما يقول: "وهن علمني القرآن وروينني كثيرا من الأشعار ودرينني في الخط"⁽¹⁾، مع ما تستلزمه هذه المهمة الثقافية عند الخاصة، من الخلق والتدين، وهو شيء مألوف ومتوقع من هذه الفئة التي تسعى لضمان أفضل تعليم وتربية لأبنائها، وما تنطوي عليه من نظرة خاصة لها لأنها ستعكس لا محالة في خلق وتدين العقب⁽²⁾، وليس ببعيد أن هؤلاء المعلمات اللواتي تولين تربية وتعليم أبناء الخاصة قد ساهمن في تعليم بناتهن من باب أولى، فهل كانت الفئات الأخرى من المجتمع، والعامّة بالخصوص، على نفس النظرة من الإكبار للمعلمة؟.

وللاجابة على ذلك أستأنس بالأمثال الشعبية التي تبلورت لديها نظرة الاستهزاء بتعليم المرأة، فترى أنها لا تليق أن تكون معلمة، وحسبنا في ذلك بعض الأقوال التي عبرت بصدق عن تمثيلات هذه الشريحة نحو النساء بقولها: "فقر العويذ، تقرّ وتفسّر"⁽³⁾، ولاشك أن هذه الصورة المبثوثة انتقلت من جيل لآخر عبر فعل التنشئة الاجتماعية، والذي تشكل الأمثال الشعبية أحد روافده الأساسية، كما يبدو هذا التفسير شديد الارتباط بثلاثية الفقر، والستر، والحرمة، التي شكلت المرأة عمادها الأساس، ناهيك على ما يشتم من طغيان النظرة الذكورية من فئة قليلة الثقافة في هذا الموقف وجحد كل تفوق نسائي، خاصة عندما بدأ المجتمع في النكوص، وإلا كيف يفسر بروز حالات تعرض لها الموضوع كان لهن وزن في الحياة التعليمية التعليمية.

وتماشيا مع الطرح السابق، ومع الافتقار إلى المعلومات الكافية التي تسمح بتكوين معرفة حول تعليم المرأة بالبوادي، يمكن مقارنة الموضوع على فرض بقاء بغير البنية السوسيو ثقافية للمنطقة، وتأني فتوى أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت1388/790م) معينا لطرح نظرة قطاع هام من المجتمع حول المعلمة، إذ يلمح

¹ ابن حزم، رسائل، 1/166. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص21. محمد زبير، المرأة في المجتمع الأندلسي، مجلة المناهل، العدد 44، السنة

التاسعة عشرة، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 1994، ص115

² محمد عبد الحميد عيسى، المرجع السابق، ص454.

³ الرجال، المصدر السابق، 2/416.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

الركون إلى تقبل إشراف المرأة على التدريس في ثوب ملفوف من الامتعاض والتحوط، عندما يقول عن المرأة المعلمة: "إذا علمت النساء والبنات ما لا بد لهن منه في صحة الصلاة فحسن، لكن ذلك كله بشرط أن تكون هذه المرأة عارفة بالقرآن كيف تقرأه وتقرئه، وتؤديه كما أمر الله به، من غير لحن ولا تحريف ولا تبديل"⁽¹⁾، ليختم في الأخير هذه الفتوى بإشارة تكرر منهج التحوط سالف الذكر عند قوله: "لأن الغالب على النساء، بل على كثير من الرجال، أنه لا يعرف يقرأ القرآن حق قراءته، فهذه المرأة الغالب عليها الجهل بذلك كله"⁽²⁾، وهذه النظرة المبثوثة في الفتوى تحيل إلى مسايرتها للوضع العام الذي يرى الأولوية في تعليم المرأة ما ينهض بتعليمها الشرعي، كما يدل على الاهتمام بالتعليم الديني، وما تعلق منه بالقرآن، والحرص على بلوغ المطلوب من الإجابة في التعلم والتعليم.

ومن أشهر المعلمات النساء إشراف السوداء العروضية، ولعل الشهادة الرجالية وطابع الانبهار الذي بدا على علم من أعلام العروض يرسم خطا لتوقفها واحترامها في السلطة⁽³⁾؛ كما الوسط العلمي⁽⁴⁾، فنجدها تنقل خبرتها العلمية وإلمامها الشامل فيما يخص علم العروض⁽⁵⁾ إلى الفقيه سليمان بن نجاح(ت496هـ/1103م) الذي يؤكد أنه بنفسه أخذ "عنها العروض وقرأت عليها النوادر لأبي علي والكمال لأبي العباس

¹ حياة قارة، المرجع السابق، ص73.

² نفسه.

³ يشير المؤرخ عصام سالم سيسالم أن العروضية أشرفت على تأديب أسماء بنت مجاهد العامري، وهذا ما يوحى بوجه الرقي والتميز للمعلمة المذكورة من لدن الأمراء والملوك، حتى عهد لها بتربية وتأديب أولادهم، عصام سالم سيسالم، المرجع السابق، ص 521. لكن عند الرجوع الى مصنف التكملة الذي أخذ منه المؤرخ لا نجد هذا التوصيف، بل أشار الى بقائها تحت كنف أسماء إلى أن وافتها المنية. ابن الأبار، التكملة، 232/4، والذي لا يقلل من احتمال تدريسها لأسماء بسبب شيوع ذكرها من جهة، واعتماد الأمراء والملوك على معلمات نوابغ في تدريس وتثقيف أولادهم.

⁴ وهو نفس الانطباع في العراق حول شهدة الإبري(ت574هـ/1178م) التي كانت معلمة متميزة، يؤمها جمع من الرجال من كل حذب وصوب. وجدان حسن العزايزة، المرجع السابق، ص 124.

⁵ عمل بعض النسوة كاتبات في قصور الملوك والأمراء قبل فترة الدراسة نتيجة حذقهن، فقد اشتهرت مثلاً مزنة (ت358هـ/968م) بوصفها كاتبة الناصر لدين الله، في حين برزت الكاتبة لبنى (ت374هـ/984م) على عهد ولده الحكم. ابن بشكوال، المصدر السابق، 2/ 323. وعلى الرغم من ذلك، ومع امتلاك إشراف مؤهلات تساوي أو تفوق أحيانا الكاتبات المذكورات، إلا أنها لم تكن كاتبة لأحد ملوك الطوائف، ويمكن التخمين أن كونها جارية لأحد الكتاب وليس أمير أم حاكم مقاطعة كان السبب في ذلك، كما لا يستبعد في جانب آخر تأثير الهيمنة الرجالية في هذا الإبعاد، ويبدو أن ظروف الفترة وملابسها لجمت من الاعتماد على المرأة في هذا الجانب إلى حد بعيد.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

المبرّد، وكانت تحفظ الكتابين ظاهراً تنصّهما حفظاً وتتكلم عليهما⁽¹⁾، وبالتالي فلا نستغرب تحول بعض الرقيق النسوي من مرحلة الاحتكاك والتلقي الثقافي إلى مرحلة العطاء والتلقين. إضافة إلى أخذ الزوج عن زوجته كما هي الحال عند طونة بنت عبد العزيز⁽²⁾. وفي شهادة وافتخار أبو بكر عياض بن بقي (من أبناء القرن السادس الهجري) حول أستاذته أم شريح المقرئ التي قرأ عليها في صغره، إذ كانت منبع فخر له، ويذكر به ابنها شريحاً (ت439هـ/1144م) فيقول: "قرأت على أبيك وأمك فلي مزية على أصحابك"⁽³⁾، وهو ما يعبر صراحة عن تأثر طلبة العلم بأسلوبها وطريقتها في العلم وافتخارهم بالتلمذ عليها والذي لا شك أنه يزيدهم مكانة إلى مكانتهم.

لتنوعها هذه صورة الخطوة عند المعلمات الأديبات المشهورات، التي تأخذ بيد بني جنسهن فتعلمهن الدراسات الأدبية وما تقتضيها من مهارة ومراس في علوم العربية، وحسبنا في ذلك مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري (كانت حية بعد 400هـ/1009م) الشلبية التي سكنت إشبيلية في عصر الطوائف وكانت أديبة مشهورة تعلم النساء الأدب⁽⁴⁾، إضافة إلى لزوم تأديب ولادة بنت المستكفي لمهجة بنت التياي القرطبية إلى أن صارت شاعرة مقتدرة⁽⁵⁾، وما اعتراف مهجة بفضلها ومدحها لأستاذتها إلا تمثل لصورة المعلمة المتمكنة عندما تقول:⁽⁶⁾

لئن حَلَّاتٌ عن ثغرها كلَّ حائِمٍ فما زالَ يَحْجِي عن مطالبه الثَّغَرُ

فذلكَ تَحْمِيه القواضِبُ والقَنَا وهذا حماةٌ من لواحظها السَّحَرُ

ولا شك أن حسن تعليمها مرد تلك الشهرة الذائعة لمهجة والتي تلقفت في المقابل الأدب من أستاذتها بكل عفوان فتفتتت مواهبها.

¹ ابن الأبار، التكملة، 232/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 410/5. المقرئ، المصدر السابق، 171/4. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص226. عبد العزيز بن عبد الله، المرأة المراكشية، ص266. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 523/1. حياة قارة، المرجع السابق، ص57.

² ابن بشكوال، المصدر السابق، 347/2. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 455/3. محمد الأمين بلغيث، نفسه، 522/1.

³ ابن الأبار، التكملة، 236/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 427/5. 407/3.

⁴ الحميدي، المصدر السابق، ص600. الضبي، المصدر السابق، 729/2-730. ابن بشكوال، المصدر السابق، 325/2-326. المقرئ، المصدر السابق، 291/4. كراز فوزية، المرجع السابق، ص83. حياة قارة، المرجع السابق، ص71.

⁵ ابن سعيد، المغرب، 143/1. المقرئ، نفسه، 293/4. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص226. سهى بعيون، المرجع السابق، ص449.

⁶ ابن سعيد، نفسه. المقرئ، نفسه. السيوطي، نزهة الجلساء، ص81.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ولعل من أهم تمثيلات صورة المعلمة عند الأسرة المتعلمة والمحيط المتعلم عموماً حضور بعض النساء تقوم على تعليم بنات جنسها، فقد كان لحزم المعلم من أهل قرطبة ابنة تقوم بالتدريس والتعليم، حتى أصبح بيتهم أشبه بالمدرسة⁽¹⁾ ويحتمل أنه كان منزلاً واسعاً، يستقبل فئات متنوعة من الجنسين، إحداها من الفتيات اللاتي لاشك أن المعلمة المذكورة هي التي قامت عليهن.

ولم تنحصر مجالات المعلمة على الجانب الأدبي والشعري والدراسات القرآنية فحسب، بل شملت معلمات في الغناء، فقد أورد التيفاشي في مصنفه "متعة الأسماع في علم السماع" عند التعرّيج على إشبيلية أنه كان "عجائز محسنات يعلمن الغناء لجوار مملوكات لهن، ومستأجرات عليهن مولدات، ويشتريهن من إشبيلية لسائر ملوك المغرب وإفريقية، تباع الجارية منهن بألف دينار مغربية وأكثر من ذلك وأقل على غنائها لا وجهها، ولا تباع إلا ومعها دفتر في جميع محفوظها وأكثره من هذه الأشعار التي ذكرناها بأعيانها، فمنها أشعار خفاف تصلح للابتداء، ومنها أشعار ثقال لا يغنيها إلا منتبه مجيد في صنعة الغناء..."⁽²⁾، وهذا تماشياً مع روح العصر الذي أصبح فيه للفن والموسيقى والغناء سوق رائجة في جميع طبقات المجتمع، والذي حمل معه صورة متألفة للمعلمة الفنانة المقتدرة التي تستطيع تخريج فئة من المختصات في الغناء الترفيهي.

وما موقف المجتمع الأندلسي إلا تشجيع على ذلك وصورة صادقة لحب المعلمين، والتي لا يمكن استثناء النساء منها، فهو معظمٌ "عند الخاصة والعامة، يشار إليه ويحال عليه، وينبه على قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك"⁽³⁾، ولاشك أن التوقير نابع من سمو الحضارة وزهوها وبلوغها درجة من الرقي، وفعالية المعلمين فيها، مما انعكس على إكرام المجتمع لهم.

ولم يقتصر حضور المعلمات على المسلمات فحسب، إذ تظهر وثائق الجنيزة التي تُعبر عن أوضاع يهود العصور الوسطى، وجود نساء متخصصات في تعليم البنات⁽⁴⁾، على الرغم من قلته بسبب الذهنية السائدة عصرئذ.

¹ ابن الأبار، التكملة، 433/1. محمد عبد الحميد عيسى، المرجع السابق، ص 261. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 226.

² محمد بن تاويت الطنجي، الطرائق والألحان الموسيقية في إفريقية والأندلس، مجلة الأبحاث، ج 2-3-4، السنة 21، الجامعة الأمريكية في بيروت، 1968، ص 103.

³ المقرئ، المصدر السابق، 220/1.

⁴ خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 388-389.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ومن اللافت للنظر أن صورة المرأة المعلمة المقتدرة تجاوزت على الحالات السابقة المرتبطة بالنسوة، عندما غدت معلمة للرجال في العديد من المرات، وهو دليل على نظرة الاحترام من جنس الرجال للمعلمة التي توفرت فيها شروط المعرفة والخلق، فجلسوا عليها آخذين عليها، واشتهرت بعض النساء اللائي تتلمذ عليهن جمع من الطلبة مثل الحرة تاج النساء بنت رستم، أخت أبي شجاع في العهد المرابطي، والتي قرأ عليها عدد من الطلبة، منهم الفقيه الحافظ عمر بن عبد المجيد بن خلف بن موسى الأزدي المالقي الرندي⁽¹⁾، كما روى القاسم بن محمد بن سليمان الأنصاري الأوسي القرطبي نزيل مألقة قراءة وسماعا عن أمه أم الفتح فاطمة بنت أبي القاسم الشراط⁽²⁾، ناهيك عن أخذ محمد بن أحمد بن عبد الله ابن سيد الناس عن جدته أم العفاف نزهة بنت أبي الحسين سليمان اللخمي، إذ تلا عليها بالتسع والسبع المشهورة، بل لازم جدته نحو ستة أعوام ونصف⁽³⁾، وهذا دليل واضح على ثقافة وموسوعية المرأة وبلوغها مستوى عال من المعرفة بتأثيرها وتأثيرها في الحركة العلمية.

ولا أدل على صورتها المثالية والمفعمة بالاعتراف بمقدراتها في التدريس رواية عدد من رجال العلم الشرعي عن طائفة من النسوة، فهذه حمدونة ابنة زياد بن بقي العوفي المؤدب روى عنها أبو القاسم محمد بن علي ابن البراق (ت596هـ/1200م)⁽⁴⁾.

ونفس الحال كان في المغرب الإسلامي؛ ومع نوع آخر ومخصوص من التدريس الذي يركن إلى الروحانية، حيث انتشرت الصوفية بما تركته من أثر على محيطها ومريديها انطلاقا من العائلة، وما عكسته من موروث لوجه القدسية عند قطاع ممتد من الناس، لا من قبيل الكرامات فحسب، بل إلى عموم التأليف والبراعة في ذلك، فقد ترك أبو عبد الله محمد بن حسان التاونتي المعروف بالميلي (ت1194/590م) في رحلته الحجية ابنته بتلمسان "فروت العلوم وانتهت إلى أن صارت تُروى عنها المصنفات"⁽⁵⁾، لتبرز بالموازاة مع ذلك صورة مشرقة للمرأة المدرّسة بعد أن ذاع صيتها وعظمت منزلتها.

¹ ابن عبد الملك، المصدر السابق، 3/376. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص378.

² ابن عبد الملك، نفسه، 3/468. عصمت عبد اللطيف دندش، نفسه.

³ ابن عبد الملك، نفسه، 3/553. عصمت عبد اللطيف دندش، نفسه.

⁴ المقرئ، المصدر السابق، 4/287. ابن الأبار، التكملة، 4/242. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 5/415. أبي جعفر الغزنائي، المصدر السابق، 3/456.

⁵ ابن الزيات، المصدر السابق، ص369.

2- في حقل الأدب والعلوم والفن:

يمثل عصر ملوك الطوائف والمرابطين الأرضية الصلبة التي قامت وتوسعت فيها دعائم الحركة العلمية النسائية⁽¹⁾، ففي الوقت الذي شهدت فيه الأندلس التشظي الذي انتشر بين دول الطوائف رافق ذلك كله تنافس محمود في الميادين العمرانية والأدبية والفنية لتبرز فيه بالمقابل صورة متميزة للمرأة في المنطقة، لينتقل هذا الملمح إلى العدو المغربية نتيجة التثاقف بينهما وهجرة -طوعا أو كرها- عدد لا بأس به إلى الضفة الأخرى أيام الوحدة بينهما وما قبلها.

1- في مجال الأدب:

لا بد من التنويه في بداية هذا المبحث على مجال الأدب حسب هذه الدراسة، يشمل كل ضروب الأدب من شعر ونثر وعروض وأزجال وموشحات، ولقد نالت نسوة الغرب الاسلامي مكانة واضحة في كل الأنواع المذكورة والمعروفة يومها، فلم تكن المرأة بمعزل عن الأدب، بل طرقت أبوابه وتضلعت فيه، وليس المراد من هذا البحث تمييز المرأة عن الرجل، في حجم ما صدر عنها مقارنة به، حتى لا يعتقد معتقد أن الأمر يتعلق بصراع بين طرفين، بل ركن الموضوع بالدرجة الأولى والأخيرة إلى استجلاء صور من هنا وهناك حول الأدبية.

أ- الحرائر:

إذا تجاوزنا النظرة العددية والكمية، نلاحظ أن الملمح النسوي الأدبي في هذه المرحلة قد انتشر بصورة واضحة، ليس في الطبقة الخاصة فحسب، وإنما في الأوساط العامة أيضا، ويبدو أنها كانت عند الحرائر والسيدات أكثر أثرا، إلا أن الجوازي كن أبعد ذكرا⁽²⁾. والأشكال التالية تعكس نوعا من ذلك:

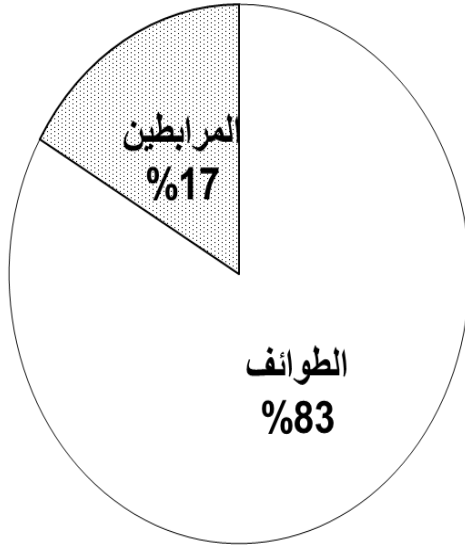
¹ مع الإقرار ابتداءً بضمور - على حسب علمنا- صور المرأة في العلوم العقلية عصر الدراسة؛ عدا حضور بعض الطبيبات، والذي قد يرجع في جزء كبير منه إلى الاسطوغرافية التي أهملت المرأة وربطت حضورها بالرجل غالبا، ناهيك عن انعكاس روح العصر على هذه الندرة، والذي عني فيه بالدرجة الأولى بالأدب والعلوم الدينية على مختلف أصنافه.

² مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 117-118.

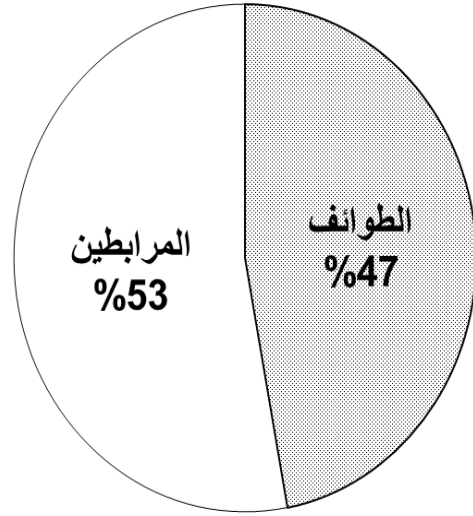
الفصل الثالث..... المرأة في الوعي الثقافي والديني

شكل رقم 13: نسب حضور الجوّاري والحرائر في مجال الأدب

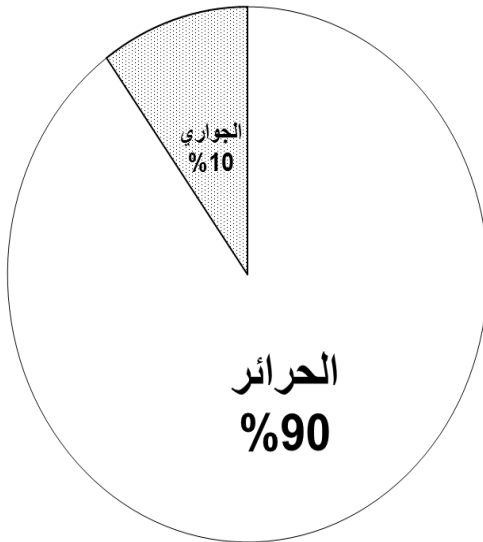
الجوّاري في عصر الطوائف والمرابطين



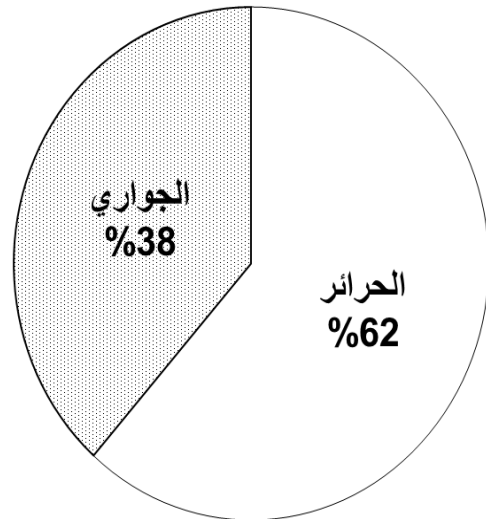
الحرائر في عصر الطوائف والمرابطين



الحرائر والجوّاري في عصر المرابطين



الحرائر والجوّاري في عصر الطوائف



وعند القراءة العامة لهذا الشكل البياني يتضح مايلي:

- تقارب نسب حضور الحرائر في الجانب الثقافي بين عصري الطوائف والمرابطين، مما ينبؤ على اعتناء الطبقة الحاكمة في الدولتين بهذا العنصر النسوي وضرورة تثقيفه، واستجابة لضرورات الحكم والثقافة السائدة.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

- غلبة عنصر الجوّاري في عصر الطوائف بنسبة مرتفعة تقدر بـ 83% لتعدد البلاطات التي تنافست في الاعتناء واستقطاب هؤلاء في الشعر ومجالسه، فغدّت بذلك حاجة روحية أكثر منها متعة جسدية، ولجو الانفتاح والانطلاق الذي عرفته الشواعر الإمام في ذلك العصر مقارنة بعهد المرابطين الممتاز بسيطرة الفقهاء .

- حضور ملموس للحرائر في عصر الطوائف على حساب الجوّاري، لكنه لم يتوجّ في المقابل بحضور ثقافي مواز للانطلاق المعروف عند الجوّاري، وعدم احترام واجب التحفظ المطلوب من الحرائر والمرتبطة بالسلطة.

- حضور أكثر للحرائر في عصر المرابطين والذين تلقوا تعليماً وثقيفاً سرى على البنات كما الأولاد، في ظل أفول الجوّاري المرتبط بمحد بعيد بالنساء المرابطيات وما عرف عنهن من قوة وسلطة استطعن من خلالها السطوع في فضاء الحياة الثقافية، والعقلية الفقهية السائدة التي فرضت العبور السريع على الجوّاري المنطلقات حسبهم عند إيراد أخبارهن.

ولعل وصف المقرئ المؤرخ يدلّل على موقف منهم ينحو إلى الإعجاب بعلو كعبهن، ورصانة أدبهن الذي يخاطب القلب مباشرة، ويتغلغل في أعماق النفس، مُعبّراً عن صورة المرأة الأدبية في مضمار فنون العربية ومنها البلاغة بقوله: "لهن اليد الطولى في البلاغة"⁽¹⁾، ويمكن التمييز بين جانبين يبدوان مقترنين بالإبداع والتميز الذي أشار إليه المؤرخ الأخير؛ أولهما قيام المرأة بدور المؤثر في الأدب كمنظور إليها؛ لما لها من أثر اجتماعي في تحريك نفسية الأديب الرجل؛ فظهر أثرها البارز في نتاجه بوجه عام، وثانيهما تفاعل المرأة باعتبارها ناظراً في الحركة الأدبية التي راجت في البلاد بفضل الأعلام النساء اللواتي عاشوا في فترة الدراسة.

هذا وقد كان للنساء دور كبير في نخضة الأدب، لا تقل أهمية عن مشاركة الرجل، بل يمكن القول دون الوقوع في المغالاة أن الشعر النسوي كان أهم ميزة اتسمت بها الساحة الأدبية في عصر الطوائف بالخصوص⁽²⁾، على اعتباره مرآة الحياة يومها، إذ يقوم أدبهن بمخاطبة القلب مباشرة فيتغلغل في أعماق النفس،

¹ المقرئ، المصدر السابق، 4/166 وما بعدها.

² لم يقصد البحث تغييب النثر عن الشعر، لا تفضيلاً لهذا على ذاك؛ وإنما أُوثر الشعر على النثر لغلبة الإبداع فيه، إذ لم يصل -فيما وصل إليه الموضوع- من نثر النسوة ما يقارب شعرهن، ثم لا يخفى ما كان للشعر في العصور الإسلامية من دور لا في حياة الشعوب فحسب، بل في حياة الدول والممالك أيضاً، فالشعر عدا عن كونه أهم وسيلة للإعلام الرسمي والشعبي في تلك العصور، وهو ما تمثله الصحف والمجلات والإذاعات المرئية والمسموعة اليوم، فانه كان الوسيلة الأكثر فاعلية في التعبير عما يختلج في النفس البشرية بكل حالاتها وتطلعاتها وأمالها وآلامها وأتراحها وأفراحها وبالتالي فهو الأكثر تعبيراً عن صور المرأة في هذا الوعاء. أما عن تفسيرات هذا الحضور الأدبي المكثف ببلاد الأندلس خصوصاً، فهناك من يردّها إلى قدوم جملة من النساء المشرقيات إلى الأندلس معلّّمتات للنساء، فنشأ بعدهن جيل اشتهر بالأدب، في حين يرجعها البعض إلى النصيب الوافر من حرية التحرك والتعلم؛ مما أتاح لها صقل شخصيتهن الأدبية، وهناك من يزعم أن الجذور الغريبة العميقة لنفسية أهل الأندلس وعاداتهم

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

لذا ليس من المستغرب أن نجد تعددا لصور المرأة في هذا الحقل نتيجة تسليط إستوغرافيا المرحلة عليهن، وارتباط هذا المعطى الأدبي بأمراء وملوك البلاط المشجعين لهذا اللون، فبرزت شاعرات وأديبات تفوق وبرزن⁽¹⁾، وتحيطنا المصادر هنا بموقفين متناقضتين كانا نتيجة تطور المجتمع وتحرره⁽²⁾، فمن جانب صورة المرأة الشاعرة والأديبة من علية القوم والتي نظرت إليها شرائح المجتمع نظرة إعجاب وتقدير، في حين ركن موقف بعض الفقهاء والمربين من تعلم الترسل والشعر وقوله وما أشبهه إلى التخوف للتخوف عليها، وتعلم ما يرجى بها صلاحهن حسبهم⁽³⁾.

ففي عهد الطوائف؛ ورغم ما عرفه من تفتت سياسي؛ إلا أنه كان عصر ازدهار ثقافي وتقدم في الفنون والآداب⁽⁴⁾، فقد برزت نسوة من شرائح اجتماعية متعددة ساهمت في بلورة النسق الأدبي للمنطقة، ومن هؤلاء أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح ملك المرية، وما نظمها لذلك الشعر الجميل وإن كان فيه تحرر من حين لآخر⁽⁵⁾، ناهيك عن الموشحات التي انتشرت عصرئذ، والمحبوبة من كل أطراف المجتمع، إلا مؤشر على وجه الشاعرة المرموقة⁽⁶⁾، ولعل أم الكرم كانت تصقل موهبتها بما يتراعى إليها إلى سمعها من الشعر في المجالس التي كان يعقدها والدها.

وهناك من جعلت شعرها وسيلة للتكسب، لينطبع معها صورة الشاعرة المتكسبة التي استطاعت أن تستحوذ على ثقة الملوك والأمراء والأعيان، من أمثال الشاعرة الغسانية التي نظمت أبياتا في الأمير خيران

وتحررهم مرتبطة بعدم تعريمهم، بل لم يستشرقوا إلا سطحيًا، ويرد بيير غيشار على هذا التفسير الأخير بأنه ليس قطعيًا، وأن تلکم الليبرالية السلوكية لم تكن سوى نتيجة لارتباط بعض النسوة بوضعهن الاجتماعي المهني. للاستزادة انظر: كرراز فوزية، المرجع السابق، ص 67-68.

¹ ابن الأبار، التكملة، 233/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 428/5-429. المقرئ، المصدر السابق، 283/4. 287-286.
² ولعل من أهم أسباب هذا التحرر خاصة النساء الأندلسيات جمال الطبيعة، فالأندلس بلاد جميلة، حباها الله طبيعة ساحرة من خضرة ومياه وأنهار وبساتين وقصور، فلها حظ كبير من الجمال البشري كحظ بيئتها من الجمال الطبيعي، ثم أضفى حسن الحضارة الجديدة المزوجة بكل الألوان الأوربية على الأندلس من الرقي المرموق، ما جعل سكانها يحافظون على الجمال الطبيعي في بلدتهم ويزيدون فيه، حيث أكثر الأندلسيون من وصف الرياض والمنتزهات والأزهار والأنهار وما شابه. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص 141.

³ القابسي، المصدر السابق، ص 293.

⁴ عمر قلعي، المرجع السابق، ص 360.

⁵ يبدو أن صورة الشاعرة المتغزلة السلبية تجاوزت الإماء إلى الحرائر، إذ يطالعا ابن سعيد أن الفتى المدعو سمارا والذي أنشدت فيه أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح شعرا غزليا توارى عن الأنظار خوفا من بطش والدها. المقرئ، المصدر السابق، 203/2.

⁶ ابن سعيد، المصدر السابق، 202/2-203. المقرئ، المصدر السابق، 170/4. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 151. آنخل جنتالث بالثيا، المرجع السابق، ص 114. حياة قارة، المرجع السابق، ص 85. سهى بعيون، المرجع السابق، ص 472.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعي الثقافي والديني

العامري صاحب المرية تعارض بها أبا عمر أحمد بن دراج القسطلبي(ت421هـ/1030م) شاعر البلاط العامري بقولها:⁽¹⁾

أَجْزَعُ أَنْ قَالَوا: سَتَظَعُنْ أَظْعَانُ وَكَيْفَ تُطِيقُ الصَّبْرَ وَيَحْكُ إِنْ بَانُوا

وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ وَإِلَّا فَعِيشٌ يُجْتَنِّي مِنْهُ أَحْزَانُ

مع ما يتطلبه ذلك من قدرة ودراية وموهبة في قرض الشعر، سيما في الجو التنافسي في ذلك العصر الذي كان فيه فطاحل الشعراء الرجال، وتطلب هؤلاء الملوك والأمراء الذين كانوا أنفسهم متذوقين من الطراز الأول.

وتعدى موقف الاعتزاز بالمرأة الشاعرة إلى أهل الذمة من اليهود، فهذه قسمنة بنت إسماعيل اليهودية تمتاز على غرار شاعرات الأندلس بسرعة حضور ملكتها الشعرية والبراعة في الشعر والموشحات، وهو سر انطباع النظرة المتميزة من جانب الشعراء أنفسهم، مما جعل والدها الشاعر يقوم بعد أن أنشدته أبياتا "كالْمُخْتَبَلِ وضمها إليه، وجعل يقبل رأسها، ويقول: أنت والعشْرُ كلمات أشعر مني"⁽²⁾، ولاغرو أن هذه الغبطة تفجرت عندما عاين ثمار تربيته الشعرية والأدبية تنضج وتؤتي أكلها، خاصة في ظل بيئة عصر الطوائف التي تحتفي بالشاعرات وما تجود به قرائحهن من نظم للشعر، كرافد مهم وأساس من روافد الثقافة والفن، مع ما خلفه نمط التعايش والتفاعل بين الديانات داخل المجتمع الأندلسي، وليس من المستبعد أن تكون قسمنة مثالا فقط عن شاعرات آخر مغمورات من أهل الذمة.

وعطفا على ما سبق، واستمرارا لظاهرة المطارحات الشعرية من شهيرات الغرب الإسلامي في عصر الطوائف، ترتسم أهم القفزات النوعية في حضور صورة المرأة الشاعرة في الشعر النسوي الأندلسي بحدتها وعنفوانها وقمة تقبل الفئة المتنورة من الشعراء، وهي ولادة بنت المستكفي التي أخذت بنصيب وافر في النظم والشعر، جعلها محط الأنظار من الشعراء⁽³⁾، وما اعتراف فطاحل العلماء بتفوقها وسرعة بديهتها إلا نموذج

¹ الحميدي، المصدر السابق، ص601. الضبي، المصدر السابق، 730/2. ابن بشكوال، المصدر السابق، 326/2. كرزاز فوزية، المرجع السابق، ص65. حياة قارة، نفسه، ص94.

² جلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص74-75. المقرئ، المصدر السابق، 530/3. عمر قلعي، المرجع السابق، ص377. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص346. حياة قارة، المرجع السابق، ص89.

³ ألا يبدو غريبا أن العصور العباسية مثلا والتي اتسمت بقدر أكبر في الغنى والاختلاف والتنوع في الثقافات والأعراق، لم تطلع فيها نساء شاعرات يمتلكن حرية النساء الأندلسيات، ويبدو أن التفسير الأكثر إقناعا لحقيقة كونها قادرة أن تعيش حياة مثل هذه تدل بصورة ضمنية على أن الإسلام

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

على شاعريتها وباعها في الأدب، خاصة بعد اتخاذها ندوة أدبية بقرطبة تخالط فيها الشعراء وتساجل الأدباء وتفتوق البرعاء⁽¹⁾، بل كان أسلوب المماثلة والمقايضة منبعاً لوجه الإكبار والاعتدار، حيث وصفت بأنها "بالغرب كعلية بالشرق: إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق، وأما الأدب والشعر والنادر وخفة الروح فلم تقصر عنها، وكان لها صنعة في الغناء، وكان لها مجلس يغشاها أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمن فيه من النادر وإنشاد الشعر"⁽²⁾، ناهيك عن الانبهار الذي تركته في وجدان الشعراء والذي ينم عن صورة الشاعرة المتميزة⁽³⁾، وهو ما نشط في ترديد الناس لأشعارها، مسارعين إلى محاضراتها وأخبارها، مُفَتِّين ببيدهتها وأدبها، لارتباطها بالسلطة من جهة، ولشاعريتها من جهة أخرى، ولكونها إحدى طرفي أشهر قصة حب عرفتها الأندلس مع ابن زيدون الشاعر المعروف من جهة ثالثة، ومن هنا يمكن طرح استفهام الموقف الموازي للمرأة الشاعرة بالخصوص؟.

وعلى ما يبدو فإن مشاركة الشاعرة الأندلسية في النشاط الأدبي أتاح لها أن تمارس طقوساً خاصة أوجدتها لنفسها، وهو ملمح يسترعي الانتباه ويرصد نوعاً من تجليات الاستفهام السابق، فقد بدأت تتمظهر معها إلى حد بعيد منظور الفتاة الشاعرة العابثة الماجنة الكاسرة لتقاليد وأعراف البلاد في نظر شريحة كبيرة من المجتمع⁽⁴⁾، واللائي نظمن شعراً مكشوفاً، تبدوا طالبة لا مطلوبة، فقد قيل أنها جعلت من طراز ثوبها إعلاناً عن الإباحة والانطلاق حينما كتبت بالذهب على الطراز الأيمن:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية تيهي

وكتبت على الطراز الأيسر:

الفقهي قد خفف من صرامته على نحو استثنائي في الأندلس. ماريا ج. فيغيرا، أصلح للمعاني عن المنزل الاجتماعية لنساء الأندلس، ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مج2، تحرير سلمى الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص1000. هنري بيرس، المرجع السابق، 348.

¹ الضبي، المصدر السابق، 733/2. ابن بسام، الذخيرة، 429/1/2. ابن بشكوال، المصدر السابق، 326/2-327. المقرئ، المصدر السابق، 208/4. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص298.

² المقرئ، المصدر السابق، 208/4. حياة قارة، المرجع السابق، ص82.

³ ابن بسام، المصدر السابق، 432/1. السيوطي، نزهة، ص89. المقرئ، المصدر السابق، 339/5.

⁴ الريسوني محمد المنتصر، الشعر النسوي في الأندلس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص75. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص298.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

وَأَمَكُنْ عَاشِقِي مِنْ صَخْنِ خَدِي وَأَعْطِي قَبْلَتِي مِنْ يَشْتَهِيهَا⁽¹⁾.

وعلى نفس النسق، ونتيجة طول تَمْنَعِ معشوقها ابن زيدون شاعر الأندلس؛ يرتسم وجه الشاعرة الولهانة المتحررة عندما تقول:

تَرَقَّبْ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي فَإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلسَّرِّ

وَبِي مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالْبَدْرِ مَا بَدَا وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر⁽²⁾

كما كانت الغيرة التي رافقت التحرر السالف الذكر؛ ركنا في تبدي صورة الشاعرة الغيورة الناقمة على الرجل الحبيب، ومنطلقا لانبلاج موهبتها الشعرية، فقد كان لولادة جارية سوداء بديعة المعنى تعرف بعتبة، فظهر لولادة أن ابن زيدون جنح إليها فكتبت إليه:

لَوْ كُنْتُ تُنْصَفُ فِي الْهَوَى مَا بَيْنَنَا لَمْ تَهْوِ جَارِيَتِي وَلَمْ تَتَخَيَّرِ

وَتَرَكْتَ غُصْنًا مَثْمَرًا بِجَمَالِهِ وَجَنَحْتَ لِلْغُصْنِ الَّذِي لَمْ يُثْمَرْ

وَلَقَدْ عَلِمْتَ بِأَنِّي بَدْرُ السَّامَا لَكِنْ وَلَعْتَ لَشَقْوَتِي بِالْمَشْتَرِي⁽³⁾.

ويتركز وجه الاقتدار في صديقها التي انقلبت عليها مهجة بنت التياي، التي بلغت حدا كبيرا في ابتكار المعاني والتقدم في الشعر؛ على الرغم من أن فحش اللسان يجري بطلاقة عندها، مستعملة في ذلك الألفاظ المكشوفة دون تورية أو حياء⁽⁴⁾، ولاشك للتحرر الذي عرفته الأندلس، إلى جانب انتشار الجوّاري وما يحملنه من سمات جمالية، واختلاط المسلمين بالسكان الأصليين أثر في هذه الانطلاقة الاجتماعية التي لم تكن سمة عند كل الأندلسيات.

¹ الضبي، المصدر السابق، ص733. ابن بسام، المصدر السابق، 430-429/1/2. المقري، المصدر السابق، 205/4. كراز فوزية، المرجع السابق، ص64.

² ابن بسام، الذخيرة، 430/1/1. السيوطي، نزهة، ص91. المقري، المصدر السابق، 206/4.

³ ابن بسام، المصدر السابق، 431/1/1. السيوطي، نزهة، ص88. المقري، نفسه، 205/4. عمر قلعي، المرجع السابق، ص372. حياة قارة، المرجع السابق، ص82.

⁴ ابن سعيد، المصدر السابق، 143/1/1. المقري، نفسه، 293/4. حياة قارة، المرجع السابق، ص83. سهى بعيون، المرجع السابق، ص449.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ويفهم والحالة هذه شيوع الانطلاق في شعرها الذي لا يستلزم بالضرورة أن سلوكها هذا صار جزءاً من الممارسة اليومية لحريتها في التعبير، لا سيما بعد شيوع أمرها في الأندلس والذي قد يجر عليها نعوتاً لم تكن فيها بتلك الحدة⁽¹⁾، بعد أن اعتادت على مخالطة الرجال وحضور مجالسهم والمشاركة في مطارحاتهم الشعرية والاستمتاع بحرية الإنشاد والاستماع فضلاً عن التعبير بجرأة عن مختلف الموضوعات في شعرها غير آبهة بما فرضته قيم العامة المتحفظة نسبياً.

ومما زاد في نضج وجه التميز عند قطاع ممتد من المجتمع، اجتماع صفات محموددة في جنس الشاعرة من قبيل العفة والتقدم في الشعر، وحسبنا في ذلك مريم بنت أبي يعقوب الفضولي التي اشتهرت في عصر الطوائف وحضرت داخل المخيال الجمعي، حتى شبهها أدباء عصرها بأنها تحاكي مريم العذراء في عفتها والخنساء في أدبها وشعرها بقولهم:⁽²⁾

أَشْبَهَتْ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ فِي وَرَعٍ وَفُتَّتِ خَنْسَاءٌ فِي الْأَشْعَارِ وَالْمَثَلِ

ولعل قرنهما بعلم نسائي مشهور في عصر قوة وفتوة الشعر العربي يحيل مرة أخرى إلى المكانة التي تبوأتها هذه الشاعرة بين نظيراتها.

وانتقل هذا العشق للأدب إلى بثينة التي سببت في العصر المرابطي، وقالت شعراً في ذلك، تتحسر فيه على غدر الزمان يرتسم فيه خط الشاعرة المخضمة المقهورة بقولها:

لَا تُنْكِرُوا أَنِّي سُبَيْتٌ وَأَنْتِي بِنْتُ مَلِكٍ مِنْ بَنِي عَبَّادٍ
مَلِكٌ عَظِيمٌ قَدْ تَوَلَّى عَصْرُهُ وَكَذَا الزَّمَانُ يُؤُولُ لِلْإِفْسَادِ⁽³⁾.

وبمعية أم العلاء بنت يوسف الحجارية التي كانت من نابغات الشاعرات الأندلسيات في القرن الخامس الهجري، ينطبع في وجدان مجتمعتها الاعتزاز بها وبشعرها، إذ بلغ من علو شأن صورة المرأة الأدبية افتخار

¹ المقرئ، المصدر السابق، 293/4.

² الحميدي، المصدر السابق، ص 600. الضبي، بغية، 729/2-730. ابن بشكوال، المصدر السابق، 325/2-326. المقرئ، المصدر السابق، 291/4. حياة قارة، المرجع السابق، ص 71. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص 71. الشكعة مصطفى، المرجع السابق، ص 167.

³ المقرئ، نفسه، 284/4. حياة قارة، المرجع السابق، ص 87. سناء الشعيري، نفسه، ص 66. سهى بعيون، المرجع السابق، ص 481-482.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

واحتفاءً مجتمعها المحلي بها، حيث كانت "ممن تفخر به بلدها وقبيلتها"⁽¹⁾، لتجسد بنفسها وجه الشاعرة الحذقة الأنفة في أبيات طريفة بمناسبة ازدهارها للأشيب الخاطب، قائلة له بعد أن ترجأها بكل الطرق:⁽²⁾

الشيبُ لا يُخَدَعُ فِيهِ الصَّبَا بجيلةٍ فاسمِعْ إلى نُصْحِي

فلا تكن أَجْهَلُ من في الوري يبيتُ في الجهلِ كما يُضْحِي

وربما كانت الشاعرة هنا بالإضافة إلى مكانتها في مجتمعها تبغض الشيب وكبار السن، لأنه وافد لا يبرح صاحبه، ويتناسب مع الفتور والضعف، بل تشتد وطأته حيناً بعد حين، ولما فيه من إشعار بانتفاء القوة والسلطة، ولا يمكن أن يحقق رغبات الشباب الممتلى بالحيوية والعاطفة.

هذا وقد عرفت العائلات الوجيعة اللمتونية والأندلسية أدبيات من طراز عالٍ، فالمرأة الزوجة زينب النفزاوية في عهد المرابطين تنصدر المشهد الأدبي بعدما لمعت في الميدان السياسي، وتتبوأ مكانة عالية بين أدباء جيلها، بفضل مواهبها الفكرية ومعرفتها للشعر⁽³⁾، وما مدح الشعراء والثناء عليها إلا نموذج للاحترام الكبير لها ومنطلق لصورة متميزة من لدن المجتمع نظير أعمالها⁽⁴⁾.

وتزامنت معها الحرة حواء بنت تاشفين التي وسمت بالأدبية الشاعرة الجليلة الماهرة، ونالت كل الاحترام والتقدير، مما جعلها تحتل مكانة هامة في مجالس الأدب والشعر، تحضر وتحاضر بالمجالس العلمية التي تعقد بمراكش العاصمة، بمعية جمع من أدباء وشعراء العصر المرابطي، بل كانت تترك انطبعا لدى مرتاديها بباعها، وتروي المصادر اجتماع مجلس الكتبة والشعراء بمراكش وإقبال الحرة تريدهم وهم يتحادثون ويأخذون في الشعر، وكان ابن المرخي (ت533هـ/1138م) قد قال صدر بيت وهو: "أنا للبدر أخ" ولم يجزه أحد منهم، إذ أقبلت الحرة فسلمت عليهم وبادرها ابن المرخي وقال لها: حياك الله يا قمري ويا زهري، فقالت: وصفتني والله بأفل وذابل، ففرح بفطنتها، فقالت له: فيم كنتم، قال لها: كنا قد قلنا صدر بيت ولم يقدر أحد على عجزه فقالت:

¹ ابن سعيد، المغرب، 38/2. أنجل جنثال بالثيا، المرجع السابق، ص73. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص112. حياة قارة، المرجع السابق، ص85. سهى بعيون، المرجع السابق، ص483.

² السيوطي، المصدر السابق، ص27. المقرئ، المصدر السابق، 169/4. أحمد خليل جمعة، نفسه، ص116.

³ ابن عذارى، المصدر السابق، 18، 56/4.

⁴ ولعل قصتها مع الأديب زهون المعروف بابن خلوف في مدح الحرة حواء، ثم تراجع عن ذلك وتفضيلها على غيرها من النسوة نموذج واضح على ذلك. انظر الفصل الأول ص 41-42.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

أنشدنيه، فقال: "أنا للبدر أخ"، فقالت على البديهة: "على ذا سنخ؟ فتعجب الحاضرون من براعتها⁽¹⁾، فلجوء هؤلاء النسوة إلى بضاعة الشعر؛ مرادف لسهولة حفظه، ولفهمهم لأذواق الناس، مع حضور موثوقة عالية في النفس، وسرعة البديهة، وحدة الذكاء، مناط وجه التميز والجدارة عند قطاع ممتد من شعراء العصر. وإلى مثل هذه الصورة المتميزة الحاضرة في المجالس والنوادي الأدبية والادراية دون الاعتبار للذكورة والأنوثة؛ يشير الشاعر التطيلي بقوله:⁽²⁾

أُنْثَى سَمًا بِاسْمِهَا النَّادِي وَكَمْ ذَكَرٍ يُدْعَى كَأَن اسْمَهُ مِنْ لُؤْمِهِ لِقَبْ

وَقَلَّمَا نَقَصَ التَّائِثُ صَاحِبَهُ إِذَا تُدَكِّرَتِ الْأَفْعَالُ وَالنُّصَبُ

كما كانت أم طلحة تميمة بنت يوسف شقيقة أمير المؤمنين علي التي سكنت فاس تحفظ الشعر وتجده، ومما اشتهر عليها الجمع بين الجمال والفطنة وقول الشعر ارتجالاً، لتصل إلى مرحلة الإبداع، والذي ينهض على وجه راق للشاعرة من سرعة البديهة في الرد وتحسس المواقف، فقد "رأها يوماً كاتب لها فبهت، وكانت قد أمرت بمحاسبته وبرزت لذلك، فلما نظرت إليه عرفت مآدها وفطنت لما اعتراه فأومأت إليه وأنشدته⁽³⁾:"

هي الشمس مسكنها في السماء فعزَّ الفؤاد عزاءً جميلاً

فلن تستطيع إليها الصُّعوداً ولن تستطيع إليك النزولاً

كما تبلورت صورة الشاعرة صاحبة الذاكرة القوية في مريم بنت إبراهيم بن تفلويت زوجة الأمير الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، تحفظ جملة وافرة من الشعر⁽⁴⁾، ناهيك عن ورقاء بنت يئنان طليطلية التي سكنت

¹ ابن عذارى، المصدر السابق، 57/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 429/5. عبد العزيز بن عبد الله، المرأة في الحقل الفكري، ص268. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 527/1. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص418. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص29. كرراز فوزية، المرجع السابق، ص84. حياة قارة، المرجع السابق، ص104. الحسين اسكان، المرأة الصنهاجية، مجلة أمل، 13-14، السنة الخامسة، مطبعة النجاح الجديدة، 1998، ص71-72.

² ديوان الأعمى التطيلي، ص 49-50. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 430/5. حياة قارة، المرجع السابق، ص104. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص116-117.

³ ابن الأبار، التكملة، 236/4. ابن القاضي، المرجع السابق، 173/1. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص316. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 528/1. عبد الله كنون، النبوغ، ص74. حياة قارة، المرجع السابق، ص86. الحسين اسكان، المرجع السابق، ص71.

⁴ ابن الأبار، التكملة، 236/4-237. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 432/5. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص316. محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، 529/1. الحسين اسكان، المرجع السابق، ص72.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

فاس، التي ارتسمت صورة شاعريتها المشرقة على كونها "أديبة شاعرة صالحة... وتوفيت بعد الأربعين وخمس مئة"⁽¹⁾، مع ما ينبغي الإشارة إليه والتركيز عليه، عند الإقرار أن ما وصل من شعر نسوي في هذا العصر والذي قبله لا يمثل كل ما صدر منهن؛ فقد ضاع منه الشيء الكثير فيما ضاع من تراث هذه الأمة.

وكانت المرأة الشاعرة في أحيان كثيرة مصدر مواساة لذويها، بنظمها لشعرٍ تسعى فيه لتخفيف ألم والدها من وقع الغربة وفراق الأوطان، وهو ما مكن لصورتها الشاعرة والشاعرية في وجدان والدها، ومن الأمثلة على ذلك في العصر المرابطي الشاعرة أم هانئ أمة الرحمان بنت عبد الحق بن غالب التي أنشدت والدها عندما دخل داره بغرناطة وعيناه تدمعان أسفا لمفارقتها بعد تقليده لقضاء المرية قائلة:⁽²⁾

يا عينُ صارَ الدَّمْعُ عندك عادةً تبكين في فَرْحٍ وفي أحزانٍ

ومن اللافت للنظر أن نزهون بنت القلاعي كانت محط تمثل راق للمرأة الشاعرة عند الشعراء، وفي المخيال الجمعي للأندلسيين خلال عصر المرابطين، لبراعتها المنقطعة النظير في نظم الموشحات؛ إلى ما امتازت به من ملكة أدبية ومهارة في الشعر، حتى غدت مفخرة غرناطة في العلم والأدب والفكاهة⁽³⁾، ناهيك عن شخصيتها القوية واعتزازها بنفسها والذي يبدو أنه منبع ازدياد موقف الإكبار لها، فقد خطبها رجل قبيح، وذكر أن حبه فيها قاده إلى خطبتها فقالت:⁽⁴⁾

عَذيري من عاشق أنوك سفيه الإشارة والمنزع

يَروم الوصال بما لو أتى يَروم به الصَّنْعَ لم يُصْنَعِ

برأسٍ فقيرٍ إلى كيِّه ووجهٍ فقيرٍ إلى بُرْقِعِ

¹ ابن الأبار، التكملة، 237/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 426/5. أبي جعفر أحمد، المصدر السابق، 457/3. ابن القاضي، المرجع السابق، 533/2. الحسين اسكان، المرجع السابق، ص72.

² ابن الأبار، نفسه، 239/4. ابن عبد الملك، نفسه، 406/5. المقرئ، المصدر السابق، 292/4. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص149.

³ الضبي، المصدر السابق، 732 / 2. ابن الأبار، التكملة، 239/4. ابن الخطيب، الإحاطة، 344/3. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 425/5. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص73.

⁴ الضبي، نفسه، 732 / 2. ابن الأبار، المقتضب، ص216. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، ص524. أنجل جنثال بالثيا، المرجع السابق، ص125. سهى بعيون، المرجع السابق، ص475.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

وما تصنيف المقرئ لهذه الشاعرة كعلم من أعلام غرناطة، بل تكفي وحدها أن تكون مدعاة للافتخار بهذه المدينة؛ إلا سبيل لوجه الإكبار المذكور سلفاً، إذ أكد على قدرها قائلاً: " ولم تخلُ غرناطة من أشرف أمثال، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها الشواعر مثل زهون القلاعية"⁽¹⁾.

لتصل الندية المعبرة عن الثقة بالنفس وقوة الزاد الأدبي، والتي كونت وجه الشاعرة المقتدرة، ومخط احترام الخصوم قبل الأصدقاء بشاعريتها، أقول وصلت الندية إلى الدخول في مساجلات شعرية مع جهابذة عصرها في الشعر، مع ما يُشتم فيها رائحة الازدراء لها قبل معرفة بضاعتها، لتتقلب إلى الانبهار بعد التطارح بأبيات شعرية عصرئذ وبعده، فعندما كانت الشاعرة زهون تقرأ على أبي بكر المخزومي الأعمى، وإذا بالأديب أبو بكر الكتندي الشاعر يدخل عليها " فلما نظرها إليها، قال أجز يا أستاذ، لو كنت تبصر من تكلمه، فأفحم المخزومي زامعاً، فقالت: لَعْدَوْتُ أُخْرَسَ من خلاخله"، ثم زادت:

إليه البدرُ يطلع من أَرْزَتِهِ والغُصْنُ يَمْرُحُ في غَلَايلِهِ⁽²⁾.

وفي ردها على أبو بكر بن سعيد تظهر رائع لوجه الشاعرة الكيسة عندما هجاها بعد أن بلغه أنها تخالط⁽³⁾ غيره من الأدباء الأعيان بقوله:

يا من له ألف خلٍّ من عاشق وعشيق

أراك خلّيت لنا س سَدَّ ذاك الطريق

فأجابته بقولها:

حلّلت أبا بكر محلاً منعتهُ سواك وهل غير الرفيع له صَدْرِي

وإن كان لي كم من حبيب فإنما يقدّم أهل الحقّ فضل أبى بكر⁽¹⁾

¹ المقرئ، المصدر السابق، 1/176. 3/218. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص326.

² ابن الأبار، التكملة، 4/239. ابن سعيد، المغرب، 2/121. ابن الخطيب، الإحاطة، 3/344-345. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 5/425. السيوطي، نزهة، ص 86. المقرئ، نفسه، 4/297. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 1/541. آنجل جنثال بالثيا، المرجع السابق، ص125. حياة قارة، المرجع السابق، ص106.

³ حول نعتها بالحنون وتحير هذه الشاعرة غير المعهودة في العصر المرابطي وتعليله انظر: ابن سعيد، نفسه. المقرئ، نفسه، 4/298. مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص156-158. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، ص525-526.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

لتنقلت نحو صورة الشاعرة الجريئة المتحررة، عبر الصراحة غير المعهودة في العصر المرابطي، والجرأة غير المألوفة، ومن شعرها في هذا الاتجاه رغم رفضها للكثير من أراد صحبتها قولها: (2)

لله درُّ الليالي ما أحسنها وما أحسن منها ليلة الأحد

لو كنت حاضرا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى في ساعدي قمر بل ريم خازمة في ساعدي أسد

وهذا منتهى الجرأة في تصوير الرغبة الجسدية التي لم تتوان زهون في إيضاحها، وحسن تشبيه المفاتن دون خجل أو وجل، بل كانت مبادرة إلى طلب الوصال، في دعوة صريحة إلى متع الجسد.

ليستمر وجه التميز للشاعرة زهون بدخولها في فن الموشحات الأندلسية، ومقارعتها لأكثر الرجال شهرة لهذا النوع الجديد، لتكتمل بذلك الصورة الشاعرية والشاعرة لزهون عند إيرادها لحكاية ذات طابع غزلي، جمعت فيها بين رقة المعنى، ولطافة الأسلوب، والتقلب بين عاطفة الحب والجوي حين تقول: (3)

بأي من هدد من جسمي والقوى طرف الأخور

وسقاني ما سقى يوم النوى يقطف الزهرا

كلما رمت خضوعا في الهوى يبتغي الأجر

وفي ذلك مؤشر قوي على مشاركة المرأة في تذوق الشعر، وإدراكها لما يفرح الناس ويبهجهم، وتقريب لشعرها من القالب الشعبي، لأن صوغه على هذا المنوال يجعل معانيه قريبة من نفوس الناس، مما يكفل له انتشارا وذيوعا، ومسيرة الطبوع الشعرية المختلفة والجديدة منها.

¹ ابن الأبار، المقتضب، ص216. ابن الخطيب، المصدر السابق، 3/345. أنجل جنثالث بالثيا، المرجع السابق، ص125. عمر قلعي، المرجع السابق، ص368.

² ابن الأبار، نفسه، ص217. المقرئ، المصدر السابق، 4/298. عمر قلعي، نفسه، ص369. كرراز فوزية، المرجع السابق، ص64.

³ عمر قلعي، نفسه، ص369.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

وتطالعنا المصادر بعلم من أعلام الشعر والأدب النسوي الأندلسي الريفي إن صح التعبير، والحاملة معها رؤية الشاعرة المتمكنة الذائعة الصيت، وهي حمدونة وأختها زينب، مما جعل المؤرخين يلقبان العَلَمَين بالعربيات لإتقانهما فنونها⁽¹⁾، ومن جميل شعر حمدونة قولها:⁽²⁾

أَبَاحَ الدَّمْعِ أَسْرَارِي بِوَادِي لَهُ فِي الْحُسْنِ آثَارُ بَوَادِي
فَمَنْ نَهْرٍ يَطُوفُ بِكُلِّ رَوْضٍ وَمَنْ رَوْضٍ يَطُوفُ بِكُلِّ وَادٍ
وَمَنْ بَيْنَ الظُّبَاءِ مِهَاهُ إِنْسٍ لَهَا لُجِّي وَقَدْ سَلَبَتْ فَوَادِي
لَهَا حَظٌّ تَرْقُدُهُ لِأَمْرِ وَذَاكَ الْأَمْرُ يَمْنَعُنِي رِقَادِي
إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي أَفْقِ الدَّادِ

بل بلغت حمدونة أن وصفت " بشاعرة جميع الأندلس " و " خنساء المغرب "⁽³⁾، ويبدو أن هذه النعوت تقود إلى الجزم ببراعة حمدة في الشعر ورصانة ألفاظها، لا سيما في فن الرثاء الذي يحتاج إلى ذلك، والمشتهرة به الخنساء من قبل.

وغير بعيد عن هذا الموضوع، نجد شعر الصحراويات المعروف بالتهراج، وهو شعر حساني نسائي، تنشده النساء في جنوب المغرب في مجالس نسائية خاصة، ويظهر ذوقا فنيا لدى المرأة، ووجها آخر للمرأة الشاعرة الشعبية المتوائمة مع وسطها الطبيعي والاجتماعي الذي تعيش فيه، ومتماش مع طبع متعدد يتصدرها الغزل، ومن نماذج ذلك قول إحدى النساء:

كَيْفَ أَنْسَاهُ دَلَّ فِي الْجَفْنِ سُكْنَاهُ

وتقول أخرى:

عِنْدُو تَبْسِيمَةٍ تُحْيِي لِعُظَامِ الرَّمِيمَةِ⁽¹⁾

¹ السيوطي، نزهة، ص46. سهى يعيون، المرجع السابق، ص475.

² ابن دحية، المصدر السابق، ص11. ابن الأبار، التكملة، 242/4. ابن سعيد، المغرب، 146/2. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 415/5. السيوطي، نفسه، ص47. المقرئ، المصدر السابق، 288/4. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص242. حياة قارة، المرجع السابق، ص79.

³ ابن سعيد، نفسه، 145/2. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 456/3. المقرئ، نفسه، 287/4. أحمد خليل جمعة، نفسه، ص244. كرراز فوزية، المرجع السابق، ص69. حياة قارة، نفسه.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ب- الجواري:

دخل الجواري في مضمار الأدب بقوة، فكان لهن أثر بعيد في الشعر، ما جعل صورهن تتباين بتباين ملكتهن، وقد اقترنت شهرة ووجه تميز بعض نساء الأندلس بذكرهم مع الأمراء والملوك، فمنهن العبادية جارية المعتضد بن عباد، التي أهديت له من مجاهد العامري، وكانت أدبية ظريفة، كاتبة شاعرة، لم يستطع علماء إشبيلية على براعتهم في علوم اللغة وآدابها مقارعتها ومجاراتها في غريب اللغة، بل كانت تخاطب سيدها خطاب العاشق والمعشوق دون التأثير بالمنزلة الاجتماعية أو السياسية، فقد سهر ليلة لأمر حَزَنَ وهي نائمة فقال:

تنام ومُدْنَقُها يسهرُ وتَصْبِرُ عنه ولا يَصْبِرُ

فأجابته:

لئن دامَ هذا و هذا به سَيَهْلِكُ وَجَدًا ولا يَشْعُرُ⁽²⁾

فالمرأة الشاعرة هنا خطت لنفسها مسارا قفزت فيه على الأعراف والتقاليد، فهي تساجل وتخاطب المعتضد الذي عرف بقسوته وجلادته⁽³⁾، لكنه كان رقيقاً معها لتبلور صورة شاعريتها وأدبها في وجدانه.

هذا وقد كان دأب ملوك وأمراء الطوائف اختبار مواهب الجواري من حين لآخر، فتسطع أو تأفل بذلك مكانتها عندهم، فهذه الجارية غاية المني يبلغ من إعجاب المعتصم بن صمادح أن يشتريها بأثمان مرتفعة، وهو مؤثر قوي على وجه التقدير للشاعرة، حين أراد " اختبارها فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: غاية المني، فقال أجزني: أسألوا غاية المني".

¹ حياة قارة، المرجع السابق، ص 81-82.

² ابن الأبار، المصدر السابق، 233/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 428/5-429. المقرئ، المصدر السابق، 283/4. سالم سيسالم، المرجع السابق، ص 521. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 346. كرراز فوزية، المرجع السابق، ص 63. المنوني، ثقافة، ص 199. حياة قارة، المرجع السابق، ص 101. سهى بعيون، المرجع السابق، ص 487.

³ استخدم المعتضد بن عباد العنف في توطيد أركان مملكته، وبالغ في القسوة التي انتهت به إلى عدم الشفاعة حتى بابنه الذي قتله، كما مثل بجثث أعدائه، ثم وضع حديقة تحتوي على جماجمهم المهداة إليه مقرطة الأذان براقع الأسماء المنوطة لحاملها، وكانت ترتاح نفسه لهذا، ولم يكتف بهذا، وإنما عمد إلى الاحتفاظ بمجموعة من رؤوسهم أيضا في خزانة خصصها بالصون وبالغ في تطييبها وتنظيفها، ولاشك أن اعتماده على التصفية الجسدية انبثقت من تصورات ومواقف جعلت العنف مبررا للحكم، وإن كانت هذه التصفية من سمات العصر الذي طغت عليه ذهنية سياسية كانت ترى أن أعمال القتل والتعذيب من الأمور العادية والمشروعة. ابن بسام، المصدر السابق، 27/1/2. المراكشي، المعجب، ص 153. ابن عذارى، المصدر السابق، 244/3. ابن الخطيب، أعمال، ص 156.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

فأجابت : اسألوا غايةً المني من كسا جسمي الضنى

وأراني مولىها سيقول الهوى أنا⁽¹⁾

ولا بد أن مشاطرة المعتصم وغيره من ملوك الطوائف في بلاطاتهم للأدب وفنونه؛ من منطلق شغفهم بالأدب، ورغبتهم في الرقي بهذه الصناعة، تشجيعاً لأهلها وقدحاً لزناده أفكارهم، دون تمييز وتفضيل بين جنس الرجال أو النساء، معلم مفصلي في بروز هكذا صور نسائية.

ومن أشهر النساء إشراق السوداء التي قرن اسمها بالعروض، ولاغرو أن الشهادة الرجالية وطابع الانبهار الذي بدا على شيخها الذي يعد علم من أعلام العروض، كما تلامذتها؛ يرسم خطأ لتوقعها واحترامها، وينهض مبرراً على صورة الأدبية المتميزة، فقد اعتاد سليمان بن نجاح الإشارة إلى أنه أخذ "عنها العروض وقرأت عليها النوادر لأبي علي والكمال لأبي العباس المبرد، وكانت تحفظ الكتابين ظاهراً تنصهما حفظاً وتتكلم عليهما"⁽²⁾.

ليدخل وجه التميز واثبات جدارتها في وجه الشاعرة المساجلة، لا عند الشعراء فحسي، بل حتى عند الملوك الشعراء، وكانت هذه المساجلات الشعرية أو المطارحات مسرحاً لصورتها الآتفة، فهي حفيظة بمعاني ورموز المبارزة والتنافس؛ وسرعة البديهة وحدة الذكاء، كما تكشف عن ندية للشعراء الرجال، ورغبة منهن في الظهور والإعلان وشرف المنافسة مع الكبار من شعراء عصرها، ويكفي لتبيان صحة هذا التخرّيج ما جسده الشاعرة الرميكية في حضور ملكتها الشعرية بأبيات تقارع بها الآخر الشاعر، فقد وردت في الأخبار أن المعتمد بن عباد قد ركب ذات يوم النهر، ومعه ابن عمار نديمه، وصديقه، ووزيره وقد زردت الريح النهر فقال المعتمد لابن عمار أجز: صنع الريح من الماء زرداً .

فأطال ابن عمار الفكرة ! فقالت امرأة من الغسالات على النهر: أيّ درعٍ لقتال لو جمّد؟ فانبهر ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار⁽³⁾، وكلاهما مما لا يخفى تذوقهما للشعر وقوله، والذي لاشك أنه

¹ ابن الأبار، التكملة، 234/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 420/5. المقرئ، المصدر السابق، 286/4-287. حياة قارة، المرجع

السابق، ص 100. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص 60. سهى بعيون، المرجع السابق، ص 472.

² ابن الأبار، نفسه، 232/4. ابن عبد الملك، نفسه، 410/5. المقرئ، نفسه، 171/4. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 226.

عبد العزيز بن عبد الله، المرأة المراكشية، ص 266. محمد الأمين بليغ، الحياة الفكرية، 523/1.

³ المقرئ، المصدر السابق، 211/4. صلاح خالص، المعتمد بن عباد، ص 30-31. كرزاز فوزية، المرجع السابق، ص 63. سحر سالم عبد

العزیز، بحوث مشرقية ومغربية، ص 185. حياة قارة، المرجع السابق، ص 100-101.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

برهان على حسن ما أتت به، وتمثل لوجه الشاعرة الواثقة من نفسها، في ملمح يعكس ما بلغته المعرفة النسوية؛ كمكون أساسي في الحركية الفكرية لمنطقة الغرب الإسلامي.

ولعل ركون المعتمد لها مؤشر على ذكائها وتشابه خصالهما برهان على صورة الشاعرة المتميزة لذا " كثيرا ما يأنس بها، ويستظرف نوادرها، ولم تكن لها معرفة بالغناء وإنما كانت مليحة الوجه حسنة الحديث حلوة النادر كثيرة الفكاهة لها في كل ذلك نوادر محكية"⁽¹⁾، وهو ما يعكس أن شعر المرأة صار نموذجا لاقتحامها هذا الميدان الذي يراه الرجال حكرا عليهم، بعد أن حملت سلاح الرجل نفسه.

كما كانت هذه الزوجة تشاطر زوجها هوى الأدب ونظم الشعر، مساهمة بنصيب وافر في ارتقاء المستوى الأدبي الرفيع، الذي بلغته إشبيلية في عهد المعتمد ، فمما جاء على لسانها حال سجنه بأغصات تتأسف على زوجها" ياسيدي لقد هُنا هُنا" فنظم المعتمد أبياتا قال فيها:

قَالَتْ لَقَدْ هُنَا هُنَا مَوْلَايَ أَيْنَ جَاهُنَا

قُلْتُ لَهَا إِلَى هُنَا صَيَّرْنَا إِيَّاهُنَا⁽²⁾.

خاصة أن المرأة أرق عاطفة، وأشد حزنا، وأكثر من تظهر عليه أمارات الحزن وينطبع معه الرثاء الذي يعبر عن اللوعة والحسرة والبكاء.

وكانت الغيرة الأدبية مؤشرا على علو كعب بعض الشاعرات ومصدرا لصورة الشاعرة الحذقة، فقد كان لولادة جارية سوداء بديعة المعنى تعرف بعتبة، فظهر لولادة أن ابن زيدون جنح إليها لعدو أن أنشدته أبياتا أعجب بها⁽³⁾، ويبدو أن عائق اللون لم ينقص من تبلور وجه التميز من الشاعر ابن زيدون، خاصة إذا أظهرت ما يدل على شاعريتها وأدبها الجميل.

وفي كثير من الأحيان ما غدت صورة الشاعرة النبيهة معبرا لارتياح المجالس الأدبية وطرفا أساسيا فيها، بل كثيرا ما كانت تتلقى دعوات لحضور هذه المناسبات عصر المرابطين، خصوصا لمن زاوجت بين الغناء وإنشاد

¹ المقرئ، المصدر السابق، 272/4.

² ديوان المعتمد، ص114. المقرئ، نفسه، 112/4.

³ ابن بسام، المصدر السابق، 431/1/1. السيوطي، نزهة، ص88. المقرئ، نفسه، 205/4. عمر قلعي، المرجع السابق، ص372. حياة قارة، المرجع السابق، ص82.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

الشعر، فقد كتب أبو عامر ينق⁽¹⁾ إلى هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي (ت590هـ/1194م) يدعوها للحضور عنده بعودها:

يا هند هل لك في زيارة فتية نبدوا المحارم غير شرب السلسل

سمعوا البلابل قد شدوا فتذكروا نغمات عودك في الثقل الأول

فكتب إليه في ظهر رقعة تمدحه:

يا سيداً حاز العلاء عن سادة شم الأنوف من الطراز الأول

حسي من الإسراع نحوك أنني كنت الجواب مع الرسول المقبل⁽²⁾

وتعكس القصيدة المادحة هنا العلاقة المركبة التي تجمع بين الشاعرة الجارية والممدوح السيد، في إطار التأثير والاحترام المتبادل بينهما؛ من منطلق شغفهم بالأدب، ورغبتهم في الرقي بهذه الصناعة.

2- في مجال العلوم:

إن من يتصفح كتب التراجم والمؤلفات التاريخية لهذا العصر سيخرج بانطباع قد ييخس المرأة ولا يعطيها حقها في مجال العلوم العقلية، ذلك أن المصادر تركز إلى الاهتمام بالرجال أولاً، ولا يجوز بحال من الأحوال أن نحكم على الجهود العلمية التي قامت بها المرأة بالمقارنة بالجهود التي بذلها الرجل، دون أن ننظر بعين الاعتبار إلى خصوصية هذه العلوم، وما كلفت به من العناية بأسرتها، مما سيستغرق جل أوقاتها، بينما الرجل لا يلزم بذلك، فعنده الوقت الكثير ليصرفه في مختلف الأنشطة، كما أن وصف المرأة بالافتقار إلى الحس العلمي فيه من الضعف وغمط الحق الذي لا يجب أن يقول به عاقل، لهذا ودون تحيز نستطيع القول أن المرأة أدلت بدلوها في هذا المجال على قلة النماذج.

¹ هو محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة بن ينق الشاطبي أبو عامر، أديب وطبيب أندلسي من أهل شاطبة، له تواليف متعددة تنوعت بين الأدب والتاريخ، توفي سنة 547هـ-1153م. ابن خاقان، قلائد، 552/1. ابن سعيد، المغرب، 388/2. ابن عبد الملك، نفسه، 154/2-155.

² ابن الأبار، التكملة، 240/4. المقرئ، المصدر السابق، 293/4-294. عمر قلعي، المرجع السابق، ص365. حياة قارة، المرجع السابق، ص176-177.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ومن الواضح أن إتقان بعض الجواري لعدد من العلوم العقلية غدى صورتهم المثلى، فهن مؤهلات "للشروع في علم صالح من الطب ينسب بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من منتحلي الصناعة"⁽¹⁾ بل أتقن علوما متعددة فكن "منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقيات أسطرلابيات معدلات نجوميات... وعلوم العرب من الأنواء والأعاريض والأنحاء وكتب المنطق والهندسة"⁽²⁾، ومع ما ينتاب هذه الرواية من طابع المبالغة المبثوثة من شخص اعتاد تسويق القيان، إلا أنه لا ينفي ما بلغته بعض النسوة في ميدان العلوم العقلية والرغبة في تعلمها.

وكانت بعض الطبيبات أو من هن في صنفهن قد قاربت في كثير من الأحيان حد الاحتراف، لتبلغ بموجبها شأوا عظيما في وجدان الأطباء الرجال، وحسبنا في ذلك وجود عدد معتبر من الجواري اللائي تخصصن في مجال أمراض النساء، مما يغير في أذهاننا الصورة النمطية للجارية كرمز للمتعة واللهو فقط، وخير مثال على ذلك جارية الطبيب أبي بكر عبد الله الكتاني التي شهد لها بالبراعة في علوم متعددة ناهيك عن المعرفة بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح⁽³⁾، ولا مشاحة أن الاعتناء بالطب مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية، ورافد مهم لعلاقة العلم بحياة الناس وحفظ أبدانهم ورعاية أجسامهم، ناهيك عن تماشيه مع الذهنية السائدة التي تركز على حرمة النساء في وسط يقدر حجب المرأة وصونها؛ في وقت ندر فيه الطب العملي النسائي.

ويبدو أن شيوع منتحلي الطبابة عصر الدراسة والذين أضروا بالناس مفسر للوجه المتحفظ للنساء الطبيبات، مشكلا بذلك مفرغا لبعض شوائب التجربة الطبية النسوية بالعدوتين، ولهذا تعالت الأصوات المنبهة على ذلك، فقد ألح ابن عبدون الحريص على سلامة أفراد المجتمع الصحية والنفسية أنه "يجب ألا يترك أحد يتصور في شيء لا يحسنه، لاسيما صناعة الطب الذي فيه إتلاف المهج... لاسيما النساء، فالجهل والخطأ فيهن أكثر"⁽⁴⁾، ويفهم من النص أن شدة الحذر من هذه المهنة ارتبط بانتشار الطب الشعبي المفتقر إلى المهنية كما جاء في النص، والذي ضاعف وجه التحوط، خاصة أن الاندماج في هذا النوع من العلم كان في غالب

¹ ابن بسام، المصدر السابق، 112/1/3. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 227. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص 17.

² ابن بسام، نفسه، 320/1/3. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 468.

³ نفسه، 112/1/3.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 46. كرزاز فوزية، المرجع السابق، ص 90.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعي الثقافي والديني

الأحيان دون تكوين أو ممارسة علمية، والذي يبدو أنه انعكس في المحصلة على قلة عدد الطبيبات المختصات والقبالات.

ونضج في محطة أخرى صورة الولية الخارقة المداوية التي تنهض بأعباء التطبيب عند عجز الطب العلمي⁽¹⁾، وهو ما يحيل مرة أخرى إلى ما وصله الطب الروحي من انتشار وقبول في منظور عدد متزايد من مجتمع الغرب الإسلامي، نتيجة استعصاء الشفاء.

3- الفنانة:

يعتبر مجال الفنون من خط ورسم وعمارة وموسيقى من أهم المجالات التي تبدت فيها صور نسائية متلونة ومتعددة؛ مع الاعتراف بالتفاوت في بروز أو خفوت الصور في العديد منها.

أ- الخطاطة:

لعبت النساء في الغرب الإسلامي دوراً متميزاً في ميدان الوراق والنساجة، جعل رؤى المجتمع لهذا المردود يتباين اتجاههن، خاصة أن الحديث عليهن مرتبط بكل ماله علاقة بالحركة العلمية والمكتبية على وجه الخصوص.

وقد أكد أعلام الفكر الإسلامي الوسيط صورة المرأة الخطاطة الماهرة، التي لاقت قبولا حسنا من لدن الناس والمجتمع، فهذا ابن خلدون عدها "صناعة شريفة"⁽²⁾. ومما أثر عن أخبار قرطبة على وجه الافتخار أنه "كان أهل الرض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي"⁽³⁾، وليس بغريب أن القرآن الكريم أكثر استنساخا وعناية، إذ يقرأه التلاميذ، ويتلوهم المصلون، بل كان الأحسن من حيث الشكل وتجويد الخط وفخامة التغليف، سواء ذلك لغرض الريح أو تبركا به⁽⁴⁾، حتى أن بعضهن كن ينسخن القرآن في أسبوعين⁽⁵⁾، ويفهم من هذا أن مجتمع الغرب الإسلامي سواء كانوا علماء أو طلاباً؛ أو حتى من

¹ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 237.

² ابن خلدون، مقدمة، 879/2.

³ المراكشي، المعجب، ص 372. خوليان ريبيرا، المكتبات، ص 72. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص 378. حياة قارة، المرجع السابق، ص 116. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص 55.

⁴ عصمت عبد اللطيف دندش، نفسه. خوليان ريبيرا، نفسه ص 94.

⁵ خوليان ريبيرا، نفسه، ص 72.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

العامة وعلية المجتمع، قد بلغوا في تذوقهم الفني شوطا كبيرا مسارعين في اقتناء الكتب التي خطها أمهر الخطاطين والنسخة⁽¹⁾، وهو بلا شك مرآة عاكسة لما وصلت إليه الحياة العلمية في الغرب الإسلامي، وتعكس ثقافة تداول الكتاب والتأليف.

ويبدو أن للتذوق الفني في عصر تعددت فيه الإمارات والملوك وتمددت فيه العلاقات الثقافية، وتبارى الملوك في تحريض الشعراء والعلماء والنساخ على التأليف والإتقان في إخراج الكتب، "إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما"⁽²⁾ دورا في زيادة الطلب على أحسن الطبوعات والنسخ دون اعتبار لجنس مبدعها، ومنشطا لتبلور وجه الخطاطة المتمكنة، كما كان دخول المرأة متعلمة، ومن ثم عالمة في الغرب الإسلامي معبرا لهذا البروز⁽³⁾، ولا يعدم من جهة ثالثة تفرغ المرأة ومناسبة هذا الفن لطابعها الجسمي والنفسي، من الصبر والأناة؛ والبراعة في الأعمال اليدوية وسحر الأنامل التي يحتاج إليها هذا الفن⁽⁴⁾.

وقد برزت طائفة من الخطاطات والناسخات من ذوات الاختصاص بالأندلس عصر الطوائف، أمثال فاطمة بنت زكريا (ت427هـ/1035م) الشبلاوي، والتي وسمت بإتقان الخط إتقانا لفت إليها الأنظار وجعل ابن بشكوال يصفها بالأديبة الشاعرة الموصوفة بحسن الخط ونسخ الكتب الطوال⁽⁵⁾، ولاغرو أن حرص العلماء ورجالات الفكر على ضبط موازين الخطوط بدقة، والمفاضلة بين الخطوط الحسنة والرديئة دور في هذا التفنن المفضي إلى صورة المرأة الخطاطة الخبيرة. وكان لشدة الإقبال على الكتب، لا سيما ما كان منه بخط وتجليد جيد؛ عاملا مساعدا على رسم صورة المرأة الخطاطة الماهرة، بالإضافة إلى شيوع بضاعة العلم عصرئذ⁽⁶⁾؛ إذ

¹ وقد انتشرت بالشرق الإسلامي في نفس الفترة ظاهرة تسابق الناس على الكتب المنسوخة بخط جيد، ولعل من أهم النسوة اللاتي كان لهن السبق والشهرة في هذا المضمار فاطمة بنت الحسن بن علي الأقرع (ت480هـ/1087م). وجدان حسن العزايزة، المرجع السابق، ص116.

² ابن خلدون، مقدمة، 889/2.

³ محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص170. أنجل جنثال بالثيا، المرجع السابق، ص35.

⁴ ابن رشد، الضروري، ص124.

⁵ كتاب الصلة، 325/2. مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية، ص329. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص204. حياة قارة، المرجع السابق، ص118.

⁶ يروي الحضرمي قصة فيها من الدلالة على انتشار سوق الكتب في الأندلس، فيقول "أقمت مرة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطله اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصا عليه لباس رياسة، فدنوت منه، وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، قال: فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكنني أقمت خزانة كتب، احتفلت فيها لأتجمل بما بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه". المقرئ، المصدر السابق، 463/1.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

استثمر أسياذ بعض النسوة هذا الجانب في الإثراء المالي، وحسبنا في ذلك الخطاطة ربحانة التي أبدعت في الحقل⁽¹⁾، ناهيك عن توظيف العنصر النسوي ليكن متمرسات في فن الخط، والذي يدل على وجه مرموق للمرأة الخطاطة، في زمن زاد فيه الاعتناء بالعلوم وتوج فيه المتعلمون دون اعتبار للجنس بأعلى درجات الاحترام والمكانة الرفيعة لهن، وابن الكتاني في عصر الطوائف أحد هؤلاء الذين أحسنوا تكوين النسوة الجوارى على العلوم المختلفة، ومنها الخط عندما يقول: "في ملكي الآن أربع روميات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات... أدبيات خطاطيات..."⁽²⁾، كما كان امتلاك الجوارى لمؤهلات بعينها مؤشرا على صورتهم الفضلى، ومنبع لوجه الخطاطة المحبب، فهذه إحدى الجوارى التي رباهن ابن الكتاني وباعها إلى الأمير هذيل ابن رزين أمير السهلة بالأندلس بثمان مرتفع، إذ كانت واحدة في وقتها، لم ير مثلها " لا أجود كتابة ولا أملح خطا ولا أبرع أدبا"⁽³⁾، حرصا منه على إعداد فئة من النسوة لهن معايير ومقاييس محببة، تجمع بين التكوين العلمي والعلمي، تجذب إليهن أنظار الملوك والأمراء والأثرياء.

وما افتخار الشاعرة صفية بنت عبد الله الربيعي (ت417هـ/1027م) بحسن خطها عندما عاتبت امرأة خطها إلا تمش على وجه الخطاطة الغيرة والمدافعة على هذا الفن عندما تقول⁽⁴⁾:

وعائبة خطي فقلت لها أقصري فسوف أريك الدر في نظم أسطري

وناديت كفي كي تجود بخطها وقرئت أقلامي ورق ومحبري

فخطت بأبيات ثلاث نظمتها ليبدو بها خطي وقلت لها انظري

وفي العهد المرابطي لمعت كثير من النساء اللاتي كان لهن باع طويل في فن الكتابة، حتى أنها أصبحت تنافس الرجل جنبا إلى جنب في هذا المجال، وهي نظرة تنم عن نظرة احترام وتقدير، مثل ورقاء بنت يثان الطليطلية التي سكنت فاس وبرعت في الخط⁽⁵⁾، ناهيك عن مريم بنت إبراهيم بن الطفيل المرادي

¹ الضبي، المصدر السابق، 732/2.

² ابن بسام، المصدر السابق، 320/1/3. حياة قارة، المرجع السابق، ص173.

³ ابن بسام، نفسه، 112/1/3. مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص45. حياة قارة، نفسه، ص174.

⁴ الحميدي، المصدر السابق، ص600. الضبي، المصدر السابق، 729/2. ابن بشكوال، المصدر السابق، 324/2. كراز فوزية، المرجع السابق، ص67. حياة قارة، المرجع السابق، ص119.

⁵ ابن الأبار، التكملة، 237/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 426/5. أبي جعفر أحمد، صلة الصلة، 457/3. ابن القاضي، المرجع السابق، 533/2. الحسين اسكان، المرجع السابق، ص72.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

(ت1150/545) التي كانت ذات خط بارع وقريحة جيدة كما أشار إلى ذلك ابن الخطيب⁽¹⁾، وكذلك الحال عند الخطاطة طونة بنت عبد العزيز⁽²⁾.

وهذه فاطمة بنت أبي علي الصدي يترسم معها -بالإضافة لحفظها للقرآن والقيام عليه- وجه الخطاطة المتقنة، فحسن وجمال خطها المشهود له من وراقي عصرها، أقول هذا الحسن دعمه الالتزام بمداومة مطالعة الكتب وخطوطها، والوقوف على أجودها⁽³⁾، في وقت وصلت فيه شهرة مسلمي إسبانيا ومقدرتهم على النسخ والتجليد والتزويق إلى المشرق⁽⁴⁾، ويظهر ذلك الاهتمام بالخط وتجويده، توقا لأقصى درجات الإجادة.

في حين يركن تصور الشاعرة والأديبة أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي للخطاطة إلى التبرم لكساده مقارنة بالعلوم، على الرغم من تأخرها عن عصر الدراسة، ويمكن التخمين أن لتكمش سلطة الإسلام في الأندلس وانعكاساته على الوقع الثقافي دور في هذا التبرم، وهو وضع مشابه لما كان في عصر الطوائف من استفاقة للمسيحيين؛ عندما تنشد قائلة⁽⁵⁾:

الخط ليس له في العلم فائدة وإنما هو تزيين بقرطاس

والدرس سؤلي لا أبغي به بدلاً بقدر علم الفتى يسمو على الناس

ولعل تفضيلها للعلم والتعليم نابع من علو مكانته، مقارنة بالكتابة والخط التي تعتبر تمظهرها له، ولاحق من لواحقه، ومؤشرا عليه.

ب- المغنية:

شكل الغناء والموسيقى وجها لا يمكن إغفاله من تراث أمم الغرب الإسلامي عصر الطوائف والمرابطين، ومعبرا لتفهم صورة طائفة هامة من مجتمع الغرب الإسلامي، حتى قيل إذا أردت أن تعرف مبلغ حضارة أمة

¹ محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 521/1.

² ابن بشكوال، المصدر السابق، 327/2. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 455/3. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 204. حياة قارة، المرجع السابق، ص 118.

³ ابن الأبار، التكملة، 243/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 421/5. محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، 521/1.

⁴ خوليان ريبيرا، المكتبات، ص 73.

⁵ ابن الخطيب، الإحاطة، 431/1. مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية، ص 330. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص 103. حياة قارة، المرجع السابق، ص 120.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

فأسمع موسيقاها، في وقت بلغ فيه المستوى الحضاري شأوا معتبرا، امتزج فيها الغناء العربي بغناء تلك الشعوب المفتوحة، لينخرط فيها الخاصة قبل العامة، بعد أن اتخذوا منها وسيلة للترفيه والتسلية.

ويعتبر عصر الطوائف من أزهى العصور التي شهدت فيها الموسيقى والغناء ثورة حقيقية، نظرا للبدخ والترف والثراء الذي شهدته البلاطات المختلفة، ليسود فيه وجه مرموق للمغنية، وحسبنا في ذلك ما صدح به ابن حزم على اعتباره المرأة العاكسة لذلك العصر، إذ ترك انطبعا جميلا عند حضوره لأحد مجالس علية القوم، باستلطافه لظرف جارية مغنية سريعة البديعة حاضرة الخاطر، تفهم في مهنتها⁽¹⁾، ولم تقتصر مجالس اللهو والترف وسماع القينات على الملوك فحسب، بل تفشى هذا الخط بين طبقات مجتمع الغرب الإسلامي، وأصبح أمرا أساسيا في حياتهم يمارسونه بشكل اعتيادي مقبلين على المرح والإقبال على الملاهي والغناء⁽²⁾، بل يستشعر نظرة اعتزاز بالمرأة المغنية في خضم فخرهم بالمدن الأندلسية وما تحتويه من صنوف متعددة للفنون من غناء وكثير "من أصناف أدوات الطرب"⁽³⁾.

وتشير النوازل أن بعض النسوة والجواري بالخصوص عشقن الغناء، وبلغن فيه شأنا عظيما، ليتحمر معه منظور محترم لعملها، ويتضح ذلك في المرأة المغنية المصونة الحقوق، إذ أن رجلا من أهل المغرب كان يقتني جارية تغني في الأعراس وغير ذلك من المناسبات الأسرية السعيدة، مقابل أجر معلوم، ويضيف بأنه لم يكن يجوز لمولاه أن ينتفع بأجرها⁽⁴⁾، مع أن هناك شريحة العلماء وقفت بين التحريم والنهي عن معظم آلات اللهو والموسيقى والغناء، والتي ألقت بحظها على صورة المرأة المغنية الدونية، لتتجاوزوها في جانب متقدم الاشتزاز من تلبية دعوة الوليمة التي فيها مختلف صنوف الموسيقى والغناء إلا ما كان من صوت الدف⁽⁵⁾، وما تكرر ربط إجابة الدعوات للأعراس بحضور المغنيات إلا مؤشر آخر على الرؤية الحذرة، فقد "يسمع مالا يحل من أصوات النساء وغير ذلك أم لا؟ والأخرى الدف الذي اتخذوا في هذا الزمان..."⁽⁶⁾، فهي والحالة هذه مرتبطة إلى حد

¹ ابن حزم، رسائل 1/ 135.

² العذري، المصدر السابق، ص 18. كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ مدينة بلنسية، ص 247. سحر سالم عبد العزيز، بحوث مشرقية ومغربية، ص 86.

³ المقرئ، المصدر السابق، 3/ 213.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 5/ 188.

⁵ البرزلي، المصدر السابق، 2/ 431.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، 3/ 252.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

بعيد بالأجواء المحيطة بالعرس والمنكرات التي تحدث خلاله من اختلاط⁽¹⁾ وشرب للخمر، وما يحدثه الغناء من تحفيز لذلك⁽²⁾، وعزز ذلك أن بعض الأعراس بالأندلس كانت تقام في الشوارع⁽³⁾، مما حذا إلى التشدد معهن والإلحاح على أن "يمنعوا من ذلك ويزجروا عنه"، سيرا على تفهم العلاقة بين منع متع النظر كما السمع، كحاجز أولي يحول دون الانزلاق نحو الفتنة، بل معاقبة كل "من قام معتنيا بهم وذابا عنهم"⁽⁴⁾، وحرمة الانتفاع بأجرها، بل لزم عليه التصديق بهذا المال إذا ما توفيت⁽⁵⁾، لتبلغ مداها عند استتابة كل إمراة مغنية سمع بها أو بلغ نشاطها، فإن عادت عزرت ونفيت من البلد⁽⁶⁾، لتكون عبرة لغيرها من النساء والرجال على حد سواء، ولتحصين المجتمع من انتشار الرذيلة والفحشاء بينه، ما ينهض دليلا على تبلور صورة سوداوية لهن في أوساط القضاة والفقهاء، لا سيما في أهم مراكز العبور (ترانزيت) القوات المرابطية والموحدية فيما بعد إلى الأندلس⁽⁷⁾.

ويبدو أن حياة الترف والبذخ التي عرفت فئات كثيرة من المجتمع دور في حضور صورة محبة للمغنية في المجتمع، ولا مشاحة أن لطبيعة البلاد من جمال أحاد وتحسن في الوضع الاقتصادي والاجتماعي دور في شغفهم هذا، وما وجود أدوات الطرب في بلادهم ما لم يوجد في غيرها من البلاد إلا تدعيم لذلك، حتى اشتهر الكثير من أهل الأندلس بميلهم إلى الغناء وحبهم للمغنيات وكل ما يمت بصلة للطرب، مما يحيل بالضرورة على صورتها المحببة بل والضرورية على شرائح عريضة من المجتمع، ومن مظاهر ذلك ما ذكر عن مدينة بلنسية التي "لا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك،

¹ يمكن هنا طرح تساؤل مشروع حول ظاهرة الاختلاط وازدواجية المعايير حولها في نفس الزمان والمكان، ففي هذه الحالات وحالات مماثلة كثيرة وقف المجتمع بشرائحه المتعددة في كثير من الأحيان موقف المعارضة، في حين كانت محط ذكر وإشادة عند تعديد مناقب بعض الأولياء وقت تشييعهم والإصرار على أنها كانت "كثيرة الجمع، برز إليها الرجال والنساء"، ابن الخطيب، الإحاطة، 186/1. أم أن الحدث والمتحدث عنه يفرض حالته وشروطه، في ظل ذهنيات جمعية متعاطية إلى حد كبير معها، ثم إذا كان الاختلاط مكروها بصفة عامة لم شرعن في هذه القضية، صحيح في كون طقوس وتفاصيل المناسبتين تختلف من قبيل الوقار والانطلاق، الحزن واللهو، المناسبة في حد ذاتها ورمزيتها، لكن في المحصلة يبقى الاختلاط اختلاطا؟

² البرزلي، المصدر السابق، 432/2.

³ الحميدي، المصدر السابق، ص 204. ابن حزم، رسائل، 316/1.

⁴ القاضي عياض، المصدر السابق، ص 87. الونشريسي، المصدر السابق، 533/2. 252/3.

⁵ الونشريسي، نفسه، 188/5.

⁶ الشيزري، المصدر السابق، ص 110.

⁷ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 93.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني، يقولون عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك، وقد أحرقت أن مغنية بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة، وأمل دون الألف فكثيرات...⁽¹⁾.

كما كانت قصص المغنيات أكثر من أن تحصى، وحسبنا ما اشتهرت به إشبيلية في عصر الطوائف باحتضان الغناء الأندلسي، وتعد شهادة المقرئ مثالا صادقا على عشق أهل المدينة للغناء وكثرة جواربها المغنيات حتى قيل " أنه إن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية"⁽²⁾، ولعل الطبيعة الخلابة التي حظيت بها إشبيلية والرخاء الذي عرفه أهلها هي التي جعلت أهلها يتجهون للطرب وحب الغناء.

وليس ببعيد أن الانتقاد المنهجي الموجه من طرف المراكشي لابن الأبار يخفي من ورائه موقفا من طبقة القينات المغنيات عندما يقول: "... وأقبح من هذا كله وأشنع ذكره نساء تنزه الصحف عن تسويدها بذكرهن فيها مع أهل العلم الذين هم خواص عباد الله، اللهم إلا من قصد في تأليفه إلى ذكر أهل البطالة والمجان والقيان اللواتي يكاد الخوض في ذكرهن يكون وصمة وجرحة فيمن تعرض له. نستعيد بالله من أعمال القلم في ذكر واحدة منهن، ونرى الإعراض عنه ديناً... إنها لعشرة لا تقال، وزلة لا تغتفر، وسيئة لا تكفير لها، وكبيرة يجب المتاب منها"⁽³⁾، وهو ما يعبر بصدق عن الفرق بين الطبيعة الأدبية المرنة لابن الأبار التي لم تتحرج من التعرّيج عليهن على اعتبارهم من نواتج الفعل الثقافي، وأخرى ذات نظرة فقهية متشددة.

ومع أن الدولة المرابطية التي وجهها عبد الله بن ياسين إتكتأت على التعاليم الدينية الإسلامية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي كان يدعو إليها بنفسه، إلا أن الصورة المذمومة للمغنية كانت حاضرة بقوة، وشفيعنا في هذا التخريج تلك الاجراءات المتشددة التي اتخذت نحو هذه الفئة، إذ تشير المصادر إلى أن المرابطين في بداية دعوتهم قد حاربوا وسائل اللهو بما فيها الغناء النسوي، فعندما قدم المرابطون إلى المغرب الأقصى حرص داعيتهم عبد الله بن ياسين على الغاء كافة وسائل اللهو، وفي هذا الصدد يتحدث ابن أبي زرع عن توسعته في سجله بقوله: " وأقام بها حتى هدها، وأصلح أحوالها، وغير ما وجد فيها من المنكرات، وقطع المزامير..."⁽⁴⁾، ويبدو أن قطاعا عريضا من فقهاء الدولة المرابطية وقفوا موقفا متشددا من الغناء

¹ العذري، المصدر السابق، ص18.

² المقرئ، المصدر السابق، 1/155.

³ المراكشي، الذيل، 1/207-208. محمد زنيبر، المرجع السابق، ص90.

⁴ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص128. مصطفى نشاط، المرجع السابق، ص65.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

والمغنيات وكل ما يمت بصلة إلى اللهو⁽¹⁾، ولاشك أن الفقهاء في هذا الموقف كانوا مستحضرين لنماذج من عهد السلف الصالح حينما كان يتحدث عن هذا الموضوع، وكان يقاس على أساسها صلاح وفساد المجتمع.

غير أن تلك الحدة التي ظهرت في بداية أيام الدولة أخذت تخف وتأفل شيئا فشيئا، ليعوضها وجه محب لها يوظف في العلاقات الدبلوماسية، فصارت هناك بعض الجواري اللاتي يحسن الغناء من ضمن الهدايا التي أهداها يوسف بن تاشفين إلى المعتمد بن عباد⁽²⁾، ومع ما في الرواية من فائدة تاريخية تعكس روح ذلك العصر، لكن لا يعدم أن تكون المغنية وسيلة ولعبة سياسية من طرفه لجلب المعلومات حول مكان القوة والضعف، في ظل ما عرفت على هذه الشخصية الإشيلية من حب الجواري وامتلاء بلاطه بهن والمسارة لاقتنائهن، ولاشك أن حادثة رمي الجارية التي أشادت بالمرابطين في حضور المعتمد في النهر دليل على هذا المجال⁽³⁾، خاصة إذا أخذ في الحسبان قرب عهد يوسف بن تاشفين بنشوء الدولة، كما لا زالت نشأته الصحراوية مؤثرة فيه إلى حد بعيد، ولعل ما اشتهر به من ورع وزهد في هذه القضايا بالخصوص؛ مبرر قوي إلى التحفظ على الرواية.

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين مال مجتمع المرابطين إلى ألوان الترف خصوصا بعد احتكاكهم بالأندلسيين واطلاعهم على أساليب الحياة في المدن الأندلسية، مما جعلهم يتأثرون بحياة الرفاهية والمتعة التي كان يجيهاها أبناء الأندلس، وانتهى إلى الأسماع تلك المجالس التي يحضرها المغنون والشعراء⁽⁴⁾، بل أصبحت أدوات اللهو والغناء متوفرة في المدن المغربية ولدى قطاع عريض من عامة الناس، فهي بذلك لا تختلف عن الأندلس، وقد أشار البيدق إلى أن الحوانيت في آخر أيام العصر المرابطي كانت " مملوءة دفوفا وقرقر ومزامير وعيدانا وروطا وأربية وكيثارات وجميع اللهو"⁽⁵⁾، ويبدو أن الوضع لم يختلف كثيرا في العدو الأندلسية، إذ ارتقت الفئات العامة في الأندلس في عشق الغناء، فقد أوجدت لنفسها أغاني باللغة الدارجة تتردد في الأعياد والأعراس وفي مواسم قطف العنب وغيرها من المناسبات⁽⁶⁾.

¹ ابن الحاج، المدخل، 3/ 118-119.

² المقرئ، المصدر السابق، 4/ 276.

³ سحر سالم عبد العزيز، بحوث مشرقية ومغربية، ص 77.

⁴ ابن عذارى، المصدر السابق، 4/ 57.

⁵ البيدق، المصدر السابق، ص 24.

⁶ إحسان عباس، أخبار الغناء والمغنيين في الأندلس (539/138هـ)، مجلة الأبحاث، العدد 16، ج1، الجامعة الأمريكية في بيروت، 1963، ص 17.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ويفهم من إشارات بعض النصوص أن بعض أمراء المرابطين في الأندلس بالخصوص نظروا للقينة بعين الرضا والقبول، حتى أصبحن من المحضيات لديه، وحسبنا في ذلك أن الأمير أبو يحيى بن إبراهيم المعروف بابن تيفلويت صاحب سرقسطة كان لا يجد غضاضة في الاستمتاع بالقينات التي كانت تطربه بالغناء والشعر⁽¹⁾، خاصة وأن الشعر ارتبط بالغناء ارتباطا وثيقا، لأنهما معا يصدران عن العاطفة، ويعبران عنها، فبواعث الغناء هي بواعث الشعر، ثم إن لتمدد رقعة الدولة المرابطية وزيادة مواردها دورا في هذا التوجه، إلى جانب اندماجهم في الحياة الاجتماعية بالأندلس بكل ما تحمله من انطلاق في الحياة، رغم أن الجيل الأول من الأمراء استطاع أن يقاوم هذا التيار وهذه المؤثرات، إلا أن أمراء الجيل الثاني لم يصمدوا طويلا، فقد تغلبت الحياة بمتعتها وبهجتها ومسرقتها، فعاشوا حياة لا تختلف عن الحياة التي ألفها ملوك الطوائف.

ثم إن هناك إشارات كثيرة عما يكون في بعض المناسبات الاجتماعية من غناء ومزامير تخط معطى لندرتهم والحاجة إليهن، وحسبنا في ذلك ما تواترته الأمثال الشعبية للعامة والتي توحى بالحاجة إلى الزامر والمغنيات في العرس⁽²⁾، وما يمكن أن نفهمه من هذه الأمثال هو أن فن الموسيقى والغناء جَسَدٌ في المغرب والأندلس بالخصوص ثقافة الترويح عن النفس، فهي النافذة التي تنفس منها الملوك والعامة حتى ينسوا ولو لحظة واقعهم السياسي الممزق.

هذا ويبدو أن تساهل بعض العلماء والفقهاء مع موضوع سماع الموسيقى حمل في ثناياه عدم الرفض لعمل القينة، فكانوا يميلون رغم وظيفتهم إلى سماع المغاني كلون من ألوان التسلية⁽³⁾، ويرجح أن يكون ذلك اتجاه المغنيات الملتزمات بحد معتبر من الحشمة في القول والفعل، كما لا يستبعد أن لجو التفتح خلال عصر ملوك الطوائف، وانبساط الحياة دور في هذا التصور.

ولاغرو أن إنكار الأولياء والمتصوفة أَلقت بثقلها الكبير في مجتمع الغرب الإسلامي لهذه الممارسات واعتبارها من البدع وحرصهم على كسر المزامير ومحاربة مجالس الطرب والمجون، والتي كانت المرأة طرفا فيها إلى جانب الرجل، تمثل خطأ معروفا لنظرة الازدراء الملفوفة بالشفقة أحيانا، ويضرب مثلا لذلك بما رواه ابن الزيات في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الصنهاجي (ت596هـ/1199م) حول "سبب توبته أنه

¹ ابن سعيد، المقتطف، ص257. ابن الخطيب، الإحاطة، 219/1-220. المقرئ، المصدر السابق، 23/7. حياة قارة، المرجع السابق، ص179.

² جاء في المثل "دَلَّتْ زَامِرٌ فِي مَكْبَةِ عُرُوسٍ". الزجالي، المصدر السابق، 212/2. وقولهم: "مَنْ يَعْبِرُ نَوَقُ فِي يَوْمِ عُرُسٍ". نفسه، 296/2.

³ ابن فرحون، المصدر السابق، 49/1.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

كان في حادثته محبا في اللهو يغني في الأعراس ويضرب الدف، فخرج يوما مع جماعة من الشباب يغني لهم ويضرب دفه لهم، فأبصروا أبا شعيب السارية وهو مقبل إلى جهتهم، ففروا حياء منه وبقي وحده، فوصل إليه شعيب ودعا له، فنفعه الله بدعوته، فأقبل على العبادة ثم انقطع عن الناس واعتزلهم حتى لحق بالله تعالى⁽¹⁾، فعلى الرغم من عدم ذكر حضور المرأة في هذه الأخيرة إلا أن النصوص الأخرى أكدت بما لا يدع مجالا للشك ممارسة هذا الأمر إلى جانب الرجل⁽²⁾، والتي تنطبق عليها نفس النظرة في المقابل.

وقد ألقى الموقف من المغنيات عموما بظله على الفلسفة والفلاسفة، إذ يتلمس من كلام ابن رشد الحفيد الجنوح إلى قبولها، بل فسر ذلك بقوله أن النساء: "والرجال نوع واحد من الغاية الإنسانية، فإنهن بالضرورة يشتركن وإياهم فيها [في الأفعال الإنسانية]، وإن اختلفن عنهم بعض الاختلاف، أعني أن الرجال أكثر كذا في الأعمال الإنسانية من النساء، وإن لم يكن من غير الممتنع أن تكون النساء أكثر حذقا في بعض الأعمال، كما يظن ذلك في فن الموسيقى العملية، ولذلك يقال إن الألحان تبلغ كمالها إذا أنشأها الرجال وعملتها النساء"⁽³⁾، فقد كانت النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال، لأنهن في الغالب أندى صوتا، وأرق نغما، ولأن لجمالهن وأنوثتهن أثرا في الطرب لهن.

وانعكس هذا الفهم بدوره على اقبال الأندلسيين على الفن الغنائي كان اقبالا ليس فيه استنكار أو تأثم كبير، رغم أن المذهب الفقهي السائد هو المذهب المالكي الذي ينحو الى التشدد في تحريم آلات الموسيقى⁽⁴⁾. ويلافي الموضوع نظرة الشفقة للمغنية التي وقعت في أسر النصارى، ففي موقعة برشتر التي سقطت سنة 456هـ/1064م، حيث يشير صاحب الذخيرة في رواية " إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية - لمغنية السخين العين والدها التي كانت تشدو له على نشوانه، إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة - يناديها بلكنته - خذي عودك فغني زائنا يشجوك، قال: فأخذت العود وقعدت تسويه، وإني لأتأمل دمعها يقطر من خذها، فتسارق العليج مسحهن واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا، فضلا عن العليج، فصار من الغريب أن حث شره هو عليه، وأظهر الطرب منه..."⁽⁵⁾.

¹ ابن الزيات، المصدر السابق، ص311.

² الونشريسي، المصدر السابق، 2/533. 3/250. 5/188.

³ ابن رشد، الضروري، ص124.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص54.

⁵ ابن بسام، المصدر السابق، 3/187.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ويقترن التوسع المرابطي على حساب ملوك الطوائف في الأندلس بشيوع ظواهر لا أخلاقية، من قبيل شيوع الخمر ونوادي المجون والغناء، والتي ساعدت وسرعت تفسخ الحكم والمجتمع، محددة معها منظورا مشينا لمهنة القينة، فهذا يوسف بن تاشفين يقول في مجلس من مجالسه: "إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلائهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة، وإنما كان همهم أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه، وهو يقطع به أيامه"⁽¹⁾.

ولعل قرن التقوى والورع بالسؤدد وحسن التدبير؛ من أمارات نظرة الازدراء للمغنية القينة، فقد كان علي بن يوسف بن تاشفين "بطلا شجاعا حسن الركبة، سالكا ناموس الشريعة، مائلا إلى المستقيمين وكتب المريدين، قيل إنه لم يشرب قط مسكرا ولا استمع إلى قينة"⁽²⁾، بل إن تاشفين ابن علي بن يوسف والذي استمرت الحركة الموحدية في عهده تصفه المصادر بالأمير الذي "لم يشرب قط مسكرا ولا استمع إلى قينة ولا اشتغل بلذة صيد ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من سائر اللهو"⁽³⁾.

هذا وقد استمدت المعارضة السياسية على المرابطين أرضية انطلاقها من عناصر تنبع حسبها من روح الانتماء إلى الإسلام وتطبيق شرائعه ونظمه، ولاشك أن انتشار الغناء والمغنيات ملمح لتمرير هذا الإصلاح، فقد وظف فقهاء المعارضة الموحدية المغنية والتي طبعت عندهم وعند قطاع عريض من المجتمع بمنظور الاستهتار وتخفيف الخلاعة؛ في تأجيج السخط والتدمير اتجاه السلطة الحاكمة المرابطية، إذ عمل المهدي بن تومرت على تشويه الصورة الأخلاقية للمرابطيين ونعتهم بالانحياز عن تعاليم الدين، حيث كان دائم التنديد بالتساهل مع المغنيات، ما حمله على "كسر آلات الطرب" في كثير من الأحيان⁽⁴⁾، ولاشك أن هذه الإستراتيجية الأولية نجحت في تطهيرهم وتعبثهم للانخراط في حركته من خلال تركيزه على تعاطي المرابطيين للمحظورات والتي غدت مسوغا هاما لإسقاط حكمهم، على الرغم مما تحمله هذه الروايات من تضخيم ومبالغة والتي يشتم فيها رائحة الدعاية بين ثناياها، ووما يدل على رجاحة هذا التخريج أنه بمرور الوقت ومع توسع الدولة سيتضح أن خلفاءه لن يستطيعوا الوفاء للشعارات التي انطلقوا منها، لأن وضع المعارض أسهل بالقياس مع مرحلة تسيير أمور المسلمين.

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص 163.

² ابن الخطيب، الإحاطة، 448/1.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، 90/4.

⁴ البيهقي، المصدر السابق، ص 20. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 174.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ثالثا- النشاط الديني:

شاركت المرأة في مختلف أوجه النشاط الديني في فترة الدراسة، انطلاقا من إيمانها بجدواه وفائدته التي تعود على الفرد والجماعة، وكان هذا الحضور معبرا للعديد من الرؤى التي نسجت حولها وتمددت بين العدوتين.

1- الفقيه:

كان للنساء دورا كبيرا في النشاط الديني، فقد أمدتنا الكتب التراجم بعدد من أسماء الفقيهات اللاتي أسهمن في ازدهار الفقه وتعليمه لأبناء جنسهن، ويبدو أن صورة المرأة الفقيهة المتدينة لاقت قبولا حسنا من لدن الناس والمجتمع، فقد نال القرآن الكريم من الوراقين⁽¹⁾ والورقات كل اهتمام، وشهد عناية فائقة في نسخه وخطه أو تجليده وزخرفته.

فمما ذكر عن أخبار قرطبة أنه "كان أهل الربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكنبن المصاحف بالخط الكوفي"⁽²⁾، دلالة على وجود تخصص ومران وشبه احتكار من النسوة في هذا المجال، وليس بعيد أن الكتابة هنا ترافقت مع الحفظ والفقه بالأحكام المتعلقة بالقرآن لِلزوم ذلك، كما كان بالأندلس حافظات للقرآن الكريم، ترفع كل واحدة منهن قنديلا فوق باب بيتها إشارة إلى أن هناك حافظة واقتحارا بهذا الوجه⁽³⁾، وهي ظاهرة تستحق الإعجاب والتنبؤ، خاصة تميز النساء في هذا الميدان وبروز عدد كبير منهن حملن لواء الاعتناء بالقرآن، خاصة إذا تذكرنا عامل المنافسة الشديد بين ملوك الطوائف في تشجيع العلم والعلماء .

¹ تأتي قصة ابن غطوس محمد بن عبد الله البلسني (ت610هـ/1213م) لترسم دليلا على مدى الاعتناء بالمصحف وضبطه، فقد ابتاع رجل موسر منه مصحفا، بعد أن جاءه من بلد بعيد مسيرته أربعين يوما، وبعد رحيل الرجل بأيام تذكر ابن غطوس أنه أخطأ في وضع نقطة على حرف في صفحة من صفحات المصحف المبتاع، فأقلقه الأمر وأرقه، فحمل أدواته وسافر مسيرة الأربعين يوما، حتى بلغ دار الرجل، طالبا منه رد المصحف، فتوهم الرجل أن ابن غطوس رجع في البيع، فقاتل له: قبضت الثمن مني وتفاصلنا فماذا تريد؟ فقال ابن غطوس: هون عليك، لم أرجع في البيع، ولكن لا بد أن أرى المصحف، فدخل الرجل وأتى بالمصحف لابن غطوس، ففتحه على الصفحة التي بها الخطأ وأخرج أدواته وأصلحها، ورد المصحف إلى صاحبه، وركب قافلا إلى بلده. محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1990، ص11.

² المراكشي، المصدر السابق، ص372. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص182.

³ المراكشي، نفسه. رواية عبد الحميد شافع، نفسه.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ولقد كانت طونة بنت عبد العزيز بن موسى زوج أبي القاسم بن مدير الخطيب المقرئ، والتي أخذت علومها من الحافظ أبي عمر بن عبد الله بن عبد البر؛ منبعاً لخط الفقيه المقتدرة عندما تسمها التراجم بالعلم وجلاله القدر، وإحسان القراءة⁽¹⁾، كما كانت ربحانة إحدى النساء الماهرات في القراءات⁽²⁾، ويفهم مما تقدم ذكره أن المرأة لم تكن محجوبة عن الفقه والتفقه والإسهام فيهما⁽³⁾، فهي ولا شك لم تتلقاه وهي قابعة في بيتها، وإنما كانت تخرج لتلقيه في حلقات العلم من شيوخ لهم مكانة علمية في مجتمعهم.

وبمناسبة التحدث عن الجواري المثقفات، وانعكاساً لنظرة التوقير للمُجَوِّدَات من لدن الملوك والأمراء، فقد كان أمير السهلة ابن رزين الذي عرف عليه شغفه بابتغاء الجواري المثقفات ولو غلت أثمانهن، حريصاً على جلب الكثير "من المحسنات المشهورات بالتجويد، طلبهن بكل جهة"⁽⁴⁾، حبا منه في رفق قصره بشتى أنواع العلوم المعروفة عصرئذ؛ وإمعاناً في الاعتناء بالقرآن والدراسات القرآنية، في زمن زاد فيه الاهتمام بالعلوم وتوجت فيه المثقفات بأعلى درجات الاحترام والمكانة الرفيعة لهن دون اعتبار للجنس، أو الوضع الاجتماعي، في ظل مع ما شاع عنه من مسارعة في استجلاب القينات ووسائل اللهو عموماً.

كما نضج وجه الإكبار للفقيهة أم شريح المقرئ في نظر زوجها أبي عبد الله محمد بن شريح (ت476هـ/1084م) الذي أخذت عليه القراءات، فكانت مقتدرة في القراءات تدرس فيه من وراء ستر على حرف نافع، بل كانت مصدر فخر قطاع ممتد ممن أخذوا عليها هذا العلم⁽⁵⁾. وكان وسم الفقيهة العالمة محط تنافس في طلب يدها للزواج، وحسبنا في ذلك ليلي معتقة الوزير أبي بكر بن خطاب (ت قبل 528هـ/1133م) التي صدت الكثير من الذين لا يبلغون مكانتها العلمية، وتقبل بفقيه في مرتبتها، بل قام مفاخرها بهذا الارتباط المثمر⁽⁶⁾.

¹ ابن بشكوال، المصدر السابق، 327/2. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 455/3. سهى بعيون، المرجع السابق، ص457.

² الضبي، المصدر السابق، 732/2. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص226. محمد المنوي، ثقافة الصقالبة، ص199.

³ لعل نظام التعليم مبرر محوري لهيمنة هذا التوجه ونعني به تركز الفقيهات غالباً في علوم القرآن وما يدور في فلكه، إذ استمد التعليم روحه من القرآن الكريم، سيما في المراحل الأولى للتعليم، والتي لا محالة أنها تركت انطباعاً جيداً نحوه لدى النسوة، جعلتهن يكن سباقات لمثل هذه العلم. ابن خلدون، مقدمة، 1116/3.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، 320/1/3. حياة قارة، المرجع السابق، ص174. سهى بعيون، المرجع السابق، ص446.

⁵ ابن الأبار، التكملة، 236/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 427/5.

⁶ أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 455/3.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ومع ملاحظة أن الوسط الفقهي في الغرب الإسلامي رجالي بامتياز، فمن القليل أن نجد نساء تبهرن في العلوم الفقهية باستثناء بعض المتصوفات اللواتي أحطن ببعض أهم المبادئ الفقهية، على الرغم مما يشير بليزية مجتمعة الغرب الإسلامي إلا أن عدد الفقيهات قليل، والذي لا يعني في نفس الوقت انعدامهن، ومرد ذلك في جزء كبير منه اقتران هذا الاختصاص بالرجال، والذي أملت اعتبارات اجتماعية وشرعية أيضا، لأن من ضمن الشروط الأساسية للاضطلاع ببعض الخطط الدينية شرط الذكورة، علاوة على صعوبة متابعة حلقات تدريس الفقه بالنسبة للذكور، فما بالك بالإناث⁽¹⁾، ناهيك عن التوجه السائد عصرئذ يعطي الأولوية والأهمية للشعراء ومن في صنفهم، ولهذا الخط مبرراته من شيوع حياة الترف والبذخ والانطلاق التي عرفها شرائح المجتمع، فكان حضورهن في الحياة الفنية أولى بالتمحيص والتتبع في نظرهم، كما لا يمكن تجاهل عامل تركيز إستوغرافيا العصر على نوع خاص من نساء علية القوم والمتصوفات، تماشيا مع روح الكتابة التاريخية في ذلك العصر.

وعلى الرغم من قلة صور الفقيهات، إلا أنه يمكن تحديد نماذج لنسوة تبوأ مكانة مرموقة في الغرب الإسلامي، إذ رافق وجه الفقيهة المقتدرة ظاهرة البيوتات العلمية التي عرفتها الأندلس⁽²⁾؛ فابنة فائز قرطبية زوج أبي عبد الله بن عتاب كانت موسوعية بامتياز، ينضج معها وجه الفقيهة المقتدرة الباحثة عن المعرفة، وعدت واحدة من أهم الوجوه الفقهية النسائية⁽³⁾، ويلحظ وجه الفقيهة في فاطمة بنت الفقيه أبي علي الصدي التي كانت تحفظ القرآن وتهتم بالحديث⁽⁴⁾، ويمكن التأكيد بكثير من الاطمئنان أن الوسط المتدين الذي عاشت فيه، والبيئة العلمية المتطورة التي كانت بالأندلس، هي التي سنحت ببروز هذه الصورة على امتداد الغرب الإسلامي.

وبلغ النبوغ الفكري النسوي في حد الأندلس حدا معتبرا، وتشير المصادر إلى حادثة طريفة تنم عن صورة المرأة الفقيهة المتضادة في نفس الوقت، فهي محط احترام لفقهاءها، كما هي منبع للازدراء لتدخلها في أمور القضاء، فقد روى المقرئ أن زوجة قاضي مدينة وادي لوشة كانت تساعد للبت في القضايا والنوازل

¹ محمد فتحة، المرجع السابق، ص 127.

² حول ظاهرة البيوتات العلمية في الغرب الإسلامي ككل والأندلس بالخصوص انظر: أحمد بوشريط، ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف محمد بن معمر، جامعة وهران، 2011-2012، ص 92 وما بعدها.

³ ابن الأبار، التكملة، 232/4-233. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 426/5.

⁴ ابن الأبار، نفسه، 243/4. ابن عبد الملك، نفسه، 421/5. محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، 521/1. مليكة حميدي، المرأة المغربية، ص 180. عمر قلعي، المرجع السابق، ص 361.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

المستعصية بين المتقاضين، إذ كان هذا القاضي يستأنس في حكمه بما تشير عليه زوجته الفقيهة، حتى قيل أنها فاقت العلماء في الأحكام والنوازل، ما جعل القاضي محط سخرية فأنشدوه:

بُلُوشَةٌ قَاضٍ لَه زَوْجَةٌ وَأَحْكَامُهَا فِي الْوَرَى مَاضِيَه

فِيَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُن قَاضِيَا وَيَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَه

ويبدو أن هذا التعريض جعل القاضي يطلع زوجته على تلك الأبيات التي قيلت فيه، فكتبت على البديهة معرضة ومنتقدة:

هُوَ شَيْخٌ سُوءُ مُزْدَكَّرَى لَهُ شَيُوبٌ عَاصِيَه

كَلا لئن لَمْ يَنْتَه لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَه⁽¹⁾

ويلمح من خلال ردها وحضور بديحتها أنها كانت على قدر معتبر من العلم والأدب والتفقه في الدين، على ما اشتمل بيتها الأخيرين من صور فنية جميلة مستمدة من القرآن الكريم، تدلل على درجة من التأثير به لرقية الفني، وتوظيفه في شعرهن، فقد اتخذن من كتاب الله مصدرا يستقين منه الصور الفنية، ومما لاشك فيه أن البيت الثاني ينم عن تضمين مباشر لقوله تعالى: ﴿كَلا لئن لَمْ يَنْتَه لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَه﴾⁽²⁾، ويعكس تفاعلا سريعا مع الموقف، وتأثرا بالقرآن الكريم في أسلوب فكاهي مغلف بنوع من الوعيد والتهديد، وعلى الرغم إلى ما يشير إليه هذه الأبيات من الامتناع من المرأة المتدخلة في شؤون زوجها لدى العامة، والذي يمكن تأويله بالتأثير الكبير للمرأة على هذا القاضي ذي المنصب الحساس والمهم، مع الأخذ في الحسبان أن ذلك لا يعني بالضرورة الإنقاص من قدر القاضي، بقدر ما يكون للنساء أحيانا تفهم ونظرة خاصة في أمور قضائية معينة قد تكون غائبة على وجدان القاضي.

2- الصالحة المحسنة:

دعا الدين الحنيف النساء المسلمات إلى إتباع نهج الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلة، في سبيل صون عفتهم، لتكون سامية المنزل، عزيزة الجانب، تنال رضا الله وتنال الجنة لذلك؛ مع إدراك أن هذا معنى الصلاح

¹ المقرئ، المصدر السابق، 294/4. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص176. حياة قارة، المرجع السابق، ص68-69.

² سورة العلق، الآية 15.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

يختلف باختلاف العصور والمجتمعات ودرجة التقدم الثقافي وظروف الحياة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾⁽¹⁾. والمتصفح لتاريخ الغرب الاسلامي تستوقفه نماذج نسائية متعددة كرسيت حياتها للتربية الروحية، رسمت معها ملمحا ممتدا لوجه الورعة والزاهدة والعبادة بين العدوتين.

وقد اقترن وجه المحسنة بالخطوة عند شرائح متعددة من المجتمع في المغرب والأندلس، نتيجة اقتران دورهن بالأعمال الخيرية من إحسان وتشيد وترميم للمساجد وغيرها من المرافق الدينية والاجتماعية، بل لا تزال بصمتهن حاضرة إلى اليوم، وشاهدة على أعمال البر والإحسان التي اضطلع بها نسوة الغرب الاسلامي، ففي دولة بني عباد باشبيلية كانت زوجة المعتمد الرميكية من المحسنات المتصدقات؛ ويشهد بذلك ما تحمله النقوش في ذكر اسمها يوم الشروع في بناء صومعة إشبيلية "طلبا لجزيل الأجر والثواب"⁽²⁾، ولاشك أن الثراء الذي عرفته الدولة الاشبيلية عصر الدراسة، والخطوة الكبيرة لدى زوجها المعتمد؛ عامل منشط لانسياب الأموال بسهولة لبناء هذه المرافق.

وتجاوزته هذا الخط إلى نسوة من باقي شرائح المجتمع حسب طاقتهم؛ فأحدهن تحبس نصف دار على مسجد بعينه⁽³⁾، والأخرى أوصت بجزء من دارها لمسجد آخر⁽⁴⁾، ولاشك أن مساهمة المرأة في بناء المساجد مرتبط بایمانها بالدور الديني والعلمي والتعليمي والخيري له، فمنه تعلم الثقافة الإسلامية الأصيلة، ويعزز التقدم المعرفي، ويبعث الوعي الأخلاقي والديني.

أما إذا أردنا تعديد نماذج لارتسام خط المرأة الصالحة الخيرة، والتي تعكس حرص الإسلام على حقوق الأرامل والأيتام والمحتاجين بالعطاء والصدقة، نظرا لما لها من دور في احتضانهم وتعويض حرمانهم، منطلقين من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ

¹ سورة الأحزاب، الآية 35.

² ابن الحاج، نوازل، 369/2. محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية، ص62. السيد عبد العزيز سالم، المساجد، ص95-96. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص317. محمد بن عبود، المرجع السابق، ص193.

³ النونشريسي، المصدر السابق، 147/1.

⁴ نفسه، 319/1.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ⁽¹⁾، فكان الأهل السابقين إلى ذلك، انطلاقاً من الجدة⁽²⁾، إلى الأخت الكبرى⁽³⁾، وصولاً إلى العمات⁽⁴⁾، وهذا ما يدل على التكافل الاجتماعي داخل مجتمع الغرب الاسلامي، بإمداد يد المعونة للمغلوب على أمرهن.

وقد أتى ابن حزم بنماذج تحيل على الوصف الأخير؛ وتنقشع معها صورة المرأة المصونة العفيفة التي لا تقبل الحرام على نفسها خشية الآخرة، وليس أفضل من المرأة لتروي هذه النماذج فيقول: "ولقد حدثني امرأة أتق بها أنها علقتها فتى مثلها في الحسن وعلقتها، وشاع القول عليهما، فاجتمعا يوماً خاليتين فقال: هلمي نحقق ما يقال فينا، فقالت: لا والله لا كان هذا أبداً، وأنا أقرأ قول الله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾⁽⁵⁾ قالت: فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال"⁽⁶⁾.

كما كان هو نفسه مصدر بث صورة الفتاة العفيفة من منظوره، عندما يقول: " وإني لأخبر عني أي ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مُسَبِّلَة السُتْر، فقيدة الزام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، كثيرة الوقار، مُسْتَلْذَة النِّفَار، لا توجهُ الأراجي نحوها، ولا تقفُ المطامعُ عليها، ولا مُعَرَّسٌ للأمل لديها، فوجهها جالب كل القلوب، وحالها طارد من أمها، تزدان في المنع والبخل، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً، فجنحت إليها وأحببتها حبا مفرطاً شديداً، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبي بكلمة وأسمع من فيها لفظةً، غير ما يقع في الحديث الظاهر الى كل سامع، بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة"⁽⁷⁾، وهذه النماذج تظهر حرص المرأة الأندلسية على الالتزام والحشمة، والتحلي بالأخلاق الإسلامية، في عصر أقل ما يقال عنه أنه عصر انطلاق وتحرر.

¹ سورة البقرة، الآية 261.

² الونشريسي، المصدر السابق، 311/3. 166/3.

³ نفسه، 317/3.

⁴ نفسه، 272/3. 378/3. 21/4.

⁵ سورة الزخرف، الآية 67.

⁶ رسائل، 249/1.

⁷ نفسه.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

وتزداد نظرة الاحترام والتقدير للمرأة المسلمة التقية المساهمة في إدخال أهل الذمة إلى الاسلام، وحسبنا في ذلك الوزير اليهودي أبو الفضل حسداي بن يوسف الذي لاقى صدا متكررا عندما حاول الاقتران من جارية مسلمة، لاسيما أن أوكد شروطها كان إسلامه، مما حمّله في الأخير على الاسلام والاقتران بها⁽¹⁾.

وهنالك نوع من الصدقات والأوقاف شديد الارتباط بالمرأة، خفف إلى حد بعيد من حدة التراتبية الاجتماعية، وخلق جسرا من التفاعل بين شرائح المجتمع، والذي ينهض مرة أخرى على وجه خيرية المرأة وصالحها، وانعكاسا لصورة الرحيمة، فقد كان مساعدة اليتيمات المعدمات والعرائس المحتاجات أحب الأعمال الخيرية عند النسوة الكبار، سواء بتزويجها والنفقة عليها، أو وقف وإعارة الحلي ووسائل الزينة على من هن في حاجة لها⁽²⁾، حتى يكتمل الشعور بالفرح وتجبر الخواطر، في إطار التكافل الاجتماعي الذي يكفله الدين الاسلامي الخفيف، والذي يظهر تغلغل العطاء والبذل في مجتمع الغرب الإسلامي، وقد لعبت الإمكانيات المادية التي توفرت لدى هذه الفئة دورا في المسارعة إلى الإنفاق في سبل الخيرات، والتي بلورت بدورها هذا الانطباع الجيد الذي عرف عليهن.

ولا يعني الصلاح بمفهومه العام قصره بالضرورة على من كانت عابدة زاهدة فحسب، بل إرتبط بدرجة أكبر بالمرأة الأم التي تسعى إلى تربية إبنها على حب القرآن وأهل القرآن، وتسعى جهدها في تحفيظه وتفهمه لأولادها⁽³⁾، لما للأُم من دور محور وفاعل في تنشئة الطفل تنشئة صحيحة، تقوم على قيم الكتاب والسنة، والتي لاشك أنها ستكون ثمارها في خلق فرد صالح لأسرته ولمجتمعه.

وكانت الزاهدات أشد اندفاعا في الزهد وانقطاعا إلى العبادة وإعراضا عن الحياة، وهي ظاهرة لم تبرز بين ليلة وضحاها، بل كانت نتيجة مخاضا طويلا، فلا تراهن إلا صائمات متنسكات مبتلات، فقد وسمت زينب بنت أبي عمر يوسف بن عبد الله النمري الفقيه (ت463هـ/1071م) بأنها من صوالح النساء وفضلياتهن⁽⁴⁾، وهو ما يدحض المحون الذي شاع عليهن في عصر الدراسة، ويؤكد أنه لم يكن عاما بين طبقات المجتمع، لتتوسع بذلك صورة العابدات المبتلات من خلال البعد الأخلاقي الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق والتمثل بالسلف الصالح.

¹ ابن بسام، المرجع السابق، 458/1/3. المقرئ، المصدر السابق، 401/3. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 239.

² ابن حزم، المصدر السابق، 165/1. حياة قارة، المرجع السابق، ص 129. سناء الشعيري، المرجع السابق، ص 49.

³ المقرئ، المصدر السابق، 262/3.

⁴ ابن الأبار، التكملة، 417/5. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 234/4.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ومما زاد في نضج وجه الخطوة عند قطاع ممتد من المجتمع، تضافر خصال محمودة من قبيل العفة والصلاح والمسارة إلى الفرائض، بما فيها تلك التي تتطلب جهدا ووقتا ومالا مثل الحج، وحسبنا في ذلك مريم بنت أبي يعقوب الفضولي التي حضرت داخل المخيال الجمعي، مجسدة لصورة المرأة العفيفة في أجمل تجلياتها، حتى شبهها أدباء عصرها بأنها تحاكي مريم العذراء في عفتها وتردف عند ذكرها بالحاجة بقولهم:⁽¹⁾

مالي بشكر الذي أوليت من قبل لو أنني حزت نطق اللسن في الحلل

يا فذة الظرف في هذا الزمان ويا وحيدة العصر في الإخلاص في العمل

أشبهت مريما العذراء في ورع وفقت حنساء في الأشعار والمثل

ولاشك أن اجتماع هذه الفضائل في شخص هذا العلم النسائي، زاد من وجه الإكبار لها، خاصة أن الشكعة يؤكد أن السبب في نجاحها من الخلاعة في مدينة إشبيلية، أنها من مدينة شلب، إذ لم يعرف عن مدينة شلب أجواء الخلاعة التي كانت منتشرة في إشبيلية⁽²⁾، فضلا عن زيارتها مكة والمدينة التي تعتبر أمنية كل مسلم ومسلمة.

ولعل من أهم صور خيرية المرأة وصلاحها العناية بكتاب الله عز وجل، وتزداد نصوعا إذا اقترنت بالنسك والتعب، واتخذ هذا النسك أشكالا متعددة تدل في مجملها على تعلق النسوة بكتاب الله والإقبال عليه، حتى من النساء الكبيرات في العمر لقول ابن حزم: "وإني لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير"⁽³⁾، فهذه وغيرها من النساء العابدات استطعن أن ينفذن في وجدان الخاصة، ويتفاعلن ويكن محط انبهار فئات اجتماعية مختلفة.

ولم يقتصر ملمح الصلاح في حياتهم فحسب، بل رافقهم حتى في آخر لحظاتهم بالحياة الدنيا⁽⁴⁾؛ حتى إذا ما وافاهم الأجل ازدحم الناس لشهود جنازتهم⁽¹⁾، وتنافسوا في حضورها، وهو مؤشر قوي على صورتها

¹ الحميدي، جذوة، ص 600. الضبي، المصدر السابق، 729/2-730. ابن بشكوال، المصدر السابق، 325/2-326. المقرئ، المصدر السابق، 291/4. حياة قارة، المرجع السابق، ص 71.

² الشكعة مصطفى، المرجع السابق، ص 167.

³ ابن حزم، رسائل، 1/165.

⁴ شكلت الصلاح والزهد موضوعا خصبا، ومدعاة لنظم بعض الأشعار في حق المرأة؛ مع ما يكتنفه من تعلق في بعض الأحيان، تبرز الصورة العلية التي كانت عليها عند هؤلاء الشعراء الرجال، فهذا ابن زيدون يمدح ابن جهور (ت 450هـ/1058م) ويرثي أمه الصالحة حسبه قائلا:

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

المتميزة كمرأة صالحة، فهذه فاطمة بنت زكريا بن عبد الله الكاتب المعروف بالشبلاوي يتوافد جمع غفير من الناس لتشيع جنازتها⁽²⁾، وهو ما يؤكد الروابط الروحية العميقة التي تربط الناس بالعوائد من النسوة، وما يمثله مؤثر الحزن والتسابق لحضور تشييعهم من رؤية الاحترام لهن.

بل تجاوز ذلك إلى العامة من النسوة، فقد "هلكت أم عجوز لبني كوثر، فاهتبل بنوها في السعي لها، وإنذار طبقات الناس لشهود جنازتها بأنفسهم، والمشي على أعظم القرية بنعيها، فسارعت طبقاتهم لشهود جنازتها، فجاء بسريها، وابن جهور الوزير يقدم حضاره ماشيا على قدميه، قد ائتسى به كل ذي منزلة رفيعة، ووقف على حدثها إلى أن ووريت وانفض جمعها ثم ضرب على قبرها قبة عالية، تمهيدا للمبيت عليها طول أسبوعها ومدة زيارة قبرها، حسبما كانت الجبابة تفعله في الأعصر الخالية على قبور الملوك الأعزة، فقضي العجب بمشاهدة هذه النادرة في امرأة من نساء حثالة العامة"⁽³⁾، فالأمر والحالة ليس حكرا على صلحاء الرجال، بل كانت جنازة بعض النساء اللاتي عرف عنهن التقى والصلاح، مصدر تراحم المشيعين من الرجال والنساء لشهودها، كما يعبر عن أن الحاكمين لم يكونوا معزولين عن مجتمعاتهم، فهم ينهلون من نفس المقومات الثقافية وهم بدورهم كانوا يقعون تحت تأثيره.

ويستوقف الموضوع في هذا المجال نظرة الاحترام للمرأة الصالحة من الأميرات الصنهاجيات، وما ركون فئة من الفقهاء إلى عدم تأدية اليمين حال ادعاء رجل عليها إلا ارتسام للصورة السابقة⁽⁴⁾، وتعضد مريم بنت إبراهيم بن تغلويت زوجة الأمير الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين هذا التوجه، فالصدقة السخية والعطف

بظاهرة الأثواب فاتنة الضحى مُسَبَّحَةُ الأَنْاءِ مِحْرَابُهَا الْخِذْرُ

فإن أُنْثِيَتْ فالنفس أنأى نَفِيسَةٍ إذ الْجِسْمُ لَا يَسْمُو لِتَذْكِيرِهِ ذِكْرُ

حَصَانٌ إن التَّقْوَى اسْتَبَدَّتْ بِسَرِّهَا فمن صَالِحِ الأَعْمَالِ يُسْتَوْضَحُ الْجَهْرُ

ديوان ابن زيدون، ص120.

¹ لم تقتصر حظوة النساء الصالحات على المسلمين، بل تجاوزتها إلى نصارى الشمال في عصر الطوائف، ولعل صورتها المقدسة عند ملوك نصارى الشمال سبيل لتفهم هذه الخطوة، فقد طالب ملك قشتالة فرديناند الأول على المعتضد تسليم رفات القديسة خوستا التي ماتت في عصر الاضطهاد المسيحي، والتي كانت مدفونة في حدود إقليمه. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، 48/2. صلاح خالص، المعتمد بن عباد، ص145.

² ابن بشكوال، المصدر السابق، 325/2.

³ ابن بسام، المصدر السابق، 595/2/1.

⁴ ابن الحاج، نوازل، 514/3.

الفصل الثالث..... المرأة في الوعاء الثقافي والديني

على المعوزين⁽¹⁾ كان مقتزنا باسمها، إذ "كانت من أهل الخير والتعاون والصدقات والنوازل تقوم على كثير من الخير"⁽²⁾، وما مدح الشعراء والثناء عليها؛ مع ما يكتنفه من تملق في بعض الأحيان، إلا نموذج للاحترام الكبير لها⁽³⁾، ومنطلق لصورة متميزة من لدن المجتمع نظير أعمالها عند قولهم:⁽⁴⁾

مشهورة في الفضل قدماً والنهى والجود شهرة غرة في أدهم

جاءت بها العر الكرام كريمة لا تشرئب إلى بياض الدرهم

وهو ما يعكس سماحة الإسلام وحرصه على المحتاجين الذين تزايد عددهم عند تدهور الحالة الاقتصادية والاجتماعية، كمحفز على بذل المزيد من الهبات للفقراء والمساكين، ومنبع لزيادة الرأفة والصدقة على المحتاجين من لدن أصحاب الجاه والسلطان والموسرين.

ثم هاهي الحرة حواء بنت تاشفين تشتهر بالصلاح والإنفاق على الفقراء، لدرجة أنها توصي بثلاث أموالها لليتامى والأرامل، وما الدعاء لها وطلب صونها جراً أعمالها الجزيلة من صدقات وعتق وإحسان؛ إلا منظور آخر لوجه المرأة الصالحة في كينونة المجتمع⁽⁵⁾، وتوظيفاً للأحباس في الرعاية الاجتماعية وإرساء قيم التكافل الاجتماعي، وهي الصفات التي باركها الخطاب الديني. وينضاف إلى اللائحة مريم بنت إبراهيم بن الطفيل المرادي التي كانت من أهل الذكاء والنبيل⁽⁶⁾، فمجموعة الصفات هاته؛ من الكرم الذي قد يجاوز أحياناً الحدود، واللين والرفقة والنبيل منقطع النظير، تظهر أهميتها عندما تقارنان على الخصوص بظروف العصر، وهن

¹ مما يستوقف الموضوع هو تركيز نسوة الغرب على أعمال البر والاحسان والوقف عليها كأولوية مفضلة، في حين أكدت نسوة المشرق الإسلامي أكثر على بناء المدارس والمساجد والصرف عليها. وجدان حسن العزايزة، المرجع السابق، ص 148.

² ابن الأبار، التكملة، 236/4-237. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 432/5. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص 316. محمد الأمين بلغيث، الحركة الفكرية، المصدر السابق، ص 529. حياة قارة، المرجع السابق، ص 131. الحسين اسكان، المرجع السابق، ص 72. وحول ذلك انظر الملحق رقم 11.

³ تثبت الأبيات اللاحقة مدى التغي والافتخار بالنساء المربطات، وهي تنهض حجة على عدم صحة الاتهامات التي وجهت للمرأة المرباطية التي وصفتها بما الأديبات الموحدية انظر الفصل الأول ص 47-48.

⁴ ديوان ابن خفاجة، المصدر السابق، ص 97. ابن الأبار، التكملة، 236/4-237. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 432/5.

⁵ ابن رشد، فتاوى، 1223/2-1224. ابن الحاج، نوازل، 603/3. البرزلي، المصدر السابق، 74/2. الونشريسي، المصدر السابق، 65/2-66. حياة قارة، المرجع السابق، ص 131. الحسين اسكان، المرجع السابق، ص 72.

⁶ محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 521/1.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

بذلك يقمن حجة على نجاح المشروع الدعوي المربطي الذي قام على دعوة عبد الله بن ياسين، ودحض افتراءات الدعوة الموحدية التي وصفت النساء المربطيات بالعبث وألصقت بهم كل نقيصة.

وما تلقي بعض الفقيهات للعلوم والآداب ومختلف الفنون عن مختلف الجهات والأطراف والفاعلين، إضافة إلى تدينها إلا مبرر آخر لنظرة الإكبار، فهذه الغرناطية مسعدة بنت أبي الحسين تغرف عن أبيها كما أقاربها ناهيك عن الشيوخ، مع ما وسمت به من الصلاح والعفة⁽¹⁾.

ومن النساء من نذرن حياتهن للصلاة والعبادة والنسك، جعلت وجه الصلاح ينقش بقوة، حيث تتردد أسماء بعض بنات العلماء والوجهاء والتي يتبدى معها معلم الصلاح أمثال: زينب بنت عباد بن سرحان التي "كانت دينة فاضلة كثيرة الأوراد صوامة قوامة تسرد الصوم"⁽²⁾، ومن المؤكد أن هذا المنحى في التسابق لفعل الخيرات كان نتيجة التأثير بسيرة الرسول العطرة التي أمر الله تعالى بالاقتداء بهم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽³⁾.

وانعكس الوسط التربوي الذي نشأت فيه فاطمة بنت الفقيه أبي علي الصديقي على بلورة صورتها المتدينة الزاهدة في الحياة⁽⁴⁾، ناهيك عن طونة بنت عبد العزيز، زوج أبي القاسم بن مدير الخطيب المقرئ، والتي "كانت حسنة الخط، فاضلة دينة"⁽⁵⁾، ومن هنا يستنتج أن المنهج التعليمي والمعلمين الذين تلقت عليهم المرأة منذ صغرها، والمرتبطة بالقرآن والسنة ساهم في نشوء صورة المرأة الفاضلة الدينية سلوكا وعملا.

ويبدو أن اختزال جسد الأنثى في الإغواء والغواية والإثارة وقلة العلم عند قطاع ممتد من الفقهاء معبر أساسي لرفض فكرة الاعتقاد في الشيخات وزيارتهم التي بدأت تتشكل أواخر عصر المربطين⁽⁶⁾، بما فيهم رجال التصوف أنفسهم⁽⁷⁾، أقول هذا الاختزال دفع بعض النسوة نحو سلوك التصوف، فجعلن منه وسيلة

¹ ابن الأبار، التكملة، 240/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 424/5. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 460/3. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 526/1.

² ابن الأبار، نفسه، 241/4. ابن عبد الملك، نفسه، 416/5.

³ سورة الأحزاب، الآية 21.

⁴ ابن الأبار، التكملة، 243/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 421/5. محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، 521/1. مليكة حميدي، المرأة المغربية، ص 180. عمر قلعي، المرجع السابق، ص 361. حياة قارة، المرجع السابق، ص 129.

⁵ ابن بشكوال، المصدر السابق، 327/2. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 455/3.

⁶ ابن الحاج، المدخل، 141/2.

⁷ وقد دعا في الاتجاه ذاته عدد من المتصوفة إلى تجنب معاشره النسوة، وحذروا من مكائدهن، ومن ذلك قولهم:

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

للرقي الصوفي، والتدرج في مراتب الصلاح، من خلال تعهد الزهد والتقشف والصيام، ومن الروايات المناقبية التي تحلي هذا التوجه من نظرة الانبهار والإجلال لها، وبروز صورة الولية وإن كانت متأخرة زمنياً، شهادة ابن الزيات عن منية بنت ميمون الدكالي (ت595هـ/1199م)، واللاقي لاشك أن غيرها كثير، إذ كانت لها ممارسات تعبدية صارمة، تقوم على تركية النفس والزهد عن الدنيا حتى "اسودت من الاجتهاد، ولصق جلدتها بعظمها"⁽¹⁾، ولاشك أن تقديم الولية نفسها كنموذج للصلاح والتقوى والزهد والمقترن باتقاء الشبهات، ورسم صورة القدسية لها، في ظل بداية التحام ظاهرة التصوف بالبعد الشعبي، وتماشياً مع الصورة النمطية للأولياء عموماً، بما فيهن النسوة كرمز للزهد والتقشف، ناهيك عن الحامي والملاذ، والتي تشكلت في المخيال الاجتماعي منذ العصر الوسيط حتى الفترات الحديثة والمعاصرة، ومع هذه الخصال التي صاحبها في الغالب الأعم كرامات تدلل على تبلور صورتهم القدسية، مما دفع نظرة الشك حولهم رغم دخولها في مجال رجالي وخالطتها لهم، وعلى هذا فيمكن تسجيل أن التصوف والصلاح أعطى جرعات جديدة للمرأة، مكنتها من أن تحقق ذاتها، وخولتها اعتلاء مكانة هامة في وجدان أقرانها الصوفية الرجال، والمجتمع ككل، لتبلغ صورتها بذلك كل تقدير واحترام.

كما حرص هؤلاء العالقات الزاهدات على بث العلم وإيصاله إلى الناس بالتدريس، حرصوا مثل ذلك وأشد على توريث هذا العلم بتدوينه والتأليف فيه، رغم أن المساهمة النسوية في ميدان الكتابة عموماً، والكتابة الزهدية خصوصاً؛ قليلة مقارنة بما أنتجه الرجال، إلا أن النساء دخلن هذا المضمار وإن كان باحتشام، بحيث انطبعت نظرة الثمين والاعتراف بكفاءة المرأة في هذا الصنف، فقد رفدت أم هانئ أمة الرحمان بنت عبد الحق بن غالب الصلاح والزهد، بالإضافة إلى كونها كانت دائمة التنسك والتفكير في أمور الآخرة؛ بتصنيف كتب

ذَرِ الدُّنْيَا وَإِنْ رَاقَتْكَ حُسْنًا وَلَا تَغْرُزْكَ رَبَّاتُ الْحِجَالِ

فَلَيْسَتْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ تُخْشَى أَضَرَّ مِنَ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ

ابن زيات، المصدر السابق، ص172-173. محمد لطيف، الزواج والأسرة في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، ط1، طباعة ونشر سوس، أكادير، 2015، ص77-79. وقد قام بالموازاة مع هذه الظاهرة نظام الرهبة الذي شاع في غرب أوروبا ودخلته النسوة الراغبات في الابتعاد عن الدنيا، فنلن احترام المجتمع، وإن كان هذا النظام أشد وأكثر شططا منه في الغرب الإسلامي عصر الدراسة. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص242-244. 247.

¹ ابن الزيات، نفسه، ص316. محمد لطيف، نفسه، ص81. رشيد قطان، المرأة المغربية في أدب المناقب التشوف إلى رجال التصوف نموذجاً، مجلة أمل، العدد 13-14، السنة الخامسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص130.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

ذات صدق محمود، انتفع بها معاصروها في حياتها، ومن جاء بعدها من قادم الأجيال، حيث تواتر عنها أنها ألقت "كتابا في القبور والمحضرين، أجادت فيه وأتقنت، وكانت كاملة في النساء"⁽¹⁾، في ظل البيئة الأندلسية وما اشتملت عليه من ترف ونعيم كانت مهياة لتقبل الوعظ وتيار الزهد الذي ينبئ بزوال الدنيا ونعيمها.

ونفس الحال كان في المغرب الإسلامي، حيث انتشرت الصوفية بما تركته من أثر على محيطها ومريديها انطلاقا من العائلة، وما عكسته من موروث لوجه القدسية عند قطاع ممتد من الناس، لا من قبيل الكرامات فحسب، بل إلى عموم التأليف والبراعة في ذلك، فقد ترك أبو عبد الله محمد بن حسان التاونتي المعروف بالميلي (ت1194/590م) في رحلته الحجية ابنته بتلمسان "فروت العلوم وانتهدت إلى أن صارت تُروى عنها المصنفات"⁽²⁾، خاصة أن ابن حزم يرى أنه ليس مستبعدا أن تكون فضيلة الصلاح موجودة في النساء كما الرجال، موضحا مفهومه للصلاح بالنسبة للمرأة بقوله: "إن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت، وإذا انقطعت عنها الذرائع أمسكت"⁽³⁾، ويبدو أن فهمه هذا مقترن إلى حد بعيد بفلسفته في الحياة والظروف التي نشأ عليها في الأندلس المتفتح عصرئذ.

وكان الحج ظاهرة من مظاهر تمسك مجتمع الغرب الإسلامي بالدين، حيث كان مطمح ومطمع وأمل كل مسلم ومسلمة، بالرغم من المشقة المادية والجسمية والأهوال والأخطار⁽⁴⁾ التي قد تعترضهم، فرحلة الحج بلورت إلى حد بعيد وجه الإكبار للنساء الحاجات التقيات، وعملت على ارتقاء عدد منهم إلى مصاف الصالحاء من الرجال، وحسبنا في ذلك ابنة فائز القرطبية التي انطلقت في رحلة تعليمية من الأندلس أنهتها بحجها، وتوفيت بمصر قافلة إلى الأندلس⁽⁵⁾، ناهيك عن الترحم على الولايات ميمونة وأم العز زوجتي أبي يعزى يلنور (ت572هـ/1177م) بعد رحلتها الحجية⁽⁶⁾، والذي يبرهن على تخمر صورة القدسية لمرتادات هذا

¹ المقرئ، المصدر السابق، 4/292. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 4/238. ابن بشكوال، المصدر السابق، 2/325. أبي جعفر الغزنائي، المصدر السابق، 3/457. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص148. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، ص521. حياة قارة، المرجع السابق، ص110.

² ابن الزيات، المصدر السابق، ص369.

³ الطاهر أحمد مكى، دراسات عن ابن حزم، ص265.

⁴ وهو ما حل بعض الفقهاء على إسقاط فريضة الحج. الونشريسي، المعيار، 1/432.

⁵ ابن الأبار، التكملة، 4/232-233. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 5/426.

⁶ الغزني، المصدر السابق، ص57.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

النوع من الرحلات، لا سيما أن الرحلة إلى الحج تظهر سلامة العقيدة وقوة الإيمان وشدة التعلق بمكة والمدينة، إلى جانب مجاهدة النفس والرغبة في سموها.

وهؤلاء النسوة نلن مكانة هامة ومحبة في قلوب العامة والخاصة على السواء، إذ لاشك أنهم مثلوا النموذج الحي الذي يحتذى به في الصلاح والورع، وهو ما حمل ابن رشد على التأكيد أنه " لا يمتنع أن يكون لذلك بينهن حكيمات"⁽¹⁾، ويأتي تفسير ابن حزم ردا على الذين رفضوا فكرة أن الرجال أفضل من النساء في قدرة كبت العواطف، ويعتقد أن الرجال والنساء معرضون بصورة متساوية لارتكاب المعصية في الحب إذا ما أعطوا الوقت الكافي والفرصة المناسبة وتأثير الإغواء، إذ " ليس هناك رجل ولا امرأة مهما توفرت الواحد منها على قدر عال من ضبط النفس محصنا، لأن الخالق قد خلق الرجال والنساء على هذه الشاكلة"⁽²⁾.

هذا ولا يغيب عن الأذهان النفوذ النسائي عندما كن يعبئن المجتمع نساءً ورجالا لمواجهة النصارى، إذ كان المسلمين أكثر حرصا على فك أسراهم، انطلاقا من رؤية المتدينات الغيورات على الإسلام والمسلمات، والمرأة المتبرعة السخية لفداء الأسرى، والتي رسمت ملمح عطف وأنفة المجتمع للمأسورين عموما والمرأة بالخصوص في أوقات الحروب والأزمات، حيث ازداد حجم الأوقاف سواء من الرجال أو النساء، والموجهة لفداء الأسرى الذين وقعوا في قبضة النصارى بدار الحرب منذ القرن 5هـ/11م⁽³⁾، فمن الطبيعي أن تكون المرأة أكثر حرصا على استنقاذ السبايا، وأن تبتهج بتخليصهن، لأنها تعلم ما تقاسم السبية من اجتماع آلام السبي والغربة والحنين إلى الأهل وسوء الحال.

وفي أواخر العصر المرابطي تتمظهر صورة المرأة المرابطة المتعبدة بالتخوم الأندلسية بموازة الرجل، فبالإضافة إلى الأعمال التقليدية للمرأة من تحضير الطعام والاعتناء بالنظافة، وواجب الجهاد أوقات النفي في الثغور البحرية والبرية إلى جانب الغزاة والمتطوعة، كانت هذه الأمكنة مركزا للتعبد والزهد، ومعبرا لوجه المرأة

¹ الضروري في السياسية، ص 125.

² لويس أ.غيفين، أدب الحب وطوق الحمامة، مقال ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مج 1، تحرير سلمى الجيوسي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ص 623.

³ الحميدي، المصدر السابق، 521-522. ابن الأبار، التكملة، 246/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 418/5. ابن عذاري، البيان قسم الموحد، 146/4. الونشريسي، المصدر السابق، 140/7. 124-123.

الفصل الثالث.....المرأة في الوعي الثقافي والديني

القديسة⁽¹⁾، وليس بعيد أن هذه الخطوة مقترنة بمشاركتها في كل الوظائف السابقة، و تماهيا مع الرجل في أعمال تدخل في صلب اهتمامه.

¹ محمد مفتاح، المرجع السابق، ص 199

الفصل الثالث.....المرأة في الوعاء الثقافي والديني

وبعد، فلم تكن النساء بمعزل عن رياض الثقافة والمعرفة، إذ اقتحمت حقول التعلم والتعليم، وعلى الرغم من ذلك فقد تفاوتت فرص التعليم نتيجة تفهم الأسرة أولاً، حيث ارتسم وسم المرأة الارستقراطية المحظوظة، وأم الكرم بنت الأمير المعتصم بالله بن صمادح نموذج على ذلك، وما إشراق السوءاء العروضية البنسية مثال على وجه المتعلمة المثابرة في سبيل العلم، ولو كان هذا الاستثمار في العنصر النسوي لأغراض أخرى، لتعديها إلى وجه المعلمة المقتدرة التي أسهمت بنصيب وافر في توعية النساء، وإرشادهن لقيمة العلم، والقيام على تخريج عدد ليس بقليل من أعلام الفكر الرجالي عصر الدراسة، رغم بعض التصورات المثبطة المبنوثة عند العامة.

ومع الأدبية والفنانية تتخمر مواقف متعددة بتعدد النماذج ذاتها، خاصة في عصر الطوائف، الذي عرف طفرة في مجال الشعر والغناء، وهذا ما جعل بعض الشعراء الرجال وقطاعاً ممتداً من المجتمع يركن إلى الاعتراف بملكيتها الشعرية وموهبتها ودورها في رفد الثقافة عصر الطوائف والمرابطين، لاسيما في الأندلس، في حين عدت في وجدان البعض مثالا للأدبية المستهترة التي أضرت بالأدب والفن أكثر مما خدمته، في حين انطبعت صورة متميزة ملؤها الاعتزاز والافتخار بالمرأة الفقيهة والصالحة نظير مساهماتها العلمية والخيرية الملموسة .

الفصل الرابع

صورة المرأة في الوعي الاجتماعي

أولاً- في مؤسسة الأسرة

1- الأم

2- البنت

أ- في حياة الوالدين

1- في صغرها

2- في كبرها

ب- في غياب الوالدين (اليتيمة)

3- الأخت والقريبة

أ- الأخت

ب- القريبة

ثانياً- في مؤسسة الزواج

1- قبل البناء

2- أثناء البناء

أ- صورة الزوجة عند الرجل

ب- صورة الزوجة الجارية عند الحرة

ج- صورة الزوجة الجارية عند الجارية

3- ما بعد انقضاء البناء

أ- المطلقة

ب- الأرملة

ثالثا- صور متفرقة عن صورة المرأة في إطار العلاقات المجتمعية

1- المرأة المغوية

2- المرأة المساحقة - بين الحرمان والتطرف الجنسي -

3- المرأة الكبيرة

4- صورة الجسد الأنثوي - ثنائية المتعة والخطيئة -

5- الجارية

6- المرأة المغتصبة

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

يشكل الجانب الاجتماعي في حياة الشعوب والمجتمعات مؤشرا هامة وأساسيا لمعرفة طبيعة الحياة فيها، ومعلما لرصد مختلف الفعاليات والتفاعلات بين مختلف العناصر المكونة لهذه الشعوب، والمرأة جزء من هذه المنظومة؛ تؤثر فيها، كما تتأثر بمعطياتها، لتنجم عن هذا الحضور صور متعددة لها، انطلاقا من مجمل فعاليتها داخل مؤسسة الأسرة الصغيرة والكبيرة، ومؤسسة الزواج، ووصولاً إلى احتكاكها بالمجتمع ككل.

أولا- في مؤسسة الأسرة:

تعتبر الأسرة محور الحياة العائلية، واللينة الأساسية لبناء المجتمعات، والمؤشر الأساسي الذي تقاس عليه درجة وعي المجتمع وثقافته اتجاه القضايا المتنوعة، بما فيها مختلف الرؤى التي كانت للمرأة داخل هذا الوعاء.

1- الأم:

بدأت بالأم في هذا الفصل؛ لأنها المعين الذي يفيض بالأفراد والأسر والجماعات، والعمود الفقري للأسرة، ثم هي ذات صفات متعددة؛ من أم وزوجة وأخت وقريبة، ولذلك كانت مقدمة عليهم جميعا، كما تحتل مرتبة عليا في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾⁽¹⁾.

ومن أولى الأمارات المتميزة لها، صورة الأم مصدر الخصب والذرية⁽²⁾، مصداقا لقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾⁽³⁾. فالأسرة تحتفل إذا رزقت بمولود جديد، وتقام له العقيقة؛ وهي سنة مؤكدة أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال صلى الله عليه وسلم: "مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دما، وأميطوا عنه الأذى"⁽⁴⁾، لذا فقد كان دخول المرأة إلى عالم الأمومة يمنحها قيمة كبيرة في المجتمع، وفي خضم كل ذلك يحتفل بالأم ويقدم لها الهدايا⁽⁵⁾. وكان نفس الأمر يحدث عند العائلة اليهودية، حيث كان المدعوون بمناسبة

¹ سورة لقمان، الآية 14.

² علي أفزار، المرجع السابق، ص 14.

³ سورة الكهف، الآية 46.

⁴ البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير، دمشق بيروت، 2002، كتاب العقيقة، باب إمطة الأذى عن الصبي بالعقيقة، ص 1391.

⁵ ابن الحاج، المصدر السابق، 287/3. كمال السيد أبو مصطفى، مألقة، ص 70. دندش، الأندلس، ص 332.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ازدياد مولود يقومون بتقديم الهدايا للأم والسؤال عن أحوالها والاطمئنان على صحتها⁽¹⁾، ويبدوا أن ذلك شكرا لها على نعمة الأولاد التي هي منة من الله واعتبارها مصدر الخصب، ورمز استمرار الجنس البشري.

وكان اهتمام أهل الغرب الإسلامي بالأم المرضعة نموذج آخر لصورتها السابقة، إذ تنص كتب الطب على "أن تكون المرأة المرضع متحفظة في الغذاء مرتاضة"⁽²⁾. وفي إصرار الأطباء المسلمين على هذه الإجراءات ملمح العناية بها بقولهم "ينبغي أن تكون أغذية المرضع من أجود الأغذية وأبعدها عن الفساد وترتاض قبل غذائها رياضة معتدلة، وبذلك يصلح لبنها، وليكن هذا تديرها إلى الفطام"⁽³⁾، من أجل تحري صحة الأم التي تحتاج إلى قدر محترم من الفيتامينات التي تساعد على أداء وظيفتها، بأن تستهلك من كل غذاء أحسنه، والذي ينتقل تأثيره بشقيه الإيجابي والسلبي على الطفل الرضيع وموفور صحته.

ليستمر هذا الحضور تماشياً مع عاطفة الأمومة التي بثها الله في الوالدة إلى مراحل متقدمة من عمرها⁽⁴⁾، ويبرز وجه الأم الملجأ لبناتها عند وقوع مشاكل مع أزواجهن⁽⁵⁾، ولاشك أن الأم أكثر الناس حنان وإحساساً ومراعاة لبناتهم، وتستطيع بحكم خبرتها التي اكتسبتها في تجربتها في معترك الحياة الأسرية إفادة ابنتها في كثير من الأمور المتعلقة بالزواج.

وتتجاوز في بعض الأحيان صورة الأم العظوفة المدارية حد المعقول في دفاعها عن ولدها العاصي والمنتهك للحرمت؛ من عريضة وشرب للخمر، بل والتستر عليه والأمل في إصلاحه، حتى مع موقف الرفض وعدم تقبل الأهل والأقارب لهذه التصرفات⁽⁶⁾، ولاشك أن عاطفة الأمومة تحمل في طياتها شحنات تلزم الأم بالتستر على ولدها والدعاء لإصلاحه، فهل أفلحت هذه المدارة وأتت أكلها في توبة الأبناء والأقربين؟.

وفي هذا السياق، وعطفاً على صورة الأم الرحيمة بأبنائها ولو كانوا عاقين من جهة، رغم أن ضرورة رعاية الوالدين في كبرهما، واجب مفروض بقوة المجتمع والأخلاق وحتى التوصيات الدينية، أقول تتخمر لدى الفقهاء السلطة والفقهاء نظرة مقدسة للأم، تبدأ بالوعظ عند الفقهاء من خلال التذكير بحقوقهما التي أقرها

¹ إيلي مالكا، المرجع السابق، ص14.

² ابن زهر، كتاب الأغذية، ص116. ابن رشد، الكليات، ص475. محمد بشير حسن راضي العامري، المرجع السابق، ص103.

³ ابن زهر، نفسه. الخطابي محمد العربي، المرجع السابق، ص149.

⁴ جاء في الأمثال الشعبية قولهم: "لالة تعرف ولادها في الظلام". محمد أحمد اشماغو، المرجع السابق، ص48.

⁵ البرزلي، المصدر السابق، 161/5.

⁶ نفسه.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الإسلام⁽¹⁾، لِيُلتَزَمَ التشدد في أخذ حقوقها في مرحلة لاحقة، وهذا ما حدث في عهد باديس بن حبوس في دولة بني زيري بغرناطة، والذي يضرب به المثل في شدة القسوة وسفك الدماء، إذ وقفت عنده يوما عجوز تشتكي عقوق ابنها، وأنه مد يده إلى ضربها، فأحضر باديس الابن وأمر بضرب عنقه، فقالت له: يا مولاي ما أردت إلا ضربه بالسياط وأدبه، فقال لها لست بمعلم صبيان وضرب عنقه⁽²⁾، وهو ما يعبر مرة أخرى على استيقاظ حنان الأم، وغرضها النبيل في الشكوى الذي قصد المعالجة والتأديب، وحزم السلطة في مقابل ذلك، احتراماً للأم أولاً، ولكبرها بصفة خاصة، وسماعاً لشكواها عند الحكم، والتشدد في عقاب من يعقها، وإيثار إيقاع العقاب صوناً لكرامة الأم وتضحياتها في سبيل تربية الابن منذ الصغر.

ولم يكن الاحترام الذي تحظى به الأم في ثقافة الغرب الإسلامي يمنع من وجود بعض نماذج صورتها الدونية، فمن الملامح التي تغذت فيها صورة الأم المتهانة واللامبالية، حالات النزاع التي تقع فيها الأم مع زوجها، ويدفع ثمنها المولود الجديد، فقد ورد في نازلة أن امرأة تركت ولداً رضيعاً ابن شهرين أو نحوهما عند أبيه فبقي عنده أياماً يغذيه بلبن المعزة، لامتناع أمه عن إرضاعه إلى أن توفي⁽³⁾، وربما لهذا ولغيره؛ كانت هذه النظرة السلبية للأم، والتي هي من لواحق الأنثى بصفة عامة⁽⁴⁾.

ومع ذلك فترصد الأمثال الشعبية نظرة الاحترام والتوقير للأم، بل تجويز اقتراف أفعال محرمة في سبيل رعايتها وريح رضاها⁽⁵⁾، فقد يكون بين الأم وزوجة الابن أو أمها نوعاً من النزاع والشقاق تلقفه العامة لصالح الأم بما يرجح موقعها المتميز في الأسرة بقولهم: "من يريد الحسنة يَذْبَحِ الحَتَنَةَ"⁽⁶⁾، في إشارة بمنطوق المثل إلى أن زوجة الابن وأمها هي دائماً وأبداً المخطئة، وبمفهومه إلى أن الأم وراحتها تستحق كل تضحية، حتى ولو كانت جريمة، وأنانيتيها وحب تملكها مشروع في كل الحالات، لأنها من حملت وريت وسهرت وتعبت على الابن حتى كبر، وهي الأدرى بمصلحته، على أن أبرز ما قد يرشح به الموقف؛ يتمثل في إلقاء طموحاتهن

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 269/2.

² ابن سعيد، المغرب، 107/2.

³ الونشريسي، المصدر السابق، 314/2.

⁴ ومصادق ذلك قولهم: "لِسَ فَالْسَا حَيَّرَ وَلَا فَمِّي". الزجاجي، المصدر السابق، 280/2.

⁵ جاء في الأمثال الشعبية "تَنْزَعُ مِنْ فَمَةٍ وَتُغْطِي لَمَةً". الزجاجي، المصدر السابق، 164/2.

⁶ الزجاجي، نفسه، 338/2. بل يصل إلى تطليق الزوجة من الابن حال كثرة مشاغلها على الأم. ابن الحاج، نوازل، 33/2.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

السابقة المثبطة أو المنتظرة في الزواج على أولادهن، أو انتظار مقابل وعوضٍ عن الأشياء التي تخلين عنها في سبيل الزواج والإنجاب، وما هذا الفعل منها إلا أدنى حق على الولد.

وكانت عملية اختيار الزوجة محالا آخر لتبدي صور الأم الخاطبة، والمستشارة، والخبيرة، وحتى المتسلطة في قضايا الزواج، فقد كن أحيانا يتدخلن تدخلا مباشرا في اختيار العروس لأبنائهن، مما ولد حزازات ومواقف جريئة من الابن اتجاه اختيارات الأم أو العكس، فليس من الطبيعي أن يكون الأولاد جميعا بررة، خاصة إذا لم تستسغ الأم الفتاة أو أسرتها لسبب من الأسباب⁽¹⁾، ونلمس نوعا من الوصاية للأم عليهم، خوله ذلك العطاء الذي كانت تمنحه الأم لأبنائها من عاطفة وحنان، وحتى معرفة وخبرة.

لتنقش مرة أخرى صورة الأم الحشرية، ولا يتعلق الأمر هنا بأم الابن، بل بأم الزوجة، التي تحرض ابنتها على زوجها، فقد حلف رجل برمي يمين الطلاق على زوجته إن شاورت أمها وخرجت من الدار، فشاورتها وخرجت، فحدث الطلاق⁽²⁾، وهي حالات موجودة ومتكررة، تنم عن دخول الأم في الحياة الزوجية لابنتها، وامتعاض الزوج من هذا التدخل المستمر، الذي قد يؤثر على العلاقة في أحيان كثيرة .

ومن زاوية أخرى، كانت التربية الصالحة للأبناء محور نظرة متميزة للأم، فغالبا ما يقرن المجتمع بين حسن خلق الأولاد بحسن خلق الآباء، والأمهات على وجه أخص، لأنهن أكثر حضورا في حياتهم، فقد نظر المجتمع نظر إكبار للأم التي تسعى إلى تربية ابنها على حب القرآن وأهل القرآن، وتسعى جهدها في تحفيظه وتفهمه لأولادها⁽³⁾، لما للأم من دور محور وفاعل في تنشئة الطفل تنشئة صحيحة، تقوم على قيم الكتاب والسنة، والتي لاشك أنها ستكون ثمارها في خلق فرد صالح لأسرته ولمجتمعه.

وكثيرا ما توج حسن التربية بر الأولاد لأمهاتهن، وهو ما يعكس نظرة التقديس لهن، حيث لا يكون الإنسان راضيا عند ربه إلا إذا كان راضيا عند والديه، فلاغرو أن نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي بالأم ويشدد على أسبقيتها في ذلك، فقد جاءه رجل وقال: من أبر يا رسول الله؟، قال: "أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم

¹ ابن حزم، رسائل، 1/243. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص270. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص98. مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية، ص172.

² ابن رشد، فتاوى، 3/1301. ابن الحاج، نوازل، 2/148. البيزلي، المصادر السابق، 2/58.

³ المقرئ، المصدر السابق، 3/262.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

أباك، ثم الأقرب فالأقرب"⁽¹⁾، وحسبنا في ذلك الولد الذي رفع المشقة عن أمه لما أصابها الضرر من غسل ثيابه، فحلف أن يقوم بها بنفسه، شفقة على أمه⁽²⁾، وهذا النص البالغ الدلالة والذي لم يكتف فيه بمجرد الوصف، وإنما كشف من خلاله وبجلاء عن الدوافع العميقة لنظرة القدسية، والمؤطرة في الغالب الأعم من التضحيات الجسام التي تتكبدها الأم في سبيل راحة أولادها.

هذا وقد كان أدب التعازي حافلا بصورة الأم المكرومة عند الآخر الأديب، والتي جعلته يقبل على التعزية بعبارات تنم عن حضور قوي للأم في حياة المعزى، ومن هؤلاء الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن عبد البر النمري (ت458هـ/1066م) حين قال "واتصل بي وفاة الوالدة، فسأني يعلم الله أن يطرق خطب حمالك، ويطأ رزء ذراك، مشاركة لك في الهم، ووقعها معك تحت الحادث الملم، إلا أنني أرجوا أن تشد له عزائم عزائك، وتحمله على كبد احتمالك، وتقلب إليه مجن اصطبارك، وتذكي عليه قبس اعتبارك...والنساء كيف كانت مراتبهن، والحرم وإن جلت منزلتهن لم يغلق عليهن كأبواب التراب، ولم يسدل دوخن كستور القبور، ورب أم مبرورة، وأخت كبيرة، قد نزع منزعاً من الصيانة، وذهبت مذهبا من مباح الديانة، ود ابنها وأخوها قبل ذلك لو طواها كفن، وواراها جنن"⁽³⁾، وربما تخلل هذا النوع من التعازي نوع من التملق لأصحاب الجاه والسلطان، لكنها تدل على معلم عام ينحو للاعتراف بفضل الأم ومكانتها واللوعة على فقدانها على قطاع ممتد من شرائح المجتمع.

أما النوع الثاني من مرثي الأمهات، فاقترب بالملوك والوزراء وأمهاتهم، وهو رثاء كما قيل سابقا، يركن إلى رمزية سلطة أزواج أو أبناء هؤلاء الأمهات المراثيات، فهاهو الشاعر ابن زيدون يرثي والدته ابن جهور (ت435هـ/1043م) في قوله:

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر فمن شيم الأبرار في مثلها الصبر
ستصبر صبر اليأس أو صبر حسيبة فلا ترض بالصبر الذي معه وزر⁽⁴⁾

¹ أبو داود، المصدر السابق، 336/4 (كتاب الأدب، باب في بر الوالدين).

² الونشريسي، المصدر السابق، 77/2.

³ ابن بسام، المصدر السابق، 218/3-219.

⁴ ديوان ابن زيدون، ص199.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ولم يخل الشعر من أبيات أو قصائد قيلت في غرض الرثاء والتعازي، وأصدقه وأقربه إلى قلب المتلقي على اختلاف بيئته وطبقته، ما نظم من الشاعر نفسه في مصيبة الموت التي حلت بأمه، وممن رثوا أمهاتهم في هذا الصدد الشاعر الأعمى التطيلي الذي بوأها المكانة التي تليق بها، مشيراً إلى نزوعها الإيماني وحفظها لكتاب الله قائلاً:

يا قَبْرَ أمِّ علي هل علمت بها إن السيادة بين الشَرِبِ والمَدَرِ
أنثى ولكن إذا عُدُّوا فضائلها لم يدع الفضل من أنثى ولا ذكر
تتلو الكتاب وتتلو من مآثرها آيَا كآي ولم تظلم ولم تُجَرِّ
قوامة الليل تتلوه وتقنته على اختلافه من طول ومن قصر
حتى إذا الصبح جلى ليَّها فزعت إلى صياحٍ بمرضاة الإله حري
كأن محرابها والليل معكَّر في هالة البدر بين البيض والعشر⁽¹⁾

ومن نافلة القول، أن صورة الأم والحالة هذه قد جنحت في أغلب الأحيان إلى الاحترام والتقديس، ما لم تخطأ في حق الولد، أو تحول بينه وبين الحكم والسلطة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فينقشع بذلك صورة الأم المنكوبة من ولدها الأمير، وتنتفي كل الصفات الجميلة في ذهنه، فقد تواتر عن صاحب السهلة أبو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين "جهله وفظاظته، حتى زعموا أنه سطا بوالدته لتهمة لحقتها عنده، فتولى قتلها بيده، وكان أشنع ما كان من كبائره"⁽²⁾، لتركز إلى الإعراض أثناء محاولات الافتداء في الحروب الخارجية لدول الطوائف، فتطالعنا الروايات التاريخية بنظرة دونية للأم الكافرة المرتدة عن دينها، فقد سعى مجاهد بن عبد الله العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية إلى إفتداء أمه التي وقعت في الأسر، لكنها فضلت النصرانية والعيش في أرض المشركين والكفار⁽³⁾، ولاشك أن منطلق هذا التقزز ديني بالأساس، ففي الوقت الذي لا يدخر جهداً من أجل إطلاق سراحها من الأسر، تقفز الأم في ديار الأعداء وتعيش بين ظهرائهم.

¹ ديوان التطيلي، ص 98.

² ابن بسام، المصدر السابق، 111/3.

³ الضبي، المصدر السابق، ص 458. ابن الخطيب، أعمال، ص 221. عصام سالم سيسالم، المرجع السابق، ص 150. ويمكن التساؤل هنا هل النظرة في هاته الحالة لرافد الدين والغيرة على الإسلام؟ أم لتفريط والدته في عسرتهم وتفضيلها لغيرهم؟.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

بينما تمددت نظرة الإكرام للأم من طرف الفقيه العالم، ذلك أن العبيد تحت السيادة الإسلامية، والأم بالخصوص، كانوا في وضع مريح مقارنة بمعاصريهم من الأمم الأخرى، فمن الأمور التي تشدد فيها عدم الفصل بين الأمة وأولادها، وإمكانية الشكوى إلى الفقهاء إن حصل ذلك⁽¹⁾، بل لم يقف الأمر عند هذا الحد فكان أهل الذمة يمنعون أيضا من التفرقة بين عبيدهم الصبية وبين أمهاتهم كما يقضي بذلك حكم الإسلام⁽²⁾، حرصا على عدم الفصل بين أفراد الأسرة الواحدة، وتقييما لذلك الرابط بين الأم وولدها، وسعيا إلى مد البنت بالحنان الذي تحتاجه من والدتها، ومراعاة لحق الأمومة .

وإذا كان ميلاد الإنسان هو بداية حياته، فإن الموت هو نهاية المطاف لتلك الحياة، والقبر أولى منازل الدار الآخرة، لذلك رأى مجتمع المغرب الإسلامي في بناء المقابر تمثلا راقيا لمكانة المدفون على اختلاف جنسه، متخذين من شواهد القبور ملمحا عاما لها ولفضلها، وحسبنا في ذلك ما طالعنا به نتائج التنقيبات الأثرية في الأندلس من شواهد القبور لنسوة فترة الدراسة أمثال " أم ولد المعتصم من المرية، وابنة لأمرير مرابطي"⁽³⁾، ويبدو أن تلحف الأمومة داخل إطار من القدسية محمل لهذا الاحتفاء، مشكلا بذلك انعكاسا في ثقافة نخبة مجتمع الغرب الإسلامي، ناهيك عن اتساع العمران والرخاء، وماحمله من تغيير في كل مناحي الحياة، بما فيها الموت والقبور، فابتدع مجتمع الغرب الإسلامي في بناء القبور، وتفننوا في زخرفتها ونقشها، والذي يعكس في الوقت نفسه اتجاهها نحو الاعتراف بمكانتهن، وسمو النظرة إليهن.

ونتيجة التدخل المتزايد للنسوة في غرناطة عصر بني زيري، أصبح من الشائع الافتراء على أمهات الأمراء، لتتخمر معها صورة الأم المبهوتة الضحية، فقد خطط يوسف ابن النغريلة لقهر وإذلال وتشويه سمعة الأمير ماكسن بن باديس بتشويه صورة أمه؛ من خلال الافتراء عليهن والإشهاد على ذلك " حتى جعلته الأنفة من مكروه ما نقل إليه أن يأمر بقتل أمه"⁽⁴⁾، ولعل لانسحاب باديس من فعاليات الحكم، في ظل ازدياد

¹ ابن الحاج، نوازل، 506/3. القاضي عياض، المصدر السابق، 130/7. الشيرازي، المصدر السابق، 84. ابن فرحون، المصدر السابق، 159/2. الونشريسي، المصدر السابق، 100/5-101. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص 51.

² ابن فرحون، نفسه، 160/2.

³ مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية، ص 419. سعيد سيد أحمد أبو زيد، المقابر الإسلامية في مدينة قرطبة الأندلسية، ط 1، مركز الصفا للطباعة، طنطا، 2008، ص 77.

⁴ عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 65. ابن عذارى، المصدر السابق، 265/3. ابن الخطيب، أعمال، ص 231. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 217.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

طموحات الوزير اليهودي، وتنامي سلطة الأم التي يبدو أنها حملت نوعاً من الوعي السياسي بالتوجيه والإرشاد والنصح، دوراً في توريثها في تجاذبات السلطة ومشاكلها وبروز هذه الصورة.

ومن ناحية أخرى تظهر صورة الأم في الوسيطة ذات الكلمة المسموعة من ولدها عند اجتياز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 483هـ-1090م، والذي كان في استقباله بالإضافة إلى الأمير عبد الله بن بلكين وزيره أبي جعفر القليعي، ضارباً بخيامه قرب موقع يوسف بن تاشفين، مما جعله محط شك في ولائه، فسجنه وقام بضربه، لتتدخل والددة الأمير من أجل إخلاء سبيله⁽¹⁾، ولعل ذلك للحفاظ على أركان الدولة، ولكي تظهر ليوسف بن تاشفين وحدة البلاط .

ومن الواضح أن موقف المرابطين من الأم كان على نفس الوتيرة، ولو كانت من غير الأحرار، إذ يذكر صاحب التبيان المعاصر لأحداث تلك الفترة أنه لما ظفر المرابطون بالمعتمد أخذ "خدمه وعبيده، حاشى أمهات الأولاد"⁽²⁾.

كما أن بعض الأمهات نلن ألقاباً فخمة تعكس صورة تميزها كأم؛ لم تحصل عليها حتى الحرائر على قدرهن، فهذه الرميكية تعرف بأمر الربيع والسيدة الكبرى وأم البنين⁽³⁾. ولعل أكبر مكانة حظيت بها الأم هو اعتزاز الرجال بالانتساب إليها، وقد انتشر هذا النمط في عصر المرابطين، فقد كان "جميع المثلثين ينقادون لأمر نسائهم، ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان"⁽⁴⁾، فانتسب القادة إلى أمهاتهم، أمثال ابن عائشة⁽⁵⁾، وابن فاطمة⁽⁶⁾، وابن غانية⁽¹⁾، لتتعداها إلى العلماء والقضاة، وحتى العامة⁽²⁾.

¹ ابن الخطيب، الإحاطة، 154/1.

² عبد الله بن بلكين، المصدر السابق، ص 206.

³ ابن الأبار، الحلة، 62/2. ابن خلكان، المصدر السابق، 428/4. ابن الخطيب، المصدر السابق، 110/2.

⁴ النويري، المصدر السابق، 146/24. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 353. الحسين اسكان، المرجع السابق، ص 70-71.

⁵ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن عائشة صاحب بلنسية في عهد يوسف بن تاشفين (462-500/1069-1106)، ومن كبار قواد جيش المرابطين، قام بعدة معارك ناجحة أهمها معركة إقليش سنة 501هـ/1108م، كما اشترك في غزو برشلونة سنة 508هـ/1114م، اعتل في بصره في آخر حياته. ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 101-102. ابن القطان، نظم الجمان، ص 65. ابن سعيد، المغرب، 314/2. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 155.

⁶ هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة، من أشهر قواد المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، شارك في استنقاذ بلنسية من أيدي المسيحيين سنة 495هـ/1102م، ولده يوسف بن تاشفين على بلنسية سنة 498هـ/1104م وأقرها عليه علي بعده، ثم عين عاملاً على مدينة فاس سنة 504هـ/1111م، توفي سنة 511هـ/1118م. ابن أبي زرع، نفسه، ص 160-162. محمود مكّي، وثائق تاريخية جديدة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدرّيد، المجلد 7-8، 1959-1960، ص 152-155.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

وفي أواخر الدولة المرابطية تبد آخر للأُم ينحو إلى السلبية، وإيثارها مصلحة ولدها على مصلحة الدولة، فهذه أم الولد قمر ووالدة سير بن علي تعمل جهدها في إزاحة تاشفين بن علي وابن ضرقتها ضوء الصباح رغم بلائه الحسن في حماية الثغور والدفاع عليها، ناهيك عن جهاده للنصارى، مع ذبوع صيته وحب الرعية والجند له لتملكه نفوسهم بالعدل والإحسان، مع عدم مقارعة ابنها لابن ضرقتها ضوء الصباح⁽³⁾، ولاشك أن منطق الأمومة غلب على منطق مصلحة الدولة واعتبار الكفاءة من عدمهن لاسيما لدى إدراكها جنوح علي إليها.

2- البنت:

مما لاشك فيه أن مجتمع الغرب الإسلامي في فترة الدراسة قد أولى اهتماما كبيرا للأبناء وتربيتهم، ذكورا كانوا أم إناثا، ولم تنقطع هذه العناية عن مختلف مراحل حياتهم، خاصة البنات؛ لأنهن أكثر حاجة إلى ذلك.

أ- في حياة الوالدين:

1- في صغرها:

أولت العائلة في الغرب الإسلامي عصر الدراسة الأولاد اهتماما خاصا، ويتجلى ذلك إذا ما رزقت بمولود جديد، ومع هذا المولود الجديد تنقش صورة نمطية للبنات الحديثة الولادة، ملؤها التشاؤم والتطير؛ فقد ظلت فكرة تفضيل البنين على البنات راسخة في المخيال الجمعي لسكان الغرب الإسلامي، فكان تمني الأولاد الذكور على حساب الإناث معبرا لذلك⁽⁴⁾، بل كانت فرحة الأب والأهل بالمولود الذكر أكبر من فرحتهم إذا

¹ هو أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية، ونسبه إلى أهم غانية المسوفية، أحد كبار قواد المرابطين في الأندلس، كان له دور كبير في الجهاد، ومن أشهر مواقفه يوم أفرغة سنة 528هـ، ولاء تاشفين بن علي على قرطبة سنة 538هـ، توفي سنة 543هـ. المراكشي، المعجب، ص269. ابن الخطيب، الإحاطة، 344/4-347.

² هذا ويمكن تسجيل أن موضوع الانتساب للأمهات يتكرر بين الفينة والأخرى في الأدب التاريخي الإسلامي، وفي عهود سابقة عن العصر المرابطي، وحسبنا في ذلك محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمه خولة بنت الحنفية، تميزا له عن أخويه الحسن والحسين رضي الله عنهما. وعن تفسير هذه الظاهرة وخلفياتها، وأهم العلماء والعامة الذين تسموا بأمهاتهم انظر: مليكة حميدي، المرأة المغربية، ص132-135. نبيلة عبد الشكور، المرجع السابق، ص605-606.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص208. ابن عذارى، المصدر السابق، 97/4. ابن الخطيب، الإحاطة، 446/1-447. عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء، ص175.

⁴ كانت كرامات الأولياء معبرا لنضوج فضل الذكور على الإناث، ويفهم التبرم والضرر من كثرة العيال الإناث، والدعاء لطلب الذكور، فقد جاء رجل إلى ولي صالح فسأله عن حاله وعياله، فقال له: "عندي أربع بنات وليس عندي ذكر! فقال: ولم لم تعلمني؟ فقلت له: اشكوه لك؟ فقال صدقت ومن هو أنا حتى تشكوه إلي، ثم قال لي سيولد لك ولد ثم ثاني وسكت ساعة ثم قال وثالث". البشير غانية، المرجع السابق، ص234.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

كان أنثى⁽¹⁾، إذ يسارع إلى الإطعام عليه ولو كان من أهل الخصاصة⁽²⁾، لذا لا نجد غرابة في إعلاء مجتمع الغرب الاسلامي من قيم الذكورة، ونجد صدى لهذا التمجيد من تفضيل المولود الذكر على الأنثى في أمثالهم التي اعتبرت الأنثى عبثاً حقيقياً⁽³⁾، ويبدو اقتران فهم العامة لإمكانية فقد الشرف والعفة من أولى مبررات هذه النظرة، لأنهم حسب فهمهم أكثر تعرضاً للإغواء والسقوط في فخ الرذيلة التي لا يسامح عليها المجتمع، وتبقى وصمة عار لها ولأسرتها ومحيطها ككل.

ولعل تطلع أسر الغرب الإسلامي إلى جنس المولود، مظهر آخر لهذا التمشي، فأهل فاس "إذا كان المولود أنثى قل استبشارهم بها"⁽⁴⁾، ويفهم من هذا أن الأنثى لم تكن مصدر للفرحة والبشرى، بقدر ما كانت مصدراً للحزن والعبوس، ولعل ظروف المجتمع عصرئذ الذي رزخ تحت فترات من الاضطراب والقلق وحوادث السبي والاختطاف دور في عدم التحمس للأنثى. ولم يقتصر الأمر على المسلمين فحسب، فقد نظرت الشريعة اليهودية إلى المرأة نظرة احتقار وتصغير منذ صغرها، وفي هذا الصدد يقول الحبر اليهودي بابا بتر: "ما أسعد من رزقه الله ذكورا، وما أسوأ حظ من لم يرزق بغير البنات"⁽⁵⁾، بل تنهض الإجراءات الوقائية المتخذة في حال ميلاد الولد دون الأنثى خوفاً عليه من الحسد والعين مفرغاً لمكونات المجتمع اليهودي إزاء الصورة الدونية للأنثى⁽⁶⁾، وهذا ما يجلي نظرة التفريق في المعاملة بين الذكر والأنثى منذ الولادة، ولأن الناس طبعوا على "حب الذكور والشغف بالبنين"⁽⁷⁾. ليصل هذا التفضيل إلى درجة متقدمة من التطرف؛ فيرتسم معها وجه البنت الموءودة، عندما كان بعض الرجال يهددون أزواجهن بالقتل إن ولدت بنتاً، ولعل شدة خوف الزوجة التي اعتادت إنجاب البنات فقط هي التي حملتها على إلقاء فلذة كبدها أمام الباب حال وضعها مباشرة⁽⁸⁾.

ويزداد هذا الفهم اتضاحاً في عالم البادية، حيث كان الفلاحون يفضلون الذكور على الإناث؛ وربما نبع ذلك من حاجة عملية إلى الذكور الذين يستطيعون مساعدة الآباء في العمل الزراعي وغيره من الأعمال، هذا

¹ ابن الحاج، المدخل، 292/3. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص332.

² ابن الزيات، المصدر السابق، ص 381.

³ جاء على لسانهم: "مَنْ عِنْدَ وَلِيٍّ عِنْدَ بَلِيٍّ". الرجالي، المصدر السابق، 291/2. محمد ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص 82.

⁴ الحسن الوزان، المصدر السابق، 258/1. محمد ياسر الهلالي، نفسه، ص 89.

⁵ خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 289. مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية، ص 216.

⁶ فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص 148.

⁷ القلقشندي، المصدر السابق، 60/9. ونفس النظرة ترتسم في مجتمع الغرب الأوربي في العصور الوسطى. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص 229.

⁸ ابن الحاج، نوازل، 273/2. البرزلي، المصدر السابق، 53/6. محمد ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص 89.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

بالإضافة إلى حالة الحروب شبه الدائمة سواء الحروب الداخلية أو الخارجية، والتي تتطلب معها توفر الذكور للحماية والمدافعة، فضلا عن شيوع القيم الشرقية التي تفضل الذكر على الأنثى لاعتبارات الشرف والافتخار والتباهي⁽¹⁾.

غير أن بعض المصادر تمدنا بنصوص في غاية الأهمية، تؤكد على أنها محط حنان ورأفة من الوالد الآكل لهمها، وأي والد؛ إنه الأب المجاهد ضد نصارى الشمال في الأندلس ابن سكرة حسين بن محمد الصدي(ت514هـ/1120م)⁽²⁾، ويحيل شاهد عيان في عصر الطوائف على الاستبشار والغبطة بالمولود الأنثى، لا سيما إذا كانت هي بكر الأولاد، وقد أشار إلى ذلك عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة في مذكراته عندما صرح أنه: "كان من نعمة الله على إن رزقي بكر أولادي إبنة، لم يزل قبيلنا كله يتبرك بها، ويكره أن يكون بكره ابنا ذكرا"⁽³⁾، ويمكن طرح تساؤل عن أسباب هذه النظرة المختلفة والمتناقضة أحيانا مع روح العصر!، هل هو محض تفاؤل فقط؟، لأنهن "أقرب إلى القلوب"⁽⁴⁾، أو لكونهن "باليمن معروفات، وبالبركات موصوفات"⁽⁵⁾، وهي تعبير عن النظرة الدينية لتربية البنات التي يحصل فيها المسلم على أجر مضاعف لتربية البنات سواء في الدنيا بما يحمل البنات من سعة الرزق أو الآخرة، أم أن الأمر أكبر من ذلك؟، فمن الممكن أن الموضوع يركن إلى معتقدات غيبية تثير خوفهم على الذكر، ففضلوا أن تكون الأولى أنثى لأن النفاس والوضع سيكون بعدها أسهل، وإذا كان كذلك؛ فالمعنى السابق هنا سينسف تماما، ولعل الأقرب إلى الصواب أن البكر الأنثى تفضل على البكر الذكر لأن الأنثى تكبر معهما، ثم هي المعينة لأُمها في شؤون المنزل والمخففة من مسؤولياتها، وهي أكثر مراعاة لوالديها في صغرهما، كما كبرهما.

كما كانت نظرة الإكرام للبنات حاضرة بقوة من طرف الفقيه لا على مستوى الأحرار فحسب، بل حتى لدى العبيد، فمن الأمور التي تشدد فيها عندهم عدم الفصل بين الأمة وبناتها، وإمكانية الشكوى إلى الفقهاء

¹ حسن قرني، المرجع السابق، ص214. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص33. وليس بعيدا عن هذا المعنى ما أثر في الأمثال حين قولها: "موت البنات ستر" محمد أحمد اشماغو، المرجع السابق، ص49.

² ابن الأبار، التكملة، 243/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 421/5. محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية، 521/1. حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية، ص205.

³ كتاب التبيان، ص234. حميدي مليكة، ص205. 250.

⁴ القلقشندي، المصدر السابق، 62/9.

⁵ نفسه، 60/9. وفي هذا المعنى جاء على لسان العامة قولهم: "حسن ما عملت، بكرنا بنت". محمد أحمد اشماغو، المرجع السابق، ص47.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

إن حصل ذلك، وهو ما يحيل مرة أخرى على وجه البنت المصانة التي يخشى عليها نواب المجتمع⁽¹⁾، بل لم يقف الأمر عند هذا الحد فكان أهل الذمة يمنعون أيضا من التفرقة بين عبيدهم الصبية وبين أمهاتهم كما يقضي بذلك حكم الإسلام⁽²⁾، ولعل البنات بخصوصياتهم الجسمية والنفسية أكثر حاجة للحنان والعطف، فكان لزاما مراعاة ذلك.

كما كانت البنت محط تخمر موقف العطف والحنان من مختلف شرائح المجتمع، وفي كل مراحل عمرها، حتى عند أكثر الناس بطشا وجبروتا، فرغم ما اشتهر به المعتضد العبادي من قسوة وسادية مع أعدائه وخصوصه، بل حتى مع أقرب أبنائه، لكنه مع ذلك كان محبا لبناته عطوفا عليهم، وقد روي أن سبب وفاته كما قيل جزعه الشديد على ابنة له ماتت صغيرة وكانت أثيرة لديه⁽³⁾.

هذا وقد أولت بعض القبائل الصنهاجية في دولة المرابطين البنت رعاية خاصة، ففضلتها على الذكر، واهتمت باعدادها للمستقبل المنزلي، فيما يمكن تسميته بالصناعة المنزلية، الموجه بالدرجة الأولى إلى الاكتفاء الذاتي الأسري، وليس لغرض البيع والشراء، إذ تعلمها الأم تفصيل الملابس وترقيعها وتصنيع شعر الماعز والجلود وطريقة اقامة الخيمة وفكها وطريقة التزيين للنساء، لأن المرأة هي التي تحفظ ثقافة بيئتها⁽⁴⁾، ولاغرو أن هذه الثقافة التربوية التي تعنى بالأنثى تفسر جانبا من حضور المرأة في جوانب كثيرة في الدولة المرابطية

2- في كبرها:

لم يتغير الموقف كثيرا بين البنت في حال الصغر والكبر، إذ ظلت النظرة تتراوح بين الدونية والغبن إلى الحظوة والمكانة وعلو الشأن. وفي بيئة مجتمع الغرب الإسلامي الذي ينظر بدونية للأنثى في أغلب الأحيان، لا يجد الذكر غضاضة في التماذى في غل نصيب البنت من ميراث ذويها⁽⁵⁾، لذا نجد أن بعض أوقافهم

¹ القاضي عياض، المصدر السابق، 130/7. المراكشي، وثائق المرابطين، ص 333. الشيرزي، المصدر السابق، 84. ابن فرحون، المصدر السابق، 159/2. الونشريسي، المصدر السابق، 100/5-101. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص 51. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 273. 275.

² ابن فرحون، نفسه، 160/2.

³ ابن الأبار، الحلة، 52/2-53.

⁴ مليكة حميدي، المرأة المغربية، ص 131.

⁵ ابن رشد، فتاوى، 1407/3-1408. البرزلي، المصدر السابق، 256/5. الونشريسي، المصدر السابق، 612/9. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص 33. ولم تكن ظاهرة حرمان المرأة من الميراث بغربية على مجتمع يلعب فيه العرف دورا مهما، زاحفا نحو بنية الأسرة بتسخير هذه الأعراف لمنع تفتت وسائل الإنتاج بخروجها من العائلة.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

وصدقاتهم كانت استجابة لوجه البنت المهمشة⁽¹⁾، فكثيرا ما كان للبنات نصيب من هذا المعطى، حيث يجلسون عليهم الأراضي، إضافة الجنات والخوانيت والدور، سواء المسلمات أو حتى اليهوديات⁽²⁾، وقد حضر هذا الهاجس في تمثل الوالد الذي حمل في الكثير من المرات همها، فلجأ إلى نخلها دارا عند زواجها⁽³⁾، أو منحها نصف قرية وحبسها عليها ليستفيد منها زوجها، على شرط ألا يتركها⁽⁴⁾، وهكذا حافظ الأب على زوج ابنته، وعلى العلاقة الزوجية لابنته في الأساس، والتي ربما قد يبدى تضمر من زوجته المريضة، أو بغرض إعانتة على محاولة شفائها، مع ما تتطلبه من أموال كبيرة، في ظل قلة عدد الأطباء وارتفاع أجورهم، في حين أعان الابنة المتزوجة أو التي ستتزوج رجلا فقيرا أو غير الميسور الحال⁽⁵⁾.

حتى أن اليهود ساروا على نفس نظام الوقف، ولذلك وجدنا يهوداً يوقفون أموالهم على بناتهم⁽⁶⁾، ومن هنا يتبين لنا أن المرأة عموما والبنات خصوصا لقيت نوعا من الرعاية داخل أسرهما وذويها، تساعدن على عيش حياة زوجية طيبة.

هذا وقد حرص العامة على الإسراع في تزويج بناتها، خصوصا أنهن يشكلن حسبهم مصدر هم للأولياء، في الحياة وحتى بعد الممات، جريا على صورة البنت المعضلة المتخلص منها، والتي لا دور لها في الحياة دون

¹ شكلت النوازل وكتب الوثائق على تنوعها، وفي شقها المتعلق بالهبات والوصايا خصوصا مؤشرا يتلمس فيها عادة تفضيل الذكور على الإناث. ابن العطار، المصدر السابق، ص211. الشعبي، المصدر السابق، ص100. 141. 304. ابن بشتغير، المصدر السابق، ص245. ابن رشد، فتاوى، 401/1. 320/1. المراكشي، وثائق المرابطين، ص410. ابن الحاج، نوازل، 146/2. البرزلي، المصدر السابق، 324/5. الونشريسي، المصدر السابق، 452/7-453.

² ابن العطار، نفسه، ص214. ابن سهل، المصدر السابق، 696/2. 129/1. 683/2. الشعبي، نفسه، 146. ابن بشتغير، نفسه، ص235. 251. ابن رشد، نفسه، 471/1-472. 164/1. البرزلي، نفسه، 325/5. الونشريسي، نفسه، 174/5-175. 49/7-50. 229/7. فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص117. وكان هذا الإجراء معمولا به في الغرب الأوربي الوسيط. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص228. ولأخذ ملمح عام حول ذلك انظر الملحق رقم 04.

³ ابن الحاج، نوازل، 409/2. 595/3.

⁴ ابن ورد، المصدر السابق، ص100.

⁵ ابن مغيث (أحمد بن مغيث الطليطلي)، المقنع في علم الشروط، وضع حواشيه ضحى الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ص59. الشعبي، المصدر السابق، ص397. ابن رشد، فتاوى، 1/ 176-177. البرزلي، المصدر السابق، 217/2.

⁶ خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص353.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

اعتبار لخياراتهن⁽¹⁾، ويزداد هذا التفهم إذا توفي عنهن عائلهن⁽²⁾، لهذا نجدهم حريصين أشد الحرص للمساعدة في تزويجهن صغيرات⁽³⁾، وليس بعيد أن هذا التمثل يتماشى مع الذهنية السائدة التي البنت محط مخاوف جلب العار لشهوانيتها وشبقها⁽⁴⁾، وأكثر عرضة للغواية والوقوع في الخطيئة.

وأحيانا يتطوع أهل الخير بتجهيز البنات الفقيرات الضعيفات إلى أزواجهن، واعتبروا ذلك من القربات⁽⁵⁾، ولا مشاحة أن ذلك انعكاس لقيم التكافل الاجتماعي في مجتمع الغرب الإسلامي عصر الدراسة والتي خصصها الإسلام بالثناء والتبجيل.

هذا وقد سار عليه القوم على تكريم البنت التي ستزف، سيرا على صورة البنت المكرمة المحتفى بها، والمحتفى بها بسبب خروجها من بيت أبيها إلى بيت زوجها، مع الزيادة في الإكرام والأبهة، من ذلك توجيه ابن مجاهد وقد زفت ابنته إلى ابن صمادح برسالة تنم عن مشاعر الغبطة والفرح بابنته⁽⁶⁾، ولم يكن هذا التكلف لصيقا بالأثرياء فقط، فباقي الشرائح المجتمعية كانت تتكلف في تحضيرات زواج البنت عند زفها لبعليها إظهارا للغبطة والسرور، ولو كان من ذوي الخصاصة، لتتبلور معه وجه البنت المتفاخر بها، فسيرا مع أعراف المجتمع؛ كان من الشائع أن يبالغ الوالد في تجهيز ابنته ولو تخطت مقدراته المادية⁽⁷⁾، فيشور الوالد أو الأم ابنتها أحيانا

¹ في قولهم: "هَمَّ الْبَنَاتُ لِلْمَمَاتِ". ابن عاصم، المصدر السابق، ص298. مؤكدين ذلك في المثل الذي يقول: "مَنْ كَثُرَ ابْنَاتُ كَانَ الْكِلَابُ اخْتَانًا". الزجاجي، المصدر السابق، 334/2. ابن الحاج، نوازل، 21/2. 292. نادية لعشيري، ملامح من صورة المرأة، ص84.
² فقد جاء في الأمثال: "وَيَّ عَلَى مَنْ مَاتَ وَخَلَّى سَبْعَ بَنَاتٍ" الزجاجي، نفسه، 452/2.
³ يقولون في ذلك: "إذا قالت البنت دَدَّ فَكَرَّ لها في مَخَدِّ وان رَفَعَت القَدَحَ لِمَهْمَا تُحْتَاجُ ما تُحْتَاجُ أمها" نفسه، 9/2. ابن سهل، المصدر السابق، 203/1. ابن رشد، المصدر السابق، 56/1. الونشريسي، المصدر السابق، 133/3. 267/4. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص270. حسن قرني، المرجع السابق، ص214. وقد كان هذا النمط من الزواج موجودا في الغرب الأوربي الوسيط، وإن أملت المصالح المتعلقة بالأرض بالدرجة الأولى. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص226.

⁴ النفزاوي، المصدر السابق، ص103-104.

⁵ ابن حزم، رسائل، 165/1.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، 127/3-128. ابن سعيد، المصدر السابق، 402/2-403. ابن عذارى، المصدر السابق، 267/2. حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية، ص182. وانظر نص رسالة ابن مجاهد الذي يعبر على ما قيل في البنت المزفوفة لبعليها في الملحق رقم 05. وما يذكر أن جهاز زوجة الخليفة المقتدي إبنه ملكشاه نقل على مائة وأربعين جملا، واحتوت خزائنها على اثني عشر صندوقا من الفضة. وجدان حسن العزايزة، المرجع السابق، ص92.

⁷ يبدو أن البنت وتكاليفها زادت في حال الرغبة في تزويجها، فيدفع الوالد ما عنده ولا يكفيه، فيضطر إلى قصد أهل الإحسان من أجل تجهيزها. المقرئ، المصدر السابق، 88/3. وهو ما ينم عن موقف الحيرة في تزويجها، وقد يكون نوع من السخط من التكاليف الباهظة، لكن باستسلام ودون مقاومة لسلطة العرف والعادات المجتمعية.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

أشياء تزيد على حاجتها على سبيل الهبة أو الإعارة، وذلك ليظهر أمام أهل الزوج والأصدقاء أنه جهز ابنته بجهاز كامل، وأنه ينتمي لطبقة اجتماعية ميسورة⁽¹⁾، ويبدوا أن هذا الإجراء خرج عن المقصد الشرعي المنوط به، مما أدى إلى سيادة طابع المباهاة والتفاخر أمام الأهل والناس، لحفظ ماء وجه البنت.

وقد كان هاجس البنت مرافقا للوالد حين بلوغها مرحلة التزويج، ويزداد هذا الهلع في حال كبر الفتاة وانعدام خاطبيها، ليتبلور وجه العانس، فتكون فرصة منحها لأول متقدم لها دون اعتبار لظروفه الاجتماعية، وفي قصة أم داعي الموحدين التي جاء فيها" أن والدة ابن تومرت قد أعنست، فلما خطبها والد بن تومرت وكان فقيرا رغبوا في مصاهرته"⁽²⁾ مؤشر على ذلك.

ولعل ذهنية المجتمع التي لم ترحم هذا الصنف من النساء اللاتي صرن محط همز ولمز؛ هو ما يفسر إلى حد بعيد لجوء الأولياء إلى المسارعة في تزويج بناتهم صغيرات، فقد عكست لنا نصوص الفترة نوعا من تمثيلات هذا الموضوع، والمتعلق برغبة الأولياء في تزويج البنت الكبيرة، لدرجة أنه يسلك طرقا متعددة وملتوية أحيانا لضمان ارتباطها؛ حتى أنه يقوم بمغامرة بائسة منه يحاول فيها إبدال بنته الصغيرة بالكبيرة عند أوان تزويجها، وهو الذي خلف ولاشك أثرا نفسيا على الكبيرة، وحزازات مع الأصهار الجدد⁽³⁾، والتي تبين وجه العانس العبد لدى ذوبها⁽⁴⁾، لا سيما مع النزف الديمغرافي الرجالي، وانفتاح مجتمع الغرب الإسلامي على الرق النسائي بمميزاته المستقطبة للرجال.

ليتجاوز إحساس الدونية والنقص بسبب عدم تقدم أحد لها إلى البنت ذاتها، لا من المسلمات فحسب، بل حتى من أهل الذمة، وليس ببعيد أن للانصهار والتمازج الثقافي الذي حدث في الغرب الإسلامي دورا في بوتقة الذهنية الرجالية والنسائية على السواء حول هذا المعطى الحساس، أقصد هنا الشعور بالدونية وجرح

¹ ابن مغيث، المصدر السابق، ص58. ابن سهل، المصدر السابق، 259/1. ابن الحاج، نوازل، 2/ 295/2. الونشريسي، المصدر السابق، 291-290/3. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص280. كمال السيد، مألقة، ص62. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص99. حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية، ص177.

² نبيلة عبد الشكور، المرجع السابق، ص211.

³ ابن سهل، المصدر السابق، 203/1. ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص82. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص98. حميدي مليكة، نفسه، ص170.

⁴ قالت العامة "من عند وبي عند بلي". الرجالي، المصدر السابق، 291/2.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الكبرياء في حالة عدم تقدم خاطب، ولنا في قسمونة اليهودية المتمتعة بالجمال والثقافة خير مثال على عيشها الأسى والاضطراب النفسي لتأخر زواجها⁽¹⁾، ليحمل والدها مرة أخرى همها في التزويج⁽²⁾، وهو ما يشير مرة أخرى إلى أن البنت غدت عبءًا لدى وليها في هذه المرحلة الحساسة من عمرها، كما يمكن تفسير إعراض عن الزواج في هذه الحالة، ومن المسلمين بالخصوص؛ في المثبطات المجتمعية التي ترى الزواج من الذميات واليهوديات بالخصوص نوعاً من الانتحار المجتمعي، بل والديني إن صح التعبير، يمكن أن تمارس فيه المرأة سلطتها الاغرائية والاغوائية، بل ولؤمها وخبثها لصده عن دينه.

هذا وقد كان عرض البنت وطهارتها مصدر فخر أو عار للأب، ومكون أساسي في توليفة وجه الطاهرة العفيفة أو المفتضة غير الشريفة، فالعذرية تضفي على المرأة في نظر الرجل طابع القدسية، لذا كان الوالد يسارع إلى استخراج عقد لتلافي نظرات المجتمع وتأويلاته، مؤكداً فيه أن فقدان العذرية خارج عن إرادتها، كالسقوط من الدرج أو السلم أو غيرها لإشاعته، ويدفع بذلك عنها العار حين يحين موعد تزويجها⁽³⁾، وقد وعت الفتاة مفاهيم المجتمع وقيمه، فيبدى صورة البنت اللعوبة، إذ تراها لا تفرط في مصدر اعتزازها حتى وإن كانت منحرفة⁽⁴⁾، ولاغرو أن يضطلع الجسد الأنثوي للفتاة بكل هذه الحرص والحيلة، لأن المجتمع في الغرب الإسلامي ركن إلى نسق أخلاقي توطئه جملة من العوائد والأعراف، تغدو فيه البنت أولاً وأخيراً وعاءاً لشرفها وشرف أسرته.

ومن جانب آخر، وبسبب توافر السبي من النساء من أسرى الحروب، تتراءى صورة البنت المناقصة في الزواج والتي حملوا همها، فقد كان من الشائع عند أهل التغالي في تجهيز بناتهم، لحفظ مكانتهن وكرامتهن، وإخراجهن من شبح العنوسة، وعدم مساواتهن بالأسرى العبيد⁽⁵⁾، في ظل الإقبال الكبير على بنات السبي

¹ مع إباحة الإسلام الزواج من اليهوديات، إلا أن ذلك نادر في الغرب الإسلامي، بينما كثرت الزيجات هناك من نصرانيات، ويعود سبب ذلك حسب الباحث خالد يونس عبد العزيز الخالدي إلى تحريم شريعة اليهود زواج نسائهم من غير اليهود، إضافة إلى المبادئ اليهودية العنصرية التي تجعلهم أكثر ميلاً إلى المحافظة على عنصرهم اليهودي من الاختلاط بغيرهم. اليهود في الدولة العربية الإسلامية ص 294-295.

² السيوطي، المصدر السابق، ص 75. المقرئ، المصدر السابق، 530/3. عمر قلعي، المرجع السابق، ص 377. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص 346. حميدي مليكة، المرجع السابق، ص 220-221. حياة قارة، المرجع السابق، ص 89.

³ الجزيري، المصدر السابق، 67/1. بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 24. للتوسع انظر الملحق رقم: 07.

⁴ ومصدق ذلك ماجاء في الأمثال الشعبية بقولها: "بُسْ واقْرُصْ وخلْ موبُضع العروس". الزجلي، المصدر السابق، 132/2.

⁵ حتى وإن كانت هذه الإشارات متقدمة زمنياً حيث وقعت زمن ابن أبي عامر، لكن يمكن سحبها على الفترات التي تنشط فيها عمليات الجهاد وما يصحبها من سبي في فترة الدراسة.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الأجانب لرخص ثمنهن⁽¹⁾، ويمكن القول أن صورة البنت المسلمة المصانة؛ إلى جانب إنقاذها من براثن العنوسة، اقترنت على الأرجح بأنفة المسلمين من الكفار، ولكل ماهو من العدو بما فيها المرأة، رغم إدراكهم من مزايا السبايا الأجانب ذات الجمال الفائق.

والجدير بالملاحظة أن البنت كانت بالنسبة لوالدها من أفضل الآليات لاصطناع الأمراء ورجال الساسة في الأقاليم والدول الصديقة وحتى المناوئة، وحسبنا في ذلك أن علي بن مجاهد العامري صاحب دانية، وظف بناته اللاتي كن فائقات الجمال في مصاهرات مع ملوك الطوائف خدمة لأغراضه⁽²⁾، لتتمظهر صورة البنت القرين عند الأمير أبو بكر أحمد بن أبي عبد الله بن عبد العزيز صاحب بلنسية الذي التمس سنة 477هـ/1084م حماية المؤتمن بن هود صاحب سرقسطة، مقدما ابنته لتكون عروسا لولده في مقابل ذلك⁽³⁾، ويبدو أن البنات لعبن دورا في إيجاد نوع من التقارب السياسي والتعاون العسكري بين حكام الأندلس.

وقد ضرب الأولياء أسمى مستويات التفهم والمواساة للبنت لا في صغرها؛ وفي السعي لإنجاح زواجها فحسب، بل تعداه إلى ما بعد فشل زواجها، ليتبلور وجه البنت المأخوذ بيدها في كل وقت، فكثيرا ما ساعد الوالدان ابنتها في الخلع ماديا ومعنويا، ولم يتركها لتواجه مصيرها بمفردها⁽⁴⁾، وهو ما يدل على أن المرأة حظيت برعاية ودعم محيطها الأسري من ناحية، واستغلال للزوج لهذه الظرفية من أجل التملص من تبعات النفقة، حتى صار المال هينا إلى جانب ما تقاسيه معه، فكيف كان موقف الفقهاء من ذلك؟.

إن المتتبع للإشارات المبثوثة في النوازل بخصوص الخلع وما يلحق به من حقوق، يقر بحضور وجه المطلقة المنصفة الذي تمتعت به المرأة في الغرب الإسلامي من قبل الفقهاء والقضاة⁽⁵⁾، فتدخلوا من أجل قمع الأنانية

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص38. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص50. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص99. حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية، ص177. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص94.

² العذري، المصدر السابق، ص29. ابن بسام، المصدر السابق، 266/4. ابن الخطيب، أعمال، ص219. عصام سالم سيسالم، المرجع السابق، ص184.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، 304/3. حميدي مليكة، الإسهامات، ص121. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص226.

⁴ ابن الحاج، نوازل، 2/ 360. البرزلي، المصدر السابق، 2/ 116. الونشريسي، المصدر السابق، 4/ 324. 4/ 182. 3/ 272. زهور أربوح، أوضاع المرأة بالمغرب الاسلامي من خلال نوازل المعيار للونشريسي، ط1، دار الأمان، الرباط، 2013، ص258.

⁵ ومع ذلك فيفهم أن الزوجة التي تسعى للطلاق تمثل عارا على زوجها، وعلى أهلها بالأخص، وإلا فكيف نفسر فرار المرأة من قريتها، ولجوءها إلى قاضي المدينة، لتطلب منه أن يطلقها للضرر، ويبدو أن هذه العقلية كانت منتشرة في المناطق البعيدة عن متناول القضاة، والتي لا تناهها الأحكام الشرعية. البرزلي، نفسه، 2/ 245. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص102.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الذكورية التي طغت في بعض الأحيان، وإقرارا للحقوق والواجبات، فقد وقفوا في كل مرة ودون تحفظ من الشروط المححفة للمرأة المطلقة، ملغين كل الشروط غير الشرعية، بما فيها شرط نفقة الزوجة على الولد⁽¹⁾، ولاشك أن هذا الدعم كان نظير ما يلحقها من إرهاق مالي ونفسي، وتنصل للزوج من جزء من مسؤولياته، مستغلا إلحاحها على إنهاء رابطة استحالة استمرارها، خاصة أن الولد كان نتيجة علاقة نسجها الطرفان معا.

وينقشع تصور جديد مع بثينة ابنة المعتمد العبادي؛ فبعد أن بيعت في سوق النخاسة كما يباع العبيد، واشترها أحد تجار إشبيلية ووهبها لابنه للطفها وجمالها، فلما أراد التعريس بها وضع وجه البنت البارة رغم تشردها، التي لم تنس طلب مباركة والدها على زواجها رغم ظروفها وظروفه الصعبة⁽²⁾، ليصاغ عند الوالد المزحج عن العرش حالة نفسية متدهورة، كانت نتيجة وجه البنت البائسة مع أخواتها الأخريات اللاتي رضعن الذل بعد العز والفاقة بعد الغنى⁽³⁾، ضاربا المثل في تقلب الأحوال وعدم دوام العز والسلطان، ومستشعرا حالة الذل والهوان التي صاروا يحيونها.

ومن المعروف أن البنت أكثر حنانا ورأفة على والديها، وتشكل ملجأ آمنا للأبوين عند كبر سنهما أو مرض أحدهما أو نكبته، لأن طبيعة البنت النفسية تجعلها أكثر عاطفة وشاعرية، لهذا لا نستغرب أن ينقشع وجه البنت البارة بقوة، فتروي أحد النوازل أن البنت هي من كانت تعتني بوالدها الضعيف المقعد، مع وجود أبناء له ذكور⁽⁴⁾، فقد "يقع في الإناث من هو أشرف من الذكور طبعاً، وأجزل عائدة ونفعا"⁽⁵⁾، وما الواقعة التي رواها المقرئ أواخر العصر المرابطي إلا ترجمة للمعنى السابق؛ وتتحدث عن رجل أراد الزنا ببنت ألقاها الحاجة لطلب ذلك، بعد نكب السلطان لوالدها، خاصة أنها لم تدخر كل ما تملك في سبيل النفقة عليه⁽⁶⁾، ولاشك أن مكان الأب في وجدان ابنته حولها التسليم في شرفها عند الاقتضاء من أجل إعالتة والسعي إلى تخليصه.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 14/4-15. 228-227/4. زهور أربوح، المرجع السابق، ص 256-257.

² المقرئ، المصدر السابق، 284/4. عمر قلعي، المرجع السابق، ص 386. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص 168. حياة قارة، المرجع السابق، ص 86.

³ المقرئ، نفسه، 273/4-274. صالح خالص، المعتمد، ص 199.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 171/9. وينهض دليلاً على هذا التخرج قولهم: "اللي ما عندو بنات، ما عرفوا باش مات" محمد أحمد اشماغو، المرجع السابق، ص 47.

⁵ القلقشندي، المصدر السابق، 61/9.

⁶ المقرئ، المصدر السابق، 277/7-278.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ومع ذلك كانت بعض الأمهات عند احتضارهن توصي لبعض بناتها دون الأخرى، لتبلور وجه البنت العاقبة، وحسبنا في ذلك ما أورده الونشريسي من أن " امرأة لها بنات وحفدة فمرضت فأتت بشهود فقالت لهم: أريد أن أوصي بثلاثي لابنتي مريم وعائشة دون ميمونة لأنها تعقني"⁽¹⁾، والذي يوحي بخلافات شديدة بين الأم وابنتها على غير العادة، لدرجة أنها لم تجد هذه الأم من وسيلة لعقوبة ابنتها العاقبة سوى عضلها من الوصية.

وقد أثر عن الشاعر ابن حمديس الصقلي أنه أرسل إلى ابنته ملاعبا قصيدة نعى بها نفسه، فما إن وصلها هذا النعي الكاذب حتى لبست الحداد، وبكت أباهما، بل لم تتزين ولم تكتحل، وظلت محزونة عليه حتى ماتت كمدا، وهو ما يعبر بصدق عن وجه البنت البارة⁽²⁾، ما حمله على رثاء ابنته في أبيات بينت حالة المفجعة بفقدانها، متحدثا عن تربيته لها ووفائها لزوجها، والذي لم يشفع لها أمام الموت الذي لا يرحم ولا يتعطف حين قال:⁽³⁾

فيا غرسة للأجر كنت نقلتها إلى كنفي صوني وألحفتها ظلي

وأنكحتها من بعد صدق حمده كريما فلم تذمم معاشرة البعل

أتاني نعي عنك أذكى جوى الأسي علي اشتعال النار في الحطب الجزل

في حين يتظاهر آخر بالارتياح والتصبر بما حل ببنته من زيارة الموت لها، بعد أن بلغت عمر التزويج والتجهيز للزفاف، فتتغير الثنائية من موت-حزن إلى موت-سعادة، وتبديل الفكرة الراسخة عن الموت، وما تحمل من الدلالات الموجبة لكرهية والتسخط عندما يقول:⁽⁴⁾

ألا يا موت كنت بنا رؤوفاً فجددت السرور لنا بزورة

حمدنا سعيك المشكور لما كفيت مؤنة وسرت عورة

فأنكحنا الضريح بلا صداق وجهزنا العروس بغير شورة.

¹ المقرئ، المصدر السابق، 367/9.

² ديوان ابن حمديس، ص 366.

³ نفسه، ص 365-366.

⁴ ابن الخطيب، الإحاطة، 440/3. حميدي مليكة، الإسهامات، ص 417.

2- في غياب الوالدين (اليتيمة):

كانت صورة اليتيمة⁽¹⁾ التي فقدت إحدى أبويها إما لظروف طبيعية أو بشرية، شأنها شأن العديد من الشرائح المهملة قليلة التداول في استغرافيا فترة الدراسة، إلا ما رشح في المصادر التي تهتم بالحياة الواقعية للسكان مثل النوازل والوثائق وبعض مدونات الأدب.

ولقد بلغت مكانة اليتيمة مداها في أعين المحتسبين، بأكل همها، واعتبارها من مسؤوليتهم، رسماً على منظور اليتيمة المصانة في الزواج، حيث اعتنى المحتسبون والفقهاء بتفاصيل زواج اليتيمة، وحرصوا على عدم غبنها في زواجها، من الأقارب أو الأبعاد، بأن شرطوا أن يؤخذ رأيها وتحترم إرادتها⁽²⁾، سيرا على ذهنية المجتمع اتجاه هذه الفئة، ونظرتهم لهم على أنهم ضعاف، يسهل التحكم بهم. ولعل وقوع بعض التجاوزات التي رصدتها النوازل مع مهادنات وترتيبات الزواج، وتخمير وجه المغبونة، مسوغ قوي لتدخل المحتسبين آنفاً، فتعرض إحدى نوازل المعيار أن اليتيمة تتعرض إلى حدوث خلل في شروط الزواج، من قبيل الإشهاد لشخصين ليسا من أهل العدالة، استعان بهما رجل ليمضي زواجه بفتاة وفق السنة، وما موقف الفقهاء المرن في إمضاء الزواج إلا تمثل للرحمة بالبت اليتيمة⁽³⁾، وذلك من أجل التوفيق بين مقتضيات الشرع وظاهر السلوك، فلو كان لليتيمة أولياء يراعون شؤونها لانتبهوا لذلك، ولم يمضوه.

ولعل مقصد إنكاح بعض الأيتام قبل البلوغ يحيل مرة أخرى على وجه البنت المخشي عليها، لمن كانت بحال حاجة، وخشي عليها الضيعة⁽⁴⁾، خاصة إذا توفرت فيها مقومات توجي بنضجها، فحالة اليتيم بما تحيط بها من عوز وخصاصة، في ظل صغرها وقلة حيلتها تجعل القضاة يرخصون في زواجها، بحثاً على استقرارها، ومن أجل توفير محيط آمن لها، بل كان أحب أعمال بعض النساء المسنات سعيهن في تزويج البنات اليتيمات، والقيام بشورتهن، أو ترشيحهن للزواج ممن يعرفنه من الرجال⁽⁵⁾. إلا أن هذا المسعى لا يوفق أحياناً، فتهرب

¹ لابد من التنويه في بداية هذا العنصر أن المتون المصدرية عند تناولها للأيتام لم تعين في الغالب الأعم جنسهم، لذلك افترضنا ابتداءً - إلا ما جاء صريحاً عنهن - أن الحالات المبثوثة عن الأيتام تسقط على اليتيمة لأنها تترجم نفس الأسباب والمواقف.

² ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، 80. ابن الحاج، نوازل، 2/ 53. 647/3. محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص 276.

³ الونشريسي، المصدر السابق، 267/3.

⁴ ابن العطار، المصدر السابق، ص 13. ابن المغيث، المصدر السابق، ص 45. الونشريسي، نفسه، 378/3.

⁵ ابن حزم، رسائل، 1/ 165. الونشريسي، نفسه، 366/1. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، رعاية الأيتام في الأندلس من الفتح حتى نهاية المرابطين، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2005، ص 43. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 179. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص 270.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

اليتيمة من زوجها نتيجة كرهه وبغضه له، لتضاء صورة البنت المتبرمة المثقلة بمسؤوليات فوق طاقتها⁽¹⁾، ولا مشاحة أن مسؤوليات الحياة الزوجية ومتطلباتها وعدم تقدير الزوج لصغر سنها، مع عيشها في كنف العائلة الممتدة التي كانت أكثر انتشارا في مجتمع الغرب الاسلامي عصر الدراسة ملمح لهكذا رد فعل.

وجدير بالذكر أن نظرة الشفقة والرحمة على اليتيم والتورع على أكل ماله شملت شرائح المجتمع ككل، بما فيهم الطبقة الخاصة، ففي عهد المعتصم بن صمادح صاحب المرية في عصر ملوك الطوائف اغتصب بناء قصره ومهندسوه قطعة أرض لأيتام، فبلغ ذلك الأمير الذي استشعر الموقف وأخذته خشية، فأمر أن تعاد الأرض إلى أصحابها، بعد أن وبخ المهندسين والبناء، بل ظل وزير المعتصم مدة من الزمن يلاطف ويراد الوصي لابتياعها حتى وافق⁽²⁾، وهذا ما يدل على إيلاء الأمراء والملوك أهمية خاصة لليتيم بعدم بحس حقه والاعتداء على أملاكه ولو تعلق الأمر بتعطيل مشاريعهم.

وامثالاً لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾⁽³⁾، شارك الأهل في رعاية الأيتام انطلاقاً من الجدة والجد⁽⁴⁾، إلى الأخت الكبرى⁽⁵⁾، وصولاً نحو عمها وعمتها، حتى أوان تزويجها⁽⁶⁾ على اعتبار كفالة الأيتام من أكبر القربات إلى الله عز وجل، وما بالك إذا كانت من المقربين، بل عبرت الأمثال الشعبية لسان حال العامة أنهم مقدمون في الرعاية أحياناً حتى قبل إيفاء الديون⁽⁷⁾، لذلك دخل في المضممار أهل الخير والصلاح، فقد شارك أهل اليسار في رعاية الأيتام، حيث أشارت إحدى النوازل إلى "رجل أوصى أن يدفع لصبية بكر غلة حانوته ينفق عليها منه إلى أن تبلغ وتتزوج ويدخل بها"⁽⁸⁾، أو تجهيزها حال زواجها⁽⁹⁾، وكانت بعض المناسبات منبعا لانبعاث وجه العطف والحنان على اليتيمة، فمناسبة دخول رمضان كان من الشائع أن يقدم أهل الخير والإحسان إكرام الأيتام⁽¹⁰⁾، كما يفهم أن

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 378/3.

² المقرئ، المصدر السابق، 366/3-367. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص55. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية، ص140.

³ سورة النساء، الآية 36.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 311/3. 166/3.

⁵ نفسه، 317/3.

⁶ نفسه، 272/3. 378/3. 21/4.

⁷ جاء في قولهم "اليتيم أولى بالعترة" الرجالي، 42/2.

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، 364/9.

⁹ ابن الحاج، نوازل، 470/3.

¹⁰ إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص87. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص20.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

السلطة المرابطية لم تكن بعيدة على هذا التصور، فأنشأت ما يعرف ببيت اليتيم الذي يبدو أنه كان مخصصا لإيواء الأيتام⁽¹⁾. واشتهر أبو مروان عبيد الله بن عيسى بن حسون قاضي مالقة في عصر المرابطين (ت505هـ/1111م) بجوده على المحسنين، فقد كان قبلة للأيتام الذين كان يغمهم بعطائه على غرار الشرائح المحتاجة الأخرى⁽²⁾، وهذا ما يدل على التكافل الاجتماعي دخل مجتمع الغرب الإسلامي، بإمداد يد المعونة للمغلوب على أمرهم، من قبيل اليتيمات ومن هن في حكمهن، ولما للوقوف من دور فعال في تحقيق المؤازرة من خلال توفير حاجياتهم ومتطلباتهم من أجل خلق بيئة مناسبة لهم على غرار أقرانهم.

وكان من الشائع حضور وجه اليتيمات المكفولات في أعين الزوجات، فكثيرا ما تعهدت الزوجة بكفالة والقيام على ربائبهن اليتيمات، بل فيه من وثقت ذلك في عقد الزواج⁽³⁾، وليس ببعيد أن هذا التنازل من الزوجات أمانة على صلاحهن ورغبتهن في الأجر والثوبة عند الله، ويمكن التخمين أن طلب رضا أزواجهن رجاء لحسن العشرة مبرر مركزي في هذا التمشي.

ومن المرجح أن الأيتام استفادوا من المنشآت الاجتماعية التي بناها وقام عليها بعض المحسنين لرعاية وإيواء المحتاجين والفقراء، فيفهم طابع الاستنكار الذي يعكس موقف الحيرة والشفقة على هؤلاء عندما "سئل فقهاء قرطبة عن هدم السقائف والدور الموقوفة لسكنى الضعفاء بقرب جامع قرطبة"⁽⁴⁾، إضافة إلى الدور التي كان يجسها الصالحون على النسوة خلال العصر المرابطي، والتي قد يكون لليتيمات نصيب منها⁽⁵⁾ ولا مشاحة أنهم أولى في الإحسان، مراعاة لعوزهم وفقيرهم واحتياجهم، وتقربا إلى الله تعالى، وطلبا لمرضاته.

ولم يكن الموقف من اليتيمة على الحال السابقة دائما، بل هناك من أضر بها، ومن أقرب الناس إليها، وحسبنا في ذلك ما بثه نوازل الفترة عن تبلور منظور اليتيمة المنبوذة في أعين ورثة أخيها، لا لشيء إلا لأنها طالبت بحقوقها المشروع في الميراث⁽⁶⁾، ولاشك أن لسلطان العرف دورا في هذا الغضب، كما عرجت نازلة أخرى على العم الذي غبنها، فبالغ في استخدامها وتجويعها، فعاشت طفولة ضنكة، شجعتها على الفرار من

¹ ابن الحاج، نوازل، 375/2.

² ابن عسكر، المصدر السابق، ص292. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، نفسه، ص22.

³ الونشريسي، المصدر السابق، 216/4.

⁴ الونشريسي، نفسه، 220/7. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص17.

⁵ ابن سهل، المصدر السابق، 735/2. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، نفسه.

⁶ ابن رشد، فتاوى، 1407/3-1408. البرزلي، المصدر السابق، 256/5. الونشريسي، المصدر السابق، 612/9.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

عنده حال بلوغها⁽¹⁾، وهذا يدل لاحالة على طفولة صعبة، تكبدت فيها معاناة كبيرة، ومن أقرب الناس إليها، ويبدو أن الحالات المماثلة تركزت في الأرياف والمناطق البعيدة عن السلطة وأعين المحتسين، بحكم هامشيتها وصعوبة الوصول إليها.

واستشرافا للمستقبل من طرف الأولياء، وإمعانا في موقف الحيرة على الأبناء، كان من المعتاد أن يكلف الأبوين وصيا على أبنائهم بعد مماتهم، ويدعموه بمشاور⁽²⁾، ولم يقتصر الوصي كما يعتقد في الأهل، بل يتجاوز إلى الأصدقاء والمعارف الثقة⁽³⁾، وفي ذلك تفهم كبير لمصلحة اليتيمة أولا وأخيرا، وبحث عن الأجدد للقيام بها.

ومن حرص الأوصياء على مال الأيتام عصر المرابطين، والذي يظهر دوما صورة اليتيمة المصانة ماليا، كان بعضهم يشهد عند موته بالأموال التي لليتيمة عليه⁽⁴⁾، في حين يفهم أن البعض الآخر عمل على تنمية مال اليتيمة وتثمينه حتى لا تأكله الصدقة من خلال إدخاله في مشاريع استثمارية⁽⁵⁾، وهذا كله لإبراء الذمة المالية، وعدم غبن اليتيمة، خاصة إذا كان للوصي أموال وأولاد قد ينازعون اليتيمة في حقها حال الكبر، زاعمين أنها من رزق ذويهم.

وما إيلاء القضاة اهتماما خاصا بالأيتام موسرين كانوا أم معسرين وطرحهم شروطا ضرورية في رأيهم من قبيل أن يكون الوصي رشيدا وغير محجور عليه، ولا سفيها⁽⁶⁾، بغض النظر عن درجة قرابته لليتيمة، إلا دلالة على مدى تبلور حظوة وحفظ حقوق اليتيمة من لدن السلطة الممثلة فيهم. بل في أحيان كثيرة يمتزج وجه اليتيمة الواعية بحقوقها مع المصانة عندما يقوم القضاة بعزل الأوصياء مراعاة لمصالح اليتيم، نتيجة الغبن والاختلاس الذي قد يتعرضون له من جهة، ودرءا للمخاصمات والمشاحنات التي قد تتحول إلى عداوة⁽⁷⁾ بين

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 180/5.

² عرف ابن رشد المشاور بأنه كل شخص "ليس بوصي، ولا ولي، ولا إليه من ولاية العقود شيء، وإنما إليه المشاورة التي جعلت إليه خاصة". المراكشي، وثائق المرابطين، ص 410-411. الونشريسي، نفسه، 419/9.

³ ابن رشد، فتاوى، 273/1. 723/2. ابن سهل، المصدر السابق، 127/1. ابن الحاج، نوازل، 273/2. المراكشي، وثائق المرابطين، ص 260. الونشريسي، نفسه، 190/3. 396/3. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص 8.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، 315/1. الونشريسي، المصدر السابق، 455/9. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص 46.

⁵ ابن رشد، نفسه، 1263-1262/2. الونشريسي، نفسه، 456/9 470/9. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، نفسه، ص 45.

⁶ ابن سهل، المصدر السابق، 130-129/1. ابن بشتغور، المصدر السابق، ص 269. ابن رشد، فتاوى، 1372-1371/3.. البرزلي، 504/4. الونشريسي، المصدر السابق، 456/9. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص 12-13.

⁷ وفي ذلك قالت العامة: "عدو اليتيم من يزيه وعدو القط من يقلبه". الزجالي، المصدر السابق، 374/2.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الوصي واليتيم⁽¹⁾، ويمكن التخمين أن هذه الحالات نضجت أكثر مع بعض الأوصياء الذين لم يتورعوا عن أكل أموال اليتامى، لا سيما الأغنياء منهم، والذين ورثوا من ذويهم نصيباً محترماً من الأموال والمتاع. هذا ولم يتورع بعض من كلفوا من السلطة بحفظ مال الأيتام من بخسهم حقهم، والذي ينقشع معه وجه اليتيمة المغبونة، وموقف الرأفة والحيرة عليهن، وهو ما كان مثار سخط من الشعراء وعامة المجتمع، على اعتباره من أكبر المناكر التي نهي عنها المولى عز وعجل عندما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾⁽²⁾، فهذا أحد قضاة مرسية في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بدلا من أن يكون أمينا على مال الأيتام نراه يتعدى على أموالهم، وهو ما حمل أحد الشعراء على الاستنجاد بالأمير علي قائلا: (3)

تَسْمَعُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ لِنَبَأَةٍ تُصَمُّ لَهَا الْآذَانُ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
بِمُرْسِيَةٍ قَاضٍ تَجَاوَزَ حَدَّهُ وَأَخْطَأَ وَجْهَ الرُّشْدِ فِي كُلِّ مَقْصِدٍ
يُطَالِبُهُ الْإِيْتَامُ فِي جُلِّ مَالِهِمْ وَيَطْلُبُهُ فِي حَقِّهِ كُلُّ مَسْجِدٍ
فَمَا يَبْضُتُ كَفَّاكَ بِالْعَدْلِ لَمْ تَزَلْ تُسَوِّدُهُ بِالْجَوْرِ كَفُّ ابْنِ أَسْوَدٍ

ولم يمنع تسابق الناس على احتضان اليتيمة من وجود حالات من العزوف عنهن، وإهمال التفقد لأحوالهن، لتتظاهر صورة اليتيمة المهملة، فقد بقت بعض اليتيمات دون رعاية أو عائل يرعاهن أو كما تسميهم النوازل بالمهملين⁽⁴⁾، وليس ببعيد أن خصاصة المجتمع المحلي الذي كانت تعيش فيه تلك المهملات، خاصة في أوقات الأزمات الطبيعية والبشرية الذي تتزل في أحوال المجتمع كما السلطة دور في هذا العزوف، مما خلف ولاشك لهذه الشريحة نوعا من نقص الرعاية والحنان والتوجيه الصحيح.

3- الأخت والقرية

شكلت الأخوات والأقارب جزءا من منظومة الأسرة وتفاعلاتها على مستويات متعددة، وعلى غرار الأمهات والبنات والأقارب كان حضور صور الأخوات في المصادر محتشما، لبعدها النسبي عن دائرة التأثير الرجالي الذي كان محط الاهتمام، وبالتالي عدم إيلاء هذه المصادر لهذا النوع من الروابط الأهمية الكافية.

¹ ابن سهل، المصدر السابق، 1/128. ابن بشتغير، المصدر السابق، ص 274. ابن رشد، فتاوى، 3/1084-1085. الونشريسي، المصدر السابق، 9/411-412. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص 15.

² سورة النساء، الآية 10.

³ ابن سعيد، المغرب، 2/270.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 1/615. الونشريسي، المصدر السابق، 5/139. إبراهيم أبو المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص 16.

أ- الأخت

ويبدو أن أولى الصور التي تلاحق الأخت في الموضوع؛ هي صورة الأخت المهضومة الحقوق، فكثيرا ما كان الإخوة الذكور يغفلون إخوتهم الإناث حقهم في الميراث، ولعل سكوت الأخت على حقها في حياة أخيها يرجع في الأساس إلى صغرهما وما يخلفه من جهل من جهة، وإلى الحياء من أخيها الذي كان يكسوها وينفق عليها من جهة أخرى، أو لسلطته المطلقة في المنزل بعد وفاة الوالد⁽¹⁾، رغم أن الشريعة تقر لها بذلك في قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾⁽²⁾. وقد يكون ذلك سببا في نضج صورة الأخت المنبوذة التي يتجنب الإخوة لقائها⁽³⁾. بل كانت مصدر قلق للإخوة الذكور وجد التخلص منه بسرعة وفي أول فرصة، ولو خلف ذلك تنازلا وخسارة مادية من طرفهم⁽⁴⁾. وفي الأسئلة التي تصور الأخت المهضومة الحقوق والمبثوثة في نصوص النوازل وعاء مخالف للطرح السابق، يقوم على احترام حق الإناث في الميراث من لدن الفقهاء، ونظرة قائمة للرجال الذين يقومون بعكس ذلك، والمتكئين في ذلك على سلطان العرف، حتى أصبحت معاملاتهم وصدقاتهم محط تحفظ من صلحاء المجتمع⁽⁵⁾، وفي خطاب التحسر وندب الزمان من عدم توريث النساء أصلا، ملمح لفداحة غضب البنت من ميراثها، ومؤشر على صورة الأخت المغبونة⁽⁶⁾.

ويفهم أن أغلب المشاكل بين الأخ وأخته تقع بعد زواجها⁽⁷⁾، لتطغى صورة الأخت الجشعة التي أخذت حقا ليس لها من منظور الأخ، فكثيرا ما طالب الأخ شقيقته بالتعويض على مصاريف جهازها التي أخذته من التركة⁽⁸⁾، على الرغم من اليتيم الذي عايشه معا، إلا أن المصالح المادية تطغى على رابطة الدم، فهل لهذا التردد والمماطلة علاقة بالشوار الذي يجهبه الأهل لبناتهم عند تعريضهن، فهو عندهم والحالة هذه بدل للإرث،

¹ ابن رشد، المصدر السابق، 1407/3-1408. البرزلي، المصدر السابق، 256/5. 47/6. الونشريسي، المصدر السابق، 612/9. 155/5.

² سورة النساء، الآية 07.

³ الونشريسي، المصدر السابق، 171/9.

⁴ يقول المثل "بَعْدَ أَخْتِي عَنِي وَخَذَ غَلَّتْهَا مِنِّي". علي أفرار، المرجع السابق، ص 62.

⁵ البرزلي، المصدر السابق، 204/5.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، 293/11.

⁷ قد يكون لتحريض الزوج دور في هذا الملمح، الونشريسي، نفسه، 324/10. ضف إلى ذلك أن تكاليف الحياة ومتطلبات الأولاد تفرض على الأخت الزوجة تغيير قناعاتها والمطالبة بحصتها، لدعم أبنائها بالدرجة الأولى.

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، 311/3. 450/9.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

خاصة في ظل التباهي والمغالاة الذي عرف به الغرب الإسلامي في تجهيز البنت⁽¹⁾، ثم هل تنتفي هذه الحزازات في حال عدم تزوجها؟.

وعلى الرغم من حالات الخلاف الماثلة بين الإخوة والأخوات، إلا أن رابطة الدم رجحت في مواقف متعددة، فيفهم من الأمثال الشعبية أن الأخت كان لها مكان خاص من الثقة والمصداقية عند الإخوة الذكور⁽²⁾، لتتخمر رؤية الأخت السخية عندما تقرر التنازل عن إرثها ونصيبها في الأرض لإخوتها الذكور، لتنال الرضا والبركات لا من أخوتها فحسب، بل حتى من والدتها⁽³⁾، ويبدو أن ذلك مرتبط بتوطيد العلاقة بين إخوتها الذكور، وتوثيق أوصر المحبة معهم. لتبرز في حق آخر خطوة مكانة وحظوة الأخت، المأكول همها، لا من الأخ فحسب، بل من الأخت الكبرى كذلك، فهذا أخ يعمل جهده في علاج أخته من بعض الأمراض المستعصية التي أثرت على حياتها ونفسيته، قاطعا للمسافات الطوال، وباذلا في ذلك مبالغ طائلة لعلاجها، وقاصدا أشهر الأطباء، ومتنقلا بين الطب العلمي الذي عجز في مرات عدة أمام الطب الروحاني وبركة الأولياء والمتصوفة، وحسبنا في ذلك ما ذكره ابن الزيات عن أحد الرجال الذي ظهرت بأخته لمعة برص على وجهها، فأعد لعلاجها مائة دينار، وحملها من مكناسة إلى فاس عندما سمع بطبيب مشهور هناك، ليستعين في مرحلة لاحقة ببركة الأولياء في علاجها بعد انتفاء الطب العلمي⁽⁴⁾، ولاشك أن المناخ الثقافي عصرئذ سمح بتكريس سلطة المتصوفة، بل وتقديس رجالاتهم والايان بهم من غير حاجة إلى جدال أو عقلانية بالخوارق التي يأتون بها، خاصة أن تطبيهم لا يتضمن ترياقا أو مهارات خاصة، ويفهم في مجال آخر أن اللجوء إلى المتصوفة من أجل إقترن باستعصاء العلاج في مجمل الاحوال. وآخر يتخير لأخته العريس المناسب الذي يراه كفؤا لها في النسب والشرف والسؤدد، وحسبنا في ذلك الأمير علي بن يوسف، الذي عقد لأخته مع ابن عمه

¹ ابن سهل، المصدر السابق، 259/1. ابن مغيث، المصدر السابق، ص58. الونشريسي، المصدر السابق، 147/3. 290/3-291. 128/9. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص280. كمال السيد، مألقة، ص62. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص99.

² جاء في المثل: " لا تَنَقِّ ... وَلَوْ كَانَتْ أَخْتَاكَ ". الزجالي، المصدر السابق، 465/2.

³ الونشريسي، المصدر السابق، 502/6.

⁴ ابن الزيات، المصدر السابق، ص269. 323. ابن قنفذ(أبو العباس أحمد القسنطيني)، أنس الفقير وعز الحقيير، نشره وصححه محمد الفاسي وأودلف فور، المنشورات الجامعية للبحث العلمي، كلية الآداب، الرباط، 1965، ص31-32. محمد حقي، المرجع السابق، ص73. إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث، ص165.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

بعدما لمس صلاحه وشرفه⁽¹⁾، وهذه أخت تقوم على شقيقتها اليتيمة مدة طويلة، باذلة كل ما تستطيع في رعايتها ومنحها الحنان⁽²⁾.

هذا وقد ضرب الأخ أسمى مستويات التفهم والمواساة لأخته في حال فشل زواجها، ليتبلور وجه الأخت الكريمة المعززة، فكتيرا ما احتضن الأخ شقيقته بعد طلاقها وكفلها، ولم يتركها لتواجه مصيرها بمفردها⁽³⁾، وهو ما يدل على أن الأخت حظيت برعاية ودعم محيطها الأسري، وحماها من عسف الزوج.

ب- القرية:

يعد الأقارب الحلقة الأخيرة في نظام الأسرة، وهم يتدخلون بشكل مباشر وغير مباشر في سير الحياة الأسرية، لتختلف العلاقة التي ربطت بين الأقارب من حيث التعاون والتزاور والتهادي وحتى التعادي، مما حمل معهم صورا متعددة تختلف باختلاف الظروف والملابسات، ومدى القرب والبعد من الأسرة.

وعن تلك العلاقة التي ربطت بين أفراد الأسرة بأقاربهم من حيث التعاون، وامتنالا لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾⁽⁴⁾، تحيل نازلة على وجه الحفيدة المحبب المحمول همها في أعين جدتها، إذ وهبتها مالا عند إقبالها على الزواج⁽⁵⁾، ولاشك أن في ذلك إعانة لها في ظل مصاريف الزواج الكثيرة التي يضطلع بها الأبوان، لا سيما إذا كانا من ذوي الدخل المحدود. وفي حالة ثمانية تنقش صورة المرأة الواصلة لرحمها، فسعيها من بعض النسوة لتوثيق الروابط العائلية تتصدق بجزء من مالها أو أملاكها لأحد أقاربها⁽⁶⁾، وأخرى تعهد بثلاث مالها لخالتها⁽⁷⁾، بل وحمل بعض السادة هم عبيدهم على اعتبارهم جزءا من أفراد الأسرة، فأصبحوا في حكم الأقارب برابطة الخدمة والعشرة، من قبيل الدفاع عليهم في حال الغصب من أولي النفوذ⁽⁸⁾، أو حتى دفع السيد تكاليف زواج عبيده والالتزام بالنفقة على الزوجة⁽⁹⁾، في حين

¹ ابن الخطيب، الإحاطة، 1/ 404.

² الونشريسي، المصدر السابق، 317/3.

³ نفسه، 258/4.

⁴ سورة البقرة، الآية 215.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، 166/9.

⁶ ابن رشد، نوازل، 124/2. الونشريسي، المصدر السابق، 166/5.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، 253/9.

⁸ البرزلي، المصدر السابق، 188/5.

⁹ الونشريسي، المصدر السابق، 400/3.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

اعتنى الأحوال بزواج بنات أخته عطفًا على صورة القرينة المسؤولة، ووسمت الجد والجدة بالعطف على أحفادهم⁽¹⁾، وأوقف بعضهم على الأقارب المحتاجين، و"ضعفاء أهله من قبل أبيه وأمه يبدأ في ذلك بأهل الحاجة والقرابة... فيعطي كل واحد منهم من ذلك قوته وكسوته"⁽²⁾، ويبدو أن في التدرج بالاحتياج إلى الأكثر حاجة ينم عن حيرة على الأهل، لما فيه من صلة الرحم من جهة، وتيسيرا لسبل العيش والحياة الكريمة.

هذا وقد اهتمت العائلة في مجتمع الغرب الإسلامي بتوثيق روابط القرابة مع الأهل الأقارب منهم والأباعد، فكان أفرادها يغتنمون فرصة المناسبات الدينية والاجتماعية لدعوة أقاربهم، رسماً على وجه القرابة الرحم، من قبيل الأعياد الدينية والولائم والأعراس⁽³⁾، وذلك من شأنه أن يضيفي ذوقاً خاصاً، ويعطي صورة حقيقية لمدى التلاحم والترابط العائلي، وتعبير صريح عن وحدة اجتماعية متينة، ثم هي فرصة حقيقية لجمع شمل الأهل والأقارب، وإبعاد البغضاء والتشاحن الذي لا تخلوا منه أي عائلة.

وشكل نظام الزواج آلية يسعى من خلالها الأفراد إلى تقوية الروابط وتمتينها، ولهذا نجد اتساعاً لنطاق الزواج الداخلي، بتحييد البعض الاقتران ببنات العم والأقارب عموماً؛ ما خلق مجالا خصبا لتبدي صورة القرينة السند⁽⁴⁾، ولم يقتصر هذا الفهم لدى العامة فحسب، بل تعداه إلى عليّة القوم، فوالد يوسف بن تاشفين إقترن بنت عمه⁽⁵⁾، وها هو الأمير علي بن يوسف يعقد لأخته مع ابن عمه⁽⁶⁾، ولاشك أن لهذه الإستراتيجية أهدافاً قريبة وأخرى بعيدة، تسعى للحفاظ على الممتلكات من محاولات الانتزاع، كما من شأنه تأمين حياة كريمة للزوجات والذري، وتحمل على التعاضد والتآزر وإعادة إنتاج وشائج القرى. أما من إمتنع عن زواج الأقارب عموماً، والذي يتمظهر معه وجه القرينة غير المحبب، فيمكن القول بكثير من الاطمئنان أن الخصومات التي تقع بين الأهل أحياناً تنعكس على قراراتهم من زواج الأقارب⁽⁷⁾، كما لا يعدم في أن يكون

¹ ابن الحاج، نوازل، 58/2-59. 166.

² ابن سهل، المصدر السابق، 695/2-696. الشعبي، المصدر السابق، ص 151. ابن بشتغير، المصدر السابق، ص 241. الونشريسي، المصدر السابق، 477/7-478.

³ ابن الحاج، المدخل، 289/1. الونشريسي، نفسه، 258/1.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 1053/2. ابن الزيات، المصدر السابق، ص 100. الونشريسي، نفسه، 89/3. 315/3. 286/3. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 93. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب، ص 25.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 136.

⁶ ابن الخطيب، الإحاطة، 1/404.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، 1053/2. ابن الحاج، نوازل، 602/3. الونشريسي، المصدر السابق، 225/4. 315/3.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

التحوط من الأمراض الوراثية منعرج آخر في هذا الامتناع، خاصة إذا كان متكررا في نطاق الأسرة الواحدة، ولا ربما إنتقل الموضوع إلى جانب نفسي غرائزي، إذ أن نشأة الفتى بين قريباته قد تصرفه عن جملهن وجاذبيتهن، لأنه ألف أن يراهن، على خلاف الغريبات، مدركين أن العوائل في فترة الدراسة من الأسرة الممتدة، ناهيك عن سمة الفضول والتغيير التي يعرف بها الانسان، والتي تخوله الرغبة في اكتشاف كل جديد وغريب عنه.

ومع طبيعة الحياة الزوجية التي تتراوح بين الود والصفاء تارة والتوتر والتنافر تارة أخرى، كثيرا ما كان الأقارب، بما فيهم النسوة، أقول يتدخلون كواسطة صلح بين الزوجة وبعلمها، لينقشع معه صورة القربة الجابرة للخواطر⁽¹⁾، ولا شك أن هذه المساعي كللت في العديد من المرات في درء الخصومات بين الأزواج وعملت على عودة السكينة والاستقرار بينهما.

وكانت مشاكل الميراث غالبا ما تلقي بظلها على الأقارب، فكانت العمة محط معاداة لطلبها حصتها من أبناء أحيها؛ ليرتسم في وجدانهم وجه الجريئة المنبوذة، ويقترن النبذ هنا في الغالب بمطالبتها المتكررة في الحصول على حقوقها من الميراث الذي غله شقيقها، أقول هذه المطالبة أصبحت في فهمهم؛ وجريا على عرف ذلك الوقت نوعا من الجرأة وكسر التقاليد والعادات⁽²⁾، ولا مرأ أن القضية خلفت تشنجات ونزاعات قد تؤدي الى نشوب عداوة بين أفراد الأسرة الواحدة وقطع للرحم، رغم أن الشريعة فصلت في هذا الموضوع، ولكنه الجشع وحب الذات.

ومع الموت ينقشع منظور جديد للأقارب، وهذا ما جسده ابن حمديس في قصيدته التي رثى فيها عمته التي توفيت بصفافس، مظهرها وجه المفقودة والقربة العزيزة التي يخيل معها أنه يرثي البشرية جمعاء عندما يقول:⁽³⁾

سقى الله قبرا نائرا بصفافسٍ سواجمَ يَرْضَى الثُّرْبَ فيها عن السحبِ

فقد عَمَهُ الإِعْظَامُ مِنْ قَبْرِ عَمَةٍ أنوحَ عليها بالنَّحِبِ إلى النحبِ

بدمع يمدُّ البحرُ في السيفِ نحوه إذا الحزنُ منه واصلَ السكبَ بالسكبِ

¹ ابن رشد، نوازل، 155/2. الونشريسي، نفسه، 99/4.

² ابن رشد، فتاوى، 1407/3-1408. البرزلي، المصدر السابق، 256/5. 47/6. الونشريسي، نفسه، 612/9.

³ ديوان ابن حمديس، ص35.

ثانيا- في مؤسسة الزواج:

تعد صورة الزوجة السمة الغالبة على صفة المرأة في هذا الموضوع، والأكثر تداولاً في المصنفات المتاحة، سواء من الحرائر أو الإماء، لذا فقد أفردتها بالبحث هنا رغم تقاطعها الشديد مع الحياة الأسرية على اعتبارها جزءاً لا يتجزأ منها، فهما متصلان اتصالاً يقرب من التداخل أحياناً، لكن دواعي الفصل بينهما أقوى من دواعي الدمج، ذلك أن الرجل الذي كتب وروى حولها، ونظر وقارن، ثم ترك انطبعا، ركزه حولها بالأساس، ولكون المنظور الديني قد حدد أغلب صفاتها وحقوقها وواجباتها ضمن هذا المجال العلائقي، كما هي من ناحية أخرى مدار الالتصاق بالرجل في مدة طويلة من حياته، وعشرة ليست بقصيرة؛ فمن المعلوم أن الرجل إذا تزوج أوجد رابطة جديدة بامرأة جديدة، انتقلت من بيت أبيها إليه، فيتخذها سكناً له، وأساساً لعشرة طويلة، ناظراً إليها على أنها شريك في الحياة تردفه في كثير من تفاصيلها، وهي في مجال آخر مصدر نسله الذين يرثون منه، ويرثون منها، وبما أن دورها كزوجة هو الأكثر تنوعاً وتغيراً، ولعل ضمان هيكلية تسمح بالتقاط أكبر صور حولها مسوغ مركزي لهذا الفصل.

1- قبل البناء:

اختلفت مواصفات الزوجة المحببة من شريحة لأخرى، عاكسة معها طموحات ورغبات ومعايير كل شريحة، فلم يكن الحب هو كل شيء في الزوجة⁽¹⁾، وإنما لعب النسب⁽²⁾ وحسن الأحدث والكفاءة دوراً في صورة المرأة وزوجة المستقبل إيجاباً وسلباً، فلا عجب إذا كانت هذا التصور مدار التميز في مخيال مجتمع الغرب

¹ فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تنكح النساء لأربع: لما لها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فإظفر بذات الدين تربت يداك"، أبي داود، المصدر السابق، 219/2. (كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من تزويج ذات الدين).

² لقد ضربت الفتاة المرابطة نموذجاً فريداً عن المرأة التي تعتز بنسبها، بل وتتسامى على من هم دونها من الرجال، فهذه الأميرة تيممة بنت يوسف بن تاشفين تنشدها كاتبا لما رأت علامات الانبهار بها فقالت:

هي الشمس مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاءً جميلاً

فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولاً

ابن الأبار، التكملة، 236/4. ابن القاضي، المصدر السابق، ص 173. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص 316. محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، 528/1. عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص 74. حياة قارة، المرجع السابق، ص 86. علي أفرار، المرجع السابق، ص 25.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الاسلامي⁽¹⁾ فكثيرا ما إفتخر بعض الأزواج بحسب زوجاتهم، لأن في حسيهن شرفا لهم⁽²⁾، وهكذا يتبين لنا أن الأهمية القصوى التي أولاها المجتمع للأسرة ومنظومتها والتي كانت وراء التشدد بشأن اختيار الزوجة، لأن دور الزوجة يتعدى نطاق الأسرة ليندمج في دائرة المجتمع⁽³⁾.

ولعل السلامة الجسدية والنفسية للزوجة المستقبلية وجه آخر لتمييز نظرة القبول من الرفض، فتشير نصوص الفترة أن مجتمع الغرب الإسلامي رفض عيوباً تثبط الارتباط بها، من قبيل خبل المرأة، ناهيك عن المعيوبه الفرج، وكل ذات مرض قد يشكل عائقا أمام الحياة الزوجية كالمخدومة وذوات العاهات⁽⁴⁾، وليس ببعيد أن بواعث هذا الخوف والتوجس تتعلق بالمستقبل، وأقصد هنا مستقبل الذرية القريبة أو البعيدة، إناثا وذكورا، والتي قد تحمل بعض صفاتها أو كلها، على اعتبار انتقال المورثات من الأم كما الأب.

وكان معيار الجمال نقطة مفصلية في اختيار العريس لعروسه والعكس عند كثير من الناس، وعنوانا لتخمر صورة المخطوبة الجميلة المطلوبة، وقد عكست لنا متون المصادر نوعا من هذا التمشي، إذ رغب المجتمع في نكاح الجميلة الصغيرة⁽⁵⁾، وللتدليل على هذا التفهم أختير معيار الونشريسي لاتخاذها أنموذجا لدراسة قضية الزواج المبكر المرأة انطلاقا من جزئه الثالث، بحكم موسوعيته، وتخصيصه حيزا هاما لهذا الموضوع، إلى جانب ثقله العلمي و الفقهي الذي أقره كافة أقطاب الفقه المالكي الذين عاصروه أو أعقبوه.

¹ تأكيداً لذلك قيل في المثل الشعبي "العرق دساس" الزجالي، المصدر السابق، 89/2.

² ابن العطار، المصدر السابق، ص12. ابن المغيث، المصدر السابق، ص34. 43. ابن رشد، المصدر السابق، 284/1. ابن عذاري، المصدر السابق، 18/4. ابن الخطيب، الإحاطة، 344/4. الونشريسي، المصدر السابق، 160/3. 286/3. حياة قارة، المرجع السابق، ص154. وجاء في المثل الشعبي ما يعزز ذلك بقوله: "خُذ بِنْتَ الْأَصُولِ، لَرِمَا الْعَمْرُ يُطُولُ". محمد أحمد اشماعو، المرجع السابق، ص51. _الصحي بن منصور، المرجع السابق، ص107.

³ ومصادق ذلك ما تداولته الأمثال الشعبية عندما تقول: "من رَبا صغير ما يَنْدَم". الزجالي، المصدر السابق، 321/2.

⁴ ابن ورد، المصدر السابق، ص100. ابن سلمون(أبي محمد عبد الله بن عبد الله)، العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من العقود والأحكام، عناية وتعليق عبد الرحمان الشاغول، دار الافاق العربية، القاهرة، 2011، ص170. 173. البرزلي، المصدر السابق، 280/2-282. الونشريسي، المصدر السابق، 139/3.

⁵ الحميدي، المصدر السابق، ص555. ابن سهل، المصدر السابق، 203/1. ابن قزمان، المصدر السابق، ص75. ابن الحاج، نوازل، 292/2. الونشريسي، المصدر السابق، 267/4. النفزاوي، المصدر السابق، ص53. حسن قرني، المرجع السابق، ص214. محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص270.

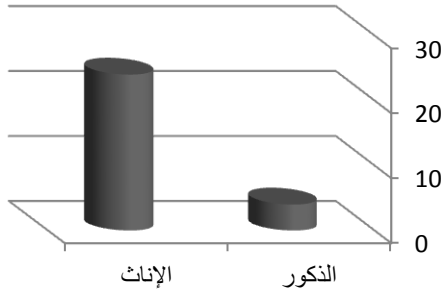
شكل رقم: 14

الزواج المبكر من حيث الجنس من

الزواج المبكر من حيث الجنس من

خلال المعيار ج 3

خلال المعيار ج 3



الجنس		الصفة
الذكور	الإناث	
4	24	صغير(ة)

من خلال ما تقدم في الشكل البياني في باب النكاح نلاحظ ما يلي:

- وجود عدد معتبر من الفتيات تزوجن في سن صغيرة ما يجعل فكرة تأصل هذه الظاهرة أمراً ماثلاً للعيان⁽¹⁾، فقد فاقت حالات زواجهن ست أضعاف حظ الولد بنسبة فاقت 85%، على الرغم من أنها قاصر، وقد لا تعي ما يمثله الزواج من مسؤوليات، إلا أن هذه الظاهرة كانت منتشرة، ويبدو أن ضغط الأعراف والعادات المرتبط بالستر باب لهذا التفهم.

- حضور محتشم لزواج الولد الصغير بأربع حالات وهي ما تمثل نسبة 15%، لأنه ليس منطوقاً لتحمل مسؤولية، ويبدو أن هذه الحالات مرتبطة بتدخل الوالد أو أولى أمره في تزويجه.

ويزداد ملمح الجمال سطوة إذا كان متوجاً بالخلق⁽²⁾، واستمر هذا الموقف عند الخاصة فعبد الله بن ياسين الزعيم الروحي لدولة المرابطين كان لا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها⁽³⁾، وهو ما يتماشى مع فطرة الرجل في البحث عما هو جميل والانجذاب إليه،

وعطفاً على معيار الجمال ومفهومه، نجد العوام من الناس حرصوا وحثوا على الارتباط بالمرأة البدنية الممتلئة، ونفروا من المرأة الهزيلة، تماشياً مع صورة الممتلئة اللذة، فقد أشار الإدريسي أنه لهوسهم بالسمنة كانوا

¹ فالأنثى معدة فطرياً حسب هذا الفهم لهذا المصير، فهي تنطلق منذ فترة الطفولة في تقمص دور العروس من خلال ألعابها التي تكون تماثيل العرائس من أولها. الصحبي بن منصور، المرجع السابق، ص 90.

² ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 83.

³ البكري، المغرب، ص 169.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

يأكلون حيوانا يسمى الخردون والمعروف بالبربرية أقربهم طلبا للسمن وخصب البدن⁽¹⁾، ومن آثار هذا المركب؛ الاعتناء بالتسمين الذي يعد حسبهم مقياسا للجمال، بتناول أطباق خاصة لذلك⁽²⁾، حتى لو أدى الوقوع في مخالفة شرعية بأن تفطر في صورة رمضان خشية النحافة⁽³⁾، فمعيار الجمال لدى الرجل مرتبط بامتلاء الجسم، والذي يضيفي حسبهم جمالا على المرأة، يجعلها تتطرف في تعاطي كل ما يؤدي إلى هذا الوجه، مفضلين في كثير من الأحيان الشقراء، كما هو الحال عند الأندلسيين⁽⁴⁾، ونفروا من القصيرة القامة⁽⁵⁾. ويدوا أن للاختلاط بالنصارى تأثير على هذا الذوق، إذ أصبح الفرد الأندلسي يرى المرأة الإسبانية والجواري الأوربيات ذوات الشعر الأشقر والعيون الزرقاء والوجه الأبيض المائل إلى الحمرة، بعد أن كان هذه الصفات لاتستهوئ الإنسان العربي، بل انبرى بعض الناس للدفاع عن هذا الذوق فقال :

يعيبونها عندي بشقرة شعرها فقلت لهم هذا الذي زانها عندي

وأبعد خلق الله من كل حكمة مفضل جرم فاحم اللون مسود⁽⁶⁾.

هذا وقد أثر البعض الاقتران بينات العم والأقارب عموما؛ فيما يعرف بالزواج الداخلي، انعكاسا لصورة القرية السند⁽⁷⁾، لأنهن في زعمهم أصبر على ريب الزمان، والجدير بالاشارة أن الزواج عند الخاصة في إطار القربى العائلية، كان من الأمور التي ظلت مستمرة داخل البيوت الأندلسية والمغربية⁽⁸⁾، فالأمير عبد الله بن

¹ صفة المغرب، ص 61. النفزاوي، المصدر السابق، ص 53.

² ابن اللخمي، المصدر السابق، ص 428. مؤلف مجهول، كتاب الطبخ، ص 184. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص 53. وما زالت هذه العادة مستمرة عند نساء موريطانيا حتى يومنا هذا وتعرف بالتبلاخ.

³ ابن الحاج، المدخل، 60/2. 63/2. البرزلي، المصدر السابق، 183/2. 273/2. الونشريسي، المصدر السابق، 487/2-488. إبراهيم القادري بوتشيش، نفسه.

⁴ يقول المثل "الشَّحْمُ زَيْنٌ وَمَنْ فَقَدْتُ حَزِينَ" الزجاجي 34/2. اللخمي، المصدر السابق، ص 428. البرزلي، المصدر السابق، 183/2. وعن الشقراء قالوا: "أَيُّ هُوَ التَّمَشُّ ثُمَّ افْتَشَّ" الزجاجي 107/2. وتقول كذلك "المعروف في وقت خلا البيض الشُّقْرُ كيف السُّود النَّقَر". ابن عاصم، المصدر السابق، 280. ابن قزمان، الديوان، ص 338. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص 180. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 188. صلاح خالص، اشبيلية، ص 92. الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص 19. رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 420.

⁵ وعن المرأة القصيرة قالوا: "أَيُّ هِيَ زَكَبَتْهَا ثُمَّ هِيَ ثَقَبَتْهَا" الزجاجي 34/2. ابن الخطيب، الاحاطة، 139/1.

⁶ ابن حزم، رسائل، 127/1. الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص 19.

⁷ جاء في المثل: "كَيْلُ زَرْعٍ بِلَادِكَ وَلَوْ إِكُونُ شَعِير". علي أفرار، المرجع السابق، ص 67.

⁸ ابن رشد، المصدر السابق، 1053/2. ابن الزيات، المصدر السابق، ص 100. الونشريسي، المصدر السابق، 89/3. 315/3. 286/3. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 93. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب، ص 25.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

بلكن رعب في مصاهرة أولاد عمومته⁽¹⁾، ثم هاهو والد يوسف بن تاشفين يقترب بنت عمه⁽²⁾، وقد سار على نفس الخط الأمير علي بن يوسف، الذي عقد لأخته مع ابن عمه⁽³⁾، وهو زواج لا تحف أهميته في عمليات الضم والالحاق وتهدئة الخواطر داخل البيت الحاكم⁽⁴⁾.

في حين فضل البعض الآخر الارتباط بالأبعاد سواء داخل المجال الواحد، أو بين العدوتين، أما من إمتنع عن زواج الأقارب عموماً، والذي يتمظهر معه وجه القرية غير المحبب، ويمكن القول بكثير من الاطمئنان أن الخصومات التي تقع بين الأهل أحياناً تنعكس على قراراتهم من زواج الأقارب⁽⁵⁾، كما لا يعدم في أن يكون التحوط من الأمراض الوراثية منعرج آخر في هذا الامتناع⁽⁶⁾، ولربما إنتقل الموضوع إلى جانب نفسي غرائزي، إذ أن نشأة الفتى بين قريباته قد تصرفه عن جماله وجاذبيته، لأنه ألف أن يراهن، على خلاف الغربيات، لا سيما إذا أدرك أن العوائل في فترة الدراسة من الأسرة الممتدة، ناهيك عن سمة الفضول والتغيير التي يعرف بها الإنسان والتي تحول الرغبة في اكتشاف كل جديد وغريب عنه.

أما الأزواج في الطبقة الدنيا فكان إقبالهم عليه طلباً للرزق، تماشياً مع الزوجة الفأل التي تجلب الرزق لزوجها ولو كان معسراً قبل الزواج، وصورت الخطيئة لذلك كمصدر للسعادة لدى المقبل على الزواج والسكينة، ومصدق ذلك ما أشارت إليه الأمثال عند قولها "أَزُوجُ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْكَ، قال: يَفْتَحُ وَجْدَاكَ"⁽⁷⁾.

وانعكس موضوع العفة على معظم نصوص الفترة، ولئن كانت العفة مطلباً أساسياً يجب أن يتوفر في الرجل، فمن المنطقي أن ضرورتها في الزوجة أكبر وأؤكد، والظاهر أن عفة المرأة ارتبطت في متخيل مجتمع الغرب الإسلامي بالكورة والعذرية، ووجهها من وجوه قداسة المرأة، وصلة معيارية بين عفافها وجدارتها في أن تصبح

¹ عبد الله بن بلكن، المصدر السابق، ص172.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص136.

³ ابن الخطيب، الإحاطة، 1/ 404.

⁴ محمد لطيف، المرجع السابق، ص22.

⁵ ابن رشد، فتاوى، 2/ 1053. ابن الحاج، نوازل، 3/ 601-602. الونشريسي، المصدر السابق، 4/ 225. 3/ 315.

⁶ ومصدق ذلك ما جاء في غريب الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اغْتَرِبُوا لَا تَتَّضُوا". ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، قدم له علي بن الحسن بن علي الحلبي، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 2000، ص664.

⁷ الزجالي، المصدر السابق، 2/ 24. وقولهم "زُوجْنِي وَاضْمَنْ لِي بَحْتٍ" ابن عاصم، المصدر السابق، ص287. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص271.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

زوجة فاضلة سعيدة، وتحقيق لنموذج الأنثى المشتهاة، ولا يزال هذا التفهم ماثلا إلى اليوم⁽¹⁾، فلا تكون الأنثى عفيفة إلا إذا أحصنت فرجها، وهو ما يثبت أن البكارة ظلت أهم شرط يشترطه الرجل في المرأة التي يعترم نكاحها، بما فيها الطائفة اليهودية، رسما على صورة الفتاة العفيفة الطاهرة، ونجد صدى هذا الوصف في كثرة القضايا التي وردت بشأنها⁽²⁾، فالعذرية تضفي على المرأة في نظر الرجل، جمالا يميزها عن غير العذراء وتضمن نقاءها وطهارتها. وغالبا ما كان الوالد يسارع إلى استخراج عقد في سقوط العذرة، يؤكد فيه أن فقدان العذرية خارج عن إرادتها، كالسقوط من الدرج أو السلم أو غيرها لإشاعته، ويدفع بذلك عنها العار حين يحين موعد تزويجها⁽³⁾، ومن دلالات قدسية طهارة الفتاة أنه في ليلة العرس ينتظر المدعوون دليل بكارة المرأة، وفي حال وجدها الزوج بكرا، يردها إلى أبيها وأمها، فيلحقهما عار كبير لذلك⁽⁴⁾، فالفتاة ملزمة عند الزواج على البرهنة على سلامة بكارتها عند الافتضاض وسيلان الدم الذي هو دم مقدس، لإثبات شرف عائلتها وحسن تربيتهم وأخلاقها، وقدرتها على كبح متع الفعل الجنسي، فهي مصدر قوة تراهن به ورأس مال تستثمره في احتلال مكانة داخل عائلته وعائلتها، إلى جانب فحولة زوجها في شق آخر.

وبالرغم من ذلك، فلم يجد بعض الرجال غضاضة في الزواج بالمرأة الثيب، جريا على صورة الزوج الثيب الخبرة، خصوصا ممن إجمعت فيهن صفة الجمال والمال مع المكانة الاجتماعية، وقد يعود بدرجة أقل إلى الخبرة الجنسية التي اكتسبتها وتجاوزها العوائق التي تعترض البكر في هذا المجال، وحسبنا في ذلك يوسف بن تاشفين الذي تزوج بزینب النفزاوية بعد أن كانت نكحت قبله ثلاث أزواج⁽⁵⁾، كما أن الأمير أبو الطاهر تميم المرابطي قد تزوج حواء بنت تاشفين بعد وفاة زوجها⁽⁶⁾، وفي الشكل التالي تصور لما سبق:

¹ إذا كان العذرية شرف المرأة وفقدانها انتفاء لهذا الشرف، فما هي حدود شرف جسد الرجل في المجتمع؟، لا سيما أن القيم والشرف بالخصوص تسري على الجنسين الذكر والأنثى!، وهذا التساؤل يمكن أن يكون مثالا لبحوث مستقبلية لمقاربة هذا الموضوع.

² الشعبي، المصدر السابق، ص 399. ابن سهل، المصدر السابق، 210/1. 218/1. 399/1. ابن رشد، فتاوى، 1308/2-1309. 1320/2. ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 80. ابن الحاج، نوازل، 452/3. 455. ابن سلمون، المصدر السابق، ص 175. البرزلي، المصدر السابق، 202-201/2. الونشريسي، المصدر السابق، 82/3. 257/3-258. 266/3. فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص 118. الصحي بن منصور، المرجع السابق، ص 193.

³ الجزيري، المصدر السابق، 67/1. ابن الحاج، نفسه، 452/3. بوتشيش، المغرب والأندلس، ص 24. الصحي بن منصور، نفسه، ص 42.

⁴ الوزان، المصدر السابق، 199/1.

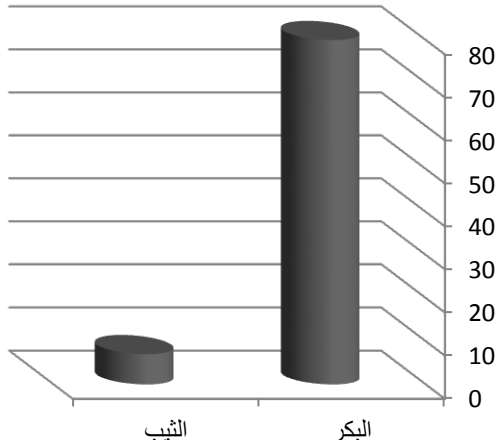
⁵ ابن عذارى، المصدر السابق، 22/4. ابن خلدون، العبر، 245-244/6.

⁶ ابن رشد، فتاوى، 1223/2. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 98.

شكل رقم: 15

أصناف النساء المطلوبات للزواج

حسب المعيار ج3



أصناف النساء المطلوبات للزواج

حسب المعيار ج3

الأصناف	التكرارات
البكر	80
الثيب	7

وقد يتجاوز مفهوم الزوجة الفضلى عند بعض الصوفية عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، فيحاول العديد من المتصوفة استبدال المرأة الواقعية بأثى مثالية، تنزهه عن الحياة الدنيا وتتماهى في صورة المرأة الموعودة، فتكون بذلك منزهة من كل ماهو دنيوي، فاجتهدوا في بحثهم عن الزوجة النموذج التي لطالما صوروها من خلال الكرامات في الحور العين⁽¹⁾، وهذه الزوجة حسب ما يبدو تستجيب لمواصفات المرأة المثالية التي يطمح الرجل الصوفي للظفر بها، والتي زارته في منامه وتجلت له في أحلامه، وعلى الرغم مما يحملها هذا النوع من الكرامات من دلالات ومضامين رمزية، فإنه ومن المؤكد أن هذا النموذج المثالي للزوجة لا يوجد إلا في مخيلة الولي⁽²⁾.

وتشير المصادر أن بعض النسوة امتلكن حق قبول أو رفض المتقدم لخطبتها، إذا لم يستهوها لسبب من الأسباب، ربما على صورة المرأة المتخيرة، على عكس ما كان شائعا عصرئذ⁽³⁾، ومن أبرز الامثلة رفض زينب النفزاوية لكثير من الرجال الوجهاء المتقدمين لها، محتجة أنها لن تتزوج إلا بمن يحكم المغرب كله⁽⁴⁾، ويبدو أن هذه الليونة والحرية اقتضرت على نسوة علية القوم، لمكانتهن وقدرهن.

¹ ابن الزيات، المصدر السابق، ص271. 326. محمد لطيف، المرجع السابق، ص82. في حين عزف رجال الكنيسة والمتنسون في أوربا الوسيطية على عدم الزواج لأنها أثى، وهي في المحصلة عامل من عوامل الغواية لا غير. إسمت غنيم، المرأة، ص202.

² ابن الزيات، المصدر السابق، ص271. رشيد قطان، المرجع السابق، ص131.

³ كان من الشائع عدم استشارة البنت في أمور الزواج، وهو ما حاول الفقهاء والمختصون التصدي له لتعدد حالات وجه المجرة. ابن رشد، فتاوى، 56/1. ابن الحاج، نوازل، 53/2. الونشريسي، المصدر السابق، 130/3. حسن قرني، المرجع السابق، ص216.

⁴ ابن عذارى، المصدر السابق، 18/4. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 455/3. حميدي مليكة، المرأة المغربية، ص42.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

كما تخمرت صورة الازدراء لعدد من الزيجات التي رأى فيها المجتمع بمعاييره انفلاتا مع الوقع العام، وحسبنا في ذلك لزواج الصبية من الرجل الطاعن في السن، فانتقدت مثل هذه الحالات على لسان أمثالهم الشعبية التي تعكس نبض البسطاء⁽¹⁾، كما أن زواج البيضاء الجميلة بالمولى كان مما أثار موجة من الانتقاد والسخرية⁽²⁾، فلم تسلم النماذج المذكورة من سخرية المجتمع، والذي لاشك أنه تحقيق للتوافق الاجتماعي في نفس الوقت، فالتباعد في العمر والعقلية والأذواق، وحتى الميزات النفسية والجنسية بينهما، عامل معيق تظهر عوارضه بمرور الوقت، مما يحول في غالب الأحيان دون تحقيق الغاية القصوى من الزواج، وتنجر عنه عواقب قد توقع المرأة في المحذور.

في حين ينطبع وجه المرأة الأنفة المتبرمة في أم العلاء بنت يوسف الحجارية من كبار السن عكسها في أبيات طريفة بمناسبة تعريضها للأشيب الخاطب، قائلة له بعد أن ترجأها بكل الطرق:⁽³⁾

الشيبُ لا يُخَدِّعُ فِيهِ الصَّبَا بِحِيلَةٍ فَاسْمَعْ إِلَى نُصْحِي
فلا تكن أَجْهَلَ من في الـورى يبيتُ في الجهلِ كما يُضْحِي

وربما كانت الشاعرة هنا بالإضافة إلى مكانتها في مجتمعها تبغض الشيب وكبار السن، لأنه وافد لا يبرح صاحبه، ويتناسب مع الفتور والضعف، ولا يتلاءم مع عنفوان الشباب والانطلاق، ولا يمكن أن يحقق رغبات الشباب الممتلىء بالحيوية والعاطفة.

¹ قالوا: " إذا أزوج الشيخ لصبي يفرح صبيان القرى". الزجالي، المصدر السابق، 1/2. ابن الزيات، المصدر السابق، ص180. ديوان ابن حمديس، ص143.

² في هذا المعنى قال شاعر في عهد الطوائف:

عربي مُزَوَّجٌ عبده بنت أخته
قبح الله مثل ذا وزمائه بمقتيه

الحميدي، المصدر السابق، ص580. في حين تشير بعض الحالات إلى اتخاذ زوجات سوداوات، إذا كان هناك توافق وميول مشتركة بينهما، وحسبنا في ذلك اقتران أبي المطرف عبد الرحمان بن غلبون الكاتب(ت443هـ/1051م) بالأديبة والشاعرة إشراق السويداء(ت450هـ/1058م). المقرئ، المصدر السابق، 4/171. هنري بيرس، المرجع السابق، ص238.

³ السيوطي، المصدر السابق، ص27. المقرئ، المصدر السابق، 4/169. أحمد خليل جمعة، المرجع السابق، ص116.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ومن مدارات الصورة الدونية للمرأة في بعض الزيجات، والتي ترتبط مباشرة مع المواصفات المطلوبة، والتي تتكأ على الوضع الاجتماعي والمعرفي للرجل؛ فقد يأنف الأهل من تزوج الأمة، كما أن نكاح رجل من أهل العلم والمعرفة لمن لا تصلح له قبول بالرفض من الوالد لأنها حسبه أقل منه شأنًا، ونفس الموقف إذا تزوجت المرأة غير شاكلتها⁽¹⁾، ولا شك أن التباين الشديد في الوضع المعرفي والاقتصادي والاجتماعي من شأنه أن يخلق عوائق في الحياة الزوجية قد تعكر صفو العلاقات.

كما يتلمس موقف الامتعاض من تزوج الحرة من العبد، وما الشروط التي فرضت على العبد، والتي تبدو أنها أكثر تعلقًا بالمرأة أكثر منها بالرجل؛ من قبيل علمها أنه عبد ورضاها بذلك، بل ورضا سيده، إلا تمثل لهذا الشأن⁽²⁾، خاصة في مجتمع يعنى بالشرف والاحدوثة ويعطي بالا كبيرا لآراء الناس وأحكامهم التي لم تتوافق دائما ووضاعة العبد المسترق مع المرأة الحرة التي تستحق ماهو أفضل منه.

وعلى النقيض من ذلك، وبسبب انفتاح المجتمع الإسلامي على مختلف الجنسيات والديانات، فقد كان تسري الرجل بالإماء محط قبول من المجتمع، فلم يتوان البعض من أن يترجم إعجابه بأتمته إلى زواج كامل الأركان⁽³⁾، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أنجبوا منهن البنين والبنات، ومالوا إليهن على حساب زوجاتهم الحرائر⁽⁴⁾، وهذا ما حدا أصحاب كتب الحسبة إلى تعدد الأقاليم التي تنسب إليها الإماء عند تصنيف أنسبهن للزواج والولادة، جريا على صورة الزوجة الفضلى، في تفصيل إثنوغرافي ينم عن تفهم لخصائص وطباع كل جنس، فصنفها السقطي مثلا بين "الخادم البربرية للذدة، والرومية لحيطه المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع، والمدنية للشكل، والعربية للطرب..."⁽⁵⁾، ثم أردف مرتبا مهامهن ومقررا أن "البربريات أطبع خلق الله على الطاعة وأنشطهن للعمل وأصلحن للتوليد وأحسنهن للولد، وبعدهن اليمنيات ويشبهنهن العرب، والنوبة أكثر الخلق إذعانا للموالي، وكأنا فطروا على العبودية، وفيهم السرقة وقلة الأمانة، والهنديات لا

¹ ابن مغيث، المصدر السابق، ص43. ابن سهل، المصدر السابق، 261/1. ابن رشد، فتاوى، 1536/3. ابن الحاج، نوازل، 463/3. الونشريسي، المصدر السابق، 394/3. 360/10.

² ابن سهل، المصدر السابق، 217/1. ابن رشد، بداية المجتهد، 78/3. ابن سلمون، المصدر السابق، ص77. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص277.

³ ابن مغيث، المصدر السابق، ص52. الونشريسي، المصدر السابق، 219/6. 125/3. وكان نفس الموقف ماثلا في المجتمع العراقي، فكان الارتباط بالمسيحيات، لاسيما الجوارى، لا يشكل أية معرة. وجدان حسن العزايزة، المرجع السابق، ص95.

⁴ البرزلي، المصدر السابق، 355/5. الونشريسي، المصدر السابق، 360/10. المقرئ، المصدر السابق، 205/5.

⁵ السقطي، المصدر السابق، ص49.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

يصبرن على الذل ويرتكبن العظائم، ويسهل عليهن الموت، والزنجيات أشد خلق الله واجلدهن على الكد، وفي الأرمينيات الحسن والبخل وقلة الانقياد"⁽¹⁾، في ظل نشاط تجارة الرقيق وكثرة الجواري التي تعددت روافدها. كما ارتبط المسلمون بمصاهرات مع النصاري، برزت معها الصورة السابقة من المجتمع، مع تحفظ من قبل الفقهاء، فقد ذهبوا إلى إحلال حرائر أهل الكتاب بالنكاح، وإحلال إمائهم بالنكاح وملك اليمين⁽²⁾.

وعطفا على ما سبق، فقد كان الرجال يتزوجون نساء من جنسيات مختلفة غير جنسياتهم، ومع ذلك فقد اعتبرت بعض الأجناس غير مناسبة لعقد الزيجات، فالمصامدة يعتبرون الزواج من الحبشيات عارا، ففي الحوار الذي دار بين أبي مدين شعيب وبين تلميذه ما يفيد استنكارهم للزواج من الحبشيات⁽³⁾، ولعل هذا يرجع إلى نظرة المصامدة للحبشيات التي شهدن حياة الرق غالبا، واعتبرهن أقل منهم منزلة.

واللافت للانتباه أن بعض النسوة اخترن العنوسة بمحض إرادتهن، عكس النماذج السابقة اللاتي لم يكن لهن دخل فيها، رسما على حياة الانقطاع عن الدنيا والتحلي بمظاهر الزهد المختلفة وتماشيا مع وجه المنقطعة، ومن القرائن الداعمة لهذا التخريج شهادة ابن الحاج العبدري الذي شبه بعض النساء اللاتي عرفن بالصلاح، بنساء النصاري في كنائسهن، وذلك لما كن يقمن به من لبس الصوف، والتخلي عن الزواج⁽⁴⁾، كما تم تحلية أخت عبد العزيز التونسي (ت486هـ/1093م) بأوصاف الصلاح والفضيلة الذي ينم عن التقدير، لانقطاعها "إلى عبادة الله تعالى إلى أن ماتت وهي بكر"⁽⁵⁾.

وللمبالغة في نظرة الاحترام والتقدير للزوجة، تطرفت بعض الأسر الموسرة بأن أقيم لها عرسا مشهودا، ويبدو أن مظاهر التفاخر والتباهي امتزجت في هذه النظرة، إذ يصف أصحاب الأخبار زواج علي بن يوسف من فاطمة بنت سير في إشبيلية فيقول: " فلم يعهد مثل ذلك اليوم لها وكثرة ونعما خرج الجم الغفير إلى مضارب المحلة بعين العلو"⁽⁶⁾، وقد تفتن ابن خلدون لهذه المسألة حين رأى أنهم " تطوروا بتطور الحضارة

¹ السقطي، المصدر السابق، ص50.

² ابن رشد، بداية المجتهد، 80/3. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص155-156.

³ ابن الزيات، التشوف، ص328. ابن قنفذ، المصدر السابق، ص36. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص407.

⁴ محمد لطيف، المرجع السابق، ص99.

⁵ ابن الزيات، المصدر السابق، ص94. محمد لطيف، نفسه. مع وجود نماذج خارج هذا الحقل يفهم أنها شاخت دون زواج، وتأني على رأسهن ولادة بنت المستكفي التي ورغم جمالها وثقافتها ونسبها بقت دون بعل. الضبي، المصدر السابق، ص733. المقرئ، المصدر السابق، 205/4. الريسوني محمد المنتصر، المرجع السابق، ص75. مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية، ص171.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق، 56/4. محمد لطيف، نفسه، ص43.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

والترف في الأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي، وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الإعراس، فأتوا من ذلك وراء الغاية⁽¹⁾، وهذا سيرا على العادات الجارية بالزواج، و اثبات تفوقها على غريمتها من الدويلات المعاصرة، التي تتسم في كثير من الحالات بحالة من الترف والمهابة اعتدادها واکراما للمخطوبة، وسيرا مع الضخامة والمنصب والجاه.

وكلما اقتربنا من ليلة العرس وتزامنا مع تحضيراته المتعلقة بالعروس الجديدة، تبدى أمارات تنم عن موقف مزدوج، ففي المعلم الأول ينقش وجه المفروح بها، ومصدق ذلك اهتمام المجتمع باقتناء حاجيات العروس والسعي إلى توفيرها من سلع وبضائع وحلي وزينة وحتى أسواق خاصة⁽²⁾، في حين تنحدر إلى الزجر والعتاب للزوجة العروس المبالغة في التزين لليلة زفافها، مركزين على ارتباطه بتضييع واجبات ثابتة عليها، حينما " تمكث دون صلاة، فهذا لا يصدر ممن انتمى إلى الإسلام، وكيف تبقى هذه البنت دون صلاة المدة المذكورة بل يوما واحدا... والتزوج يكون على هذا الوجه قل أن تكون فيه البركة"⁽³⁾، ويبدو أن التزين الزائد والسعي المحموم للظهور في أبهى طلة، والحرص على عدم زواله، مسوغ أساسي حسبهن لهذا التهاون الذي أدى لهذه النظرة.

2- أثناء البناء:

ما إن تتم مراسيم الزواج حتى تظهر في الأفق وعلى طول الحياة الزوجية مع طولها أو قصرها ملامح وأمارات تبرز العلاقة بين المرأة وبعلمها، والتي تتميز بالود والعطاء تارة، والتنافر والضيق مرات أخرى، مخلفة بذلك مجموعة من الصور التي تتنوع وتعدد وتباین، عاكسة نبض الحياة الاجتماعية في مجتمع الغرب الإسلامي بكل فعالياته.

أ- صورة الزوجة عند الرجل:

فضّل مجتمع الغرب الإسلامي المرأة الولود، ونفروا من العاقر، وكان هذا من بواعث إيثارهم للمرأة الشابة البكر، لأنهم كانوا يفرحون بالأولاد⁽⁴⁾، ويعتزون بهم⁽⁵⁾، فحب الذرية والرغبة في الإنجاب أمر فطري، ناهيك

¹ مقدمة، 539/2.

² المقرئ، المصدر السابق، 201/1.

³ النونشريسي، المصدر السابق، 252/3.

⁴ جاء في الأمثال الشعبية " لَا تَلَدْ وَلَا تَلَدْ وَلَا مِنْ يَدُورْ فَالْبَلَدْ" الرجالي، المصدر السابق، 458/2.

⁵ ابن عبد الرؤوف، ص 80. البرزلي، المصدر السابق، 176/2.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

عن ارتباط تلك الرغبة لدى مجتمع الغرب الاسلامي بثقافة ذلك المجتمع، فإنجاب الأولاد ضمان لوجود من يقوم على رعايتهم أيام المشيب، واستمرار لنسلهم وذكرهم بعد الممات.

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الميل بحضه على إثبات الزوجة الولود، إذ جاءه رجل فقال: "إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنما لا تلد، أفأزوجه؟ قال: لا ثم أتاه ثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم"⁽¹⁾، ولعل نظرة الإيثار تتجلى في أماكن وأوقات النزف الديمغرافي المتأتي من الحروب والصراعات وجبهات القتال وخطوط التماس بين المسلمين وأعدائهم من نصارى شبه الجزيرة الإيبيرية، متأكين في ذلك على توصيف راق للمرأة الولودة صانعة أجيال المستقبل المجاهدين، إذ كان العديد من العلماء يدعون إلى "ملاعبة النساء لإيجاد الأولاد المظهرين للاجتهاد في الجهاد"⁽²⁾، إحساسا منهم لمدى أهمية المرأة في خلق وتكوين جيل مسلم، يستطيع بإيمانه مجابهة النصارى في أرض الأندلس وتحرير العباد والبلاد، في ظل النزف الديمغرافي الناجم لا محالة عن تواصل الحروب بينهما.

وارتطمت الزوجة العاقر في المجتمع اليهودي بمطبات عديدة جزاء عدم خصوبتها، لتحيل هذه المطبات إلى تمثل آخر للازدراء والدونية للمرأة اليهودية، والتي يبرز فيها وجه المستسلمة المضطهدة، فناهيك عن عدم استطاعة طلب الطلاق رغم الضرر اللاحق بها، وهجرها والتنصل من المسؤوليات نحوها، تجبر في مرات كثيرة على تقبل الزوجة الثانية بصدر رحب⁽³⁾.

وقد ركن مجتمع الغرب الإسلامي لظاهرة التعدد، فقد رأى بعض الأولياء أن التعدد مذهب للفقر مجلبة للغنى، حيث أشار أحد الصلحاء على رجل أتاه يشكو الفقر فأمره بالزواج ثانية فزاد فقره، ثم ثالثة فساء حاله أكثر، فرغبه في الرابعة، فحسن حاله واغتنى، رغم فقر زوجاته الأربع⁽⁴⁾.

ورغم الإقرار بنظام التعدد الذي كان شائعا في عصر الدراسة، فإن صورة الزوجة الحرة العلية والزوجة الأولى تظل في الواجهة مقابل الزوجة الأخرى، فهناك من شرط لزوجته في العقد ألا يتزوج عليها، إمعانا في

¹ أبو داود، المصدر السابق، 220/2. (كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء) . علي أفزار، المرجع السابق، ص22.

الصحي بن منصور، المرجع السابق، 52.

² البلوي، المصدر السابق، 521/2.

³ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج5، دار الشروق، القاهرة، 1999، ص146.

⁴ البشير غانية، المرجع السابق، ص171.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

صورة الضرة العدو⁽¹⁾، ودلالة على علية المرأة وعزتها⁽²⁾، وهذا الاشتراط يجعلنا نؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن زوجة الغرب الإسلامي انطبعت بوسم الغيرة، فلا تقبل أن تكون ضرة لزوجة أخرى، وتؤثر الموت على ذلك⁽³⁾ وهو ما يؤكد المثل الشعبي "مَشِيهِ لِلْحَفَرِ وَلَا مَشِيَةَ لَبَيْتٍ أُخْرَى"⁽⁴⁾، وذلك ما يفسر ذلك التوافد على العرافين والكهنة، إذ كان من المؤلف في الشوارع المغربية وجود المشتغلين بضرب الحظ أو "كتابة كتب الحبة للنساء إذا أعرض عنهن الأزواج أو خاصموهن"⁽⁵⁾. بل شملت هذه النظرة حتى أهل الذمة، فالزواج بأكثر من امرأة عند اليهود جائز، لكنه كثر بين أغنيائهم بالدرجة الأولى، بل تفاوت في المغرب بين يهود الدواخل الذين تأثروا بالبربر المؤثرين لزوجات واحدة ويهود السواحل الذين كان لهم أكثر من واحدة، وهو ما خلف مشكلات تقوم بها على الأغلب الزوجة الأولى، وهناك حالات عديدة طلبت فيها زوجات يهوديات أندلسيات الطلاق وحصلن عليه، وأخذن حقوقهن المنصوص عليها في العقد، وذلك بالرغم من حبهن لأزواجهن، ودافعهن فقط هو رفض الإهانة التي تراها الزوجة في ارتباط بعلها من أخرى⁽⁶⁾.

ويظهر أن إصرار الزوجة على الشروط التي يسجلها الزوج على نفسه في العقد راجعة إلى عدم الثقة في الزوج، ولأنه كان من الممكن أن ينتقل بسهولة بين مناطق الغرب الإسلامي ويتزوج في كل قطر يذهب إليه،

¹ لم أصادف - فيما اطلعت عليه - هجاء المرأة لضرتها، مع منطقته؛ لأن التباض بين الضرائر متأصل لديهن، ولعلها تأنف أن تسجل على نفسها أنها دون ضررتها، وأن زوجها يؤثر ضررتها عليها، لذلك لا تحجوها حتى لا تكشف عن موجدتها، كما تُظهر في جانب آخر أنها لا تحفل بضررتها، لأنها في غير مستواها، ولا تسمح لنفسها إلى النزول إليها.

² ابن مغيث، المصدر السابق، ص 54. ابن سهل، المصدر السابق، 303/1. الشعبي، المصدر السابق، ص 397. ابن سلمون، المصدر السابق، ص 79. ابن الحاج، نوازل، 30/2. البرزلي، المصدر السابق، 465/2. 122/1. الونشريسي، المصدر السابق، 416-417. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص 277. حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية، ص 178.

³ يجب التنويه على أن هذا التوكيد ليس دليلا على إخطاط المرأة الذي استغله أعداء الاسلام للنيل منه، والذين مارسوا الطابع الانتقائي في توظيف حالات ومواقف للتدليل على استنتاجاتهم وخلاصاتهم التي كان غرضها واضح وهو خدمة سياساتهم، وهي المسألة التي أثارت وما زالت تثير سجلا حادا، ويمكن طرح التساؤل التالي لايضاح الفكرة؛ أيهما أدل على ضعة المرأة من منظورها، أن يتزوج الرجل من نساء آخر زواجا متعارفا عليه معلوما للناس، مع وجوب العدل بينهن في حدود الإمكان، أم يخالل غيرها من النساء في السر؟، ثم ماهي حالات التعدد بالنسبة لكل الزوجات؟، أتمثل الأغلبية مثلا أم الاستثناء؟ وبماذا يفسر إنتشاره في الديانات والحضارات الأخرى؟، أم هو استقصاء للاسلام فحسب؟. ولعل وضع هذه التصورات في الذهن يمكن من رسم خط واضح لموضوع التعدد والضرائر عصر الدراسة.

⁴ الزجالي، المصدر السابق، 350/2. الونشريسي، المصدر السابق، 418/4. صلاح خالص، إشبيلية، ص 93. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص 315. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 96.

⁵ ابن الخطيب، الكتبية، ص 149. البرزلي، المصدر السابق، 381/1. الونشريسي، المصدر السابق، 171/11.

⁶ خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 296. فاطمة بوعمامة، المرجع السابق، ص 119-120. الصبحي بن منصور، المرجع السابق، ص 155.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

مع العصمة التي في يده، كما أنها في جانب آخر دلالة على قوة شخصية الزوجة في الغرب الإسلامي وعلى تمسكها بكافة حقوقها وقدرتها على الدفاع عن هذه الحقوق مستندة في ذلك إلى السلطة القضائية التي أنصفتها⁽¹⁾، فهل يعني هذا أن الرجل أذعن لمبدأ الاشتراط⁽²⁾؟ أم حاول كسر هذا القيد والشرط التعجيزي عند البعض؟.

يمكن القول أن هذا القيد خلف استياء لدى عدد من أفراد المجتمع، انعكاسا على صورة الزوجة المملكة، مما حملهم على خلق حيل ومراوغات تخلصهم من هذا الشرط إن وقعوا فيه⁽³⁾، وهو ما ينهض على امتعاض طوائف متعددة من هذا الإجراء الذي حرّمهم من حق شرعي من جهة، وعلى سلطة الأعراف التي لعبت دورا في ترسيخ مثل هذه الممارسات من ناحية أخرى.

وقد يصل التطرف ببعض الزوجات لتجاوز الحد المعقول، في حال ميله لإحدى زوجاته على حساب الأخريات، حيث تخط لنا بعض النصوص مدى شدة تعلق المرأة بزوجها ومحاولاتها المشروعة وغير المشروعة في سبيل استبعاد أي منافس لها، لتتبلور صورة المرأة الغيورة الشريرة، إلى جانب الزوجة المغدورة الضحية، وحسبنا في ذلك قمر زوجة علي بن تاشفين المرابطي التي أقدمت على قتل صاحبته الثريا لما أحست أنها بدأت في استمالة قلبه، فدست لها السم الذي سبب لها إسهالا حادا، أدى إلى انسلاخ الطبقة الداخلية لأمعائها، رغم المحاولات البائسة من أمهر الأطباء لعلاجها⁽⁴⁾.

وعلى صعيد آخر، كانت الزوجة حسنة العشرة لزوجها الحافظة لعرضه مصدر افتخار والدها⁽⁵⁾، بل كان من علامات موقف تميز الزوجة لدى زوجها صورة المعاونة له الكاسبة لوده؛ بإعانتته في تكاليف الحياة، لا سيما إن كانت من الطبقة الموسرة، كأن تهبه نصف صداقها، والسماح له في الإقامة في الدار التي تملكها، وهناك أن أسلفت زوجها الأموال، بل هناك من وضعت ثروتها تحت يده في سبيل القيام بمشروعه السياسي

¹ ابن المغيث، المصدر السابق، ص54. ابن سهل، المصدر السابق، 303/1. الشعبي، المصدر السابق، ص397. ابن سلمون، المصدر السابق، ص79. البرزلي، المصدر السابق، 465/2. 122/1. الونشريسي، المصدر السابق، 416/3-417. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص288.

² قد يمارس التعدد كل من تواتيه ظروفه، وربما يكون عقم الزوجة المسوخ الأهم، وقد تحدده الرغبة الطبيعية في النسل وكثرة الذرية للعماله، أو يتوقع منه خيرا؛ من قبيل المصاهرات السياسية وإصلاح ذات البين.

³ البرزلي، المصدر السابق، 18/1.

⁴ ابن زهر، التيسير، ص250. مليكة حميدي، المرأة المغربية، ص63.

⁵ ديوان ابن حمديس، ص365-366.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

كما فعلت زينب النفزاوية⁽¹⁾، تقريبا بينهما وتحقيقا للألفة والتحاب. في حين قامت من لا تملك أموالا بخطوات سعت فيها إلى خدمة زوجها وكسب رضاه، ينبع معها وجه الوفية، فهناك من وقفت إلى جانب بعلمها عندما داهمه المرض وخارت قواه لكبر سنه وكف بصره⁽²⁾، في حين اعتنت أخرى بأم زوجها في كل يوم رغم المسافة البعيدة بينهما⁽³⁾.

وفي ظل انتشار تيار التصوف بما تركه من أثر على محيطه ومريديه انطلاقا من العائلة، إنبلج وجه القدسية والإكرام للزوجة الصابرة، بما صدر عنها من مآزرة لبعلمها ومطاوعته في تجرده من الدنيا وانقطاعه عنها، والسير إلى مسلك الزهد بما يتطلبه من جهد وصبر، فاخترن التجرد رفقتهم في الخلوات⁽⁴⁾، بل تماشين مع سخاء أزواجهن، إذ لم ينقطع الأولياء عن العطاء والصدقة حتى في المسبغة، وكانت له الزوجة نعم المعين والسند والمتفهم، ولم تعتبره سفها وإتلافا لماله ورزق عيالها وقلة تخطيط⁽⁵⁾.

ومع إتساع هذا التيار الذي تعزز بكل مايروى عنهم من كرامات، لجأت بعض الزوجات اللاتي لم تستطعن دفع أسر أزواجهن إلى الدعاء ببركة الأولياء والصالحين لاطلاق سراحهم⁽⁶⁾، فكان أسر الزوج والحالة هذه من موجبات ظهور معادن الزوجات، ومنطلقا أساسيا لتبدي صورة الزوجات الوفيات.

ثم ألا تلامس حالة الاستنفار موقف التعاطف والاهتمام بالمرأة المأسورة المشغول البال عليها، ليس على الزوجة المسلمة فحسب، بل حتى الكتابية، فبفضل الثراء الفاحش الذي عرف به اليهود ونتيجة شبكاتهم التجارية المترامية الأطراف، تمكنوا من تنظيم إقتداء أسراهم سواء من إسبانيا النصرانية أو الأندلس المرابطية والسعي لذلك، وحسبنا في ذلك الرسالة التي كتبها يهودي في طليطلة سنة 520هـ/1126م حول فدية سجنينة يهودية في مملكة أراغون، وثبتت رسالة أخرى كتبها أحد التجار المرموقين إلى أحد أصدقائه يطلب منه

¹ ابن العطار، المصدر السابق، ص 436. ابن سهل، المصدر السابق، 902/2. الشعبي، المصدر السابق، ص 166. ابن بشتغير، المصدر السابق، ص 250. ابن رشد، فتاوى، 177/1. ابن الحاج، نوازل، 44/2. ابن عذارى، المصدر السابق، 22/4. المراكشي، وثائق المرابطين، ص 398. البرزلي، المصدر السابق، 217/2. 500/5. الونشريسي، المصدر السابق، 429/1. 75/8. الناصري، المصدر السابق، 21/2. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 352.

² الونشريسي، المصدر السابق، 91/4. 99/3.

³ نفسه، 277/3.

⁴ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 175. التميمي، المصدر السابق، ص 29. 87. محمد لطيف، المرجع السابق، ص 112.

⁵ التميمي، نفسه، ص 121.

⁶ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 159.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

فيها الاتصال بأقاربه وبصاحب الشرطة لإطلاق سراح السجينة المذكورة⁽¹⁾، فالزوجة المرتبطة بالعرض والحالة هذه قاسم مشترك بين جميع الأزواج، بغض النظر على الدين أو المنطقة التي تنتمي إليها.

في حين ترى العامة تعاون الزوجين على أمر معين، واستشارة الرجل لزوجته تعبيرا عن الضعف والمهانة، ناصحين بعدم الأخذ برأيها، جريا على نظرة الجاهلة، بل واعتبر البعض استشارة الزوج لزوجته ضربا من الضعف والإهانة، وأوصوا بكل أساليب الشدة في التعامل معها⁽²⁾، ولعل ذلك انعكاس لفقد الشخصية الرجولية عند عدد من الرجال الذين استولت عليهم نسوتهم، فلم يعودوا يملكون أي قرار في الأسرة، وانطلاقا من مفهوم العصمة عندهم الذي منحه الإسلام للرجل، واعتبارا للزلل الذي يصيب المرأة في الغالب الأعم حسبهم والمرادف لمعنى نقص العقل والدين.

وقد تضمن الشعر ما يدعم الموقف السابق، حيث جاء عند المقرئ على لسان ابن الخطيب ما قوله:

مُطَاوَعَةُ النِّسَاءِ إِلَى النَّدَامَةِ وَتَوْقِعُ فِي الْمَهَانَةِ وَالْغَرَامَةِ

فَلَا تُطْعِ الْهَوَىٰ فِيهِنَّ وَاعْدِلْ فِي الْعَدْلِ التَّرْضِيِّ وَالسَّلَامَةِ⁽³⁾

وقال شاعر آخر:

خُنْ عَهْدَهَا مِثْلَ مَا خَانَتْكَ مُنْتَصِفًا وَأَمْنَحْ هَوَاهَا بِنَسِيَانٍ وَسُلُوَانٍ

فَالغَيْدُ كَالرُّوْضِ فِي خُلُقٍ وَفِي خُلُقٍ إِنْ مَرَّ جَانٍ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ جَانٌ⁽⁴⁾

ومع تفاصيل الحياة الزوجية بخلوها ومرها، ترسم صور أخرى تتعدد بتباين طبيعة ساكنة المدينة والبادية، ففي عالم الريف؛ بكل ما يحمله من خصوصية اقتصادية واجتماعية، كان العمل في الحقل بين الشريكين مدارا آخر لبروز نظرة متباينة للزوجة من طرف بعلمها والشريك في آن واحد، فمن ناحية الشريك نظر إليها المتطفلة والتي تتدخل في أمور لا تفقهها، ونظر الزوج إليها الحريصة على ماله ورزقه، مخاطرا في التشاجر مع شريكه

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث، ص98. خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص352.

² جاء في قولهم: " طَاعَةُ النِّسَاءِ أَفْنٌ وَإِتِّبَاعُهُنَّ وَهْنٌ ". الزجالي، المصدر السابق، 242/2.

³ المقرئ، المصدر السابق، 565/5.

⁴ نفسه، 505/3.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

لأجلها⁽¹⁾، وليس ببعيد أن حرص الزوجة على مصالح زوجها الشريك في العمل، وتدخلها في تتبع الأمور الزراعية، ثم دفاع زوجها المستमित عليها ساعد على ارتسام نظرة متميزة للزوجة.

هذا ويتحدد خط الزوجة الوفية لزوجها والمعاونة حتى في المعصية، فقد أورد المقرئ قصة على طرافتها وطابع الدعابة المبتوث فيها تحيل على المعنى السابق، فقد كان زمن المعتمد سارق مشهور متسلط على أهل البادية، وله فيها كل غريبة، وشاركته في ذلك زوجته التي استطاعت بدائها سرقة بدوي بتخطيط من زوجها رغم أنه كان مصلوبا على مرأى الناس⁽²⁾، ناهيك عن تبلور صورة الغشاشة، بسبب مشاركة أزواجهن في بعض عمليات التحايل والغش التجاري بالأسواق، بالتستر عليهم وتسهيل الأمر لهم، وهذا ما أشار إليه السقطي عند تعرضه لبعض التجار الذين يتهربون من دفع مستحقاتهم للتجار الآخرين وغيتهم عن الدكان المكترى، وادعاء جهلهم بأسوام السلع التي اشتراها منهم، " فتهون زوجته ذلك على التجار بأن تلزم كراء الحانوت لباقي مدة زواجها، ويخرج الزوج من مغيبه، وقد حصل من أموال الناس على رأس مال عنده، فبهذه الحيلة يتجر بها في الحانوت بعد أن يشهر على نفسه بعقد أنه بيده لزوجته المذكورة على وجه السلف من ثياب وأثاث باعتهما أو غير ذلك من الوجوه الشرعية إلى غير ماوصف أيضا من الحيل"⁽³⁾، ورغم طابع الطرافة التي تشير إليه الحادثتين، وبغض النظر عن شرعية تصرفاتها من عدمه، خاصة إذا أخذ في الحسبان أن المرأة أقل جرأة في الاقدام والمغامرة لخصائصها الجسمية والنفسية، إلا أنه يمكن التخمين أن العلاقة الزوجية كانت على أمتنها بين هذين الزوجين، وفي أحلك الظروف والمواقف.

وكما كانت المرأة تسعى لخلق الألفة مع زوجها وإدامة الرابطة الزوجية بأن تتبرع لزوجها من مالها، سعى الرجل كذلك إلى الاعتناء بها انعكاسا لصورة الزوجة المصانة المتألفة حرة كانت أو أم ولد زيادة على ما هو مقدر شرعا، بتوفير مستلزمات حياتها من ملابس ومأكل ومركب، إلى هبتها العقار والأراضي، إضافة إلى أدوات الزينة والحلي التي تحببها النسوة⁽⁴⁾، في سعى أفراد المجتمع إلى تأليف زوجته إن هي أسلمت بإهدائها

¹ الشعبي، المصدر السابق، ص166. ابن رشد، فتاوى، 1116/2. البرزلي، نفسه، 72/2. الونشريسي، المصدر السابق، 132/1-133.

حسن قرني، المرجع السابق، ص215.

² المقرئ، المصدر السابق، 129-128/4.

³ السقطي، المرجع السابق، ص60.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 1095/2. 1098/2. 1207/2. البرزلي، المصدر السابق، 161/5. الونشريسي، المصدر السابق، 138/3. 388/3. 463/7. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص99. يحيى أبو المعاطي محمد عباسي، المرجع السابق، 725/2. وحول المتوسط العام لمقدار نفقة الزوجة في الغرب الإسلامي انظر الملحق رقم 08.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

داراً⁽¹⁾، ناهيك عن إهدائها أشياء نفيسة وكل ماندر⁽²⁾، ولاشك أن هذا الاعتناء سيعزز من الحياة الزوجية ويضع حجر الأساس في سريان الاحترام والحب المتبادل بين الزوجين.

والملاحظ في مجتمع الغرب الإسلامي أن المفاهيم السابقة تتوارى في صورة المرأة الحرة، فالزوجة مصدر للحشمة والستر والحمة⁽³⁾ في الوقت نفسه⁽⁴⁾، كما يمكن تلمس هذه الرؤية في الامتناع من الباعة المتجولين الذين يطلعون على البيوت⁽⁵⁾، بل كانت أجزاء من العمارة المدنية انعكاساً لهذا الفهم، وحسبنا في ذلك أن منازل الأندلسيين كانت ذات طابقين، وكان سقف الطابق العلوي منخفضاً بعض الشيء، ويضم هذا الطابق الغرف المخصصة للنساء والحياة الخاصة، وينفذ إليها الضوء والهواء عن طريق منافذ تطل على الصحن حيث لاتصل أعين الفضوليين من الجيران⁽⁶⁾.

ولم يكن الثقاف في اتجاه واحد، بل كان في إتجاهات مختلفة، من المسلمين والعكس، ويظهر أن هذا الثقاف الذي كان بين العناصر المشكلة لمجتمع الغرب الإسلامي ترك مجموعة من المستحدثات التي خلفت ردود فعل متباينة، ويأتي على رأسها المناسبات الاحتفالية، فبينما إعتبرها بعضهم تعبيراً عن الغبطة والسعادة لا غير، رأى جمع من الفقهاء أن هذه الممارسات الاحتفالية من باب البدع التي نهى عليها الإسلام، ولم تكن أيام السلف الصالح، سواء أثناء الأعياد الدينية للمسلمين، أو الإحتفال بمناسبة أعياد أهل الذمة؛ ومهما يكن من أمر، فيفهم أن الكتاب المسلمين كالطروشيين يحملون المرأة والزوجة بالخصوص وزر ذلك، واسمين إياها بالمبتدعة، ومدار الإنكار هنا هو أن يكلف الناس أنفسهم ويتنافسون في ذلك، وقد تحدث بسبب ذلك مشكلات عائلية، ويجد رب البيت نفسه مجبراً على تحمل تكاليف فوق طاقته، لاعتقادهم أن عدم توفير ذلك

¹ ابن الحاج، نوازل، 593/3.

² ابن بسام، المصدر السابق، 521/2.

³ ويمكن إسقاط ذلك في ارتياد مجالس العلم، حيث كان تعليم البنت يتم في الغالب الأعم داخل المنزل سواء على يد الوالدين، أو أحد الأقارب عطفاً على صورة الحرمة التي نشأ معها منذ الصغر لغاية كبرها. انظر حول هذه الجزئية الفصل الثالث، ص4. والرجل من عامة الناس في المشرق الإسلامي حينما يذكر امرأته أو قريبته أمام الغرباء قلما يشير إليها إشارة صريحة أو حتى يدل عليها بوصفها زوجته أو قريبته. ودعوة طه النجم، المرجع السابق، ص225. ومازال تفهم الحرمة، سيما للكبار، ماثلاً في تعاملاتنا اليومية إلى حد الساعة، فمن العيب تسمية الزوجة أو أحد أفراد الأسرة الإناث باسمها أمام الغرباء، فتنادى مثلاً الزوجة بالدار والعاليلة.

⁴ ابن الحاج، نوازل، 676/3. الشيزري، المصدر السابق، ص14. حتى أن بعض قد تمادوا في الغيرة المفرطة لدرجة أنهم يخلفون بالطلاق إن أبصرتهم عين. البرزلي، المصدر السابق، 139/2. الونشريسي، المصدر السابق، 267/4.

⁵ أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة، ص114.

⁶ توروس بالباس، المرجع السابق، ص127. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص196-197.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ذل ومهانة للزوجة وبيتها، جريا على حب المرأة للاحتفال وما يرافقه من ترويح ولقاء⁽¹⁾، ولا مشاحة أن المرأة وعلى مر العصور والحضارات تعتبر مفتاح فهم وتتبع العادات والتقاليد والتراث بصفة عامة، فهي المتمسكة به في الغالب الأعم، والمحدثه للتغيير كذلك.

وعلى العكس، فقد يرثي الزوج زوجته، إمعانا في صورة الزوجة الفقيدة، مذكرا بما كان بينهما، ومظهرا عليها الوجد الشديد لفراقها، ومن هؤلاء الوزير أبو بكر بن القبطرنة⁽²⁾، يرثي زوجته قائلا:

يَارِثَةُ الْقَبْرِ فَوْقَ الْقَبْرِ ذُو حَزْنٍ يَرِثِي لَهُ الْقَبْرُ مِنْ شَجْوٍ وَمِنْ شَجْنٍ
تَبَايَنْتَ فِيكَ أَحْوَالي أَسَى فَمَضَى إِلَى لِقَائِكَ صَبْرِي طَالِبَ الْوَسْنِ
وَحَالَفَ الْقَلْبُ فِيكَ الْعَيْنَ مِنْ كَمَدٍ فَاسْوَدَّ بِالْغَمِّ وَابْيَضَّتْ مِنَ الْحُزْنِ⁽³⁾

فما تكرر الآهات إلا رسم على سماحة صورة الفقيدة، وتأکید على عمق الجرح الذي يأبى أن يندمل، ليستمر معه ذرف الدموع؛ دموع الاستسلام التي امتنع معها التحلد والصبر.

هذا وقد ضم بلاط السلاطين، وبعض ميسوري الحال إلى جانب الزوجات الخرائر، مجموعة من النساء من الإماء والجواري⁽⁴⁾، ويتلمس في الاستفسار الذي طرح حول امرأة المفقود وأم ولده، فورد أن المرأة أنها تطلق، وفي أم الولد لاتعتق، نظرة دونية للإماء في مؤسسة الزواج مقارنة بالحررة عند العامة غالبا⁽⁵⁾، وهذه العبارات على اختصارها تنم عن نظرهم التشيئية إلى هؤلاء النسوة باعتباره غرضا لا وزن له في مرآة الفقيه.

¹ أبو بكر الطرطوشي، المصدر السابق، ص141. ابن بسام، المصدر السابق، 561/1/1-562. ابن الحاج، المدخل، 291/1-294. 47-46/2. البرزلي، المصدر السابق، 572/3. الونشريسي، المصدر السابق، 151-150/11. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص111. كمال السيد، مألقة، ص85. محمد ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص87.

² هو الوزير أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي، من أسرة علم ومعرفة، وأحد ثلاثة أخوة يعرفون ببني قبطرنة، شاعر معروف في عصر الطوائف، كتب للمتوكل بن الافطس، ولابنه تاشفين بعده، ت520هـ. ابن بسام، نفسه، 753/2/2. ابن دحية، المصدر السابق، ص186. ابن الأبار، الحلة، 229-228/3.

³ ابن خاقان، المصدر السابق، ص442.

⁴ وكان هناك مواصفات محبة للجواري تزيد من احتمال شرائها، واستيلادها، وحظوتها في كثير من الأحيان، على الأقل لدى الطبقة الخاصة. حول تلك المواصفات انظر الملحق رقم 12.

⁵ ابن الحاج، نوازل، 2/200. 323. الونشريسي، المصدر السابق، 20/4. 405/3.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

وعطفًا على حالة الرق يتمظهر وجه الجارية مسلووبة الإرادة، إذ كان للأسياذ كل الصلاحية في تزويج عبيدهم أو إمائهم حتى وإن كان الزواج لم ينل رضاها⁽¹⁾، كما اتفقوا على جواز نكاح الكتابية الحرة، وإحلال الكتابية الأمة بملك اليمين، واختلفوا في إحلال الكتابية الأمة بالنكاح⁽²⁾، لينبع تصور آخر لامس حتى أولاد الجواري، الذين عانوا من نظرة المجتمع لهم، كونهم من أمهات أولاد، عطفًا على مفهوم الزوجة أم الولد المستقبحة، فقد عير الشاعر ابن عمار أولاد الرميكية زوجة المعتمد بأنهم لثيمو النسب وأنهم أبناء جارية، ولو في إطار الهجاء وسوء العلاقات مع زوجها في قوله: (3)

تَخَيَّرَهَا مِنْ بَنَاتِ الْمَهْجَانِ رُمِيكِيَّةٌ مَا تَسَاوِي عِقَالًا

ونفس الموقف نجده لدى قطاع عريض من المجتمع، لكنه متعلق بقضية أخرى خلفت إجماعًا ملحوظًا، ففي المعرة التي لحقت بالجارية التي تزوجت من غلام سيدها من بعد موته؛ تعبير عن ملمح الغدر والخديعة وانتفاء الوفاء⁽⁴⁾.

كما انطبع الشعور السابق عند الرجل الشعبي عند مقارنته بين الأمة والحرة، إذ يتلمس مدح الحرائر وذم الجواري، إنطلاقًا من المثل الشعبي الذي يعتبر عندهم مخزونًا للخبرات المتراكمة عندما يقول: "لَسْ يَدْرِي أَحَدٌ لَأَمْرٍ قِيَمَةٌ حَتَّى يُتَّخَذَ مَعَ سَوْدَةٍ"⁽⁵⁾، فكانوا بذلك لا يعرفون قيمة الحرة إلا إذا فقدت، أو قورنت بالأمة، ووقتها فقد يعرفون مكانتها، فيكون من تزوج حرة في نظر المجتمع أحسن وأعز حالًا.

ولا يعني هذا انعدام وفاء المحضيات والجواري الذين غدو أمهات أولاد، فقد وقفت بعض محضيات الملوك إلى جانب سادقهن في الأوقات الحلوة كما المرة، ورأفن بحالهم عندما داهمهم البلوى، وهو ما حمل لهن في وجدان أسيادهن نظرة خاصة تنم عن الحب والتقدير لصنيعهن، فهذه سحر جارية المعتمد لم تتركه أثناء مرضه، وسهرت عليه ترعاه وتعتني به، حتى أنه تمنى دوام المرض لتبقى بجانبه فقال: (6)

سَأَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يُدْسِمَ بِي الشُّكْوَى فَقَدْ قَرَّبَتْ مِنْ مَضْجَعِي الرَّشَاءُ الْأَخْوَى

¹ ابن سلمون، المصدر السابق، ص 78. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 283.

² عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص 52.

³ ابن سعيد، المغرب، 1/390. المقرئ، المصدر السابق، 4/212. أنخل جنثالث بالنشياء، المرجع السابق، ص 82.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، 3/133.

⁵ الزجاجي، المصدر السابق، 2/279. ابن الحاج، نوازل، 3/463.

⁶ ديوان المعتمد، ص 2.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

إذا علة كانت لقربك علةً تمنيت أن تبقي بجسمي وأن تقوى

شكوت وسحر قد أغبت زيارتي فجاءت بما التعمى التي سميت بلوى

فيا علي دومي فأنت حبيبة ويارب سمعا من ندائي والشكوى

والواضح أن صورة الرميكية الايجابية مع ما تحمله من نظرة المقهورة من لدن زوجها، كانت بسبب وقوفها جنبا إلى جنب مع زوجها في أحلك أوقاته، فهي التي واسته في محنته ولم تتغير عليه، بعد اسقاط المرابطين لاشبيلية⁽¹⁾.

لتصل إلى وجه المتغنى عندما طرح الملك المذكور شكوى حول صدود جاريته جوهرة عليه، وقد امتلأ فؤاده حزنا على هذا الصنيع فقال: ⁽²⁾

جوهرة قد عذبتني منك تمادى الغضب

فزفرتي في صعد وعبرتي في صب

يا كوكب الحسن الذي أرزى بزهرة الشهب

مسكنك القلب فلا ترضى له بالوصب

وكانت قمر في عهد علي بن تاشفين المرابطي سيدة قلبه⁽³⁾، واستمر هذا التقليد حتى عند العامة⁽⁴⁾، لأن الناس على دين ملوكهم كما قيل، بل تمدد حتى شمل السوداوات، فبجانب اشتراك السودانيين في الجيش، دأب نساؤهن أن تكن جوار وذلك لجمالهن واعتدال أجسامهن⁽⁵⁾، ومن المنطقي أن يزداد الوجه السابق تألقا في حالات إنجابهن لأبناء ذكور⁽⁶⁾.

¹ ابن بسام، المصدر السابق، 227/1/2. المراكشي، المصدر السابق، ص155، 141. عبد الله ابن عساكر، المصدر السابق، ص263. المقرئ، المصدر السابق، 212/4.

² ديوان المعتمد، ص3.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص208. ابن عذارى، المصدر السابق، 97/4. ابن الخطيب، الإحاطة، 446/1-447. عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء، ص175.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 405/3.

⁵ مجهول، الاستبصار، ص215.

⁶ محمد لطيف، المرجع السابق، ص45.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ولم يكتف السادة بتدليلهن والسعي لارضائهن بالذهب والملابس والعطور، بل أتوا كل عجيب وما يبقى في الذكر طول الزمان، تعبيرا على الحب والعشق لهن، وانعكاسا لصورة الزوجة المحظية، فقد حفظت لنا كتب الأخبار قصة هدية المعتمد للميكية عندما اشتتت المشي على الطين، فأمر أن تسحق العطور المختلفة الألوان بماء الورد حتى تصير كالطين لتطأها⁽¹⁾، كما رأت يوما قطع الثلج تتساقط على سفح جبل قرطبة فأعجبها منظره، فأمر أن تزرع أشجار في هضاب قرطبة المقابلة لها لتزهر في آخر كل شتاء، وتظهر كأنها مغطاة بالثلوج⁽²⁾. وقد يخطر في البال كيف لرجل سيد ومملك دانت له الدول أن ينظم شعرا في الشكوى والجفاء والصدود والجارية ملك يمينه، ويستطيع التصرف فيها كيفما شاء؟، ويمكن القول بكل بساطة أن بعض السادة كانوا عبيدا لجواربهم بعقد شريعة الحب والهوى والاعجاب.

وكان من الشائع أن يجعل الزوج الميسور أم ولده وصيا على أبنائه بعد وفاته رسما لصورة الزوجة الثقة⁽³⁾، فحمل كهذا لا يترجم في الحقيقة إلا بمواصفات تجعل الزوج يضع ثقته التامة في هذه المرأة دون غيرها، وتلامس مابلغه بعضهم من حسن تدبير وحكمة.

ويفهم من الإجراءات والتسهيلات الممنوحة من الأولياء لتسهيل زواج الحرائر بلوغ وجه الجارية المنافسة مداه الأقصى فقد "كان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزون به مما ذكرنا، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة"⁽⁴⁾، ولابد أن ذلك مرتبط بالحروب والسبي المتأني منها، ودوره في التأثير على قانون العرض والطلب بخفض أسعار السبي، وبما تمتاز به من صفات محببة، تصرف المجتمع عن التوجه إلى الحرائر.

ومع كل ماسبق، فكان من الشائع أن تعتري الحياة الزوجية مشاكل تنغص جمال الحياة، تؤدي إلى الصورة المشروخة للزوجة والزواج؛ ترتبط بظروف الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية، وحتى السياسية، فتظهر الخلافات بين الزوجين، فليس من الطبيعي أن تكون كل النسوة على وفاق وخلق كريم مع أزواجهن على كل مراحل العشرة الزوجية طالت أم قصرت، وإنما الطبيعي أن يتفاوتن في ذلك، وأن يكون بعضهم جاسيات الطبع، نايبات العشرة، لعله في نفسها أو بعلمها.

¹ المقرئ، المصدر السابق، 272/4-273. حياة قارة، المرجع السابق، ص 148-149.

² صلاح خالص، المعتمد، ص 63.

³ ابن الحاج، نوازل، 624/3.

⁴ المراكشي، المصدر السابق، ص 38.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

فبسبب الحروب والأزمات سواء الداخلية أو الخارجية ينقشع وجه مزدوج للزوجة، أوله ملؤه الغبن والعسف من الزوج الذي أنكر المؤخر نتيجة ضياع وثيقة صداقها، ليصبحه صورة الزوجة المحفوظة الحقوق لدى المفتين والقضاة⁽¹⁾، ويبدو أن الزوج لم يكن في وفاق تام مع زوجته واستغل هذه النازلة ليظهر سخطه على زوجته، أو على غلاء المهور، ورحابة صدر القضاء الذي أنصف هؤلاء النسوة.

وقد تنقلب الأحوال بالزوجة من الحب إلى المجران، ومن العشق إلى الكره، بسبب أو دونه، بعد أن كان الزوج يهبها أغلى ما عنده، وتمثل له رونق الحياة ومركزها، لتخلي مكانها صورة المرأة المتجافاة المأفوكة، كاتهامها بالسرقة⁽²⁾، وقد يصل إلى طرد هذه الزوجة ونبذها⁽³⁾.

وغير بعيد عن الأوصاف السابقة، يرسم وجه الزوجة البائسة الفادة من الزوج والزواج، فتراها تترقب الفرص، بل تحاول خلقها من أجل التخلص من الزواج بأي طريقة، لدرجة أنها تقبل الخلع مع تحمل نفقة ابنها من زوجها إلى حين بلوغه الحلم، أو السماح في كائنها، أو حتى التنازل عن ميراثها⁽⁴⁾، وهذا يدل على استحالة العشرة الزوجية وتضحيتها في سبيل فك العلاقة بينهما. وشكل الضرب من أهم منغصات الحياة الزوجية في المغرب الإسلامي، والتي لاشك أنها لم تلق بظلالها على الزوجين فحسب، بل تعدته إلى أفراد الأسرة والأقربين واجتمع ككل؛ ففي الوقت الذي كان ضربها لدى جزء معتبر من العامة وحتى الفقهاء انعكاس لصورة الزوجة المشاغبة العاصية، قصد به التأديب والإصلاح أولا وأخيرا، ما لم يتجاوز حدود الشرع⁽⁵⁾، مقتنعين أن المعاملة الحسنة مع المرأة غير لائقة، ومبررين ذلك في فهمهم لقوله تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾⁽⁶⁾، تشكل لدى قطاع عريض من الفقهاء السابقين موقف ينحو إلى وسمها بالزوجة المصانة رغم المهانة التي لحقت بها، عندما يتحول هذا التأديب إلى ضرب مبرح مبالغ فيه، يخلف وراءه أنواع

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 118/3.

² البرزلي، المصدر السابق، 129/2.

³ نفسه، 161/5.

⁴ ابن المغيث، المصدر السابق، ص53. ابن سهل، المصدر السابق، 204/1. ابن الحاج، نوازل، 469/3. البرزلي، نفسه، 383/2. الونشريسي، المصدر السابق، 275/3. 258/4. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص278.

⁵ ابن العطار، المصدر السابق، ص327. ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص83. ابن الحاج، نوازل، 243/2. 280. البرزلي، المصدر السابق، 85/6. الونشريسي، المصدر السابق، 107/4. زهور أروبح، المرجع السابق، 238. في حين حمى القانون الرجل عند ضربه لزوجته عند زللها، ولو كان بسيطا، بل آمنت الزوجة من جانبيه بحق الرجال في ضربهن ولم ينكرن هذا الحق. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص232-233.

⁶ سورة النساء، الآية 34.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الكدمات والإصابات، من خلال التوكيد على أنواع الرفض والزجر وحتى التأديب اتجاه هذه تصرفات الزوج⁽¹⁾، ولاشك أن المعيار الأساسي الذي سعى إليه الإسلام هو التدرج في التأديب، من العظة إلى الهجران، قبل إيقاع العقوبة غير المبرحة، والتي تكون كأخر حل. ولا غرو أن هذه التصرفات من بعض الرجال اتجاه زوجاتهم تنير أسباب كرههن لأزواجهن ومواقفهن الحادة⁽²⁾، لتتعدد معها ردود أفعال الزوجات التي هدفت إلى التأثير على الزوج والزواج ورسمت صورة الزوجة المتمردة، فمنهن من عصين أوامر أزواجهن، وأخريات رغبين عن فراشه⁽³⁾، لتصل إلى ارتكاب جرائم في حقهم، مشكلة بذلك معيارا لبروز صورة المرأة المجرمة، فقد وجد بقرطبة سنة 457هـ/1065م رجل في داره مذبوحا، فيه أزيد من ستين ضربة، فلما حقق صاحب المدينة بين نسائه قالت واحدة منهن: هذه قتلته ونحن أعناها، وقالت: كان حقيقا بالقتل منذ عام⁽⁴⁾، وعلى الرغم من اشتراك زوجاته كلهن بقتله، بل والتصريح بتمني موته منذ مدة، ودلالاتها على دموية الجريمة، إلا أنه يمكن التخمين أن لتصرفات الزوج انعكاس كبير على نفسيتهن، لدرجة اقتفاف هذه الجريمة بتلك السادية، ومن قبل كل نسائه.

ولعل من أهم أسباب النزاع في بيت الزوجية وأؤكد أسباب نظرة الزوجة المحتقرة مسألة الخيانة الجنسية الزوجية التي تعتبر أفظع وجوه الخيانة، وتعدت هذه الظاهرة الأبقار إلى المحصنات، فهذه امرأة تقرر بحملها مرتين، وأنها قتلت ما ولدته، خوفا من العار وكلام المجتمع، مما حمل القاضي على رجمها⁽⁵⁾، وهو ما دفع بعض الأزواج سواء في حضورهم أو حال غيابهم؛ إلى إنكار أن يكون حمل زوجته والمولود الناتج عنه من اتصال جنسي بينهما، وما طفو بعض مسائل الملاعنة التي طرحت في نوازل الفقهية للفترة إلا تسلل آخر لصورة المرأة المشكوك في وفائها لزوجها، إذ كثيرا ماذهب الزوج إلى ملاعنة زوجته وإنكار الولد، أو العزوف عن

¹ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص83. ابن الحاج، نوازل، 280/2. البرزلي، المصدر السابق، 89/6. 92. الونشريسي، المصدر السابق، 289/2.

² جاء في المثل: "كثرة الجفأ يقلع أصل المحبة" الزجاجي، المصدر السابق، 266/2.

³ البرزلي، المصدر السابق، 148/2. الونشريسي، المصدر السابق، 233/4. 126/4.

⁴ ابن سهل، المصدر السابق، 873/2. ابن بسام، المصدر السابق، 538/1/1. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص443.

⁵ ابن رشد، فتاوى، 1394-1396/3. ابن الحاج، نوازل، 106/2. البرزلي، المصدر السابق، 34/4. الصحي بن منصور، المرجع السابق، ص127-128. ولا يمكن بحال من الأحوال لوم الزوجة وحدها على هذا الفعل الشنيع، فالرجل في النازلة السابقة يحمل وزرا متزايدا عند كثرة مراودتها وتبعتها حتى وقعت في شباكه.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

إلحاقه بنسبه مجردة الشك أن المولود ليس من صلبه⁽¹⁾، لتترجم في المخيال الجمعي على شكل أمثال شعبية تعكس وجه الخائنة التي لم تحفظ شرف زوجها، ساحة للرجال بارتياح منزلها، فجاء على لسانها تعبيراً عن الخيانة الزوجية⁽²⁾، كما تحفظ لنا كتب المناقب حالات رجالية للزنا، تتضمن في طياتها إشارات إلى صورة الزوجة الزانية الخائنة⁽³⁾ عن رضا منها وسابق إصرار وترصد، فبسبب كرامات الولي القطب أبو يعزى تيسر له كشف رجل في مجلسه قائلاً له بأسلوب ينم عن عتاب لاذع: "لم تخون أخاك وتأتي زوجة وهو غائب؟ فقال له الرجل: أتوب إلى الله تعالى من ذلك"⁽⁴⁾، ولاشك أن السؤال الاستنكاري المبثوث في هذه الكرامة تنم بمنطوقها عن رفض ومعارضة لهذه الفاحشة من قبل الرجل، وبمفهومها وأغوارها للمرأة التي خانت زوجها ولم ^{تصن} عرضه بدرجة أكثر، كما يمكن التخمين أن لحالات التفلت والتفرد وغياب الوازع الديني وعدم احترام الشرع⁽⁵⁾ الذي حدد محارم المرأة دوراً في هكذا حالات، ولاشك أن هذا الاستنكار وضع عندما لامست المسألة العرض، فلا شرف للرجل بعد هتك عرضه، خاصة أنه كان في سعاية لتحصيل الرزق، أو غيرها من الأمور، ومن أقرب الناس إليه.

واستثناساً بما سبق، فقد ارتسمت صورة قائمة للزوجة كثيرة الخروج من المنزل لحاجة ولغير حاجة، بل كان ذلك من أكثر العوامل المفضية للشجار بين أزواج الغرب الإسلامي، خاصة إذا كان الزوج مسافراً⁽⁶⁾، فلا غرو أنه يحتاج من زوجته أن تقوم على الحرص على راحته، كما حفظ عرضه من الاتهام، لأن ذلك عنده تقليل من رجولة الرجل، ناهيك عن كثرة الكلام حولها مما من شأنه أن يقدر في شرفها وعرضها المرتبط أشد الارتباط

¹ ابن ورد، المصدر السابق، ص 131. ابن الحاج، المصدر السابق، 106/2. 480/3-481. البرزلي، المصدر السابق، 470/2-471. الونشريسي، المصدر السابق، 71/4-73.

² جاء في قولهم: "بَيْنَ ذَا وَذَا وَزَوْجَهَا قَدْ جَا". الزجاجي، المصدر السابق، 124/2. وقولهم: "الرَّجُلُ قَطِيمٌ، وَالْمَرْءُ عَقِيمٌ، فَمِنْ أَيْنَ يَجِي الْوَلَدُ؟". نادية لعشيري، ملامح من صورة المرأة، ص 85. بل وقد كان التقزز من تسليم نفسها منطبعاً في خليلها في حد ذاته. ابن قزمان، المصدر السابق، ص 82. 270

³ تظل المعلومات المتوفرة في المصادر عن الجرائم الجنسية -إن صح التعبير- عمومية تفتقر إلى الدقة، غير مقصودة بالتدوين لذاتها، بل واردة ضمن سياق أعم؛ كما في الحادثة صدد التمثيل، تتعلق غالباً بكرامات الأولياء ومناقب الفقهاء والعلماء، وفي حضور رجالي دائم، دون ملامسة صورة المرأة في بعدها التاريخي وتحركها في مجتمعاتها، وإن وردت إشارات في كتب الفتاوى والنوازل والمناقب فإنها تميزت بالاحترازال الشديد.

⁴ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 214.

⁵ نفسه، ص 159.

⁶ القاضي عياض، المصدر السابق، ص 287. الونشريسي، المصدر السابق، 107/4.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

بالرجل، ويمكن التخمين أن ذلك كان مصوغا مركزيا في حيز الزوجة والمبالغة في حجبتها وتدجينها داخل البيت.

ولم يكن وجه الاشمئزاز متعلقا بالزوجة دائما، بل كان للزوج في بعض الاحيان دور نحو ولوجه، مما يحدد وجه الزوجة الأنفة الضحية، فقد يصادف أحيانا أن تضطر المرأة للبغاء لا جبار زوجها لها، لتقلب الصورة نحو عدم الاستهجان، لا سيما إن بدر منها ما يكشف عن عدم رضاها بهذا الحال، من قبيل المعارضة أو الهرب⁽¹⁾، ويبدو أن هذه الحالات مرتبطة بديانة الرجل الذي لا يغار على عرضه، مما يجعلهن أكثر عرضة للاغتصاب والوقوع في الفاحشة.

وليس من الطبيعي أن تكون كل النسوة على وفاق وخلق كريم مع أزواجهن، وإنما من الطبيعي أن يتفاوتن في ذلك، وأن يكون بعضهن جاسيات الطبع، نايبات العشرة، يتبلور معهن صنف المتطلبة السليطة، والتي ما تفتؤ تسمع بعلمها ألوانا من اللوم والتقريع، لتشغب على بعلمها ولو كان من الأولياء، وتتعمد الإساءة لزوجها لتبسط سلطته القيادية، وقد تصل إلى ضربه، وإثقاله بمطالب لا تنتهي دون مراعاة للظروف، كما لا تترك فرصة إلا واستغلتها لزندرائه، كأن تسيئ التصرف في حضرة ضيوفه وإبداء انزعاجها من وجودهم⁽²⁾، ويمكن التكهن أنه فضلا عن شدة الخلاف وطبيعته، أنه كان للمستوى الثقافي والأخلاقي للزوج دور ملجم للمعاندة والكيل بالمثل، وهذا الجانب هو ميدان سبق المتصوفة، ولا مراء في أن اتخاذ بعض الرجال لطريق التصوف، مع مافرضه هذا الاتجاه من تقشف وتزهّد واعراض عن الدنيا والعكوف على العبادة، والتفاني في السياحة والخلوة، وتجنب معاشرة الزوجة، والغياب عن الابناء لمدة طويلة، أفضى في كثير من الاحيان إلى ارتباك العلاقة بين المتصوف وبين وسطه العائلي، ومن ثمة على استقرار الأسرة وأحوالها⁽³⁾، كما يمكن القول أن صبر الزوج مرتبط بالأولاد الذين يخشى عليهم الضياع، أو ضعف شخصية الزوج في حد ذاته، كما لا يعدم الرغبة في نيل أجر الإحتساب كما عند المتصوفة. ليتخمر في وقت لاحق موقف الزوجة النادمة التائبة في حق زوجها وتعود إلى رشدّها، بعد أن أذاقته الويلات، وتندم على ماقصرت في حقه⁽⁴⁾.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 134/3. المقرئ، المصدر السابق، 278/7. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص102.

² ابن الزيات، المصدر السابق، ص329. 173. 219. الزجالي، المصدر السابق، 185/2. 134/2. الونشريسي المصدر السابق، 116/3. 288/4. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والاندلس، ص39. زهور أربوح، المرجع السابق، ص210-213. الصحي بن منصور، المرجع السابق، ص54.

³ محمد لطيف، المرجع السابق، ص111-112.

⁴ ابن الزيات، المصدر السابق، ص219.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ب- صورة الزوجة الجارية عند الحرة:

إذا عرجنا على نظرة المرأة للمرأة، ونعني بها هنا الحرة للجارية، فيبدو أن المنافسة كان لها حصة الأسد في العلاقة بينهما، وبين جوازي اللذة منهن بالأساس، لأنهن للإستيلاء⁽¹⁾، فحضور الأمة داخل الأسرة لم يكن ليواجه بالترحاب من قبل الزوجة بدافع الغيرة الجبلية، مما خلف نزوعاً إلى التوتر والقلق والتوجس في نفسها حالة اشتغال البيت على أمة، ويبدو أن معظم الحرائر في الغرب الإسلامي ممن يعتقدن في دونية الجوازي، وأنهن أفضل منزلة منهن ودون مستواهن، بينما الحرائر مصونات في خدورهن، محافظات على التقاليد، ثم على اعتبار حال الرق الذي يعتريهن، بل اعتبرن الأمة من خدامها⁽²⁾، فوجود الأمة في البيت انعكس سلباً على العلاقات بينهما، إذ لا تمر فرصة دون أن تنور نائرة الزوجة مختلقة ذريعة ما للتخلص منها، فهي في مخيلها في المرتبة الثانية، بل يسهل التخلص منها إذا كثرت شكاية الزوجة بحق أو دون وجه حق، دون مراعاة لظروف الزوجة الأمة⁽³⁾. وحتى بعد الاستيلاء عندما تصبح الأمة أم ولد، تبقى نظرة العدو ماثلة في وجدان الحرة وحتى أم الولد⁽⁴⁾، ولعل هذا الشعور يغذيه غيرتهن، وشعورهن بالمنافسة من الجوازي اللاتي يمتلكن الجمال والعلم والدهاء، ويشكلن خطراً على أسرهن وبيوتهن ومستقبل أبنائهن إن أصبحن أمهات أولاد.

وقد ترجح كفة الجارية في ذلك العصر، فالحرائر وإن وهبن نسباً وثقافة؛ إلا أنهن محاطات بمالة العلاقة الزوجية والتقاليد التي تجعلهم في منأى عن أساليب الجارية الجامعة من الجمال والعلم والثقافة، إلى جانب إمتلاك أساليب امتلاك القلوب وإيقاع الرجال في شباكهن، بما ثقفته من طرق المغازلة والشوق والغنج⁽⁵⁾، فيصعب بذلك تخيل علاقة ودية بين امرأتين تتنازعان رجلاً واحداً، ولكن الحكم باستبعاد هذا النوع من العلاقة لا ينفي وجودها على قلتها، فقد تعتق بعض مملوكاتهن في حياتهن أو طريق الإيحاء بعد الوفاة⁽⁶⁾، ويمكن التخمين أن العلاقة السيئة تنتفي وتحل معها علاقة الاحترام والقبول على الأقل إن كن جوازي خدمة،

¹ ابن حزم، رسائل، 165/1. المراكشي، وثائق المرابطين، ص 377. البرزلي، المصدر السابق، 355/5. الونشريسي، المصدر السابق، 275/5. صلاح خالص، اشبيلية، ص 93.

² ابن حزم، رسائل، 150/1. الونشريسي، المصدر السابق، 20/4. 275/5.

³ الونشريسي، نفسه، 130/4. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 398.

⁴ البرزلي، المصدر السابق، 197/5.

⁵ انظر نماذج من ذلك في ديوان المعتمد، ص 8. ابن بسام، المصدر السابق، 320/3. ابن عذارى، المصدر السابق، 97/4. البرزلي، المصدر السابق، 355/5. المقرئ، المصدر السابق، 275/4-276. ندیم مرعشلي، المرجع السابق، ص 15-16. سحر سالم عبد العزيز، بحوث مشرقية ومغربية، ص 77. عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء، ص 175.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، 224/9. 489/9.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

وتأتي القصة التي أوردها صاحب التشوف عن المرأة التي بكت مملوكتها بعد خروجها من عندها، حتى ذهب بصرها دليلا على ذلك⁽¹⁾، ولعلها حالات نادرة ومحدودة الانتشار. بما تتضمنه هذه الوضعية من مهام.

ج- صورة الزوجة الجارية عند الجارية:

أما نظرة الجارية للجارية فقليلًا ماتناولتها المصادر، ومارشح منها يوحي أنه طبعها الودية في بعض الأحيان، والتنافسية في جل الأطوار، ففي الجانب الأول كانت جوارى المعتمد ومحظياته يسافرن مع بعضهن بعضًا، ولم يذكر تخلف إحداهن لخلاف بينها وبين جارية أخرى⁽²⁾، وربما كان الخوف من سيدهن مصوغ أساسي لهذا الموقف. في حين تعلق طابع العداء غالبًا بمحاولات الاستئثار بالسيد والسعي لإبعاد الأخريات، ومن سوء حظهن أن المنافسة بين الجوارى كانت عالمية إن صح التعبير، فالجارية تأتي من مختلف بقاع العالم، مع روافد الرق المختلفة⁽³⁾، ولاشك أن شراسة المنافسة تزداد مع مقدار المؤهلات الأخرى؛ مثل التحصيل العلمي، مع الأدب والثقافة، والجمال، ناهيك عن إمتلاك أساليب الإغراء والغنج والظرف، إضافة إلى الفطنة والذكاء، وحتى المكر، وحسبنا في ذلك تلك القصة التي تظهر مدى تعلق المرأة بزوجها ومحاولاتها المشروعة وغير المشروعة في سبيل استبعاد أي منافس لها، لتتلور صورة المرأة الغيورة الشريرة، إلى جانب الزوجة المغدورة الضحية، إذ أقدمت قمر حظية علي بن تاشفين المرابطي وأم ولده على قتل صاحبته الثريا لما أحست أنها بدأت في استمالة قلبه، فدست لها السم الذي سبب لها إسهالا حادا، أدى إلى انسلاخ الطبقة الداخلية لأمعائها، رغم المحاولات البائسة من أمهر الأطباء لعلاجها⁽⁴⁾.

¹ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 396.

² ابن خلكان، المصدر السابق، 25/5.

³ ديوان المعتمد، ص 2. 3. 10.

⁴ ابن زهر، المصدر السابق، ص 250. مليكة حميدي، المرأة المغربية، ص 63.

3- ما بعد انقضاء البناء:

أ- المطلقة

تعرض الحياة الزوجية في بعض الأحيان لمراحل متقدمة من الانتكاس، تنغص متع الحياة، ويستحيل معها التفاهم والتحاور، فتكون مؤشرا على انعدام الحلول بين الزوجين، وحتمية الفراق والطلاق⁽¹⁾، ولا يهمننا في هذا المقام أسبابه، التي تنوعت بتنوع ظروف الزوجين، بقدر ما يهمننا تباين الرؤى حول المطلقة والتي لامست العائلة كمحطة أولى، لتمدد إلى المجتمع فيما بعد بمختلف أطيافه.

ويمكن في البداية الإشارة أن رؤى مجتمع الغرب الإسلامي للمطلقة لم تختزل في التهميش المضاعف لكونها مطلقة، ولم تكن شائنة وتحمل وصمة العار أو على مستوى واحد دائما، فلم يجد بعض الرجال غضاضة في الزواج بالمرأة الثيب، جريا على صورة الزوج الثيب الخبيرة، خصوصا ممن إجمعت فيهن صفة الجمال والمال مع المكانة الاجتماعية، فقد أشارت متون المصادر أن المطلقة تتزوج بعد طلاقها بدل المرة عدة مرات⁽²⁾، وقد يكفي الركون على صحة هذا التحريج إلى يوسف بن تاشفين الذي تزوج بزينة النفزاوية بعد أن كانت نكحت قبله ثلاث أزواج، طلقها آخرهم⁽³⁾. وكان كثير من الأهل من الوالدين والإخوة والأقارب يراعون حق القرابة والدم، مبدين أسمى مستويات التفهم والمواساة، فينضج بذلك وجه المطلقة المرحب بما لدى عائلتها والمأكول همها، فهذه زوجة تتقوى بسند أخيها لها، ووقوفه إلى جانبها، بل قدمته في أمر إجراء عقد الخلع من زوجها، ولم يتردد في استقبالها مع أولادها بقلب رحب⁽⁴⁾، وأخرى يساعدها سيدها في تسريع إجراءات الطلاق⁽⁵⁾ في حين ساعد الوالدان ابنتها في الخلع ماديًا، ولم يتركها لتواجه مصير زواجها الفاشل بمفردها، بعد أن شرط الزوج مسؤولية الإنفاق على ابنها إلى أن يدرك سن البلوغ⁽⁶⁾، وهو ما يدل على أن المرأة حظيت

¹ مصداق ذلك ما جاءت به الأمثال الشعبية في قولها "إنَّ وَفَّقَ وَفَّقَ وَإِلَّا حَانُوتِ الْوُثَاقُ" الزجاجي، المصدر السابق، 58/2. وقولهم "اتَّفراقٌ تعيشُو"، نفسه، 86/2.

² ابن سهل، المصدر السابق، 210-208/1. ابن رشد، المصدر السابق، 178/1. 198/1. ابن سلمون، المصدر السابق، ص 49-50. الونشريسي، المصدر السابق، 182-181/5. 227/4. زهور أربوح، المرجع السابق، ص 211.

³ ابن عذارى، المصدر السابق، 22/4. ابن خلدون، العبر، 245-244/6. عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء، ص 165-166.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 227/4. زهور أربوح، المرجع السابق، ص 255.

⁵ ابن الحاج، نوازل، 467/3.

⁶ نفسه، 468/3. البرزلي، المصدر السابق، 116/2. الونشريسي، المصدر السابق، 324/4. 182/4. راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 101. زهور أربوح، المرجع السابق، ص 258.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

برعاية ودعم محيطها الأسري من ناحية، واستغلال للنزول لهذه الظرفية من أجل التملص من تبعات النفقة، حتى صار المال هينا إلى جانب ما تقاسيه معه، فكيف كان موقف الفقهاء من ذلك؟.

إن المتتبع للإشارات المبثوثة في النوازل بخصوص الخلع وما يلحق به من حقوق، يقر بحضور وجه المطلقة المنصّفة الذي تمتعت به المرأة في الغرب الإسلامي من قبل الفقهاء والقضاة⁽¹⁾، فتدخلوا من أجل قمع الأنانية الذكورية التي طغت في بعض الأحيان، وإقرارا للحقوق والواجبات، فقد وقفوا في كل مرة ودون تحفظ من الشروط المجحفة على المرأة المطلقة، ملغين كل الشروط غير الشرعية، بما فيها شرط نفقة الزوجة على الولد⁽²⁾، مروراً بحقها في زيارة أولادها من طليقها السابق⁽³⁾، ناهيك عن إثبات حقها في الطلاق عند طول غياب زوجها وانقطاع أخباره⁽⁴⁾، ولاشك أن هذا الدعم كان نظير ما يلحقها من إرهاب مالي ونفسي، وتنصل للزوج من جزء من مسؤولياته، مستغلا إلحاحها على إنهاء رابطة استحالة استمرارها، خاصة أن الولد كان نتيجة علاقة نسجها الطرفان معا.

ويبدو أن الزوجة الجديدة ورسمًا مع ظاهرة التعدد ترى في المطلقة المرأة المخشية التي تشكل عليها خطراً، إذ تتوجس منها، لا سيما لمن لم تنطفئ نضارتها، فتخاف أن تغريه، ويحاول العودة لها، بل وتعمل لها ألف حساب لذلك، ومصادق ذلك ما كانت تشترطه في عقدتها أنه متى راجع مطلقته فهي طالق⁽⁵⁾، ولعل غير المرأة الشديدة، في ظل المميزات المستحسنة في الزوجة السابقة والتي لم توجد فيها، مع وجود أولاد منها، تجعلها تتحسس من كل ما يدور حولها.

وتتبلور صورة الزوجة السابقة النكدة التي استحالة العيش معها، وكيف تخلص من الهم والغم الذي عايشه في حضرتها، وحسبنا في ذلك الصورة التي قدمها لنا ابن سارة الشنتريني (ت517هـ/1123م) عندما قال:

أما الزمانُ فرقَ لي من طَلَّةٍ كانت تُطَلُّ دمي بسيفِ نفاقها

¹ ومع ذلك فيفهم أن الزوجة التي تسعى للطلاق تمثل عارا على زوجها، وعلى أهلها بالأخص، وإلا فكيف نفسر فرار المرأة من قريتها، ولجوءها إلى قاضي المدينة، لتطلب منه أن يُطلقها للضرر، ويبدو أن هذه العقلية كانت منتشرة في المناطق البعيدة عن متناول القضاة، والتي لا تنالها الأحكام الشرعية. البرزلي، المصدر السابق، 245/2. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص102.

² الشعبي، المصدر السابق، ص379. ابن بشتغور، المصدر السابق، ص350-351. ابن رشد، فتاوى، ص297. ابن الحاج، نوازل، 90/2. 406. الونشريسي، المصدر السابق، 14/4-15. 227/4-228. زهور أريوح، المرجع السابق، ص256-257.

³ ابن الحاج، نوازل، 48/2.

⁴ نفسه، 93/2.

⁵ ابن سهل، المصدر السابق، 1/308. ابن الحاج، نفسه، 2/45. البرزلي، المصدر السابق، 79/2.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الذئبة الطلساء عند نفاقها والحية الرقشَاء عند عناقها⁽¹⁾.

وتبدو في بعض الأحيان صورة المرأة المطلقة المنتقمة من طليقها، سيما إذا كان من أهل العوز والخصاصة، فتراها تكلفه بما لا يطيق من أمور الرضاع والنفقة وتسعى إلى إدخاله في دهاليز القضاء لزيادة الضغط عليه⁽²⁾.

وكثيرا ما كان الأطفال يدفعون ثمن العلاقة المتشنجة بين الأزواج السابقين، فترسم في شق صور المطلقة المهملة المعاندة، فقد ورد في نازلة أن امرأة تركت ولدا رضيعا ابن شهرين أو نحوهما عند أبيه فبقي عنده أياما يغذيه بلبن المعزة، لامتناع أمه عن إرضاعه إلى أن توفي⁽³⁾، في حين تجنب في أحيان كثيرة إلى وجه المطلقة المعذبة المشتاقة لولدها، لامتناع الزوج إعطاء الرضيع لأمه وحرمانها منه⁽⁴⁾، وهو ما يظهر في الغالب أن العلاقة بين الزوجين المنفصلين غلب عليها طابع الحقد وحب الانتقام.

وقد تتراكم على رأس المعتصبة الضحية المصائب والنكبات، حيث لا يستشعر زوجها ولا يفهم ما حل بها، بل يزيد من عنائها وعذابها، فيقرر طلاقها، مع أنه أمر خارج عن إرادتها، فقد "سئل عن صبية بكر تزوجها رجل فغصبت على نفسها قبل أن يبي بها زوجها وافتضت فلم يرد الزوج أن يبي بها وذهب إلى أخذ صداقه" وماتدخل الفقيه لانصافها بالزامة جميع الصداق ان كان دخل بها، أو نصفه ان طلقها قبل البناء الا سبيل لهذا التفهم⁽⁵⁾، ويمكن القول بكثير من الاطمئنان أن ملمح العذرية كان له الأولوية في مخيال الرجل ولا يهمه في ذلك أي شيء.

وعلى الرغم مما يشوب الطلاق من حالات كره والانتقام بين الزوجين، خاصة إذا كان بينهما أولاد، فيبدو أن وجه النادمة حضر في عدة حالات، إذ سعت إلى المصالحة قصد مراجعة زوجها السابق⁽⁶⁾، كما لاح تظهر طريف وغير اعتيادي، مفاده تلك الزوجة المطلقة الحنونة بزوجها، فقد خالعت زوجة بعلها، ولما علمت أنه مريض "أتت المرأة لزيارة الزوج، فلما رآته أشفقت عليه من حاله وضعفه من قلة ذات يده وعدم من يمرضه،

¹ ابن بسام، المصدر السابق، 844/2/2. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص 41.

² الونشريسي، المصدر السابق، 44/4-45/4. 47/4.

³ نفسه، 314/2.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، 296-295/1. ابن سلمون، المصدر السابق، ص 138-139 الونشريسي، نفسه، 517/4. زهور أربوح، المرجع السابق، ص 211.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، 130/3. 256/3.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، 288/4.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

فجلست عنده تمرضه وتدخل وتخرج إلى أن برئ"⁽¹⁾، وبعض النظر عن شرعية من عدم شرعية هذا الإجراء، يبقى ملمح الاحترام والعشرة حاضرة لدى المرأة، لا سيما إذا كان الزوج كبيرا وأعياء المرض ولا عائل له.

كما تتخمر في الأفق نظرة متميزة للزوجة المطلقة ملؤها الاعتزاز والاعتراف بفضلها وعفتها وصلاحتها، فهذا الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية يطلق امرأة من قومه لما سئل عن سبب تطليقه لها قال "والله ما فارقته عن خلة تدم، ولكن خفت أن أشتغل بها عن الجهاد"⁽²⁾، ويبدو أن الزوجة الصالحة الطيبة العشرة، والمقصر في حقها في أكثر الأحيان تماشيا مع مشروع الجهاد، أقول هذه الوضعية شكلت إخراجا على بعض الأزواج فاضطرتهم إلى التطليق.

هذا ورغم أن كثيرا من نسوة المتصوفة كن حريصات على التثبيت ببيت الزوجية، حتى في الظروف الصعبة، فإن إرادة الزوج المتصوف في الطلاق كانت أقوى أحيانا من رغبة زوجته، وتورد المصادر مجموعة من الحالات في هذا الباب، تلتقي في نقطة وجه المطلقة البريئة، فأبو زكريا يحيى بن محمد التادلي (ت 576هـ/1471م) عزا طلاقه لزوجته إلى جمالها وخشية الافتتان، حين قال: "أخاف الفتنة من بقائي مع هذه المرأة، فإنها جميلة الصورة، وأرى الدنيا قد أقبلت علي"⁽³⁾، أو يكون الطلاق تحت ذريعة الاحساس بعدم الكفاءة للزوجة⁽⁴⁾، في حين تقاطعت النظرة السابقة مع صورة المطلقة المصدومة وهذا ما حدث مع الشيخ التادلي الذي أرسل صديقين لتطليق زوجته، ذلك لأنه كان عازما على السفر من أجل العلم والعبادة، ولقد استغربت الزوجة من قرار زوجها، وذلك لعدم ارتكابها أي ذنب يستحق التطليق⁽⁵⁾، ليتبلور موقف الزوجة المتفهمة للطلاق، بل ومراعاة مكانة الزوج ومسوغات تطليقه لها، والذي اتكأ على طلب العلم، مع الصلاح والخير الذي عرف به⁽⁶⁾، ولاشك أن هذا الفهم عند بعض الصوفية مرتبط مع طبيعة حياة الزهد التي تتطلب التفرغ وتطليق متع الحياة الدنيا، بما فيها الزوجة.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 334/4. زهور أربوح، المرجع السابق، ص 270.

² ابن الخطيب، الإحاطة، 344-345. مليكة حميدي، المرأة المغربية، ص 129.

³ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 246. محمد لطيف، المرجع السابق، ص 121. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص 22.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 284/1. ابن الزيات، نفسه، ص 180. الونشريسي، المصدر السابق، 286/3. محمد لطيف، نفسه.

⁵ الصومعي، المصدر السابق، ص 113.

⁶ الصومعي، المصدر السابق، ص 113.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ومن المرجح أن المطلقات استفدن من المنشآت الاجتماعية التي بناها وقام عليها بعض المحسنين لرعاية وإيواء المحتاجين والفقراء، فقد " سئل فقهاء قرطبة عن هدم السقائف والدور الموقوفة لسكنى الضعفاء بقرب جامع قرطبة"⁽¹⁾، إضافة إلى الدور التي كان يجلسها الصالحون في عصر المرابطي لسكنى المطلقات ممن لا أهل لهن ويعرفن بصالحات النساء⁽²⁾ ولا شك أن ذلك مراعاة لعوزهم وفقدهم واحتياجهم، تقربا إلى الله تعالى وطلباً لمرضاته.

ب- الأرملة:

تعددت النظرات نحو المرأة التي مات عنها زوجها على قلة حضورها في المتون التاريخية، وبالبرغم من تفضيل كثير من المجتمع للمرأة البكر؛ لم يجد بعض الرجال غضاضة في الزواج بالمرأة الثيب، والتي قد تكون أرملة، خصوصا ممن إجتمع فيهن صفة الجمال والمال مع المكانة الاجتماعية، وقد يعود بدرجة أقل إلى الخبرة الجنسية التي اكتسبتها وتجاوزها العوائق التي تعترض البكر في هذا المجال، وحسبنا في ذلك الأمير أبو الطاهر تميم المرابطي قد تزوج حواء بنت تاشفين بعد وفاة زوجها⁽³⁾، فالأرملة امرأة قدر لها أن تفقد زوجها في مرحلة من مراحل حياتها، وهذا أمر طارئ لا يمنعها من ممارسة حقها في الحياة. في حين جثمت النظرة التشيئية لها في المجتمع اليهودي بإجبارها على الزواج من شقيق زوجها المتوفى في حال لم يكن لها منه ولد⁽⁴⁾، وهو ما من شأنه أن يحفظ ثروة المتوفى من الشتات، ولملة أسرار العائلة، وينهض في نفس الوقت على فقدان شخصيتها وحريتها.

وتظل النظرة إلى الأرملة مخفوفة بالحذر والشك وفي ذلك قال شاعر:

يا بْنَادِم نَوَّصِيكَ لا تَغْوِيكَ الهَجَّالَة

تَعْرِيكُ وَتَرِيَّيْكَ وَتَخْلِيكَ فِدْرَبَالَة⁽⁵⁾

وعلى النقيض من ذلك، ونتيجة وضعها المزري تلقفت الأزجال صدى الحروب وما خلفته من ملامح الأرملة التعيسة؛ إذ أصبحت النسوة تعاني بسبب عدم الاستقرار الذي عرفته الفترة، وخروج الرجال إلى ميدان الحرب وموتهم هناك، ويلخص ذلك ابن قزمان متأسفا في قوله⁽¹⁾:

¹ الونشريسي، المصدر السابق، 220/7. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص 17.

² ابن سهل، المصدر السابق، 735/2. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا، نفسه.

³ ابن رشد، فتاوى، 1223/2. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 98.

⁴ حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية، ص 218.

⁵ محمد ياسر الهاللي، المرجع السابق، ص 82.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

وَالرِّبْضُ لَا شَيْخُوحَ وَلَا حُجَّاجَ

وَأَرَامِلَ مَلَاحَ بِلَا أَزْوَاجَ

وتردد في جانب آخر نظرة الاحترام إلى الأم الأرملة التي ورغم صعوبات الحياة تسعى إلى الدفع بأبنائها لتعلم حرفة ينتفع بها⁽²⁾. ولعل في الانتساب لهن ولحرفهن ولو كانت على بساطتها وجه لهذا التميز السالف الذكر؛ فهذه والدة الشاعر أبو محمد بن عيسى الداني والذي عرف واشتهر بابن اللبانة، البائعة المكافحة، والأم القدوة والمثلى في وجدان مجتمعهما، تتحمل بكل شجاعة مسؤولية تربية أولادها، وتوصلهم إلى المراتب العليا، فقد "كانت امرأة برزة فارسة دكان، وصاحبة مكيال وميزان، وعلى ذلك فقد كانت امرأة صدق، وفي حرفتها على ما بلغني صاحبة حق، مشغلة ببيع لبنها، مقبلة على ما يعينها من حال زمانها، حتى غلب اسم اللبن عليها، ونسب أولادها إليها"⁽³⁾، ولا شك أنه انعكاس صورتها الجيدة كأم واعية وحريصة على قوت أولادها في غياب المعيل، فاقتن أشهر أولادها الشعراء بعملها، نتيجة ماشاع من انتساب الأشخاص لأصحاب أسرهم.

وتبدو صورة الأرملة في بعض الأحيان عند أهل الفقيده كمنع لعدم الوفاء وضرب من التمرد والخيانة، وإن كانت مغلفة بطابع مصلحي، وزاد من وقع ذلك بأن أقر بعض الفقهاء بضعفها وعدم ملك أمرها إن هي تزوجت ثانية، فقد كان أهل الزوج الفقيد يلاقون حججا وأعدارا لحرمها من إعادة الزواج، وتركز ذلك في الأرامل اللاتي لهن أولاد من أزواجهن المتوفين⁽⁴⁾، مع أن الإسلام راعى الفطرة ولم يمنع إعادة ارتباطها بعد انتهاء العدة، خاصة إذا كانت في مقتبل العمر، ويمكن التخمين أن الموقف السابق مرتبط ببقاء ثروة الزوج داخل نطاق العائلة، وتجارب وقضايا مماثلة مرت على مثل هؤلاء الفقهاء الذين إعتاد الناس استفتاءهم.

ثم إن ساكنة الغرب الإسلامي كانت حريصة على تحضيرات حفل الزفاف، حتى ولو رافق ذلك بعض مظاهر الطيرة، ومن أهم أشكالها أن لا ترافق الأرامل موكب العروس باعتبار حضورهن نذير شؤم⁽⁵⁾، ولا بد أن ذلك مقترن بعقلية مجتمع الغرب الإسلامي التي تتطير من حضور بعض الأفراد من قبيل الأرملة والتي مات

¹ ديوان ابن قزمان، المصدر السابق، ص 268.

² المراكشي، وثائق المرابطين، ص 513. ابن الزيات، المصدر السابق، ص 459.

³ ابن بسام، المصدر السابق، 3/667. ابن سعيد، المصدر السابق، 2/209. صلاح خالص، المرجع السابق، ص 92. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 178.

⁴ ابن رشد، فتاوى، 3/1150-1151. الونشريسي، المعيار، 9/412.

⁵ سناء الشعيري، المرأة في الأندلس، ص 105.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

زوجها في حضرتهما؛ مما ينغص حسبهم فرحة العمر. وكأنها سبب في ذلك، مع أن وفاة الزوج قدر الله، وليس لها أي ذنب فيه، فيزيدون في معاناتها لكونها بلا زوج.

وتوافينا الروايات التاريخية بتمثل الاحتقار والازدراء للأرملة المرتدة عن دينها، فقد تزوج أشهر ملوك قشتالة وليون في القرن الخامس ألفونسو السادس من كنة المعتمد بن عباد⁽¹⁾ المسماة سيدة أو زائدة (Ceida) (Zaida la Mora) وذلك بعد أن قتل المرابطون زوجها، ولم تلبث أن أصبحت زوجة شرعية لألفونسو السادس بعد أن تنصرت وأصبحت تدعى إيزابيلا أو ماري وأنجبت له ابنه الوحيد دون شانسو⁽²⁾، ولعل فعلتها هذه كانت حقدا على قاتلي زوجها من المرابطين، أو قد تكون إحدى إفرازات ظاهرة الجواني المنتشرة عصرئذ واللاتي لم يتعمق الإيمان في قلوبهن.

ثالثا- صور متفرقة عن صورة المرأة في إطار العلاقات المجتمعية:

لابد من الإقرار المسبق أن هذه الجزئية متقاطعة مع بقية الفصول بوجه عام، إلا أن الميزة الأساس فيها تتمثل في رصدتها للمواقف والرؤى التي تشكل نقاط الالتقاء المبتوثة في العلاقات المجتمعية للغرب الإسلامي سواء كانت أما أو أختا أو قريبة وزوجة، أو التي لم يعرج عليها سابقا، بسبب إملاءات السياق المنهجي.

1- المرأة المغوية:

اعتبرت الأوساط الشعبية المرأة عموما مصدر شقاء وتعاسة، لأن "الجهل والخطأ في النساء كثير"⁽³⁾. فعمل على رفضها واعتبارها كائنا يجب نبذه والابتعاد عنه لا تستحق إلا الازدراء والتحقير⁽⁴⁾. كما نظر بعض الفقهاء للمرأة على أنها شيطان لا في حقيقته، بل لتماثلهما في الإغواء، فهي ملازمة لصفة الفتنة والكيان

¹ حول هذه القضية التي اختلفت في صفتها ومسارها في أحداث أواخر الدولة العبادية انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، 50/4. ليفي بروفنسال، الإسلام، ص153-155. 160. يوسف أشباح، المرجع السابق، ص100.

² الونشريسي، أسنى المتاجر، ص63-64. ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص153-155. 160 محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص345. يوسف أشباح، المرجع السابق، ص100.

³ ابن عبدون، المصدر السابق، ص46. محمد ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص85.

⁴ مثل قول الأمثال: "مَسْمَارٌ فَالْحَيْطُ وَلَا مَرَا فِي الْبَيْتِ". علي أرفار، المرجع السابق، ص62. محمد ياسر الهلالي، نفسه، ص84. ونفس النظرة كانت ماثلة عند جمهور العامة في المشرق عصر الدراسة وجدان حسن العزايزة، المرجع السابق، ص112. 115. وكانت أكثر تخمرا في الغرب الأوربي في العصور الوسطى. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص201.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الناقص العقل والدين وقرنوها بالعوام⁽¹⁾، لذا بات الوثوق بها من الأمور الغريبة، ولو كانت من أقرب المقربين للرجل⁽²⁾. فليس غريبا أن تكون الدية لا غير، عقاب من قتل زوجته بعد ضبطها مع آخر في فراشهما الزوجية⁽³⁾، ولاغرو أن هذا التفسير يعود في كثير منه إلى ذهنية فقهية متراكمة، ولدت استهجانا لمكانة وحظوة المرأة، زاد بروزها في كتب الحسبة والفقه وبعض الفتاوى الشرعية، فلقد كانت حرية المرأة في الأندلس منطلقا للانعقاد، مكرسة بذلك صورة المرأة القائمة والناقصة العقل والدين، والتي استغلت حريتها لأغراض مخالفة للشرع والأعراف الاجتماعية، فتصوروها وصوروها في أغلب الأحيان مخلوقا خبيثا همه الدس والكيد والإغواء، لا يسعى إلا لإرضاء شهواته وإشباع رغباته، وفي هذا الصدد يقول ابن الحاج العبدري "وحيلهن في هذا وغيره قل أن تنحصر"⁽⁴⁾، ولا يجب أن يفهم من هذا أن الصفات السابقة كانت ديدن كل النسوة وملازمة لهن في كل الأحوال، وبالتالي لا بد من حملها على المرأة أيا كانت، بقدر ما تعبر على تمثيلات لقطاع من شرائح المجتمع.

ويحذر ابن قزمان من الوقوع في حبائلهن، ناصحا في الوقت ذاته بالابتعاد عنهن قدر المستطاع، ربما على صورة المرأة الشيطان المغوية، لأن الغدر وقلة الأمانة حسبه طبع متأصل فيهن لا يمكن أن ينمحي بسهولة، وهو ما أدى إلى خوفه منها، ويجمع هذا في قوله⁽⁵⁾:

النِّسَاءُ كَمَا فِي عِلْمِكَ الْهَرُوبُ مِنْهُمْ غَنِيمَةٌ

لَسْ نَرَى لَوْحَدَ مِنْهُمْ مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا قِيَمَةٌ

¹ النونريسي، المصدر السابق، 42/11. 307/3. النفزاوي، المصدر السابق، ص94. علي أفرار، المرجع السابق، ص16. الصحي بن منصور، المرجع السابق، ص44. لذا فقد تجاوز مفهوم المرأة الفضلى لا سيما الزوجة، عند بعض الصوفية عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، منطلقين من فهمهم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾. سورة التغابن، الآية14. ومتداولين بالمعنى الحرفي ودون إعطاء وزن للسياقات التاريخية لقوله صلى الله عليه وسلم: "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن". البخاري، المصدر السابق، 87/1. (كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات). فيحاول العديد منهم استبدال المرأة الواقعية بأنثى مثالية منزهة من كل ما هو دنيوي، مجتهدين في بحثهم عن المرأة النموذج التي لطالما صوروها من خلال الكرامات في الحور العين، وهذه الأنثى حسب ما يفهم تستجيب لمواصفات المرأة المثالية التي يطمح الرجل الصوفي للظفر بها، والتي زارته في منامه وتحلت له في أحلامه، وعلى الرغم مما يحمله هذا النوع من الكرامات من دلالات ومضامين رمزية، فإنه ومن المؤكد أن هذا النموذج المثالي لا يوجد إلا في مخيلة الولي. ابن الزيات، المصدر السابق، ص271. 326. محمد لطيف، المرجع السابق، ص82. محمد ياسر الهاللي، المرجع السابق، ص90-91.

² جاء في الأمثال قولهم: "ليس فالتسا خير ولا فمي". الزحالي، المصدر السابق، 280/2.

³ ابن الحاج، نوازل، 521/3.

⁴ ابن الحاج، المدخل، 17-16/2. علي أفرار، المرجع السابق، ص16-17.

⁵ ابن قزمان، المصدر السابق، ص281. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص160.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ثم إنهم لا عهد لهم ولا ميثاق، وفوق كل ذلكم يصرون عليك بمطالبهم ومتطلباتهم، ولو كنت في ضيقة من أمرك، لذا نصح الرجال باستعمال الشدة والعنف معهن، ولعن كل من يعامل المرأة بلباقة وعلى أسس الحوار عندما يقول⁽¹⁾:

لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَعَامِلُ لِمَرًا بِمَيْتٍ فَلْيَقَّة

ومن القضايا التي عرضت على القضاة عصر المرابطين والتي تؤكد وجه المرأة الباهتة للرجال، الواجب الحذر منها لتأصل الشر فيها، انسجاما مع وجه المرأة الشيطان، ادعاء بعض النسوة بالاغتصاب على رجال بعينهم، رغم كونهم صلحاء خيريين، وما العقوبة المضاعفة إلا خط لدرء فسادها⁽²⁾، ولا بد من التأكيد على عدم الوقوع في التعميم، لأن هذا ليس ديدن كل النسوة، على الرغم تعاطيه من بعض النسوة الدنيئات الذين يصطادون الخيرين لابتزازهم مقابل سمعتهم.

في حين عدت في وجدان بعض المفكرين رمزا للعطالة، فهذا ابن رشد الحفيد يعتبرها عبءًا على المجتمع و يتشاءم منها، لأنهن حسب سبب الفقر والعوز في المجتمع، لعودهن عن الإنتاج مثل الرجال⁽³⁾.

2- المرأة المساحقة - بين الحرمان والتطرف الجنسي - :

من الطبيعي أن تقوم علاقة جنسية بين الرجل والمرأة في إطار الحدود التي أقرها الشرع، لكن في بعض المخطات تظهر سلوكات تخرج العلاقة عن المألوف، من قبيل اشتهااء الجنس وممارسته بين المرأة والمرأة، أو ما يعرف بالسحاق، والذي يندرج فيما يعرف بالانحراف الجنسي، والحقيقة أنه يصعب علينا تقفي أثر هذه الممارسة، بسبب الغموض الذي يلفها كظاهرة خفية سكنت الاستوغرافيا التاريخية عن ذكرها من باب النبذ الاخلاقي والاجتماعي⁽⁴⁾، ترتبط بالجسد الأنثوي الذي أحاطه كل الخطاب الديني والمعتقد الشعبي بقدسية وهالة بالغة، لذا فان الصور المبتوثة في هذا المجال والتي كانت عصارة مارشح في متون المصادر، لا تتضمن أحكام مطلقة في هذا الموضوع، بقدر ماهي انطلاقة لولوج هذا الموضوع الممنوع.

¹ ابن قزمان، المصدر السابق، ص282.

² محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص275.

³ ابن رشد الحفيد، الضروري، ص125.

⁴ ومن الممكن أن هذا السكوت يعبر عن الاستيحاش والاستنكار والنبذ لهذا الفعل ومحاوله مواراته.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعي الاجتماعي

ولهذا فقد تعرضت بعض النوازل في إطار الحديث عن مفاصل الزمان وانحياز القيم عن هذه الظاهرة، ولاقت كل تنديد وإنكار من لدن الفقهاء والعلماء، موكلين بطريقة العقوبة للامام، ولعل وجه المرأة الشاذة كان وراء مجموعة الاقتراحات الكفيلة في نظرهم للزجر والعظة، والتي تراوحت بين " الضرب خمسين خمسين أو نحوها" أو " تجلدان مائة مائة" إلى محاولة تطويق الظاهرة بمنع المساحقة " من المواضع الموهومة أن تخرج إليها، وإن تعاصت عليه جعل عليها أمينا ذات محرم، وإن لم ينفع ذلك فيها قيدها في داره"⁽¹⁾، لكن هل كانت هذه الاجراءات كفيلة بتجفيف منابع السحاق؟!، والذي يبدو أنه ارتبط بتحويلات المجتمع الاجتماعية والاقتصادية من شيوع للترف والمتعة، ووفرة من الجوّاري ودوائر البغاء، وانعكاسه على كساد النسوة وعطالتهن الجنسية⁽²⁾، ثم هل تعلق عطفًا على المعنى السابق بالجوّاري فقط؟، أم أن الأمر تعلق بعقد نفسية وميولات شاذة؟.

أما عن أماكن انتشار الظاهرة، فلا يستبعد أن تكون الحمامات إحدى الأماكن الموهومة -حسب البرزلي- التي وفرت ظروفًا لنمو صورة المرأة الشاذة، بما توفره من فرص مناسبة لممارستها، من خلوة وأحادية جنسية، وطول مكوث⁽³⁾، مع منظر الأجسام العارية، وما تثيره من انفعالات شهوانية⁽⁴⁾، بل بلغ الاستنكار أشده من لدن صلحاء المجتمع على النساء الموسرات اللاتي أفنين ثروتهن في سبيل هذا الفعل المحل بالحياء حسبهم⁽⁵⁾، ويمكن التخمين أن إرادة استمرار النسل، والمنتفية في العلاقة الثنائية بين المرأة والمرأة، مسوغ محوري في استنكار الظاهرة، وعملة لبروز وجه المعطلة لنواميس الطبيعة، فالسحاق والحالة هذه يمثل هتكا للنظام الطبيعي للمرأة القائم على الخصوبة والإنجاب⁽⁶⁾، وهو المعيار الذي تتفاضل به النسوة في الغرب الإسلامي وغيرها من الدول حتى اليوم.

¹ البرزلي، المصدر السابق، 159/6. الونشريسي، المصدر السابق، 505/2.

² ابن حزم، رسائل، 217/1-219. التيفاشي، المصدر السابق، ص 236. ابن بسام، المصدر السابق، 70/1/3. ابن عذارى، المصدر السابق، 57/4. 81/3. المقرئ، المصدر السابق، 23/7. 81/3. مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية، ص 234.

³ ولعل رصد الأمثال الشعبية لذلك بنوع من الاستنكار عند قولهم: " مَشَتْ لِلْحَمَامِ غَابَتْ سَبْعَ أَيَّامٍ " معبر لذلك. الزجلي، المصدر السابق، 338/2.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 505/2. هنري بيرس، المرجع السابق، ص 302.

⁵ التيفاشي، المصدر السابق، ص 237.

⁶ جاء في الأمثال الشعبية " لَا وَلَدٌ وَلَا تَلَدٌ وَلَا مِنْ يَدُورُ فَالْبَلَدُ " الزجلي، المصدر السابق، 458/2.

3- المرأة الكبيرة:

تلعب المرأة الكبيرة دورا متعظما في نطاق الأسرة وعلاقاتها القريبة والبعيدة، لهذا لا نستغرب إن تعددت صورها انطلاقا من هذه الفعاليات، فقد حظيت المرأة العجوز عند يهود المغرب بسلطة متزايدة، لتمثلها في وجدان طائفتها بالمرأة الحكيمة⁽¹⁾، ويبدووا ذاك مقتننا بمحور الأولاد والذرية والأسرة الممتدة التي تكون فيها صاحبة الكلمة المسموعة لحكمتها وتجربتها. ويبرز مرة أخرى نموذج العجوز الخيرة التي وضعت نصب عينها ستر أكبر قدر من الصبايا المحتاجات، والقيام بشورتهن، أو ترشيحهن للزواج ممن تعرفنه من الرجال⁽²⁾. واستمرت مع الجدة الكبيرة سمة الحنونة العظوفة على حفيداتها⁽³⁾، في حين خطت سمة المسنة البركة في أعين الخاطبين الجدد، وقطاع ممتد من الأسرة، حيث كانت مهمة الخطبة توكل في غالب الأحيان إلى النساء المسنات رغبة في حب الخير لهن⁽⁴⁾، ولاشك أن عوامل أخرى ساعدت على حيابة هذه الثقة والميزة، فاحترام كبار العائلة المخطوبة أوكد، كما بجانب إتقان فن التحدث والإقناع بفعل تراكم خبرات الحياة دورا هاما في إسناد هذه المهمة لهن⁽⁵⁾، ولعل احتمالية النصح من المرأة المسنة أورد، ثم إن عينهم عين خبير لا تخطئ في غالب الأحيان، إذ تستطيع رصد نقاط الحسن والجمال عند المخطوبة، سواء من الناحية الجسمية أو النفسية أو حتى الانفعالية للبنات التي سيقومون بخطبتها، ويبدو أن أخذ مسنة إلى الخطبة ينم على جدية المسألة ووعي الأسرتين بجسامة هذه المسؤولية.

ومع ذلك فقد وقف عدد متزايد من العامة موقف التحوط والحذر من العجائز المشبهات بأعمال لا مشروعة أو المنطوية على سمة الخبث، والشمعة التي أطفئت عليها كل الشرور والمصائب⁽⁶⁾، نتيجة ما يصدر

¹ حاييم الزعفراني، المرجع السابق، ص71.

² ابن حزم، رسائل، 1/ 165. الونشريسي، المصدر السابق، 366/1. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا، المرجع السابق، ص43. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 179. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص270.

³ ابن الحاج، نوازل، 59/2.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 3/ 121. محمد عبد الوهاب خلاف، نفسه. رواية عبد الحميد شافع، نفسه. عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس، ص330.

⁵ الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص269.

⁶ جاء المثل ليصور ذلك في قولهم: "إذا ريت اعجوز، اذكر الله وجوز". الزجالي، المصدر السابق، 2/ 12. ابن حزم، رسائل، 1/ 141-142. التيفاشي، المصدر السابق، ص 76. النفزاوي، المصدر السابق، ص55. سليمان القرشي، المرجع السابق، ص128.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

عنهن من شر دون مراعاة لسنهن⁽¹⁾، أو رغبتها في الظهور صغيرة والإتيان بأمور لا تتناسب وسنها⁽²⁾، لذا لم تجدن أي تعاطف معهن، بعد أن لم يبق فيهن رجاء⁽³⁾، فلم يرحمها حتى في أرذل العمر، ووضعوها موضع الشيطان الذي يجب التعوذ منه لإبعاد شرهن، ولعل الدهاء والشر الذي اشتهرن به، وبطالتها وتفرغها من كل شيء معلم لهذا التوجس.

وببروز تيار التصوف وتوسعه في الغرب الإسلامي، وشموله الرجال كما النساء أواخر عصر المرابطين، تطفوا على السطح نظرة التعجب والاستغراب من العجوز الولية، التي كانت إلى جانب كراماتها الاستشفائية " امرأة كهلة مخضوبة اليدين والرجلين بالحناء، وإذا رآها من لا يعرفها لم يظن أنها من الأولياء"⁽⁴⁾، فهي بذلك انعكاس لنبض المجتمع، ومثال على اعتناء المرأة بجمالها ونفسها، ولو كانت من العجائز الأولياء. ومع نفس التيار يرتسم وسم العجوز الأمة المعينة على الدنيا وغير المغوية في نظر طائفة من الزهاد، إذ سعت هذه الشريحة إلى ابتياع " عجوز من الخدم تطحن له ما يأكله الصالحون"، بل بذل في سبيل ذلك مبلغا محترما لاستيفاء هذا الشرط⁽⁵⁾، ولاشك أن الشباب هنا مقرون بالغواية، خاصة أنه رجل صالح زاهد.

وترتفع في حقل آخر حدة الحزن والأسى عند العجوز الشاعرة لينقشع وجه المرأة الكبيرة الضعيفة، وحسبنا في ذلك مريم بنت أبي الأنصارية التي رسمت آلام الشيخوخة وهمومها، بتصوير ضعفها وهوانها بطريقة مفعمة باللوعة والتحسر بيتين من الشعر فتقول⁽⁶⁾:

وما تَرْتَجِي مِنْ بِنْتٍ سَبْعِينَ حِجَّةً وَسَبْعِ كَنْسَجِ الْعَنْكَبُوتِ الْمُهْلَهْلِ

تَدِبُّ دَيْبَ الْطِفْلِ تَسْعَى إِلَى الْعَصَا وَتَمْشِي بِهَا مَشْيَ الْأَسِيرِ الْمُكْبَلِ

فالكبر والشيخوخة محطة مرادفة عند المرأة للعجز والضعف، مع اكراهات الاستعانة بالغير.

¹ قيل: " شَابَتْ وَمَا تَابَتْ". الزجاجي، نفسه، 434/2.

² وجاء في الأمثال العامة: " ذَيْبُ كَنْ أَتْنَبَهْتُ جَدِّي لِثَقْبِ اذْنِيهَا". نفسه، 217/2.

³ وذلك عند قولهم: " عَجُوزٌ قَرُوبٌ، مَا تَسْوَى خُرُوبٌ". نفسه، 377/2.

⁴ ابن الزيات، المصدر السابق، ص 237.

⁵ نفسه، ص 224. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 377.

⁶ الحميدي، المصدر السابق، ص 600. الضبي، المصدر السابق، 729/2-730. ابن بشكوال، المصدر السابق، 325/2-326. المقرئ،

المصدر السابق، 291/4. حياة قارة، المرجع السابق، ص 71. الشكعة مصطفى، المرجع السابق، ص 167. سليمان القرشي، المرجع السابق،

4- صورة الجسد الأنثوي -ثنائية المتعة والخطيئة:

تعكس الصيغ الوصفية التي درج عليها بعض أطراف المجتمع على رسوخ أفكار ومعتقدات تتعامل مع الجسد الأنثوي كموضوع للشهوة الذكورية وفضاءً لنشوته⁽¹⁾. فكان الاختلاط وخروج النساء إلى الشوارع والأسواق والمنتزهات مظهرا آخر لتوظيف الجسد؛ فمن الواضح مثلا أن الأنعلة النسائية بمختلف أشكالها وأنواعها لاقت رواجاً، ومن أهمها الخفاف الصرارة التي يلمح معها الإعلان عن الجسد الأنثوي، لترسم بموجبها صورة الجسد المغوي، لما تحدثه من صوت عند تنقلهن في الشوارع والأسواق، فالأجدر حبسها في منزلها وضرب الحجب عليها، حتى لا تحرك من حيث لم تخطط لشهوة الرجل الغريب عنها، لينضح من كل هذا وسم المطموسة⁽²⁾، تماشيا حسبهم مع باب سد الذرائع. بل تمددت نظرة الشك هذه إلى حضور الصلوات، فرسما على صون جسد المرأة؛ لم يجد بعض الفقهاء غضاضة من منع الشابات من حضور صلاة الجمعة⁽³⁾. ولعل ذلك ما يفسر حضورها الطاغي في الأدب، سيما في الشعر⁽⁴⁾، منحدرًا في بعضه إلى حد الخلاعة، فيه من الوصف لأعضاء الأنثوية حد التفصيل، وفيما نظمه ابن حمديس الصقلي تمثل لذلك عند قوله⁽⁵⁾:

وناهدة تَرَبَّتْ كَفُّهَا ترائبها بسَحِيقِ الْعَيْرِ
تَصُونُ عَلَى الْقَطْفِ رُمَانَةً من النهْدِ فِي غُصْنِ بَانَ نَضِيرِ
لَهَا وَجَنَةٌ صُقِلَتْ بِالنَّعِيمِ وَنَاطِرَةٌ كُحِلَتْ بِالْفَتُورِ
وَتَبْسُمُ عَنْ أَقْحَوَانِ تَرْيَكٍ عَلَى نَوْرِ الشَّمْسِ إِشْرَاقَ نُورِ

¹ السقطي، المصدر السابق، 49. 51. الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص 19. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص 180. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 188. صلاح خالص، إشبيلية، ص 92.

² يحيى بن عمر، المصدر السابق، ص 126. ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 83. الونشريسي، المصدر السابق، 420/6. محمد ياسر الهاللي، المرجع السابق، ص 77. -الصحي بن منصور، المرجع السابق، ص 47.

³ إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص 43. محمد ياسر الهاللي، نفسه، ص 80.

⁴ رغم المراتب التي قد يوقعنا فيها هذا الفن، لأن اللمسة الذاتية في القصائد لابد أن تكون حاضرة، كما أن خيال الشاعر أحيانا جاب في عوالم قد تبتعد عن الواقع، ورغم ذلك فيظل الشعر مصدرا غنيا لتمثل معنى الجسد الأنثوي.

⁵ ديوان ابن حمديس، ص 179.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

وفي مؤشر ظهور واسترسال فن الغراميات ملمح على الاستهتار ونظرات الشهوة للجسد الأنثوي، وتصريح بما يدور بين المحبوب ومحبوته من مشاهد حسية مثلما جاء في شعر ابن خفاجة:⁽¹⁾

تُسَافِرُ كِلْتَا رَاخَتَيِّ بِجِسْمِهِ فَطَوْرًا إِلَى خَصَرٍ وَطَوْرًا إِلَى نَحْدِ

فَتَهْبِطُ مِنْ كَشْحِيهِ كَفِّ تِهَامَةٍ وَتَصْعَدُ مِنْ تَهْدِيهِ أُخْرَى إِلَى بَحْدِ

وَقَدْ مِلْتُ مِنْ تَقْيِيلِ خَدٍّ إِلَى فَمٍ أَقُولُ بِتَفْضِيلِ الْقَرَّاحِ عَلَى السَّوْدِ

إضافة إلى من اهتم بوصفها جسدها الخارجي، فكان يرى فيها الجمال الأخاذ، فهذا ابن قزمان الذي قرن المرأة بالشر وألصقها بالمكر والخديعة، ثم تراه يتغزل بمحبوبته، ويصفها وصفا حسيا⁽²⁾، ففمها جميل صغير، ولعابها حلو، ولثمها حسبه يدخل الجنة عندما يقول:⁽³⁾

فَمَا صَغِيرٌ وَلَعَابًا حَلٌّ

كَتُضْمَنَ الْجَنَّةَ لِمَنْ قَبْلُ

ثم هاهو يذوب مرة أخرى في مظهرها وينوء إلى قربها ومن ذلك قوله⁽⁴⁾:

نَعَشَقُ مَلِيحٍ مِثْلَ الْقَمَرِ

يَمْرَحُ بَعَيْنَيْهِ الْحَوَرِ

بِشَعْرٍ أَسْوَدَ كَالْقَدَرِ

وَوَجْهًا أَبْيَضَ كَاللَّبَنِ

ومن جهة أخرى؛ لم يغب عن خلد ابن الخطيب وهو يعدد محاسن غرناطة، أقول لم يغب عنه التعرّيج لبعض الملامح الأنثوية لنساء تلك المنطقة، وإن كانت أقل استهتارا وأكثر واقعية من سابقه، راسما معها نظرة

¹ ديوان ابن خفاجة، ص349. ابن بسام، المصدر السابق، 589/2/3.

² تجاوز هذا التعزل بالجسد ومفاته إلى المسيحيات القاطنات بالأندلس. انظر في ذلك: ابن بسام، المصدر السابق، 705/2/1-706. عبادة كحيلة، المرجع السابق، ص165. حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية، ص211.

³ ابن قزمان، المصدر السابق، ص127-128.

⁴ نفسه، ص445. وانظر كذلك ص414-415. 268-269. المقرئ، المصدر السابق، 297/4. محمد ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص92.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الإعجاب والتمتع بالجسد الأنثوي⁽¹⁾، فالجسد الجميل والحالة هذه مصدر افتخار واعتزاز من الرجل، كما هو منبع للذة والمتعة.

ومع دخول المرأة الجارية في حلقة الدورة الاقتصادية وقانون العرض والطلب بشكل لافت، على اعتبارها من أهم السلع المتاجر بها، تخمرت صورة الجسد المستطاب، فقد كان لزاما على التاجر أن يظهر الجسد الجميل وملامح الأنوثة في بضاعته في أحسن طلة وأبقى حلة، ضمانا لتسويقها، ولو اضطره الأمر إلى استعمال مستحضرات وكريمات تخفي العيوب وتبرز المحاسن⁽²⁾، تماشيا مع رؤية الجسد الجميل عند جمهور زبائنه، وهو بالتالي رأسمال رمزي له قيمته وجدواه، ومع ذلك فهو جسد من أجل الآخر لا للذات. لذلك لا نجد غرابة في ربط إقبال المغاربة على عبيد السودان الغربي خلال فترة الدراسة بالجمال عند التعرّيج على العلاقات التجارية، فقد أفاضت المصادر في الثناء على جوارى مدينة أودغشت ووصف جماليات جسدن مبرزين إعجابهم الشديد الذي يصل إلى درجة الانبهار باعتبارهن "جوار حسان بيض الألوان، مائسات القدود، لطاف، ضخام الأرداف واسعة الأكتاف، ضيقات الفروج، المستمتع بإحداهن كأنما يستمتع ببيكر أبدا، من غير أن ينكسر لإحداهن ثدي طول عمرها"⁽³⁾، فجمال جوارى أودغشت وأنوثتهن كانت سبب الإقبال عليهن.

ولعل هذا الولع بالجسد وحسن مظهره كمعيار للجمال حسب فهم النساء أنفسهن، أقول هذا الولع مدخل مركزي في تتبع الجسد الخطيئة وظاهرة التسمين التي انتشرت في الغرب الإسلامي، حتى لو أدت إلى الوقوع في مخالفة شرعية⁽⁴⁾. ولا يعني أن هذا التفهم للجسد الخطيئة هروبا منه، وبغضه وكراهيته وغياب الرغبة فيه، بقدر ما يخمن في خفاياه حدة واشتداد الرغبة في جسدها، ويكفي للدلالة على راحة هذا التخريج في متخيل الرجل، ما رواه الإدريسي أن من بين الأحجار المنتشرة في الساحل الأطلسي للمغرب أنواع "يمسكها

¹ وأجمل وصفن بقوله: "وحريمهم حريم جميل، موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات...". ابن الخطيب، الإحاطة، 139/1. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص 54.

² ابن العطار، المصدر السابق، ص 285. ابن بطلان، المصدر السابق، ص 379-380. الشعبي، المصدر السابق، ص 119. السقطي، المصدر السابق، ص 50-51. المقرئ، المصدر السابق، 144/1. صلاح خلاص، اشبيلية، ص 97. دندش، الأندلس، ص 204-205. كمال السيد أبو مصطفى، مألقة، ص 74. حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية، ص 374-375.

³ البكري المصدر السابق، ص 157. مجهول، الاستبصار، ص 215. الحميري، المصدر السابق، ص 54.

⁴ الإدريسي، صفة المغرب، ص 61. ابن اللخمي، المصدر السابق، ص 428. البرزلي، المصدر السابق، 183/2. 273/2. ابن الحاج، المدخل، 60/2. 63/2. مؤلف مجهول، كتاب الطيخ، ص 184. الونشريسي، المصدر السابق، 487/2-488. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص 53.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الماسك بيده ويشير على من شاء من النساء ... فيتبعه، ومثل هذه الأحجار عندهم كثيرة وهم بالرقى عليها مشهورون وبه معروفون⁽¹⁾.

هذا وقد خلف مشاركة الشاعرة الأندلسية في الحياة العامة خلف معه توظيفاً للجسد وقوته الاغرائية، فغدت المرأة طالبة لا مطلوبة، ورمزا للجسد الجميل المعبوث به عن رضا منها وقناعة، فهذه ولادة بنت الأكابر تجعل من طراز ثوبها إعلاناً عن استباحة الجسد حينما كتبت بالذهب على الطراز الأيمن:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية تيهي

وكتبت على الطراز الأيسر:

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلي من يشتهيها⁽²⁾.

كما أن النظرة بازدراء إلى الجسد الأسود من صاحبة الجسد الأبيض رافد آخر من روافد الاعتزاز بالجسد في وجدان المرأة ذاتها، تمثل استيهامات شكلت خصائص عتيقة للجسد الأنثوي في الثقافة العربية الإسلامية، فها هي ولادة تعاتب محبوبها على تفاعله مع جارية سوداء بعد أن أعجب بفصاحتها وشعرها، ظنا منها أنه هواها⁽³⁾، ولا يعني هذا نوعاً من الميز العنصري، بقدر ما هو غريزة في المرأة المحبة لحبيبها والتي تغير عليه، أو هو بالأحرى عتاب إلى حبيبها أكثر منه تعريض بالجارية السوداء، فتتمنى ألا يتطلع لغيرها، ولا يعيش إلا لها، فما بالك بجارية ذات بشرة سوداء.

ويستمر تفهم قوة وسلطة الجسد من المرأة نفسها عند زهون القلاعية التي دخلت مع شعراء عصرها الرجال في مطارحات ومساجلات شعرية تنم على نظرة للجسد الأنثوي المتعة المعرض به من طرفها ومن خصومها، كرمز للانطلاق عندهم، وكورقة رابحة عندها، ومن شعرها في هذا الاتجاه قولها:⁽⁴⁾

لله درّ الليالي ما أحسنها وما أحسن منها ليلة الأحد

¹ الإدريسي، نزهة المشتاق، 104/1-105. محمد ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص90.

² الضبي، المصدر السابق، ص733. ابن بسام، المصدر السابق، 429/1/2-430. المقرئ، المصدر السابق، 205/4-206. كرزاز فوزية، المرجع السابق، ص64.

³ ابن بسام، المصدر السابق، 431/1/1. السيوطي، نزهة، ص88. المقرئ، المصدر السابق، 205/4. عمر قلعي، المرجع السابق، ص372. حياة قارة، المرجع السابق، ص82.

⁴ ابن الأبار، المقتضب، ص217. المقرئ، نفسه، 298/4. عمر قلعي، نفسه، ص369. كرزاز فوزية، المرجع السابق، ص64.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

لو كنت حاضرا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى في ساعدي قمر بل ريم خازمة في ساعدي أسد

وهذا منتهى المرأة في تصوير الرغبة الجسدية التي لم تتوان نزهون في إيضاحها، وحسن تشبيه المفاتن دون خجل أو وجل، بل كانت مبادرة إلى طلب الوصال، وارتشاف متع الجسد.

وبلغت صورة الجسد الخطيئة مداها فيما يتعلق بموضوع البكارة، ونجد صدى ذلك في كثرة القضايا التي وردت بشأنها⁽¹⁾، ولئن كانت العفة مطلبا أساسيا يجب أن يتوفر في الرجل، فمن المنطقي أن ضرورتها في المرأة أكبر وأؤكد، لأنها ارتبطت في مخيال مجتمع الغرب الإسلامي بالعفة والطهارة.

ولاغرو أن رمز الخطيئة يصبح أكثر نضوجا لما يصبح جسدها بضاعة تتاجر بها وتمنحها لمن يعطي أكثر، وحسبنا في ذلك ما تلقفته الأمثال الشعبية بتهكم وازدراء، فنعتوها بأقبح الأوصاف⁽²⁾، خاصة أنهن يقمن بحركات وإيماءات جسدية، يطعمنها بارتداء ملابس ضيقة أو شفافة سهلة الخلع لا تغطي إلا أجزاء محدودة من جسمها زيادة في الفتنة والإغراء⁽³⁾، فينأى بذلك الجسد الخطيئة هنا عن الافتضاض خارج إطار ما هو مرسوم في النسق الأخلاقي المجتمعي.

5- الجارية⁽⁴⁾:

تجدر الإشارة أن النظرة للجارية تختلف حسب قيمتها لدى المجتمع وموقعها من التراتبية الاجتماعية، وما تتميز به من مواصفات جسدية ومواهب، ومدى احتياج الناس لها، بما تقوم به من دور داخل الأسرة وخارجها، لهذا فقد تبلور عند البعض رؤية دونية للحشيرة الفضولية، بأن تحرم من أدنى حقوقهم الاجتماعية،

¹ ابن سهل، 210/1. 218/1. 399/1. الشعبي، المصدر السابق، ص 399. ابن رشد، فتاوى، 1308/2-1309. 1320/2. ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 80. ابن سلمون، المصدر السابق، ص 175. الونشريسي، المصدر السابق، 82/3. 257/3-258. 266/3. البرزلي، المصدر السابق، 201/2-202.

² قيل فيهن "... شرشر، طلب وحد تجد عشر" الزجاجي، المصدر السابق، 419/2. وفي نفس المعنى قولهم: "النجبر الخرجير بصاطل". ابن عاصم، المصدر السابق، ص 282.

³ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 50. السقطي، المصدر السابق، 49. المقرئ، المصدر السابق، 232/3-233. الحسن الوزان، المصدر السابق، 232/1. الطاهر أحمد مكي، دراسات، ص 50-51. محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص 319. هنري بيرس، المرجع السابق، ص 342-344. ليوبولدو طريس بالباس، التاريخ الحضري، ص 305. محمد ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص 78.

⁴ مع أن الكثير من صورها قد عولجت في الفصول السابقة، لذلك أسقطت هنا لكي لا يقع الموضوع في الاجترار، إلا أن هناك صورا منفردة لم تعالج سابقا كان لزاما التعرّيج عليها.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

كالتزاو والتعازي، بل كان هذا الفعل في نظر العديد تطاولا منهن⁽¹⁾، لذا لا يجدون حرجا في ضربهن المتكرر⁽²⁾، كما استخدموا في الأعمال المنزلية الدنيئة والمقززة⁽³⁾. وتظهر من زاوية أخرى صورة الجارية المجهضة، فقد دأب تجار الرقيق على إجبار رقيقهن على تناول بعض الأدوية لإسقاط الجنين في حال الحمل⁽⁴⁾. وكانت من منظور أسيادهن مرتعا للوطء والاستباحة، لا عليها فحسب، بل على ابتتها، رغم نهي الفقهاء عن ذلك⁽⁵⁾. ليتبلور في نسق آخر وجه الجارية المرادفة للعبدية عند الزهاد، فانعدامها في حياتهم حسب مترجمهم دليل وورع وزهد⁽⁶⁾.

في حين نضجت النظرة التشيئية للجارية في عملية ابتياعها في أسواق النخاسة، إذ كان من المؤلف من الرجل النظر للأمة قصد شرائها⁽⁷⁾، ووصل الأمر أنهن عرضة للكشف في حال العيب بعد التبايع⁽⁸⁾، ولهذا لا يستغرب حضور وجه الجارية المقايضة، فقد يخضعن أحيانا للمقايضة بأشياء بسيطة، تصل إلى حد استبدالها بالحبوب، وهذا ما يعبر بحق على النظرة التشيئية لهن واعتبارهن غرضا قابلا للتملك والتداول، من حق السيد-رجلا كان أو امرأة- التصرف فيه بيعا، أو هبة، أو إرثا، كما يحق له الاستئجار والمقايضة⁽⁹⁾، ويمكن التخمين أن الحالات هنا مرتبطة⁽¹⁰⁾ بفترات اشتداد وقع الحروب والأزمات والفتن وغلاء الأسعار، مما يضطر صاحبها إلى مقايضتها ولو بالحبوب.

¹ عبرت الأمثال عن ذلك بقولها: "فُضُولُ سَوْدٍ فِي خَبِيرٍ: مَشَتْ تَعَزَّى أُبَيْعَتْ فِي الْكَفَّانِ". الزجالي، المصدر السابق، 400/2. نادية لعشيري، ملامح من صورة المرأة، ص 82.

² البرزلي، المصدر السابق، 192/5.

³ يقول المثل: "عَفْرًا، خُذْ بَيْدَ سَيْدِكَ يَخْرًا"، الزجالي، المصدر السابق، 391/2.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، 236/4.

⁵ ابن الحاج، نوازل، 558/3.

⁶ ابن عبد الملك، المصدر السابق، 413/1. بنمليح، الرق، ص 395.

⁷ ابن الحاج، نوازل، 442-443/3.

⁸ نفسه، 448/3.

⁹ ابن رشد، فتاوى، 358/1. المراكشي، وثائق المرابطين، ص 298. الونشريسي، المصدر السابق، 67/6. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 264. رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص 189. علي أفرافار، المرجع السابق، ص 33.

¹⁰ لم تقتصر هذه النظرة التشيئية، وإن اختلفت المسوغات، على الجوازي من الدرجة الثانية، بل شملت حتى الجوازي من الدرجة الأولى، فقد كانت عند السلطة السياسية عصر الدراسة غرضا سهلا للانتقال من أمير إلى آخر داخلا في إطار الهدايا والمكافآت، فالعبادية حظية المعتضد ووالدة المعتمد، أهديت له من مجاهد العامري، وهذا يوسف بن تاشفين يهدي للمعتمد بن عباد جارية شاعرة نشأت بالمغرب. المقرئ، المصدر السابق، 276-275/4. سحر سالم عبد العزيز، بحوث، ص 77. إبراهيم حركات، المرجع السابق، 217/1. عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص 264. حياة فارة، المرجع السابق، ص 177-178. Latifa El Bouhsine, OP.cit, p77.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

وما شروط العقد والضوابط التي يتضمنه؛ من تخصيص نساء أمينات لذلك، وتحري حريتها من عدمه إلا دلالة على احترام إنسانيتها ورؤية للجارية المبيوعة المصانة⁽¹⁾، فقد يقول قائل أن الضوابط لم تراعي في الأساس وأنها لم تتجاوز الإطار الوعظي، بقدر ما بحثت عن إثبات حق الزيون الرجل أو المرأة، لكنها في المحصلة أوجدت رابطا إنسانيا قويا لم يكن معروفا ومتداولاً عصرئذ.

كما أن علاقات قوية قامت بين بعض الأسياد وجواربهم خارج إطار الزواج، تحيل على رؤية الجارية الفضلى، فقد أثنت بعض مظان الفترة بمواصفات بعض الإماء في وجدان أسيادهن، ويزداد الشناء جلاءً عندما يرتبط بمهمة تدبير شؤون الأبناء جريا على صورتها الحبية في البيوت المغربية والأندلسية⁽²⁾، ولعل المحاسن الجنسية عند الجواري قطب لهذا التفهم حتى عند السوداوات⁽³⁾.

ولعل من أوجه إعظام الجارية رثاؤها وتعدد صفاتها الحبية، ويكفي للتمثيل شعر ابن حمديس الذي تضمن أشكال ومعاني اللوعة والتفجع بفقدان جاريته التي ماتت غرقا فقال: ⁽⁴⁾

هلا وروضة ذاك الحسنِ ناضرة لا تلحظُ العينُ فيها ذابلاً زهرك

أما تارك البحرُ ذو التيار من حسدٍ لماً درى الدرُّ منه حاسداً نغرك

فهل يُعزى هذا الحنين إلى الندم على عدم إدراك قيمة الزوجة ومكانتها إلا بعد وفاتها، والشعور بعقدة التقصير نحوهم؛ وكرد للجميل وحفظا لماء الوجه توجهوها بهذه الأبيات، أم أن الأمر لم يتعد الوصف فقط، فهؤلاء وغيرهم من الشعراء عاشوا في مجتمع يشيع في التعدد وينتشر فيه الجواري إلى حد بعيد.

كما أورد المعيار نص فتوى يحيل على نظرة متميزة من السيد لجاريته، إذ كان في سعي حثيث إلى مداواة مملوكته بارتياح أشهر الأطباء ولو كلفه ذلك أموالا كبيرة⁽⁵⁾، بل وجب تخصيص قدر معلوم من مصاريف الأكل والشرب والكسوة عليها⁽⁶⁾. في حين يسعى لمداواتها من جنونها بقصد الأولياء وبركاتهم⁽¹⁾، وهكذا فرغم أن

¹ السقطي، المصدر السابق، ص48. رواية عبد الحميد شافع، نفسه، ص184.

² السقطي، نفسه، ص50.

³ الصبحي بن منصور، المرجع السابق، ص82.

⁴ ديوان ابن حمديس، ص112.

⁵ النونشريسي، المصدر السابق، 319/8. محمد حقي، الموقف من المرض، ص107. إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث، ص165.

⁶ ابن الحاج، نوازل، 88/2.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

الجنون عيب ترد به الجارية، فان احتفاظ السيد بها وسعيه إلى عرضها على الشيخ الصوفي أملا في شفائها، يحمل دليلا على اهتمام السيد بالحالة الصحية لأمته. لتنتقل العلاقة السمحة إلى الحرائر والجواري، فتظهر صورة الجارية الصديقة، وحسبنا في ذلك ولادة مع الجارية مهجة، لدرجة أن ولادة تقوم على صديقتها الجيدة دون اعتبار لمسألة الرق وتأخذ بيدها في رياض العلم والمعرفة⁽²⁾، وترد الجارية بالمقابل بأبيات تنم عن الاحترام والتقدير والفضل⁽³⁾. بل كانت تقوم المرأة المعتقة أحيانا بتزويج مملوكتها التي أعتقتها⁽⁴⁾، مما يظهر الطرف الثاني من العلاقة بين الحرائر والجواري، ويرسم خطا للتكافل الاجتماعي، والأخذ بيد هذه الشريحة من لدن المرأة ذاتها.

6- المرأة المَغْتَصَبَة:

شهد الغرب الإسلامي طفو بعد المظاهر الاجتماعية السلبية التي كانت المرأة طرفا أساسيا فيها، من قبيل انتشار الاغتصاب، لا عند الأبيكار فحسب، بل حتى عند المحصنات، عاكسة بذلك مواقف متعددة اتجاه المرأة المَغْتَصَبَة، إذ كانت المرأة المَغْتَصَبَة تلقى كل عناية وتكريم، ولا أفضل من تساوي صداقتها مع صداق سائر النسوة العفيفات⁽⁵⁾، وهو ما ينم عن تفهم لبواطن النفسية النسائية إن ميزت في تقاليد وأعراف الزواج نتيجة وضعها الذي لم يكن لها دخل فيه. ويستمر انقشاع صورة الفتاة الضحية، والخطيب غير المتفهم والمتمسك بحقه في الليلة الأولى، رغم علمه بما حدث لها⁽⁶⁾. ويتخمر في جانب آخر موقف ملؤه الاحتقار والازدراء للمرأة الزانية المَغْتَصَبَة، لأنها لم تحفظ عرضها، فقد أقرت امرأة بحملها مرتين، وأنها قتلت ما ولدته، خوفا من العار وكلام المجتمع، ما حمل القاضي على رجمها⁽⁷⁾، ولابد أن اعتياد المرأة على الزنا والحمل المتكرر، وعدم حفظ بيتها وشرفها، وارتباط الأمر بالنسب والتوارث من ناحية ثالثة مفتاح لتفهم هذا الإجراء، مع أنه لا يمكن لوم المرأة وحدها على هذا الفعل الشنيع، فالرجل يحمل وزرا متزايدا عند كثرة مراودتها وتبعتها حتى وقعت في شباكه.

¹ العزبي، المصدر السابق، ص 50.

² ابن سعيد، المغرب، 143/1. المقرئ، المصدر السابق، 293/4. سعد بن عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 226.

³ ابن سعيد، نفسه. المقرئ، نفسه. السيوطي، نزهة الجلساء، ص 81.

⁴ ابن الحاج، نوازل، 442/3-443.

⁵ نفسه، 572/3.

⁶ نفسه، 456/3.

⁷ ابن رشد، فتاوى، 1394/3-1396. البرزلي، المصدر السابق، 34/4.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ويبدو أن تلك النظرة الدونية السابقة كانت حاضرة بقوة في مخيلة بعض الفقهاء وهم يناقشون مسألة المرأة المستغيثة التي تدعي على رجل اغتصبها دون دليل أو شهود، حيث دفعهم للفتوى بأنها تحد للزنا والقذف إن لم يكن المدعي عليه من أهل الشر والطغيان، حتى وإن جاءت تدمي أو ظهر بها الحمل وكانت من أهل الصون⁽¹⁾، فهل تركت مثل تلك الفتوى المجال مفتوحاً أمام الطامعين فيها للنيل من شرفها بعد أخذ الحيلة والجذر بشكل كامل؟.

ثم إن حالة الفقر والعوز والخصاصة عند بعض النسوة تجعلهن أكثر عرضة للاغتصاب والوقوع في الفاحشة، لتؤكد معها وجه المرأة الضحية، إذ ينظر بعض ضعاف القلوب إلى الموقف كفرصة لتحقيق مآربه، حيث ترد نازلة تتعلق بإمرأة فقيرة ألجأها الاحتياج وضيق ذات اليد إلى العمل كأجيرة عند رجل، استغل هذا الظرف وبلغ به التدني وفقدان النخوة والرجولة "أن غلبها على نفسها وأحبها فولدت"⁽²⁾.

أما إذا تعلق الأمر بالحرّة أو الأمة المغتصبة من طرف ذمي، فنلمح موقف متشدداً من القضاة والفقهاء المسلمين، يحيل على صورة المسلمة المصانة، "وما عقابه بجلده حتى الموت، أو قتله، أو صلبه، أو استرقاقه مع مصادرة أمواله" إلا تفهم لذلك⁽³⁾، ولا شك أن ذلك يدخل في باب نقض عهد الأمان، ويركن إلى احترام والاعتزاز بعرض المرأة المسلمة. ولم يقتصر الأمر على أهل الذمة، بل تعداه حتى إلى أعوان السلط، فقد وصل الأمر إلى حد القيام بتمرد سنة 513هـ/1119م في سبيل امرأة مغتصبة في عهد علي بن يوسف المرابطي، عندما امتدت يد جندي في جيش الوالي المرابطي في مدينة قرطبة على امرأة خرجت ضمن جمع من النساء يوم عيد الأضحى لحضور احتفالياته، فأثارت استغاثتها أهل قرطبة الذين وصل غضبهم لنهب دور المرابطين⁽⁴⁾، ولا شك أن مكانة المرأة وسوء فعل الجندي؛ والذي يبدو أنه كان كاسراً لأعراف المجتمع القرطبي، دور بارز في سوء العلاقات.

¹ القاضي عياض، المصدر السابق، ص 81-82. الونشريسي، المصدر السابق، 424/2 . 235/10.

² الونشريسي، نفسه، 132/3. المقرئ، المصدر السابق، 278/7.

³ القاضي عياض، المصدر السابق، ص 83. البرزلي، المصدر السابق، 184/6.

⁴ ابن الأثير، المصدر السابق، 187-188. النويري، المصدر السابق، 151/24. مؤلف مجهول، الحل، ص 86. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 82/3-83.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

ومع أن اليهود عاشوا في كنف الدول الإسلامية التي تداولت على منطقة الغرب الإسلامي، ورعت حقهم انطلاقاً من تعاليم الإسلام، لكنهم في كثير من الأحيان ينظرون لحقد وكره للإسلام والمسلمين⁽¹⁾، وتبلور هذا الحقد والاحتقار لغير اليهود في فتوى لأكبر علماء اليهود موسى بن ميمون ذو الأصل الأندلسي (ت601هـ/1204م)، تعكس نظرة المسلمة البهيمية حيث يقول: "إنَّ لليهود الحق في اغتصاب النساء غير المؤمنات، أي غير اليهوديات، فهنَّ في نظر التلمود وشراحه من الحاحامات كالبهائم، لأنَّهنَّ غير يهوديات"⁽²⁾، وهذا العداء الذي يقوم على أساس عنصري تفوقي، يظهر النفسية اليهودية التي تعادي القيم الإنسانية واحترام الآخر المختلف دينياً وعرقياً، وتظهر بواطن العقلية اليهودية التي لازالت في جزء كبير منها مستمرة إلى اليوم.

¹ ابن حزم، الرد على ابن النغرلي، ص46.

² خالد يونس عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص306-307.

الفصل الرابع.....صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي

وفي ختام هذا العرض يمكن القول صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي، كانت من أهم صور المرأة في الدراسة كلها، سواء في مؤسسة الأسرة، بما شكله الأم من ثوابت في أعين الآخرين، من قبيل الأم العظوفة، والمحترمة، والموقرة والمستشارة، مع بعض الحزازات التي لا تلغي ماسبق، لتبلغ البنت مسلمة كانت أو ذمية كل اهتمام، عطفًا على صورة البنت البارة العفيفة، في حياة والديها أو في غيابهما، مع تسرب مواقف توحى بعدم قبولها والتبرم منها، فتبرز بذلك صورة الموءودة، لا سيما في عالم الريف بخصوصياته الاقتصادية والاجتماعية والإدارية، في حين تباينت صور الأخت والقريبة بحسب موقعها من الثروة غالبًا، إذ رشح تمثل الأخت والقريبة السند المأكول همها في حال عوزها ومرضها، لتتقلب إلى صورة الجشعة المشككة في حال النزاعات بين أفراد العائلة.

ولأن الزوجة حرة أو أمة، كانت من الأكثر حضورًا في هذا الموضوع، أصبح تعدد صورها أمرًا طبيعيًا، فهي العذراء البهجة المنتظرة قبل البناء، لتتراوح أثناء البناء بين صورة الخصبة الولود، والوفية السند لزوجها في السراء والضراء، والحبيبة الطاهرة، إلى المتطلبة الوقحة، والجاهلة، والخائنة، وحتى المجرمة في جانب آخر، ونتيجة للأوصاف الأخيرة كان وجه المطلقة والأرملة حاضرا بكل ما يحمله من مواقف من المحيطين بها، فينضج وجه المرحب بها لدى عائلتها المتفهمة، بل زاد هذا التفهم عندهما بأن يعاد الارتباط بالمطلقة والأرملة مرة أخرى، ويبرز وجه المرأة النكدة المتخلص منها عند الزوج الفاد، وهنا قد يتبدى وجه المطلقة النادمة، إن كانت هي من تتحمل وزر طلاقها.

في حين ارتسمت صورة المرأة الشيطان المغوية، عند الأوساط الشعبية التي تسعى حسبهم لإذابة الرجل وإيقاعه في حبالها، عن طريق توظيف جسدها الأنثوي الذي يرمز للشهوة، وما بروز المساحقة إلا تبد لوجه الآثمة من خلال الاستغلال المغلوط للجسد الأنثوي، وتراوحت النظرة بين الاحتقار والعطف فيما يخص الجارية والمرأة المغتصبة.

الخاتمة

خاتمة:

وبعد، فمن خلال دراسة صورة المرأة في الغرب الإسلامي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين والتي استغرقت الفترة الممتدة بين (422-541هـ/1030-1146م) يمكن التوصل إلى مجموعة من النتائج والتوصيات يمكن حوصلتها فيما يأتي:

- تستمد صورة المرأة في عصر دول الطوائف أهميتها من حضورها في مختلف العامة، لشكّون بذلك معجما ثريا قل نظيره، ناجم أساسا عن البحث لإقامة ذلك التوازن بين متطلبات النص الديني وسلطة العرف، وبين مغريات ومتطلبات الواقع المعاش، ضمن نسق متحرك وغير مستقر لصورة المرأة ذاتها، والمؤطر ضمن تجاذبات ثنائية المقدس والمدنس.
- للحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فترة الدراسة تأثير كبير على بروز صور مختلفة للمرأة ومدى حضورها سلبا وإيجابا، فالمرأة كإنسان اجتماعي تؤثر وتتأثر بالتفاعلات التي تصيب المجتمع، مثلها مثل الرجل.
- يظهر أو يختفي تدخل المرأة في المجال السياسي والعسكري والإداري في فترة حكم ملوك الطوائف والمرابطين حسب قوة وشخصية السلطان القائم، ودرجة قرب المرأة من مصدر القرار، سواء أما، أو زوجة وأختا، أو حظية، ناهيك عن طموح المرأة ذاتها.
- كان الوعاء السياسي عصر الدراسة مدارا لنظرات متنوعة، تراوحت عموما بين وجه الأم المتنفذة التي تتدخل في كل صغيرة وكبيرة في السلطة، ناهيك عن المربية المستغلة في وجدان من قامت بتربيتهم من الملوك وقطاع ممتد من الشعب عصر بني زيري، لينحصر التفهم على المكانة عند الزوجة والحظية في دولة بني عباد، إلى الجاسوسة في إطار المصاهرات السياسية، والمهتوكة العرض المنكوبة عند بقية دول الطوائف، لينجلي عند المرابطين صورة الزوجة المستشارة المدبرة والمعينة السياسية في بدايات الدولة المرابطية عند زينب زوج يوسف بن تاشفين، في حين رصد موقف آخر ينحوا إلى السلبية عند نساء آخر عصر المرابطين، وتخلل هذا وذاك تمثلات الحيرة على الأسيرة، والاعتزاز بالمرأة المحاربة على الثغور، والفارسة المغوارة.

- تمدد العديد من الرؤى بين العدوتين الأندلسية والمغربية داخل الوعاء السياسي من قبيل الجارية الطموحة التي تتسلق نحو السلطة، إضافة إلى المأسورة الضحية والمضطهدة التعيسة في إطار التوسعات الداخلية والخارجية، والتي كانت من أكثر الصور تقاطعا بين المغرب والأندلس، لا عند الخاصة فحسب، بل وحتى العامة، ناهيك عن أهل الذمة.
- كان دخول المرأة في أطر الحركة الاقتصادية معبرا خلف انطباعات شتى ومتمددة من المهن النسوية المتعلقة بالخدمات الاجتماعية خارج إطار المنزل، تباينت بين الاحترام والتوقير المشروط على من قامت عليهم المرزعة والمربية والقابلة، المرتبط بعالم الطفولة المحبب عند المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، وليست الطاهية ببعيد على هذا التوصيف، في حين تخمر خط الخطوة الملفوف بنوع من العتاب في وجدان من قامت عليهم المشطة من النساء وبعض الرجال، أو الحيرة والشفقة المطعمة بنوع من الزجر على المتسولة المحتاجة.
- شكلت نظرة السلطة من المهن النسوية في المجال الترفيهي الموساتي مقياسا يمكن تعميمه على باقي الطبقات الأخرى، إذ استفادت منها أحيانا، وغضت الطرف عليها تارة أخرى، وواجهتها بقوة في حالات عدة.
- كانت المهن ذات الطابع الإنتاجي معبرا هاما لتتبع ورصد صورة المزارعة المكافحة في عالم البادية في المغرب والأندلس على السواء، والتاجرة الحذقة التي لا تتوانى أحيانا في استعمال جميع الوسائل لتحقيق الربح، وهو ما خلف ملمح الغشاشة، مع ما يخفيه هذا الحضور من أمارات الانزعاج والتوجس نتيجة مزاحمتها للآخر الرجل، لا عند المسلمات فحسب، بل حتى عند نساء أهل الذمة، ومقارنتها مع شقيقتها في المشرق، ليلعب الإلتقان وتفنن أنامل نسوة المغرب والأندلس، ناهيك عن إعالة العائلة، دورا محوريا في تبلور المرأة الماهرة الشغيلة في الصناعات النسيجية على اختلاف أنواعها، رغم تسرب نوع من الامتعاض نتيجة تدليس وغش بعض مرتدات هذه الوظيفة.
- رغم منظومة الصرامة والتضييق على جسد المرأة وكيونيتها في مجتمع الطوائف والمرابطين فلم يمنع ذلك من انخراطها في الحياة بكامل الحرية خارج كل العوائق التي تلقتها.
- صورة المرأة والنظرة إليها على تنوعها وامتدادها وليدة عوامل متنوعة، يلعب الدين المؤطر في الفقهاء مدعما بسلطة العرف دورا محوريا ونقطة ارتكاز أساسية في ظهورها أو أفولها، والذي يمثل استمرارا

لواقع موروث عن القرون السابقة ومستمر حتى عصرنا هذا، كجزء لا يتجزأ من ذهنية المجتمعات الشرقية، التي كانت ولا زالت تتعامل مع المرأة بكثير من الحساسية والحيطه والحذر والإدانة المسبقة، ناهيك عن المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

- لم تكن النساء بمعزل عن رياض الثقافة والمعرفة، لذا فقد تنوعت صورها في حقل التعلم والتربية، إذ ارتسم وسم المرأة الارستقراطية المحظوظة، مع وجه المتعلمة المثابرة في سبيل العلم، لتتعداها إلى وجه المعلمة المقتدرة المعترف بمكانتها من الرجال قبل النساء، ومن العلماء قبل العامة، رغم بعض التصورات المثبطة المبنوثة عند العامة.

- غلبة صورة الأديبة والفنانة المقتدرة في عصر الطوائف، رغم انطلاقها الزائد الذي خلف مواقف استنكارية عند الفقهاء وشرائع كبيرة من المجتمع، ومع ذلك فهي أكثر حضورا في هذا المعطى عند مقارنتها مع شقيقتها في المشرق، في حين انطبعت صورة متميزة ملؤها الاعتزاز والافتخار بالمرأة الفقيهة والصالحة نظير مساهماتها العلمية والخيرية الملموسة .

- شكلت مؤسسة الأسرة نفذا لرصد عدد من الانطباعات المتنوعة والممتدة بين العدوتين، كان منطلقها الأم بما ترمز إليه في أعين الآخرين، من قبيل الأم العطوفة، والمحترمة، والملجأ، والمستشارة، وما التسمي بمن إلا تمش مع كل ماسبق، إضافة إلى المتهاونة والضحية في مجال آخر، لتبلغ البنت مسلمة كانت أو ذمية كل اهتمام، رغم ما تسرب من مواقف توحى بعدم قبولها والتبرم منها، لتنتهي مع ثنائية الأخت والقريبة السند والمأكل همها، في مقابل صورة الجشعة المشككة في حال النزاعات بين أفراد العائلة.

- كانت الزوجة حرة أو أمة الأكثر حضورا في هذا الموضوع، فهي العذراء البهجة المنتظرة قبل البناء، لتتراوح أثناء البناء بين صورة الخصبة الولود، والوفية السند لزوجها في السراء والضراء، والحبيبة الطاهرة، إلى المتطلبة الوقحة، والجاهلة، والخائنة، وحتى المجرمة في جانب آخر، ليؤول بعد البناء في حال المطلقة أو الأرملة إلى المرحب بها لدى عائلتها المتفهمة، بل زاد هذا التفهم عندهما بأن يعاد الارتباط بالمطلقة والأرملة مرة أخرى، ويبرز وجه المرأة النكدة المتخلص منها عند الزوج الفاد، وهنا قد يتبدى وجه المطلقة النادمة، إن كانت هي من تتحمل وزر طلاقها.

- ارتباط الجسد الأنثوي في أعين بعض شرائح المجتمع في المغرب والأندلس مع الشهوة والغواية، في محاولة منها لإذابة الرجل وإيقاعه في حبائلها، عطفًا على صورة المرأة الشيطان، وما بروز المساحقة

إلا تبد لوجه الآثمة من خلال الاستغلال المغلوط للجسد الأنثوي، ناهيك عن بروز صورة المرأة المغتصبة الضحية، وتراوح النظرة نحو المرأة الكبيرة بين الاحتقار والتوقير، ونفس المعلم حملته الجارية.

أما أهم التوصيات:

- تقصي كتب التراث والمخطوطات الإسلامية وتحقيقها؛ لتتم الاستفادة منها في إبراز الجوانب المتعلقة بالجانب الاجتماعي، والنسوي بالخصوص، للوقوف على مختلف الصور المبثوثة حول المرأة في هذه المدونات.
- عمل سلسلة من الأبحاث على هذا النحو، من حيث أخذها لفترة زمنية تمثل وحدة سياسية واحدة، من أجل دراسة وتحليل مختلف صور المرأة.
- تشجيع ودفع طلبة ما بعد التدرج إلى معالجة المواضيع ذات الصلة بالمرأة وصورها على امتداد التاريخ الوسيط، ومن خلال مدونات بعينها، كالمدونة النوازية، والأدبية، والرحلية، والتراث اللامادي، مع الانفتاح على العلوم الأخرى ومناهجها والإفادة منها، كعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والفلكلور.
- الاهتمام بالأدب في مختلف ضروبه، والذي أورد صوراً متعددة للمرأة، عن طريق تحقيق بعض دواوين شعراء الفترة، أو جمعها من موارد أخرى، وتقريبها إلى دارسي التاريخ، عن طريق عمل حلقات دراسية تحلي العلاقة الأساسية بين الأدب والتاريخ.
- عمل مؤائد مستديرة وحلقات بحثية ومؤتمرات تقارب وضع وصور المرأة في العصور الوسطى الإسلامية وتقارنها بالعصر الحالي، لإيجاد أفضل السبل والميكانيزمات لتفهم المرأة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .
- تضمين بعض عناصر التراث النسوي للغرب الإسلامي من عادات وتقاليد وفلكلور في المناهج التربوية على مختلف الأطوار، لتقضي صورة المرأة في هذا المعطى بين الأمس واليوم، وتعزيز وربط إنسان اليوم بتاريخه وتراثه.
- توعية المرأة لخطورة اسهامها في تشويه صورتها من خلال استخدامها المتكرر للأمثال التي تحط من قدرها، بل وتكرس الوضع الدوني لها، ستصبح عدوة لذاتها بإعادة إنتاج دونيتها بالنسبة للرجل،

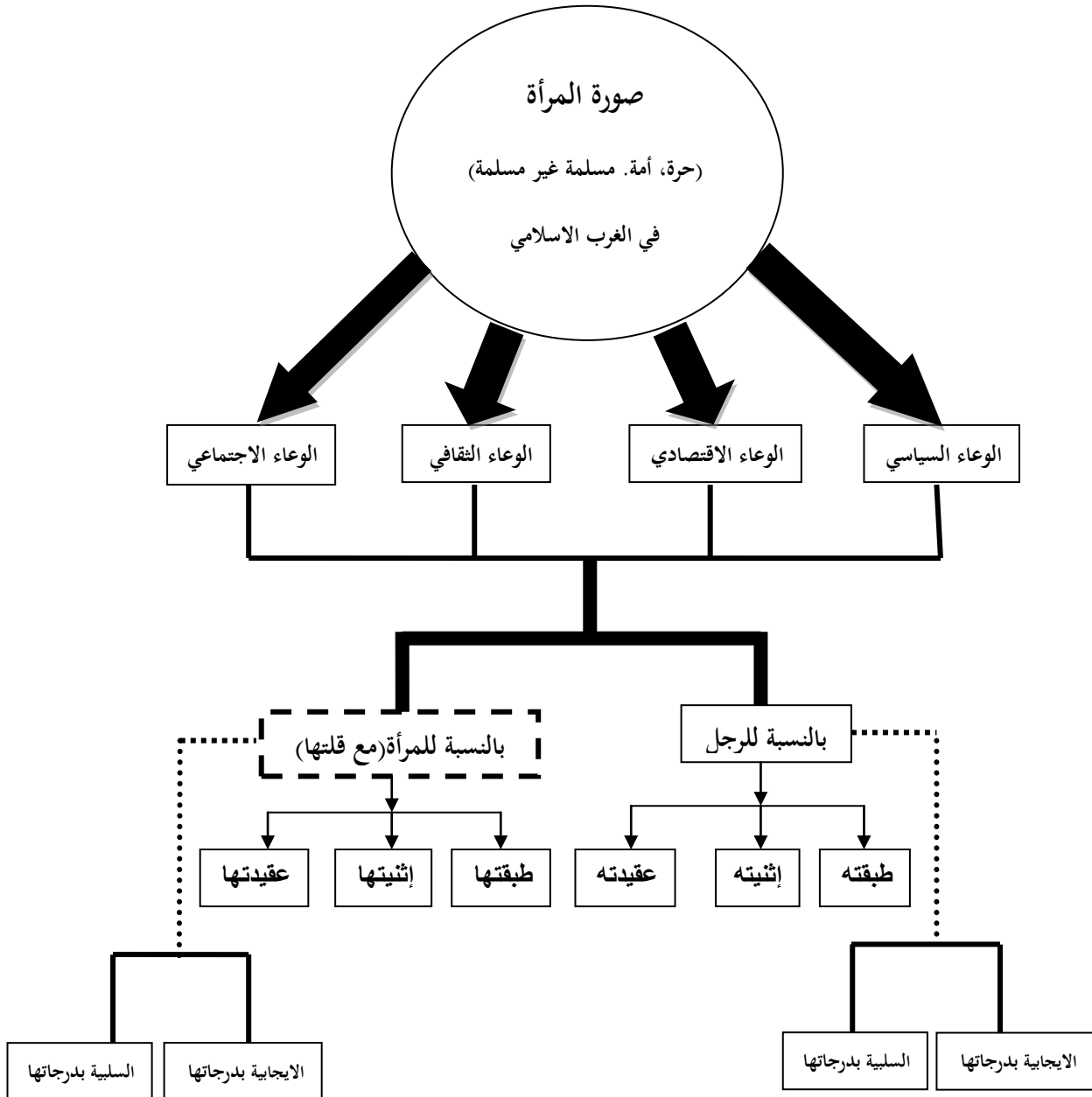
.....الخاتمة

على اعتبارها من أولى ناقلي هذه الثقافة في إطار التنشئة الاجتماعية، وفي ظل كم الخطابات الأخرى كالتلفزة التي زادت هذا المنحى .

الملاحق

الملحق رقم (01)

مخطط يبين الميكانيزمات العامة المشكلة لصورة المرأة



المصدر: معالجة الطالب

الملحق رقم (02)

امتداد دولة المرابطين في المغرب والأندلس



المصدر: شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 2005، ص 68.

الملحق رقم (03)

وثيقة في استعمال فكاك

" جعل فلان لفلان الفكاك ومن نعتة كذا وكذا دينارا مكن سكة كذا على أن يفتك له فلانا بن فلان المأسور في بلد كذا، فإن افتكه من يد مالكه وأخرجه إلى بلد المسلمين حيث يأمن على نفسه استوجب -فلان- جميع العدة المذكورة، وعليه فيما تولاه من ذلك إخلاص النية وبذل النصيحة".

المصدر: الجزيري، المصدر السابق، 340/2.

الملحق رقم (04)

مثلا عقد تحبیس لبننت

" بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب حبس صدقة معقب مبد مبتول عقده الحاج أبو عبد الله محمد بن خليفة (بن دحمون) في صحته وجواز أمره لابنته نجمة الصغيرة في حجره وولاية نظره ولمن يحدث للمحبس محمد بن خليفة من ولد ذكر أو أنثى على السواء والاعتدال في جميع الفندق الذي ببطليوس (من بقايا بني وزير) وبقرب الصباغين، حد (جميعه في القبلة خربة للفقيه أبي الاصبع بن دحيم، وفي الجوف فندق للمنبوذة ، وفي الشرق الطريق المسلوك عليه إلى السوق الأعظم حيث بابه ، وفي الغرب دار الحبس محمد المذكور) بقاعته ومدخله ومخرجه ومنافعه ومرافقه وحقوقه كلها الداخلة فيه والخارجة عنه، حبسا صدقة على ابنته نجم وعلى نجم وعلى جميع من يولد لهذا الحبس محمد بعد هذا التحبیس من ولد ذكر أو أنثى وعلى أعقاب الذکران منهم والإناث وأعقاب أعقابهم الذکران منهم والإناث ما تناسلوا وإن سفلوا "

المصدر: ابن الحاج، نوازل، 203/2.

الملحق رقم (05)

الإيصاء بالبت المزفوفة إلى بعلمها من الوالد

وجه ابن مجاهد عند زف ابنته إلى ابن صمادح برسالة جاء فيها: " وأُنْفِذَتِ الْهَدِيَّةُ الْمُقْتَضَاةُ مُحْفُوفَةً بِالْحَرَمِ
وَالْحَارَمِ، مَكْنُوفَةً بِالْكَرَائِمِ ثُمَّ بِالْأَعْلَامِ الْأَكَارِمِ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ فِي مَتَوَجَّهَاتِهَا وَمُنْقَلَبَاتِهَا الرَّعَايَةَ الْمَوْصُولَةَ بِكَ،
وَالْكَفَايَةَ الْمَعْهُودَةَ مِنْكَ، حَتَّى يَفِيَّ عَلَيْهَا ظُلُّكَ، وَيُؤَوِّثَهَا مَثْوَى الْحَفَايَةِ مَحْلُوكٌ، وَيَحْمِيهَا حَوْزُكَ وَمَكَانُكَ،
وَيُؤَوِّيْهَا عَزُّكَ وَسُلْطَانُكَ، ثُمَّ حَسْبِي عَلَيْهَا كَرَمُكَ وَكَنْفُكَ، وَخَلِيفَتِي عَلَيْهَا بَرُّكَ وَلُطْفُكَ، فَهِيَ الْآنَ مِلْكُكَ،
وَأَنْتَ الْكَرِيمُ الْمُسَجَّحُ، وَبِضَاعَةٌ مَتَجَرِّي مِنْكَ وَأَنْتَ الْمُرِيحُ الْمُنْجَحُ، فَإِنَّكَ -وَاللَّهُ يَبْقِيكَ وَيُعْلِيكَ، وَيَشْدُ
قَبْضَتَكَ عَلَى رِقَابِ أَمَانِيكَ وَأَرَاغِيكَ- ذَخْرُ الْأَبَدِ، وَعَتَادُ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْإِخْوَانِ وَالْوَلَدِ، وَعِنْدَكَ ثَمَرَةُ النَّفْسِ
وَفَلَذَةُ الْكَبِدِ، فَارْقُتْهَا عَنْ شِدَّةِ ضَنْانَةٍ، وَأَسْلَمْتُهَا بَعْدَ طَوْلِ صَيَانَةٍ، وَمَا زُفَّتْ إِلَّا إِلَى كَرِيمٍ يَحْمِلُهَا مَحْمَلُ الْأَمَانَةِ،
وَيَقْضِي فِيهَا حَقَّ الدِّيَانَةِ، وَيَرْعَى لَهَا انْقِطَاعَهَا عَنْ أَهْلِهَا، وَاغْتِرَابَهَا عَنْ مَلَأِهَا وَمَنْشَأِهَا، وَهُوَ حُكْمُ اللَّهِ
الْوَاجِبُ، وَقَدَرُهُ الْغَالِبُ، وَسُنَّتُهُ الْمَشْرُوعَةُ، وَمَشِيئَتُهُ الْمَتَّبَعَةُ "

المصدر: ابن بسام، الذخيرة، 3/127-128. ابن سعيد، المغرب، 2/402-403

الملحق رقم (06)

نحل الوالد لبناته

سئل أبو المطرف عمن نحل ابنتيه أرضا له في تاريخ كذا، وبقيت الأرض بأيديهما أعواما، ثم باعتهما وتداولتها الأملاك سنين كثيرة نحو الخمسين، ثم قام أبناء المنحولين بعقد مقتضاه: أن شهوده يعرفون الأرض المنحولة، وأنهم هم يزالوا يسمعون سماعا فاشيا مستفيضا من قديم الزمان على ألسنة العدول وغيرهم أنها محبسة من تحببس فلان الناحل المذكور على ابنتيه فلانة وفلانة، وعلى بنيتها وبني بنيتها ما تناسلوا، فإذا انقضوا رجعت حبسا على الفقراء والمساكين.

المصدر: الشعبي، الأحكام، ص 94. ابن بشتغير، نوازل، ص 235.

الملحق رقم (07)

عقد في سقوط العذرة

أشهد فلان الفلاني أنه كان من قضاء الله تعالى -وقدره على ابنته فلانة- البكر الصغيرة في حجره -أن سقطت من درج أو سلم أو دكان فسقطت عذرتها، فأشاع أبوها المذكور ذلك ليشيع ذلك ويفشوا عند الجيران، ويدفع عنها بذلك عار النازل الذي نزل بها، ولئلا يظن بها عند بلوغها غير ما حدث بها مما ذكر فيأثم الظان بها، وتلحقها هي من ذلك غضاضة. شهد.

المصدر: الجزيري، المقصد المحمود، 67/1.

الملحق رقم (08)

مسألة في مقدار نفقة الزوجة

" أجاب القاضي أبو عبد الله بن الحاج: المقدار الذي يلزم الرجل الموصوفة حاله من النفقة في الشهر على زوجته هو ربعان من دقيق قمح، وثمانان من الزيت، ونصف حمل من الحطب، وأربعة دراهم عن صرف، وهي في الأكل معه مأمورة وما في ذلك من التودد إليه "

المصدر: ابن الحاج، نوازل، 148/2.

الملحق رقم (09)

شاهدة قبر تعود لبداية العهد المرابطي في جزر البليار تخلد ذكرى وفاة امرأة مرابطية

بسم الله الرحمن الرحيم

توفيت زينب ابنة الحكم

رحمها الله والمسلمين أجمعين

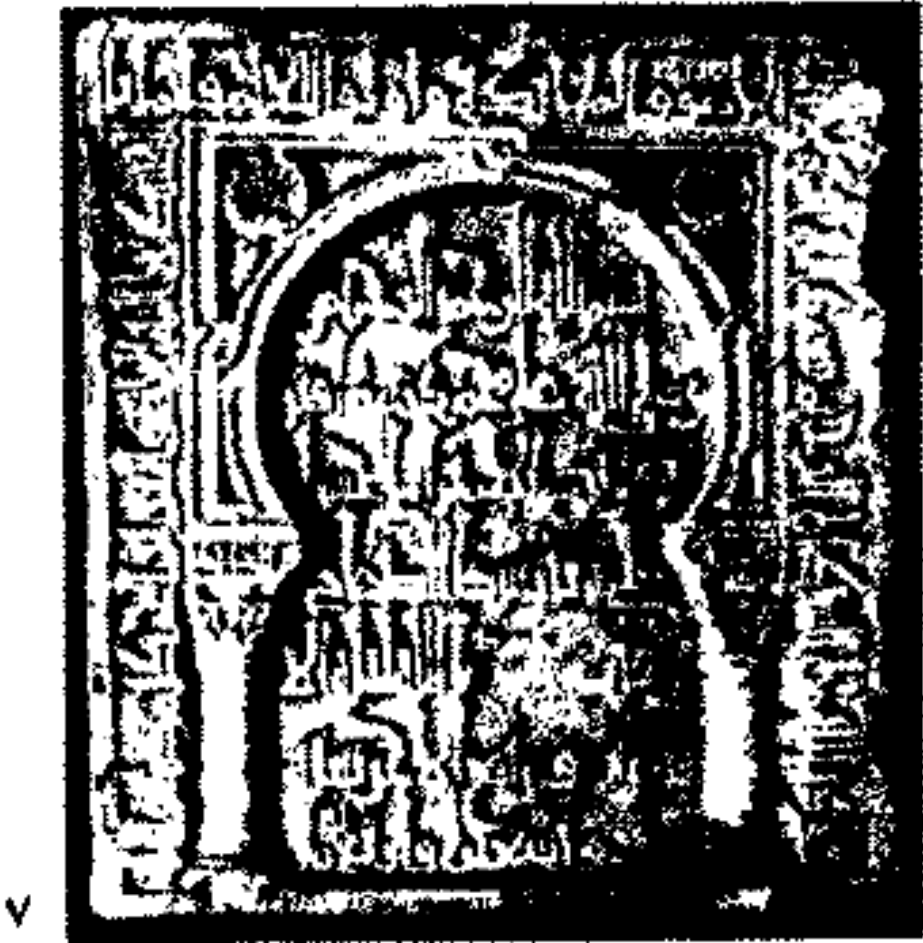
غداة الاربعاء لاثنا عشر خلون

من صفر سنة سبع عشرة وخمسمائة

المصدر: عصام سالم سيسالم، جزر الاندلس المنسية، ص568.

الملحق رقم (10)

شاهدة من ضريح الأميرة المرابطية بدر (496هـ/1103م)



المصدر: أنتونيو فرنانديز-بويرتاس، فن الخط العربي في الأندلس: ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مج2، ص917.

الملحق رقم (11)

الزوجة الوفية لزوجها المتوفى

"وكتب إليه -رضي الله عنه- الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين-أصلحه الله- من مدينة إشبيلية يسأله في يمين حلفت بها زوجه الحرة حواء بنت تاشفين-صاها الله- إثر موت زوجها الأول قبله. ونصها من أولها إلى آخر حرف منها . بسم الله الرحمن الرحيم، ما تقول- رضي الله عنك- في امرأة توفي عنها زوجها، وكان ساكنا معها في دار الإمارة بالبلد الذي توفي فيه، إذ كان أميرا فيه، فلما وضع في نعشه، وأخرج من دار الإمارة إلى قبره خرجت تتبع نعشه، فلما فرغ من دفنه وهي على شفير قبره قال لها قائل: قومي وارجعي إلى دارك، فقالت مجيبة له: إلى أي دار تعني؟ قال لها: إلى دارك المعروفة التي خرجت منها، فقالت: ثلث مالي على المساكين صدقة وصوم سنة يلزمني، ورققي أحرار لوجه الله لارجعت إلى تلك الدار أبدا، أين الوجوه التي كنت أعرف فيها، وأسكنها معهم؟".

المصدر: ابن رشد، فتاوى، 1223/2-1224.

الملحق رقم (12)

وثيقة بيع جارية من الدرجة الأولى

"هذا ما اشترى فلان بن فلان من فلان بن فلان اشترى منه جارية مملوكة إفريقية تسمى حين البيع كذا ونعتها نقية اللون سبطة الشعر سوداؤه شماء بلحاء عيناء أسيلة الخد كاعب حسنة القد ممتلئة الجسم بمائة دراهم بدخل أربعين من ضرب سكة كذا في تاريخ هذا الكتاب وتواضعا الجارية المنعوتة على يد فلانة بنت فلان لثقتها بها في استبرائها إلى أن تستبرئ إن شاء الله وأبرز المبتاع فلان جميع الثمن المذكور طيبة جياذا، وصار عند فلانة بنت فلان مع الجارية المنعوتة على سنة المسلمين في ابتياع عليه الرقيق شهد على إشهاد المتابعين فلان بن فلان وفلان بن فلان والموضوعة على يديها الجارية والثمن المذكور فلانة بنت فلان على أنفسهم بما ذكر عنهم في هذا الكتاب بعد إقرارهم بفهم جميعه من عرفهم وسمعه منهم وهم بحال الصحة وجواز الأمر بمحضر الجارية المنعوتة وعلى عينيها وإقرارها لبائعها بالرق إلى أن عقد فيها البيع المذكور وذلك في يوم كذا لكذا وكذا خلون من شهر كذا من سنة كذا"

المصدر: المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 338-339.

الملحق رقم (13)

أهم أقطاب الحركة الفكرية النسوية خلال القرن 5-6هـ/11-12م

الاسماء ، الكنى، الألقاب	الفترة التاريخية	المنطقة	مجال الاهتمام	المصدر
مریم بنت أبي يعقوب الأنصاري	كانت حية بعد 400هـ/1009م	شلب - إشبيلية	الأدب	الحميدي، المصدر السابق، ص 600. الضبي، المصدر السابق، 729/2- 730. ابن بشكوال، المصدر السابق، 325/2- 326. المقري، المصدر السابق، 291/4.
فاطمة بنت زكريا الكاتب	ت427هـ/1037م	الأندلس	الأدب - الخط	ابن بشكوال، المصدر السابق، 325/2.
ابنة فائز زوجة ابن عتاب	ت446هـ/1054م	قرطبة - بلنسية	الأدب - علوم الدين	ابن الأبار، التكملة، 233-232/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 426/5.
إشراق العروضية	ت450هـ/1058م	دانية - قرطبة - بلنسية	العروض - اللغة	ابن الأبار، التكملة، 232/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 410/5. المقري، المصدر السابق، 171/4.
ولادة بنت المستكفي	ت484هـ/1091م	قرطبة	الشعر	الضبي، المصدر السابق، 733/2. ابن بسام، المصدر السابق، 429/1/2. ابن بشكوال، المصدر السابق، 326/2- 327. المقري، المصدر السابق،

208/4				
ابن سعيد، المصدر السابق، 143/1. المقري، المصدر السابق، 293/4.	الشعر	قرطبة	ق5هـ/11م	مهجة بنت التياي
ابن بسم، المصدر السابق، 431/1/1. السيوطي، المصدر السابق، ص88. المقري، المصدر السابق، 205/4.	الشعر	قرطبة	ق5هـ/11م	عتبة جارية ولادة
ابن بسم، المصدر السابق، 112/1/3. 320/1/3.	الطب - الفلسفة - الهندسة - الموسيقى - الفلك	الأندلس	ق5هـ/11م	جواني المعلم أبي بكر عبد الله الكتاني
ديوان المعتمد، ص114. المقري، المصدر السابق، 211/4.	الشعر	إشبيلية	ق5هـ/11م	الرميكية زوجة المعتمد
ابن الأبار، التكملة، 233/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 429-428/5. المقري، المصدر السابق، 283/4.	الشعر - الأدب	دانية - إشبيلية	ق5هـ/11م	العبادية جارية المعتضد
الحميدي، المصدر السابق، ص601. الضبي، المصدر السابق، 730/2. ابن بشكوال، المصدر السابق، 326/2.	الشعر	الأندلس	ق5هـ/11م	الغسانية

غاية المنى	ق5هـ/11م	المريّة	الشعر	ابن الأبار، التكملة، 234/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 420/5. المقري، المصدر السابق، 286/4- 287.
ريحانة	ق5هـ/11م	الأندلس	الدراسات القرآنية- الخط	-الضي، المصدر السابق، 732 /2
أم شريح المقرئ	ق5هـ/11م	الأندلس	القراءات	ابن الأبار، التكملة، 236/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 427/5.
قسمونة بنت إسماعيل	ق5هـ/11م	الأندلس	الشعر والموشحات	السيوطي، المصدر السابق، ص74. المقري، المصدر السابق، 530/3.
بشينة بنت المعتمد	ق5هـ/11م	إشبيلية	الشعر	المقري، 284/4.
حمدة بنت زياد وأختها زينب	ق5هـ/11م	وادي آش	الشعر- الأدب - علوم الدين	ابن سعيد، المصدر السابق، 145/2. ابن الأبار، التكملة، 242/4. أبي جعفر الغزنائي، المصدر السابق، 456/3. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 415/5. السيوطي، المصدر السابق، ص46.

المقري، المصدر السابق، 287/4.				
ورقاء بنت ينتان	ت506هـ/1112م	طليطلة-فاس	الشعر-الخط	ابن بشكوال، المصدر السابق، 347/2. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 455/3. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 426/5.
طونة بنت عبد العزيز	ت506هـ/1112م	الأندلس	علوم الدين- الخط	ابن بشكوال، المصدر السابق، 327/2. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق ، 455/3.
نزهون بنت القلاعي	ت540هـ/1144م	غرناطة	الشعر- الموشحات	ابن الأبار، المصدر السابق، 239/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 425/5. المقري، المصدر السابق، 298-297/4.
مسعدة بنت أبي الحسين	ت بعد 570هـ/1174م	غرناطة	علوم الدين- الأدب	ابن الأبار، التكملة، 240/4. أبي جعفر الغرناطي، المصدر السابق، 460/3. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 424/5.
زينب بنت عباد بن سرحان	ت580هـ/1184م	شاذبة	علوم الدين	ابن الأبار، التكملة، 241/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 416/5.
أم هانئ أمة الرحمان بنت عبد الحق بن غالب	ق6هـ/12م	غرناطة	الشعر	ابن الأبار، التكملة، 239/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 406/5.

المقري، المصدر السابق، 292/4.				
ابن سعيد، المغرب، 38/2. السيوطي، المصدر السابق، ص27. المقري، المصدر السابق، 169/4.	الشعر	طليطلة	ق6هـ/12م	أم العلاء بنت يوسف الحجارية
ابن الأبار، التكملة، 240/4. ابن الأبار، المقتضب، ص218. المقري، المصدر السابق، 293-294/4.	الشعر	شاطبة	ق6هـ/12م	هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي
ابن الأبار، التكملة، 243/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 421/5.	الدراسات القرآنية- الخط	الأندلس	ق6هـ/12م	فاطمة بنت أبي علي الصدفي
ابن عبد الملك، المصدر السابق، 376/3.	القراءات	الأندلس	ق6هـ/12م	الحرّة تاج النساء بنت رستم
ابن عذارى، المصدر السابق، 57/4. ابن الأبار، التكملة، 236/4.	الشعر	فاس- مراكش	ق6هـ/12م	تميمة بنت يوسف بن تاشفين
ديوان الأعمى التطيلي، ص49- 50. ابن عذارى، المصدر السابق، 57/4. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 430/5.	الأدب	مراكش- اشبيلية	ق6هـ/12م	الحرّة حواء بنت تاشفين بن علي

مریم بنت إبراهيم بن تفلویت	ق6هـ/12م	الأندلس	علوم الدين- الشعر	ابن الأبار، التكملة، 236/4-237. ابن عبد الملك، المصدر السابق، 432/5.
-------------------------------	----------	---------	----------------------	---

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: المصادر.

- 1- ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658هـ/1260م)، التكملة لكتاب الصلة، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2011.
- 2- المقتضب من كتاب تحفة القادِم، تح إبراهيم الأبياري، ط3، دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت، 1989.
- 3- الحلة السراء، تح حسين مؤنس، د.ط، دار المعارف، القاهرة، 1985.
- 4- ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد (ت 630هـ/1233م)، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه، محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
- 5- النهاية في غريب الحديث والأثر، قدم له علي بن الحسن بن علي الحلبي، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 2000.
- 6- الإدريسي: أبو عبد الله (نحو 548هـ/1154م)، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بنشره وتصحيحه هنري بيرس، الجزائر، 1957.
- 7- المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، 1863.
- 8- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
- 9- الأصبهاني: عماد الدين الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر، تح آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد العروسي المطوي الجليلي الحاج بن يحيى ومحمد المرزوقي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986.
- 10- ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم (ت 677هـ/1278م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت، دت.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 11- ابن بتشغير: أحمد بن سعيد اللورقي المالكي (ت516هـ/)، دراسة وتحقيق وتعليق قطب الريسوني، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2008.
- 12- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت256هـ/872م)، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير، دمشق بيروت، 2002.
- 13- البرزلي: أبو القاسم بن أحمد (ت841هـ/1438م)، فتاوي البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2002.
- 14- ابن بسام: أبو الحسن علي الشنتريني (ت542هـ/1147م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997.
- 15- ابن بشكوال، كتاب الصلة ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي، تح شريف أبو العلا العدوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008.
- 16- ابن بطلان: المختار بن الحسن (ت458هـ/1066م)، رسالة في شري وتقليب العبيد، تح عبد السلام هارون، سلسلة نواذر المخطوطات، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1945.
- 17- البكري: أبو عبيد الله (ت487هـ/1094م)، المسالك والممالك، تح أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، 1992.
- 18- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الاسلامي ، القاهرة، دت.
- 19- البلوي: أبو الحجاج يوسف بن محمد (ت604هـ/1207م)، ألف باء في أنواع الآداب والمحاضرات وفنون اللغة، اعتنى به وضبطه وصححه خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، لبنان، 2009.
- 20- البيذق: أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1971.
- 21- المقتبس في كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 22- الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت 279هـ/892م)، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، ط1، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1962.
- 23- التطيلي: أبو جعفر أحمد بن عبد الله (ت 525هـ/1131م)، ديوان التطيلي، جمعه وحققه وشرحه محي الدين ديب، ط1، المؤسسة العربية للكتاب، لبنان، 2014.
- 24- التميمي الفاسي: أبو عبد الله محمد (ت 603 أو 604هـ/ 1207 أو 1208م)، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس ومايلها من البلاد، تح محمد الشريف، مطبعة طوب بريس، الرباط، 2002.
- 25- ابن تومرت: محمد بن عبد الله (ت 524هـ/1029م)، أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق عمار طالبي، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.
- 26- التيفاشي: شهاب الدين أحمد، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تح جمال جمعة، ط1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن قبرص، 1992.
- 27- الجرسيفي: عمر بن عثمان، الرسالة الثالثة من ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955.
- 28- ابن جليل: أبي داود سليمان بن حسان، طبقات الأطباء والحكماء، ويلي تاريخ الأطباء الفلاسفة لإسحاق بن حنين، تح فؤاد سيد، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.
- 29- ابن الحاج: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحاج التجيني القرطبي (ت 529هـ/1034م)، نوازل ابن الحاج التجيني، دراسة وتحقيق، أحمد شعيب اليوسفي، مطبعة تطوان، تطوان، 2018.
- 30- ابن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد البغدادي (ت 737هـ/1339م)، المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، دت.
- 31- أبو حامد الغزالي: محمد بن محمد بن أحمد (ت 505هـ/1111م)، إحياء علوم الدين، الدار المصرية اللبنانية، لبنان، دت.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 32- الحسن الوزان: الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983.
- 33- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد (ت456هـ/1064م)، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ج1، تح إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987.
- 34- ابن حمديس، عبد الجبار بن أبي بكر (ت527هـ/1133م)، ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دت.
- 35- الحميدي: أبو عبد الله محمد (ت488هـ/1095م)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2008.
- 36- الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.
- 37- ابن حيان: أبو مروان القرطبي (عاش ما بين 377-469هـ/987-1076م)، المقتبس، ج5، اعتنى بنشره ب. شالميطا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع ف. كورينطي و م. صبح وغيرهما، المعهد الاسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979.
- 38- ابن خاقان (أبي نصر الفتح بن محمد)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج1، حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1989.
- 39- ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت300هـ/913م)، المسالك والممالك ويلييه نبذة من كتاب الخراج، مطبعة بريل، ليدن، 1889.
- 40- الحشني: محمد بن الحارث (ت361هـ/971م)، أخبار الفقهاء والمحدثين، دراسة وتحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1991.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 41- ابن الخطيب: لسان الدين السلماني(ت776هـ/1374م)، الإحاطة بأخبار غرناطة، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان، دار المعارف، مصر، د.ت.
- 42- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام، تح ليفي بروفنسال، ط2، دار المكشوف، بيروت، 1956.
- 43- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983.
- 44- اللوحة البدرية في الدولة النصرية، تح محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347هـ.
- 45- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة، محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
- 46- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت.
- 47- ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم (ت533هـ/1137م)، ديوان ابن خفاجة، تح السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1960.
- 48- ابن خلدون: عبد الرحمان بن محمد(808هـ/1406م)، تاريخ ابن خلدون، ج6، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000.
- 49- مقدمة ابن خلدون، ج2، تح علي عبد الواحد وافي، ط7، دار نهضة مصر، مصر، 2014.
- 50- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت681هـ/1281م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج5، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977.
- 51- أبو الخير الاشيلي(القرن السادس الهجري-الثاني عشر الميلادي)، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ج2، تح محمد العربي الخطابي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1995.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 52- أبو داود: سليمان بن الأشعث الأزدي (ت275هـ/888م)، سنن أبي داود، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، دت.
- 53- ابن دحية: أبي الخطاب عمر بن الحسن (ت1235/633م)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبياري حامد عبد المجيد أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، دت.
- 54- ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد (ت520هـ/1126م)، فتاوى بن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن طاهر التليلي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987.
- 55- المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسم المدونة من الأحكام، ج1، مطبعة السعادة مصر، دار صادر بيروت، دت.
- 56- ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد (ت595هـ/1198م)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تح محمد صبحي حسن حلاق، ط1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1415هـ.
- 57- الضروري في السياسة مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، نقله من العبرية إلى العربية أحمد شحلان، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998.
- 58- الكليات في الطب، تح الجابري محمد عابد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.
- 59- الزجالي: أبو يحيى بن عبيد الله بن أحمد القرطبي (ت694هـ/1295م)، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المملكة المغربية، دت.
- 60- ابن أبي زرع: أبي الحسن علي بن عبد الله الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- 61- ابن زهر: أبو مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي (ت557هـ/1162م)، النشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو كتاب الأغذية، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
- 62- التسيير في المداواة والتدبير، تح ميشيل خوري، المنظمة العربية للتربية والتعليم، دمشق، 1983.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 63- الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر)، الجغرافية، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت.
- 64- ابن الزيات: أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت617هـ/1220م)، التشوف إلى رجال التصوف، تح أحمد التوفيق، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.
- 65- ابن زيدون: أبو الوليد أحمد بن عبد الله (ت463هـ/1070م)، ديوان ابن زيدون، شرح يوسف فرحات، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994.
- 66- ابن سعيد المغربي: أبو الحسن علي بن موسى (ت673هـ/1274م) كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه اسماعيل العربي، ط1، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970.
- 67- المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1993.
- 68- المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق سيد حنفي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1983.
- 69- السقطي: أبو عبد الله محمد بن أبي محمد، كتاب في آداب الحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، إرنست لاروا، باريس، دت.
- 70- ابن سلمون: أبو محمد عبد الله بن عبد الله (ت741هـ/1340م)، العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من العقود والأحكام، عناية وتعليق عبد الرحمان الشاغول، دار الافاق العربية، القاهرة، 2011.
- 71- ابن سهل: أبو الأصبع عيسى بن سهل (ت486هـ/1073م)، الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تح نورة محمد عبد العزيز التويجري، ط1، 1995، 217/1-218.
- 72- وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة، دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، 1980.
- 73- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ/1505م)، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تح عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، 1986.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 74- الشعبي: أبو المطرف عبد الرحمان بن قاسم المالقي (ت497هـ/1104م)، الأحكام، تح الصادق الحلوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1992.
- 75- الشيزري: عبد الرحمان بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، قام على نشره السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946.
- 76- ابن صاحب الصلاة: أبو مروان بن عبد الملك (ت594هـ/1198م)، المن بالإمامة، تح عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987.
- 77- الصومعي: أحمد بن أبي القاسم التادلي، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تح علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996.
- 78- الضبي: أحمد يحيى بن عميرة، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989.
- 79- الطرطوشي: أبو بكر محمد بن الوليد (ت530هـ/1135م)، كتاب الحوادث والبدع، ضبط نصه وعلق عليه علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1990.
- 80- ابن عاصم: أبو بكر محمد بن محمد الغرناطي، حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر، قرأه وعلق حواشيه وقدمه أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم، مطبعة دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة، 2009.
- 81- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي (ت328هـ/940م)، العقد الفريد، تح عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
- 82- ابن عبد الرؤوف: أحمد بن عبد الله، الرسالة الثانية من ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 83- عبد الله بن بلكين، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006.
- 84- عبد الله بن عساكر، وأبي بكر بن خميس، أعلام مالقة، تقديم وتعليق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، دار الأمان، الرباط، 1999.
- 85- ابن عبد الملك: أبي عبد الله محمد بن محمد (703هـ/1304م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، حققه وعلق عليه إحسان عباس محمد بن شريفة بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2012.
- 86- ابن عبدون: محمد بن أحمد التجيني، الرسالة الأولى من كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، اعتنى بتحقيقها ليفي برونسسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955.
- 87- ابن عذارى: أحمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار افريقية والمغرب، ج3، تح ج.س كولان وليفى برونسسال، دار الثقافة، بيروت، 1983.
- 88- العذري: أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تح عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، دت.
- 89- عريب بن سعيد: أبو الحسن الكاتب (366هـ/976م) تقويم قرطبة لسنة 961م، تحقيق دوزي، ليدن، بريل، 1961.
- 90- ابن العريف: أبو العباس (536هـ/1141م)، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة، جمعه أبو بكر عتيق بن مؤمن، دراسة وتحقيق عصمت عبد اللطيف دندش، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1993.
- 91- العزني (أبو العباس)، دعامة اليقين في زعامة المتقين، تح أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، دم، 1989.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 92- ابن العطار: محمد بن أحمد الأموي (399هـ/1009م)، كتاب الوثائق والسجلات، اعتنى بتحقيقه ونشره ب. شالميتا وف. كورينطي، المعهد العربي لاسباني للثقافة، مدريد، 1983.
- 93- العقباني: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التلمساني (ت871هـ/1467)، كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تح علي الشنوفي، نشرة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي، دمشق، 1967.
- 94- عياض: عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت544هـ/1050م)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح سعيد أحمد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1983.
- 95- عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1997.
- 96- ابن فرحون: برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم اليعمري المالكي (ت799هـ/1398م)، تبصرة الحكماء في أصول الأقضية ومناهج الحكماء، خرج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه الشيخ جمال مرعشلي، دار عالم الكتب، الرياض، 2003.
- 97- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، 1972.
- 98- القابسي: أبو الحسن علي بن محمد بن خلف، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، منشورة ضمن كتاب: التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، مصر، 1968.
- 99- ابن قزمان القرطبي (ت555هـ/1160م)، ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق وتصدير فيديريكو كورينتي، تقديم محمد علي مكّي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1995.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 100- ابن القطان: أبي محمد حسن بن علي المراكشي (منتصف القرن السابع الهجري)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكّي، ط2، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1990.
- 101- القلقشندي: أبو العباس أحمد (ت821هـ/1418م)، كتاب صبح الأعشى في صناعة الانشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915.
- 102- ابن قنفذ: أبو العباس أحمد القسنطيني (ت810هـ/1407م)، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي و أودلف فور، المنشورات الجامعية للبحث العلمي، كلية الآداب، الرباط، 1965.
- 103- ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ/1373م)، البداية والنهاية، البداية والنهاية، ج9، تح عبي شيري، ط1، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1988.
- 104- ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط، تح أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971.
- 105- المالكي: أبو بكر عبد الله بن محمد، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح بشير البكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.
- 106- مؤلف مجهول، كتاب الطبخ في المغرب والأندلسي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مجلد9-10، مدريد، 1961-1962.
- 107- مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه سهيل زكار عبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979.
- 108- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، 1986.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 109- المراكشي: محي الدين عبد الواحد (ت621هـ/1231م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وانشأ مقدمته محمد سعيد العريان ، محمد العربي العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949.
- 110- وثائق المرابطين والموحدين، تح حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 1997.
- 111- مسلم: أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ/875م)، صحيح مسلم، تح محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار الحديث، القاهرة، 1991.
- 112- المعتمد: محمد بن عباد (ت488هـ/1095م) ديوان المعتمد بن عباد، تح حامد عبد الحميد و أحمد أحمد بدوي، ط3، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000.
- 113- ابن مغيث: أحمد بن مغيث الطليطلي (ت459هـ/1066م)، المقنع في علم الشروط، وضع حواشيه ضحى الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
- 114- المقرئ: أحمد بن محمد (ت1041هـ/1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968.
- 115- النباهي: أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس أو المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تح لجنة إحياء التراث العربي، ط5، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.
- 116- النفزاوي: أبو عبد الله محمد بن محمد (النصف الأول من القرن9هـ/15م)، الروض العاطر في نزهة الخاطر، ضمن كتاب: الجنس عند العرب، ج1، ط3، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، 2007.
- 117- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1332م)، نهاية الإرب في فنون الأدب، تح عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
- 118- ابن هشام اللخمي: أبو عبد الله محمد (ت577هـ/1181م)، المدخل إلى تقويم اللسان، تح حاتم صالح الضامن، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2003.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 119- ابن ورد: أبي القاسم أحمد التميمي (ت540هـ/1146م)، أجوبة ابن ورد الأندلسي المسماة بالجابات الحسان عن السؤالات ذوات الأفنان، دراسة وتحقيق محمد الشريف، طوب بريس، الرباط، 2008.
- 120- الونشريسي: أبو العباس بن يحيى (ت914هـ/1508م)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، خرجة جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981.
- 121- أسنى المتاجر، تح حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1996.
- 122- ياقوت الحموي: شهاب الدين رأيي عبد الله (ت626هـ/1229م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.
- 123- يحيى بن عمر الأندلسي (ت289هـ/901م)، كتاب أحكام السوق، تح محمود علي مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 4، العدد 1-2، 1956.
- 124- اليزليتي: أحمد بن عبد الرحمان، مختصر فتاوى البرزلي، اعتنى به أبو الفضل الدمياطي، أحمد بن علي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء دار ابن حزم، بيروت، 2011.

ثانيا: المراجع.

أ- العربية:

- 1- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000.
- 2- إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا، رعاية الأيتام في الأندلس من الفتح الاسلامي حتى نهاية دولة المرابطين، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2005.
- 3- إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، ط1، سينا للنشر، مصر، 1995.
- 4- إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2002.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 5- الفكر السحري والعرافة بالأندلس والمغرب خلال العصر المرابطي، ضمن كتاب ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية تيارات الفكر في المغرب والأندلس الروافد والمعطيات، مطبعة دار النجاح، الدار البيضاء، 1993.
- 6- مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، دت.
- 7- المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع الذهنيات الأولياء، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1993.
- 8- أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس، ط1، اليمامة للنشر والتوزيع، دمشق بيروت، 2001.
- 9- أحمد مختار العبادي، صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000.
- 10- إسمت غنيم، المرأة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، ضمن كتاب دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، 1998.
- 11- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1978.
- 12- الجيلالي الغراي، دراسات في الثقافة الشعبية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013.
- 13- حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي مدخل الى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005.
- 14- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب الأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1980.
- 15- حسن قرني، المجتمع الريفي في الأندلس في عصر بني أمية، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012.
- 16- حسين مؤنس، الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، 1992.
- 17- حياة قارة، النساء في فضاء البحر الأبيض المتوسط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2011.
- 18- خالد بن عبد الله الشريف، مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها 892/422هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 2009.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 19- خالد يونس عبد العزيز الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، فلسطين، 2011.
- 20- خليل عبد الكريم، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ط1، سينا للنشر، القاهرة، 1990.
- 21- راوية عبد الحميد شافع، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة، ط1، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، مصر، 2006.
- 22- رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، دت.
- 23- رشيدة فؤاد، الحماية الأسرية والاجتماعية للمرأة اليهودية في نصوص اليهود الدينية المقدسة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، 2013.
- 24- الريسوني محمد المنتصر، الشعر النسوي في الأندلس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دت.
- 25- زهور أربوح، أوضاع المرأة بالمغرب الإسلامي من خلال نوازل المعيار للونشريسي، ط1، دار الأمان، الرباط، 2013.
- 26- سحر سالم عبد العزيز، بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.
- 27- سعد بن عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر الطوائف في الأندلس، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1992.
- 28- سعيد سيد أحمد أبو زيد، المقابر الإسلامية في مدينة قرطبة الأندلسية، ط1، مركز الصفا للطباعة، طنطا، 2008.
- 29- سلامة محمد سلمان الهرفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، دار الندوة الجديدة، بيروت، 1985.
- 30- سليمان القرشي، صورة المرأة في الشعر الأندلسي، منشورات دار التوحيد، الرباط، 2015.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 31- سهى بعيون، إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ط1، دار المعرفة، بيروت، 2008.
- 32- سناء الشعيري، المرأة في الأندلس، ط1، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، الرباط، 2009.
- 33- السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، عن دار شباب الجامعة، 1986.
- 34- السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1969.
- 35- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1984.
- 36- شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت.
- 37- الصحي بن منصور، المرأة والعلاقات الزوجية بإفريقية في العصر الوسيط، ط1، مجمع الأطرش لنشر وتوزيع الكتاب المختص، تونس، 2018.
- 38- صلاح خالص، صلاح خالص، اشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص92.
- 39- المعتمد بن عباد الإشبيلي دراسة أدبية تاريخية، مطابع دار الأخبار، بغداد، 1958.
- 40- الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، 1977.
- 41- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1980.
- 42- عبادة كحيل، تاريخ النصارى في الأندلس، ط1، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، 1993.
- 43- عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2004.
- 44- عبد السلام الجعماطي، دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 45- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.
- 46- عبد العزيز اللبيدي، تاريخ الجراحة عند العرب، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 1992.
- 47- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2، دد، 1960.
- 48- عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983.
- 49- عبد المنعم حامد الصوي، معالم الحضارة في الاندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1995.
- 50- عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، 1968.
- 51- عبد الوهاب عزام، المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع، دار المعارف، مصر، 1959.
- 52- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.
- 53- عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية التاريخ الاسلامي لجزر البليار، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.
- 54- عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.
- 55- أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1991.
- 56- علي أدهم، المعتمد بن عباد، مكتبة مصر، القاهرة، دت.
- 57- علي زيعور، العقلية الصوفية ونفسانية التصوف نحو الاتزانة إزاء الباطنية والأوليائية في الذات العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1979.
- 58- عمر قلعي، أغراض الشعر النسوي في الأندلس من عصر ملوك الطوائف إلى عصر المرابطين، ضمن كتاب: المرأة في الغرب الإسلامي الصفحات المشرقة والتحديات المحدقة والأسئلة العالقة، تنسيق وتقديم عبد الباسط المستعين، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2016.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 59- فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الاسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجري الموافق ل14-15 الميلادي، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011.
- 60- ابن القاضي: أحمد بن محمد المكناسي(1025هـ/1616م)، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1973.
- 61- كاظم شمهود طاهر، الشيعة في الأندلس الخلافة الحمودية العلوية، ط1، دار الكتاب العربي بغداد، مؤسسة الصفاء للمطبوعات، لبنان، 2010.
- 62- كرزاز فوزية، دور المرأة في الغرب الاسلامي من القرن الخامس إلى منتصف القرن السابع الهجري، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 2006.
- 63- كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الاندلس الاقتصادي في عصري دولتي المرابطين والموحدين، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، دت.
- 64- تاريخ مدينة بلنسية في العصر الإسلامي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، دت.
- 65- دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة، مركز الإسكندرية للكتاب، القاهرة، 1997.
- 66- مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.
- 67- محمد لطيف، الزواج والأسرة في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، ط1، طباعة ونشر سوس، أكادير، 2015.
- 68- محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، البصائر الجديدة، الجزائر، دت.
- 69- دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسية إلى مدينة العلم، دار الوعي، الجزائر، 2009.
- 70- مشاركة المرأة الأندلسية في الحياة الأدبية والعلمية في عهد المرابطين، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الغرب الاسلامي، دار التنوير، الجزائر، 2006.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 71- محمد بشير حسن راضي العامري، فصول في إبداعات الطب والصيدلة بالأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014.
- 72- محمد حقي، الموقف من المرض في المغرب والاندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانبال، بني ملال، 2007.
- 73- محمد سعيد الدغلي، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب الأندلسي، ط1، دار أسامة، الأردن، 1984.
- 74- محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982.
- 75- احمد بن عبود، التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع الشويخ، تطوان، 1983.
- 76- محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1966.
- 77- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الثاني دول الطوائف منذ قيامها حتى العصر المرابطي، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997.
- 78- محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 الى 9هـ/12-15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1999.
- 79- محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري، الدار التونسية للنشر، 1984.
- 80- وثائق الطب الإسلامي ووظيفته في معاونة القضاء في الأندلس، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى لابن سهل (أبو الاصبع عيسى)، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، 1982.
- 81- محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ج1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، طبع على نفقة حكومة الجمهورية العربية الليبية، دت.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 82- محمد محمود النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ط1، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1995.
- 83- محمد محمود النشار، دراسات في تاريخ اسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2007.
- 84- محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1990.
- 85- مريم قاسم طويل، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ط1، مكتبة الوحدة العربية ودار الكتب العلمية، الدار البيضاء بيروت، 1994.
- 86- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، 1975.
- 87- مصطفى نشاط، جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2006.
- 88- مليكة نجيب، المرأة في الرحلة السفارية المغربية خلال القرنين 18-19م، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2014.
- 89- نادية لعشيري، ملامح من صورة المرأة من خلال بعض مصادر الأدب الأندلسي، ضمن كتاب أعمال ندوة المرأة والكتابة، جمع عبد المجيد حجي وآخرون، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995.
- 90- الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد (1041هـ/1890م)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولتان المرابطية و الموحدية، تحقيق و تعليق محمد الناصري، جعفر الناصري، الدار البيضاء، 1954.
- 91- ندسم مرعشلي، المعتمد بن عباد، دار الكتاب العربي، دم، دت.
- 92- الهوني فرج محمد، تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، 1986.
- 93- يوسف عطا الطريفي، شعراء المغرب والأندلس، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2007.

ثبت المصادر والمراجع.....

94- يوسف عيد، الشعر الأندلسي وصدى النكبات، دار الفكر العربي، بيروت، 2002.

ب-المعربة:

95- أتينجر صموئيل، اليهود في البلدان الإسلامية، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، مجلة عالم المعرفة، الكويت، 1995.

96- ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح إلى اليوم، تر عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

97- إميليو غرسية غومس، الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، تر حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، 1956.

98- أنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تعريب حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

99- أوليفيا ريمي كونستابل، إسكان الغرب في العالم المتوسطي، تعريب وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة ياسين الصيد، ط1، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2013.

100- التجارة والتجار في الأندلس، تع فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، 2002.

101- إيلي مالكا، العوائد العتيقة اليهودية بالمغرب من المهد الى اللحد، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.

102- جواتين س.د، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تر عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980.

103- خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، تر الطاهر احمد مكّي، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994.

104- جوستاف لوبون، حضارة العرب، تر عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 105- حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، تاريخ ثقافة دين، تر أحمد شحلان أبو الغني أبو العزم، الدار البيضاء، 1987.
- 106- يهود المغرب والأندلس، ج2، تر أحمد شحلان، دار مرسوم، الرباط، 2000 .
- 107- رينهارت دوزي، المسلمون في الأندلس، تر حسن حبشي، د.ط، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.
- 108- سيديو.ل.أ، تاريخ العرب العام، تر محمد عادل زعيتو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1948.
- 109- طوالي عبد النور، الدين الطقوس والمتغيرات، تر وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، 1988.
- 110- طوالي نور الدين، في إشكالية المقدس، تر وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، 1988.
- 111- لويس أ.غيفين، أدب الحب وطوق الحمامة، ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مج1، تحرير سلمى الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.
- 112- ماريا .ج. فيغيرا، أصلح للمعاني عن المنزلة الاجتماعية لنساء الأندلس، ضمن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مج2، تحرير سلمى الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.
- 113- أنتونيو فرنانديز-بويرتاس، فن الخط العربي في الأندلس ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مج2، تحرير سلمى الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.
- 114- ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، تر السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مراجعة لطفي عبد البديع، مكتبة نخضة العرب، القاهرة، 1956.
- 115- ليوبولدو طريس بالباس، التاريخ الحضري للغرب الاسلامي، الحواضر الاندلسية، ج1، تر محمد يعلي، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، المغرب، 2007.
- 116- مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، تر لطفي عبد البديع، السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1995 .

ثبت المصادر والمراجع.....

- 117- ميخائيل أماري، المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، دت.
- 118- هنري بيرس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمه التوثيقية، تر الطاهر أحمد مكي، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1988.
- 119- يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996.

ثالثا: المجلات والدوريات.

- 1- إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين، مجلة مكناسة، العدد6، جامعة مولاي إسماعيل 1992.
- 2- إحسان عباس، أخبار الغناء والمغنيين في الأندلس (539/138هـ)، مجلة الأبحاث، العدد 16، ج1، الجامعة الأمريكية في بيروت، 1963.
- 3- الأهواني عبد العزيز، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللحي في لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج3، ج2، نوفمبر 1957.
- 4- خوليان ريبيرا، المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الإسلامية، تر جمال محمد محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، م4، ج1، 1958.
- 5- حسنة مازي، متغيرات الأنشطة الاقتصادية للمرأة المغربية في مرحلة الحماية الفرنسية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد71، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 2010.
- 6- الحسين اسكان، المرأة الصنهاجية، مجلة أمل، 13-14، السنة الخامسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.
- 7- الحسين بولقطيب، الحياة الاقتصادية للحلف القبلي المصمودي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، مجلة الاجتهاد، السنة الخامسة، العدد 18، دار الاجتهاد، بيروت، 1993.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 8- حسين مؤنس، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد3، العدد1، جامعة فؤاد الأول، 1950.
- 9- الخطابي محمد العربي، الطبيب ابن خلدون ومذهبه في تدبير الصحة وحفظها، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأول، 1994.
- 10- رشيد قطان، المرأة المغربية في أدب المناقب التشوف إلى رجال التصوف نموذجاً، مجلة أمل ، العدد13-14، السنة الخامسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.
- 11- عبد العزيز بن عبد الله، المرأة المراكشية في الحقل الفكري، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد6، العدد1-2، 1958.
- 12- عبد الله العمراني، الطب الأندلسي بين هفوة الإهمال وغفوة النسيان، مجلة دعوة الحق، العدد228، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 1983.
- 13- عبد الوهاب خليل الدباغ، التحدي الصليبي للوجود الاسلامي في سرقسطة الأندلسية(430-503هـ/1038-1110م)، مجلة كلية الدراسات العربية والإسلامية، العدد21، دبي، 2001.
- 14- لطفي عبد البديع، قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج1، ج2، جامعة الدول العربية، 1955.
- 15- محمد أحمد اشماعو، المرأة المغربية وضعية وتعاملاً من خلال بعض أمثالننا، مجلة أمل، العدد 13-14، السنة الخامسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.
- 16- محمد بن تاويت الطنجي، الطرائق والألحان الموسيقية في إفريقية والأندلس، مجلة الأبحاث اللبنانية، الجامعة الأمريكية في بيروت، السنة21، ج2-3-4، 1968.
- 17- محمد زنيبر، المرأة في المجتمع الأندلسي، مجلة المناهل، العدد 44، السنة التاسعة عشرة، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 1994.

ثبت المصادر والمراجع.....

- 18- أحمد بن عبيد، التأريخ والأزمات في الأندلس، قصة المعتمد بن عباد وابنه إسماعيل، مجلة البحث العلمي، العدد39، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1989.
- 19- محمد مفتاح، مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي، مجلة عالم الفكر، العدد1، وزارة الإعلام، الكويت، 1981.
- 20- محمد المنوني، ثقافة الصقلية، مجلة المناهل، العدد31، السنة11، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 1984.
- 21- محمود مكي، وثائق تاريخية جديدة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد7-8، 1959-1960.
- 22- محمد ياسر الهلالي، نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرن8-9هـ/14-15م مساهمة في تاريخ الذهنيات، مجلة أمل، العدد13-14، السنة الخامسة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.
- 23- هدى مفتاح السعدي، النساء ومهنة الطب في المجتمع الاسلامي، مجلة المؤرخ المصري، العدد22، جامعة القاهرة، 1999.
- 24- ودبعة طه النجم، أضواء على منزلة المرأة في العصر العباسي اجتماعيا وأديبا، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، وزارة الاعلام، الكويت، 1987.

رابعاً: الرسائل الجامعية.

- 1-البشير غانية، الأولياء والمجتمع في العصر الاسلامي عصر المرابطين والموحدين، أطروحة لنيل دكتوراه علوم في التاريخ الاسلامي الوسيط، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله، 2015-2016.
- 2- حميدي مليكة، الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الاسلامي إلى سقوط غرناطة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر2، 2013-2014.

ثبت المصادر والمراجع.....

3- المرأة المغربية في عهد المرابطين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي، إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر، 2001-2002.

4- فايز بن مرزوق بن بركي السلمي، المقصد المحمود في تلخيص العقود لأبي القاسم علي بن يحيى بن القاسم الجزيري (ت585هـ)، تحقيق ودراسة، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الفقه، إشراف محمد بن نبيل غنایم، جامعة أم القرى، مكة، 1421-1422هـ.

5- أحمد بوشريط، ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الاسلامي، إشراف محمد بن معمر، جامعة وهران، 2011-2012.

6- نبيلة عبد الشكور، إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية التاسع للهجرة، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، 2013.

7- وجدان حسن العزايزة، المرأة في العصر العباسي 447-656هـ/1055-1258م)، رسالة للحصول على درجة الماجستير في التاريخ، إشراف يوسف حسن غوانمة، جامعة اليرموك، الأردن، 1425هـ/2004م.

8- يحيى أبو المعاطي محمد عباسي، الملكيات الزراعية واثارها في المغرب والأندلس(238-488هـ/852-1095م)، اشراف طاهر راغب حسين، جامعة القاهرة، 2000.

خامسا: المراجع باللغة الأجنبية.

1-Antoine Rony-Gerome,la magie que sais je,3eme édition,presses universitaires de Frances,paris,1959.

2- Dufourcq ch.E, l'Espagne catalane et le Maghreb(1212-1331), puf, 1965.

3- Dufourcq C.E, la vie qoutidienne dans l'Europe médiévale sous domination Arabe, ed Hachette, paris.

- 4- Heers Jacques, esclaves et domestiques au moyen âge dans le monde méditerranéen, coll pluriel, éd Fayard ,Paris, 1981.
- 5- Goitein. SD, Letters of medieval Jewish traders, Princeton university press, Princeton, new jersey,1973.
- 6- Latifa El Bouhsine, Les Métiers féminins au Maroc Medieval En: Image de femmes regards de société, sous la direction de Fouzia RHissassi, coordination Khadija Amiti, Éd La croisée des chemins, Casablanca, 2005.
- 7- Levi provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t3,éd Maisonneuve, paris,1999.
- 8- inscriptions arabes d'Espagne, leiden,paris,1931.

سادسا: المجلات والدوريات باللغة الأجنبية.

- 1-Edmond Douттè, Note sur l'islame maghrébin, Revue de l'histoire des religions,N40,Année1899.
- 2- Jean Gaoby,le travaille de la laine a Tlemcen ,RA, V57,1913.

الفهارس العامة

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
النساء	﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾	34	1
النساء	﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾	03	9
المعارج	﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾	30-29	9
النور	﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	33	83
المجادلة	﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾	11	125
العلق	﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾	15	173
الأحزاب	﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾	35	174
البقرة	﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾	261	174
الزحرف	﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾	67	175
الأحزاب	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾	21	180
لقمان	﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾	14	188
الكهف	﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	46	188

208	36	﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾	النساء
211	10	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾	النساء
212	07	﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾	النساء
214	215	﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾	البقرة
239	34	﴿وَاللَّاتِي يَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾	النساء
252	14	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاخْذُرُوهُمْ﴾	التغابن

الصفحة	المصدر	الحديث
2	الترمذي	" لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"
10	أبو داود	" أن تطعمها إذ طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت" أو " اكتسبت " ولا تضرب الوجه ولا تمجر إلا في البيت "
99	مسلم	" من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"
117	أبو داود	" من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله له طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء"
188	البخاري	"مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دما، وأميطوا عنه الأذى"
192	أبو داود	" أملك، ثم أملك، ثم أملك، ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب"
217	أبو داود	"إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتأزجها؟ قال: لا ثم أتاه ثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم"
252	مسلم	" ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن"

- أ -

- ابن الأبار: ظ، 18، 19، 165
- إبراهيم بن عبد الصمد الصنهاجي: 167
- إبراهيم القادري بوتشيش: غ، 97
- أبو بكار المرواني الزاهد: 118
- أبو بكر بن عمر: 33، 34
- أحمد بن سليمان بن هود(المقتدر بالله): 35
- الإدريسي: ص، 193، 219، 259
- أبو إسحاق الأندلسي: 65، 78
- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: 135
- أبو اسحاق بن نحميس: 113
- أحمد بن دراج القسطلبي: 144
- أسماء بنت مجاهد العامري: 36
- إسماعيل ذي النون: 29
- إشراق السوداء: 129، 136، 155
- اعتماد الرميكية: ر، ش، 12، 17، 18، 19، 20، 21، 23، 155، 174، 195، 236، 237،

238

- ألفونسو السادس: 25، 26، 251
- ألفونسو المحارب: 52

- أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي: 162
- أم شريح المقرئ: 112، 120، 151
- أم العفاف نزهة بنت أبي الحسين: 139
- أم العلاء بنت يوسف الحجارية: 92، 131، 147، 224
- أم العلو: 9
- أم العز: 161
- أم الفتح فاطمة بنت أبي القاسم الشراط: 139
- أبو القاسم محمد بن علي ابن البراق: 121
- أم الكرم بنت المعتصم: 126، 143
- أنخل جنثالث بالثيا: ف
- أم هانئ بنت القاضي عبد الحق بن غالب: 132، 150، 181
- ب -
- بابا بتره: 197
- باديس بن حبوس: 2، 4، 5، 6، 7، 8، 10، 27، 68، 70، 190، 194
- بثينة بنت المعتمد: 24، 129، 147، 205
- البرزلي: ط، 96، 222، 254
- ابن بسام: ش
- ابن بشتغير: 112
- ابن بشكوال: ظ

- أبو بكر البكي: 119

- أبو بكر بن سعيد: 151

- أبو بكر بن عبد العزيز: 29 ، 180

- أبا بكر بن عمر: 41

- أبو بكر عياض بن بقي: 137

- أبو بكر الكتندي: 151

- أبي بكر المخزومي الأعمى: 151

- بلغيث محمد الأمين: خ

- بلقين بن باديس: 8،

- البليوشي البنا: 113

- بوطارن مبارك: ق

- البيدق: ش، 45، 145، 166

-ت-

- تاج النساء بنت رستم: 139

- تاشفين بن علي بن يوسف: 46، 169، 196

- تاشفين بن يغمر: 44

- تاماكونت بنت سير بن ورييل: 56

- التطليلي: ع، 112، 149، 193

- تميم بن بلكين: 7

- تميم بن يوسف: 45، 130، 149، 178، 249، 222

- تميم بنت يوسف بن تاشفين (أم طلحة): 132

- التيفاشي: 121

- ث -

- الشريا: 230، 244

- ج -

- الجرسيفي: ط

- الجزار (يحيى السرقسطي): 62

- الجزيري: ظ

- جعسوس: 96

- أبو جعفر القليعي: 11، 195

- جميلة بنت فرج: 113

- جود النصرانية: 35، 36

- جونثالث بالثيا: 113

- جوهرة: 237

- ح -

- ابن الحاج التجيني: ض

- ابن الحاج العبدري: 22، 72، 252

- حبوس بن ماكسن: 4

- ابن حزم: ع، 88، 135، 163، 175، 177، 182، 183
- حزم المعلم: 138،
- حسداي بن يوسف (أبو الفضل): 30، 176
- الحسن بن مجاهد: 36
- حسن الوزان: ض، 91، 97، 120
- الحسن بن يحيى بن علي: 28
- حسين مؤنس: ف
- الحسين بن محمد الصدي: 198
- حمدة (حمدونة) بنت زياد بن بقي العوفي المؤدب: ز، 133، 139، 153
- ابن حمديس: ع، 182، 191، 206، 216، 263
- حميدي مليكة: خ، ف
- الحميري: 92
- حواء بنت تاشفين: ر، ز، 35، 43، 44، 112، 148، 179، 222، 249
- ابن حيان: 20
- خ-
- ابن خاقان: ع، 39، 50
- خالد يونس عبد العزيز الخالدي: ف
- ابن الخطيب: ش، 71، 162، 232
- ابن خفاجة: ع، 35، 45، 258

- ابن خلدون:ص، 48، 49، 51، 61، 63، 96، 99، 130، 159، 226

- ابن خلوف: 43

-الخنساء:147،153

- خيران العامري: 143

- أبو الخير الاشبيلي: 101

-د-

- أبو داود بن نجاح: 130، 134

-ر-

- راوية عبد الحميد شافع: ح، غ

- ابن رزين: 111، 161، 172

- ابن رشد:ض، 2، 40، 52، 105، 117، 134، 168، 183

- ربحانة:ز، 128، 161، 172

-ز-

- زائدة(إيزابيللا): 25، 26، 220، 251

- الزجاجي: غ

- ابن أبي زرع: 165

- ابن الزيات:ظ، 98، 167، 181، 213

- ابن زيدون:ع، 30، 72، 90، 145، 146، 156، 192

- زينب بنت إبراهيم بن تفلويت: 158

.....فهرس الأعلام

- زينب بنت أبي عمر يوسف النمري: 176
- زينب ابنة عباد بن سرحان: 133،
- زينب النفزاوية: ر، ص، 40، 42، 43، 59، 101، 112، 119، 148، 222، 223، 231،
245، 269

-س-

- ابن سارة الشنتريني: 246
- سبيعة: 28
- سحر: 236
- السقطي: ط، 66، 111،
- سليمان بن نجاح: 155
- ابن سعيد: ظ
- سناء الشعيري: غ
- ابن سهل: ض
- سير بن أبي بكر: ر، 43، 196،
- سير بن علي: 46، 173

-ش-

- شانسو: 26، 220، 251
- أبي شجاع: 139
- شريح: 129، 137، 172

- أبو شعيب أيوب السارية: 44، 57، 168،

- الشعبي: ض

- الشكعة مصطفى: 156

- شكيب أرسلان: 113

-ص-

- صالح بن قرية: خ

- صفية بنت عبد الله الربى: 161

-ض-

- الضبي: ظ

- ضوء الصباح: 46، 196

-ط-

- الطرطوسي: 234

- طونة بنت عبد العزيز: ز، 111، 128، 137، 162، 172، 180،

-ظ-

- الظافر: 18

-ع-

- ابن عائشة: 195

- أبو عامر ينق: 157

-العبادية: 154

- أبو العباس السبتي: 65، 78، 119
- عبد الجبار بن المعتمد: 17
- ابن عبد الرؤوف: 61، 64،
- ابن عبد ربه: 102
- عبد الرحمان بن أسباط: 42
- عبد الرحمان بن غلبون: 129
- عبد العزيز السوسي الصوفي: 43، 199، 226
- عبد العزيز بن عبد الرحمان المنصور: 36
- عبد الله بن بلكين: س، 3، 4، 5، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 68، 195، 198
- أبو عبد الله بن عتاب: 130، 172
- أبو عبد الله محمد بن شريح: 129، 151، 172
- عبد الله بن مسلمة الشاطبي: 157
- عبد الله بن ياسين: 95، 165، 180، 219
- عبد المؤمن بن علي: 57
- ابن عبدوس: 30
- ابن عبدون: ط، 66، 76، 84، 87، 91
- عبيد الله بن عيسى بن حسون: 184، 209
- عتبة: 146، 156
- ابن عذارى: ش، 31،

- العذري الدلائي: 128

- ابن العسال: 32

- ابن العطار: ط

- العليا البنسفة: 132

- علي أفرفار: خ

- علي بن يوسف: ر، 46، 50، 51، 54، 57، 132، 149، 169، 204، 211، 213، 221،

226، 230، 237، 244، 265

- علي بن مجاهد: ر، 36، 180

- ابن عمار: 19، 20، 155، 236

- أبي عمر بن عبد البر المحدث: 172، 150

- أبي عمر عثمان بن سعيد المقرئ: 128

- عمر بن عبد المجيد بن خلف: 139

- أبي عمرو الداني المقرئ: 130،

- عبد الملك بن عبد العزيز: 23

- غ-

- غاية المنى: 154، 155

- ابن غانية: 195

- غوستاف لوبون: 109

- الغسانية: 125، 143

-ف-

- ابنة فائز القرطبية: 113، 151، 161

- فائز: 130، 172، 182

- ابن فاطمة: 195

- فاطمة بنت الحسن: 28

- فاطمة بوعمامة: ف

- فاطمة بنت زكريا المعروف الشبلاوي: 140، 157، 160، 178

- فاطمة بنت سير: 226

- فاطمة بنت عبد الرحمان بن محمد بن حيوة الوشقي: 117

- فاطمة بنت أبي علي الصدي: 134، 162، 172، 180

- فانو بنت ييتان: 58

- أبي الفتوح الكاتب: 10

- فرناند بروديل: ذ

- أبو الفضل حسداي بن يوسف: 37

- أبو الفوز: 28

-ق-

- القابسي: 127

- ابن القابلة: 65

- القاسم بن حمود: 21

- القاسم بن محمد بن سليمان الأنصاري: 139
- أبي القاسم بن مدير الخطيب المقرئ: 172، 180
- ابن القبطرنة: 235
- قسمنة بنت إسماعيل: 114، 131، 144، 202
- ابن قزمان: ع، 30، 82، 249، 252، 258
- قمر: ر، 46، 196، 230، 237، 244
- القنيطور: 35، 53، 54
- ك-
- ابن الكتاني: 127، 158، 161
- ابن الكردبوس: ش، 53
- ل-
- لطيفة البوحسين: ف
- ابن اللبانة: 94، 110، 250
- ليلي: 151
- م-
- ماكسن بن باديس: 6، 8، 9، 69، 194
- المؤمن بن هود: 19، 29، 180، 204
- المأمون بن ذي النون: 17، 30
- المأمون بن المعتمد: 26

- مجاهد العامري: 14، 35، 36، 126، 154، 193، 201
- محمد بن أحمد بن سيد الناس: 139
- محمد بن جهور: 24
- محمد بن حسان التاونتي: 139، 161، 182
- محمد بن إدريس المهدي: 29
- أبو محمد عبد الله بن عبد البر النمري: 169، 192
- محمد عبد الله عنان: ف
- محمد بن ميمون: 54
- المراكشي: ش، 28، 113، 129، 165
- ابن المرخي: 129، 148
- مريم بنت إبراهيم بن الطفيل المرادي: 141، 159، 161، 179
- مريم بنت أبي بكر بن تيفلويت: 35، 130، 149، 178
- مريم العذراء: 147، 177،
- مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري: 147، 177، 256
- مزدلي: 42
- المستعين بن المؤتمن: 29
- مسعدة بنت أبي الحسين: 133
- مصطفى نشاط: 48
- المظفر بن هود: 31

- المعتصم بالله بن صمادح: 126، 155، 194، 208
- المعتضد بن عباد: 5، 14، 15، 17، 18، 154،
- المعتمد بن عباد: ش، ع، 6، 9، 12، 13، 16، 17، 19، 20، 21، 22، 24، 25، 42
- 104، 120، 155، 156، 166، 174، 195، 205، 233، 236، 238، 244، 251
- ابن المغيث: ظ
- المقرئ: ص، 38، 165، 172، 205، 233
- المنصور بن الناصر الحمادي: 44
- منية بنت ميمون الدكالي: 181
- مهجة بنت التياي القرطبية: 137، 146، 264
- المهدي بن تومرت: ش، 48، 56، 73، 109، 112، 119، 202
- موسى بن ميمون: 266
- ميمونة: 161
- ن-
- أبي نصر بن أبي النور: 5
- نبيلة عبد الشكور: خ، ف
- نجاء الصقلي: 28
- نزهون بنت القلاعي: 116، 132، 150، 151، 152، 260
- نصر الدين الطوسي: 128

- هند: 157

- و -

- واضح العامري: 29

- ابن ورد: 74

- ورقاء بنت ينتان طليطلية: 130، 141، 149، 161

- ولادة بنت المستكفي: ع، 30، 137، 144، 146، 156، 260، 264

- الونشريسي: ط، 56، 206

- ي -

- يانتان بن عمر: 56

- يحيى بن إدريس: 28

- يحيى بن إسماعيل بن ذي النون، 37

- يحيى بن رواد: 50

- يحيى بن غانية: 248

- يحيى القاسم بن حمود: 28

- يحيى بن محمد التادلي: 248

- يدير بن حباسة: 10

- أبي يعزى يلنور: 182، 214، 241

- يوسف بن إسماعيل بن النرجيلة: 5، 6، 7، 8، 69، 194،

.....فهرس الأعلام

- يوسف بن تاشفين: 7، 11، 12، 20، 21، 22، 24، 25، 35، 40، 41، 43، 44، 53، 59،
166، 169، 195، 221، 222، 245، 269

—أ—

— أراغون: 231،58

— أركي: 78

— إسبانيا: 231 ،162 ،127 ،110 ،58

— إشبيلية: ر،10،13،14،15،18،19،21،22،23،24،25،35،137،138 ،154 ،165 ،

174،177،205،226،237

— أصيلا: 97

— أغمات: 23،24،77،120،122،156

— إفراغة: 51

— إفريقيا: 138

— إقليش: 54

— ألبيرة: 100

— الأندلس: ب،ح، ش، ع، غ، ف،2،3، 11،12،21، 23،25،26، 34،37، 38، 39،46،

50،53،55،56،57،58،67،69،72،77،80،83،84،88،95،111،123،126،128،

130،132،140، 144، 145، 146،147،153،161،162،164، 167،169،172،

174،182،195،198،204،231،252،271

— أودغست: 259،75

— أوربا: 116

— إيطاليا: 54

— ب —

.....فهرس الأماكن

- برشتر: 31، 32، 33، 35، 28، 148، 168

- برشانة: 80

- بلنسية: 29، 30، 35، 36، 53، 54، 130، 165، 204

- البليار: 36

- بوزريعة: ق

-ت-

- التكرور: 78

- تلمسان: 44، 122، 139، 182

- تينملل: 56

-ج-

- الجزائر الشرقية: 35، 171، 193

- الجزيرة الخضراء: 28، 42

- جليكس: 113

- جيان: 116،

-د-

- دانية: ر، 14، 35، 36، 130، 193، 204

-ر-

- الرباط، 116

- رجراجة: 117

.....فهرس الأماكن

- رندة: 3

- روما: 31

-ز-

- الزلاقة: 21

-س-

- سحلماسة: 165،117

- سردينيا: 35

- سرقسطة: 19، 29، 35، 37، 167، 204،

- سلا: 114،

- السوس: 77، 105، 122

-ش-

- شاطبة: 91

- شبه الجزيرة الأيبيرية: 32، 228

- شريش: 80

- شلب: 156، 177

-ص-

- صفاقس: 216

- صقلية: 54

-ط-

- طليطلة: 29، 37، 58، 113، 231

-غ-

- غانة: 78

- الغرب الإسلامي: ب، ت، ث، ج، ح، د، ز، 02، 30، 47، 48، 49، 59، 61، 62، 64، 65، 75،
76، 77، 78، 81، 86، 88، 89، 92، 98، 102، 104، 114، 115، 122، 125، 126، 128،
130، 132، 133، 140، 144، 156، 159، 160، 162، 163، 167، 172، 174، 176، 182،
189، 190، 194، 196، 197، 199، 200، 202، 203، 204، 215، 218، 221، 227، 228،
229، 230، 234، 241، 245، 246، 250، 254، 256، 259، 261، 264، 266، 272،

- غرناطة: ر، س، ف، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، 12، 27، 69، 150، 151، 190، 194،

198، 258

- غمارة: 81

-ف-

- فاس: 50، 77، 97، 161، 197، 213

-ق-

- قتندة: 55

- قرطبة: ح، غ، 11، 17، 18، 50، 111، 129، 138، 145، 159، 165، 171، 209، 238،

240، 249، 265

-قرمونية: 111،

- القسطنطينية: 31

- قشتالة: 25، 251

- قلعة بني حماد: 44

-ك-

- كونكة: 29

-ل-

- لاردة: 31

- لوشة: 38، 172، 173،

- ليون: 19، 251

-م-

- مالقة: 11، 28، 139،

- المدينة: 157

- مراكش: 42، 46، 56، 58، 118، 148،

- مرسية: 19، 186، 211

- المرية: 54، 100، 116، 143، 144، 150، 194

- المشرق: 116، 113، 130، 270

- مصر: 116، 130، 182

- المغرب: ب، خ، ش، ص، ع، غ، ف، 2، 12، 13، 20، 24، 39، 40، 42، 47، 67، 78، 88،

94، 95، 109، 111، 113، 116، 123، 138، 153، 163، 165، 167، 174، 182،

194، 223، 229، 239، 259، 271

- المغرب الأوسط: ب.

.....فهرس الأماكن

- مكة: 157

- مكناسة: 188، 213

- مورور: 27

- ميورقة: 113

-و-

- وادي آش: 100، 116، 133

-أ-

- أرمن: 198

- الإسبان: 20، 21، 97، 113

- أهل الحرب: 27، 34، 52، 183

- أهل الذمة: غ، 4، 5، 7، 37، 58، 113، 121، 123، 131، 144، 176، 194، 202، 234، 265،

270

- أهل الكتاب: 58، 207

- الأوروبيون: 116، 70، 100، 194

- الإفرنج: 55، 88، 116

- أندلسيين: 3، 5، 43، 150، 166، 234

-ب-

- البابوية: 31

- البربر: 3، 198

-ح-

- حزان: 75

- بنو حمود: ر، 28، 22

-خ-

- بني خرزون: 15،

-د-

- بني دمر: 27

-ذ-

-ذمي: غ، 4، 5

-ز-

-بني زيري: ر، س، 2، 3، 4، 5، 11، 59، 68، 190، 194، 269

-س-

-السودان: 27، 69، 75، 237، 259

-ص-

-صنهاجة: 8، 178، 199

-ط-

- الطوائف: ب، ت، خ، د، ر، ز، س، ش، غ، ف، 2، 3، 6، 11، 17، 19، 29، 31، 34، 35، 36،

42، 59، 61، 69، 123، 125، 131، 137، 140، 141، 142، 143، 144، 147، 155، 160،

161، 162، 163، 169، 193، 198، 204، 269، 270

-ع-

- بنو عباد: ر، 13، 14، 59، 174، 269

- العرب: 198

-ق-

- قومس: 27

-ك-

- بني كوثر: 178

- الكفار: 36، 180، 193، 204

-ل-

- لمتونة: 40، 41، 42، 47، 91، 148

-م-

- المؤرخون: 25، 54، 75، 80، 129

- المرابطون: ب، ت، ث، خ، د، ر، س، ص، غ، ف، 2، 12، 22، 23، 25، 26، 39، 40، 42،
47، 48، 50، 54، 55، 57، 58، 59، 61، 73، 77، 109، 111، 117، 122، 123، 125، 132،
139، 140، 141، 142، 148، 150، 156، 162، 166، 167، 169، 180، 195، 199، 210،
219، 237، 251، 253، 256، 269، 270

- المريدون: 57، 45

- المسلمون: ج، ف، 5، 31، 32، 34، 37، 50، 51، 53، 55، 56، 67، 83، 113، 131، 162، 169،
177، 183، 189، 197، 198، 203، 204، 234، 265، 270

- مسوفة: 47، 77، 91

- المشركون: 56، 193

- المصامدة: 71، 198، 226

- المثلثين: 24، 39، 50، 195

- الموحدون: ث، ر، ش، 47، 55، 58، 73، 117، 201

-ن-

.....فهرس القبائل والجماعات والأمم

النصرانية(نصارى):ب،9،27،31،32،33،34،37،46،47،49،51،54،55،113،127،168،

220 ، 198 ، 196 ، 183

198 - النوبة:

54 - النورمنديون:

-ي-

- اليهود: ر، ش، ف، 2،3، 4، 5، 33،58،64،63،83،89،113، 131،138، 188،201،

266،231، 229،228

	الإهداء
	شكر وتقدير
أ - ق	المقدمة
59 - 02	الفصل الأول: صورة المرأة في الوعاء السياسي
38 - 02	أولاً - ملوك الطوائف
13 - 02	1- في عهد بني زيري بغرناطة
10-03	أ- ما قبل عهد عبد الله بن بلكين
13-10	ب- عهد عبد الله بن بلكين
26 - 13	2- في عهد بني عباد باشبيلية
15-13	أ- ما قبل عهد المعتمد
26-16	ب- عهد المعتمد بن عباد
38 - 26	3- في دول الطوائف الأخرى
59 - 39	ثانياً - العصر المرابطي
48-39	1- داخل الأسرة الحاكمة
45-39	أ- في المراحل الأولى لقيام الدولة
48 - 45	ب- في مراحل متأخرة من الدولة
59 - 49	2- خارج نطاق الأسرة المرابطية
123 - 61	الفصل الثاني: صورة المرأة في الوعاء الاقتصادي
79-61	أولاً - مهن متعلقة بالخدمات الاجتماعية
66 - 61	1- القابلة
68 - 66	2- المرضعة

70 - 68	3- المربية
74 - 70	4- الماشطة
76-74	5- الطاهية
79 - 76	6- المتسولة
104 - 79	ثانيا- مهن ذات طابع ترفيهي موساقي
80 - 79	1- القوادة
95 - 80	2- العاهرة
101 - 95	3- العرافة
104 - 102	4- النائحة
123-104	ثالثا- مهن ذات طابع إنتاجي
108 - 104	1- الفلاحة والمزارعة
114-108	2- التاجرة
123 - 115	3- الناسجة والغازلة
185 - 125	الفصل الثالث: صورة المرأة في الوعي الثقافي والديني
139 - 125	أولا- في حقل التربية والتعليم
134 - 125	1- المتعلمة
139 - 134	2- المعلمة
169-140	ثانيا- في حقل الأدب والعلوم والفن
157 - 140	1- في مجال الأدب
153 - 140	أ- الحرائر

157-154	ب - الجواري
159-157	2- في مجال العلوم
169-159	3- الفنانة
162-159	أ- الخطاطة
169 - 162	ب-المغنية
185 - 170	ثالثا- النشاط الديني
173 - 170	1- الفقيهية
185 - 173	2- الصالحة المحسنة
267-188	الفصل الرابع: صورة المرأة في الوعاء الاجتماعي
216-188	أولا- في مؤسسة الأسرة
196 - 188	1- الأم
211-196	2- البنت
206-196	أ- في حياة الوالدين
199-196	1- في صغرها
206-199	2- في كبرها
211-207	ب- في غياب الوالدين(اليتيمة)
216-211	3- الأخت والقريبة
214-212	أ-الأخت
216-214	ب-القريبة
251-217	ثانيا- في مؤسسة الزواج
227 - 217	1- قبل البناء
244-227	2- أثناء البناء
242-227	أ- صورة الزوجة عند الرجل
244-243	ب- صورة الزوجة الجارية عند الحرة
244	ج- صورة الزوجة الجارية عند الجارية
251-245	3- ما بعد انقضاء البناء
249 - 245	أ- المطلقة
251 - 249	ب- الأرملة

..... فهرس المحتويات

266 - 251	ثالثا- صور متفرقة عن صورة المرأة في إطار العلاقات المجتمعية
253 - 251	1- المرأة المغوية
254 - 253	2- المرأة المساحقة - بين الحرمان والتطرف الجنسي -
256 - 255	3- المرأة الكبيرة
261 - 257	4- صورة الجسد الأنثوي -ثنائية المتعة والخطيئة-
264-261	5- الجارية
267-264	6- المرأة المغتصبة
273 - 269	الخاتمة
292 - 275	الملاحق
320 - 294	قائمة المصادر والمراجع
350-322	الفهارس العامة
323-322	أولا- فهرس الآيات القرآنية
324	ثانيا- فهرس الأحاديث النبوية
340-325	ثالثا- فهرس الأعلام
346-341	رابعا- فهرس الأماكن والبلدان
350-347	خامسا- فهرس القبائل والجماعات والأمم
354-351	فهرس المحتويات

الملخص

لعبت المرأة دورا هاما في بناء صرح الحضارة، لا على مستوى الأسرة فحسب، بل في كل مناحي الحياة، ولما كانت صورة المرأة في أعين قطاع من المجتمع ترتبط بدورها في الأسرة، دون مجالات الحياة الأخرى، والتي أخفت بموجبها معالم الصورة الحقيقية لها والمنعكسة من حضورها في الأدوار والفعاليات التي قامت بها المرأة في الغرب الاسلامي، وفي عصر دول الطوائف والمرابطين خصوصا، ولأن طرح المواضيع التاريخية ذات الصبغة الاجتماعية مطلب هام في الكتابة التاريخية، وموضوع يسترعي الانتباه في نفس الوقت، وقع الاختيار على هذه الدراسة المتواضعة الموسومة بـ "صورة المرأة في الغرب الاسلامي في عصر دول الطوائف والمرابطين (422-541هـ/1030-1146م)".

وكان الوعاء السياسي من أولى معابر تعدد وتنوع صور المرأة في عصري الطوائف والمرابطين، فبرزت الصورة والمضطهدة الضحية والمتدخلة في السلطة في كلا العدوتين، كما ارتسم وجه الأم والزوجة المتنفة المستشارة التي تتدخل في كل صغيرة وكبيرة في السلطة، ناهيك عن المرأة الفارسة، والباسوسة في إطار المصاهرات السياسية.

وشكل الوعاء الاقتصادي ملمحا لبروز انطباعات متنوعة وممتدة للمهن المتعلقة بالخدمات الاجتماعية، من قبيل تباين النظرات نحو القابلة والطاهية والماشطة، وحتى المتسولة، لتتراوح نظرات بين القبول والرفض للمهن النسوية في المجال الترفيهي الموساتي، كما كانت المهن ذات الطابع الإنتاجي منفذا آخر للصور النسوية، مع ما يخفيه هذا الحضور من أمارات الانزعاج والتوجس نتيجة مزاحمتها للآخر الرجل.

ويرتسم مع المعطى الثقافي الديني وجه المرأة المتعلمة المثابرة والمعلمة المقتدرة، رغم بعض التصورات المثبطة المبثوثة عند العامة، ومع الأدبية والفنانية تتخمر مواقف متعددة بتعدد النماذج ذاتها، في حين انطبعت صورة متميزة ملؤها الاعتزاز والافتخار بالمرأة الفقيهة والصالحة نظير مساهماتها العلمية والخيرية الملموسة.

وكانت صور المرأة في الوعاء الاجتماعي من أهم النماذج في الدراسة كلها، سواء في مؤسسة الأسرة، لتشكيل الزوجة حرة أو أمة، مدارا لتعدد وتنوع صورها قبل البناء أو أثناءه أو حتى بعده، في حين ارتسمت المرأة في حالات أخرى على نمط المرأة الشيطان المغوية عن طريق توظيف جسدها الأنثوي، والمساحقة الآثمة، ناهيك عن بروز صورة المرأة المعتصبة الضحية، وتراوحت النظرة نحو المرأة الكبيرة بين الاحتقار والتوقير، ونفس المعلم حملته الجارية.

The abstract

Woman played an important role in building the edifice of civilization, not only at the family level, but in all aspects of life, and the history of woman in Islamic one as well as the Islamic West in particular, whether she is a mother, sister, daughter or even beloved, in fact is organically linked to the history of men, and each of the two contributed in his own way in making his events.

Whereas the image of woman in the sight of a sector of society is linked to her role in the family, without other areas of life, under which they concealed the parameters of the real image of her and reflected from her presence in the roles and events carried out by woman in the Islamic West, and in the age of Sects and Almoravids in particular, and because the posing of historical themes of a social nature is an important requirement in historical writing, and a subject that attracts attention at the same time, the choice was chosen on this modest study which tagged "with the image of woman in the Islamic West in the age of Sects and Almoravids countries (422-541 AD /1030-1146 AD) "

The political receptacle was one of the first crossings of the multiplicity and diversity of the images of woman in the eras of Sects and Almoravids. The captive and oppressed victim and interfered in power emerged in both regions, and the face of the mother and influential counselor wife was also shaped, and who intervenes in every small and big point in power, Not to mention the heroine and spy woman in the context of political fights.

The economic receptacle was an indication of the emergence of diverse and extended impressions of careers related to social services, such as divergent attitudes towards the midwife, chef, comb, and even beggars. The views range from acceptance and rejection of feminist careers in the field of consoling entertainment, Professions of a productive nature were also an outlet to follow the image of the struggling farmer in the world of the desert, the clever trader in the eras of the Sects and Almoravids, and the skilled working woman in the textile industries of all kinds, with the concealment of this presence of signs of annoyance and apprehension as a result of her competition with the other (man.)

And with the religious cultural giver, the face of persevering educated woman and capable teacher is shaped, despite some discouraging perceptions broadcasted by the public, and with the writer and artist, multiple positions ferment with multiple models themselves, especially in the era of Sects, and this is what made some poets men and extended sector of society to recognize her poetic talent and her role in raising the culture of the Sects and Almoravids era, mainly in Andalusia. While others see her as an example of the reckless writer, who harmed literature and art more than served, whereas others had the impression of a distinct picture filled with pride towards the jurist and good woman for her concrete scientific and charitable contributions.

The images of woman in the social container were one of the most important models in the whole study either in the family institution, including the character of the compassionate mother, the righteous barefoot girl or the female infant buried alive in another stage, and the pictures of the sister and relative who are worried about , and even the problem of the greedy in order for a free or slave wife to form an orbit for the multiplicity and diversity of her images before construction, during or even beyond it. In other cases, the woman was modeled as the devil-seduced woman's style by employing her female body and sinful humiliation, not to mention the emergence of the image of woman as the victimized raped one, and the perception towards the old woman ranged from contempt and reverence, and the same thing was carried by the slave.